تاريخ المصريين ١٦١



السَّيفُ والنَّارُ في السّودان

تأليف

سلاطين باشا

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٩

تصدر عن
الهيئة المصرية العامة للكتاب



السيف والنار في السودان

تأليف

سلاطين باشا

وتعريب جريدة البلاغ

مكتبة الحرية
ام درمان ـ السودان



١٩٩٩

الاخراج الفنى

محمود الجزار

تقـــديـم

يسرنى ان اقدم للقارىء العزيز هذا الكتاب المهم : « السيف والنار فى السودان » الذى كتبه سلاطين باشا ، وقامت بتعريبه جريدة البـــلاغ ، وطبعته مكتبة الحرية بأم درمان عام ١٩٣٠ ، وها هى الطبعة الثانية تصدر فى سلسلة « تاريخ المصريين » .

واهمية هذا الكتاب تنبع من انه وثيقة نادرة من اهم الوثائق التى نشرت عن الحوادث التاريخية التى جرت فى مصر والسودان فى فترة السيطرة المهدية على السودان ، وقد كتبه ضابط نمساوى هو سلاطين باشا الذى كان حاكما لدارفور عام ١٨٨٤ واعتقلته جيوش المهدى ، فادعى الاســـلام ، وفـــر الى الجيش المصرى واشترك معه فى استرداد دنقلة وأم درمان ، وظل موظفا فى خدمة حكومة السودان حتى عام ١٩١٤ حين نشبت الحرب العالمية الأولى ، فترك الخدمة وعاد الى النمسا ، وعندما عقدت الهـــدنة سنة ١٩١٨ انتدب عضوا فى بعثة مؤتمر الصلح فى باريس .

وقد تناول سلاطين باشا فى هذه المذكرات قصة الأحـــداث التى شاهدها بعينه وشارك فى صنعها منذ استدعـــاه الجنرال جوردون الى السودان للعمل فى خدمة الحكومة المصرية . فقـــد تحدث عن الثورة فى جنوبى دارفور و وحصار الابيض وسقوطها فى يد جيش المهدى ، وحملة هيكس باشا الفاشلة على كوردوفان ، وسقوط دارفور ، وحصار الخرطوم وسقوطها ، ثم حكم الخليفة

عبد الله ، وحملة الاحباش بقيادة الملك حنا ، وحملة ابن النجومى على مصر ، وهزيمته فى واقعة توشكا سنة ١٨٨٩ .

ويختتم سلاطين باشا كتابه بفصل خاص عن فراره من الأسر الذى قضى فيه ١٢ عاما ، وتقييمه للحكم المهدى ، مع تحليل بديع له انتهى فيه الى ان الفظائع التى ارتكبها الخليفة عبد الله المهدى واتباعه قضت على نحو ٧٥٪ من مجموع السكان فى السودان ، اما بالحرب ، واما بالجوع ، واما بالأمراض الوبائية ! أما الربع الباقى فلم يكن عند نهاية حكم المهدى أفضل حالا من الرقيق ! وهو ما جعل السودانيين يذكرون ليل نهار فضائل الحكم المصرى !

واملى ان يجد القارىء العزيز فى هذا الكتاب ما ينشد من فائدة ومتعة .

والله الموفق

رئيس التحرير

د. عبد العظيم رمضان

بسم الله الرحمن الرحيم

لما كان التاريخ لا يخفى وله الأهمية القصوى للأجيال القادمة لكى يهتدوا على ما كان عليه سلفهم آلينا على أنفسنا بطبع كتاب السيف والنار عندما استطعنا الحصول على النسخة الأصلية .

نسأل الله أن يكون عملنا هذا فيه خدمة للسودان الحبيب والله ولى التوفيق ..

مكتبة الحرية ام درمان

تمهيـــد

وعدنا فى التمهيد الذى وضعناه لكتاب « التساريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر » لمستر ويلفرد سكاون بلنت أن نصدر من بعده كتاب « السيف والنار فى السودان » لسلاطين باشا . وهذان الكتابان يعدان من المستندات التاريخية التى لا بد من الاطلاع عليها لمعرفة الحوادث التى تقلبت على مصر والسودان من خمسين سنة وهى الحوادث التى مازلنا نعانى نتائجها الى الآن .

فاليوم ها نحن نبرز كتاب « السيف والنار فى السودان » وفاء بذلك الوعد ورغبة فى أن تكون له الفائدة المرجوة فى خدمة تاريخ مصر الحديث .

وسلاطين باشا ، مؤلف هذا الكتاب ، هو ضابط نمساوى ولد سنة ١٨٥٧ م فى فينا وجاء الى مصر سنة ١٨٧٨ م ودخل فى خدمتها فعينه غوردون باشا حاكماً لدارفور سنة ١٨٨٤ ولكن لم يمض عليه فى منصبه هذا قليل حتى اعتقلته جيوش المهدى فبقى أسيراً يدّعى الاسلام والايمان بالمهدوية الى سنة ١٨٩٥ م وحينئذ فر الى الجيش المصرى واشترك معه فى استرداد دنقلة وأم درمان .

وبقى سلاطين باشا بعد ذلك موظفاً فى حكومة السودان بين سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩١٤ ثم أعلنت الحرب العالمية فترك الخدمة فى السودان وعاد الى النمسا ودخل فى خدمة الصليب الأحمر .

ولما عقدت الهدنة سنة ١٩١٨ انتدب عضواً فى بعثة الصلح فى باريس .

وقد نقل هذا الكتاب الى اللغة الانجليزية السر ونجت باشا الذى كان حاكماً للسودان ثم معتمداً لانجلترا فى مصر . وهذه الترجمة الانجليزية هى التى اعتمدنا عليها فى التعريب .

٢٦ يوليه ١٩٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الاول

تمهيـــد

فى يوليه سنة ١٨٧٨ عندما كنت ملازماً فى الاى ولى العهد رودلف عند حدود البوسنة تسلمت خطاباً من الجنرال غوردون يدعونى فيه أن اذهب الى السودان واشتغل فى خدمة الحكومة المصرية تحت ادارته ٠

وكنت فى سنة ١٨٧٤ قد سحت فى السودان عن طريق أسوان فذهبت الى كورسكو وبربر ووصلت الى الخرطوم فى شهر أكتوبر من تلك السنة وعرجت على جبال النوبة وبقيت مدة قصيرة فى دلين حيث كان مركز الرسالة الكاثوليكية النمسوية . ومن هنا خرجت فى اكتشاف جبال جولفان نايمة وجبال كاديرو ، وكنت أود ان أطيل بقائى فى هذه الأصقاع ولكن حال دون ذلك قيام عرب الحوازمة . ولما لم تكن لى مهمة سوى السياحة فان الحكومة طلبت عودتى الى

الأبيض عاصمة كردوفان . وكان قيام هؤلاء العرب ناتجـا من جباية الضرائب الفادحة التى فرضتها عليهم الحكومة . وقد أخمدت الحكومة هذه الحركة بسرعة ولكنى لهذه الظروف لم أر من الصواب الرجوع الى النوبة وعلى ذلك قررت السفر الى دارفور .

وفى ذلك الوقت كان حاكم السودان العام اسماعيل باشـا أيوب مقيماً فى الفاشر عاصمة دارفور وعندما بلغـت الكاجـه والقاطول وجدت ما خيب رجائى فان الحكومة نشرت منشوراً منعت فيه دخول الأجانب فى هذا القسم من السودان لأنه كان حديث العهد بالخضوع للحكومة وكان يخشى على حياة الأجانب فيه . فرجعت بلا توان الى الخرطوم حيث عرفت أمين باشـا (وكان فى ذلك الوقت الدكتور أمين) وكان قد أتى من مصر حديثاً فى صحبة من يدعى كارل فون جرم .

وكان الجنرال غوردون حاكماً عاماً لمديريات خط الاستواء وكان مقيماً فى لادو فكتبنا اليه نطلب منه أن يشير علينا بما يراه . وبعد شهرين جاءنا جوابه يدعونا الى زيارته ولكن فى هذا الوقت وافانى خطاب من أسرتى فى فينا وهم يحثوننى على الرجوع الى أوروبـا . وكنت أعـانى مرض الحـمى وكان لا يزال باقيـاً على سنة فى الخدمة العسكرية فقررت الرجوع والنزول على رأى افراد أسرتى .

أما الدكتور أمين فقد قبل دعوة غوردون وشرع فى السفـر الى الجنوب كما شرعت أنا فى السفر نحو الشمال . وقبل الافتراق رجوت أمين أن يذكرنى بالخير أمام غوردون وقد فعل . وكـان ايصاؤه بى لديه سبباً فى ذلك الخطاب الذى ذكرت أنى تسلمته وانا بالبوسنة بعد ذلك بثلاث سنوات .

وبعد وصول أمين منحه غوردون رتبة بك وعينه حاكماً لمدينة لادو . وعند سفر غوردون تعين حاكماً عاماً لمديريات خط الاستواء ، وبقى فى هذا المنصب الى سنة ١٨٨٩ حيث عين مستر ستانلى مكانه .

وعدت انا الى مصر من طريق صحراء بيوضه ثم دنقلة ووادى حلفا وبلغت النمسا حوالى سنة ١٨٧٥ .

وقد فرحت عندما تسلمت خطاب غوردون الذى وصل الى ونحن فى حرب البوسنه واشتقت الى ان أعود الى السودان معيناً فى منصب ما . ولكن لم يؤذن لى بالسفر الا فى ديسمبر سنة ١٨٧٨ عندما انتهت الحرب وعادت فرقتى الى برنسبرج فأخذت فى التهيؤ مرة اخرى للسفر الى افريقيا .

وكان اخى هنرى فى الهرسك فقضيت ثمانية ايام فى فينا اودع افراد اسرتى ثم ذهبت الى تريستا فى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٧٨ وانا اجهل تماماً انه سيمضى على ١٧ سنة ارى فيها الاهوال والغرائب قبل ان ارى بلادى ثانياً . وكان عمرى اذ ذاك ٢٢ سنة .

ولما بلغت القاهرة تسلمت تلغرافاً من جيجلر باشا بالسويس وكان قد عين مديراً لمصلحة التلغرافات بالسودان وكان على وشك ان يسافر الى مصوع لكى يفتش على الخط بين هذه البلدة وبين الخرطوم . وقد دعانى الى السفر معه الى سواكن فقبلت بكل سرور الانتفاع بهذه الفرصة التى تكرم فأتاحها لى . وافترقنا فى سواكن فذهب هو على ظهر الباخرة الى مصوع وشرعت انا أهيىء نفسى للسفر الى بربر على الجمال . وقد عاوننى علاء الدين باشا الذى كان حاكماً فى ذلك الوقت والذى كان بعد ذلك فى صحبة

هكس باشا الذى قتل مع الجيش المصرى باجمعه عندما اصطدم به جيش المهدى فى شيكان فى نوفمبر سنة ١٨٨٣ .

ولما بلغت بربر وجدت فى انتظارى ذهبية بأمر الجنرال غوردون فنزلت اليها ووصلنا الى الخرطوم فى ١٥ يناير سنة ١٨٧٩ . وقد لقيت هنا احتراماً ورعاية اذ قد خصنى غوردون بدار ليست بعيدة عن القصر وأنفذ الىّ من يدعى على افندى لكى يقوم بقضاء ما أحتاج اليه . وكنت فى اجتماعى بالجنرال غوردون اسمعه يتحدث عن الضباط النمسويين الذين عرفهم فى طولطشة عندما كان فى بعثة الدانوب وكان يحفظ لهم فى قلبه أجمل ذكرى . واتذكر قوله لى : انه من الخطأ أن نغير ملابسنا البيضاء السابقة بملابسنا الزرقاء الراهنة .

وعيننى غوردون مفتشاً مالياً وطلب الى أن اقوم بالتفتيش فى البلاد وافحص شكايات السودانيين الذين كانوا يعارضون فى دفع الضرائب التى لم تكن تعتبر فادحة . واطاعة لهذه الأوامر قمت الى سنار وفازوغلى عن طريق المسلمية ، وعرجت على جبال قوتيلى ورجرج وكاشانكيرو القريبة من بنى شنغول ثم رفعت تقريرى الى الجنرال غوردون وأوضحت فى هذا التقرير أن الضرائب غير عادلة وان معظمها يقع على عاتق أصحاب الأملاك الصغيرة من الأرض . اما كبار الملاك فكان من السهل عليهم أن يرشوا الجباة بمبالغ صغيرة فينجوا من الضرائب الا ما قل منها . وعلى هذا كان مقدار كبير من الأرض لا تؤخذ عليه الضريبة بينما يقوم الفقراء بسد العجز ودفع ضرائب ثقيلة عن أملاكهم . وابنت فضلا عن هذا النظام السيىء أن الأهالى مستاءون من الطرق الجائرة التى يتبعها جباة الضرائب وجلهم من الجنود والباشبوزق والشايجية . ولم يكن هم هؤلاء الموظفين سوى الحصول على الثروة باسرع ما يمكنهم على

حساب السكان التعساء الذين كانوا يخضعون لسلطتهم الوحشية القاسية .

وكنت كثيراً ما أجد خلال أسفارى أن الأراضى التى يملكها الموظفون ومعظمهم من الاتراك والشايجية لا تجبى عليها ضرائب ما . وعندما كنت اسأل من علة ذلك كان يقال ان هذا امتياز للموظفين لما يقومون به من الخدمة للحكومة ، وقد كانوا يستاءون اشد الاستياء عندما اقول لهم انهم يتناولون اجراً على هذه الخدمة .

ولكنى عندما قبضت على البعض منهم اقروا جميعاً بانهم متأخرون فى دفع الضرائب . ووجدت فى المسلمية وهى بلدة تجارية كبيرة تقع بين النيلين الأبيض والأزرق جماعة من النساء فى سن الشباب وكان يملكهن أغنى التجار واكثرهم اعتباراً ويؤجرونهن للأغراض السافلة باجور عالية . وكان هذا العمل من التجارات الرابحة ووقعت فى حيرة لا ادرى كيف افرض الضرائب على هذه المنازل ، ولا اية خطة يجب اقرارها . وانى اعترف بأن تجاريبى الماضية ومعارفى قد خذلتنى فى هذا الموضوع . وشعرت عندئذ بعجزى التآم عن القيام باى اصلاح ، ولم يكن لى من الخبرة بالشئون المالية سوى القليل او العدم ، فلذلك وجدت من العبث أن أستمر فى عملى وقدمت استقالتى .

وكان غوردون قد سافر فى هذه الاثناء الى دارفور بخصوص البحث عن الحملة التى أرسلت لمقاتلة سليمان بن الزبير باشا . ولكنه قبل أن يسافر قد رقى جيجلر الى رتبة باشا وعينه حاكماً عاماً مدة غيابه . فانتهزت الفرصة وارسلت اليه مع البريد تقريرى واستقالتى وتسلمت بعد مدة قليلة تلغرافاً منه يوافق فيه على استقالتى من منصب المفتش المالى .

وقد ارتحت كثيرا الى تخلصى من هذا الواجب الكريه ، ولم أشعر بوخز الضمير لتركى هذا المنصب لأنى شعرت بعجزى التام عن معالجته اذ كان فاسداً من الرأس الى العقب .

وبعد ذلك بأيام تسلمت من غوردون تلغرافا عيننى فيه مديراً لداره ، وهى تحتوى على الجزء الجنوبى الغربى لدارفور ، وأمرنى بأن أقوم اليها فى الحال لأنه كان على أن أقود حملة عسكرية لمقاتلة السلطان هرون ابن السلطان السابق وكان يسعى للاستقلال ببلاده والخروج على الحكومة المصرية . وطلب منى غردون أيضا أن أوافيه حين رجوعه من سفره الى مكان بين الأبيض وطرة الحضرة على النيل الأبيض . فأرسلت جمالى الى هذا المكان حيث كانت باخرة غردون فى انتظاره ونزلت انا الى الباخرة التى سارت بنا الى طرة الحضرة حيث خرجت وركبته مدة ساعتين حتى بلغت محطة أبى جراد التلغرافية وعلمت من هناك أن غردون لا يبعد عنا سوى أربع ساعات أو خمس وأنه كان فى طريقه قاصداً بلوغ النيل . فركبت ثانياً وسرت ولم يمض على بضع ساعات حتى لقيته قاعداً فى ظل شجرة كبيرة وكان يبدو عليه التعب والاعياء ويشكو من تورم قدميه . وكان معى لحسن الحظ قليل من الكونياك أحضرته معى من الباخرة فانتعش منه واستعد لاستئناف السفر . وطلب منى أن أرجع معه الى الحضرة لكى نتباحث معاً فى مسألة دارفور ولكى يعطينى التعليمات الضرورية . وقد عرفنى الى شخصين من حاشيته وهما حسن باشا حلمى الجويزر الحاكم العام السابق لكردوفان ودارفور ويوسف باشا الشلالى وكان هذا آخر من انضم الى جيشى فى حملته لمقاتلة سليمان زبير والنخاسين . وامتطينا الدواب ولكن غوردون حث دابته حتى ما استطعنا أن ندركه . وبلغنا طرة الحضرة ووجدنا جمالنا التى تحمل أمتعتنا والتى كنا قد ارسلناها قبل قيامنا قد وصلت قبلنا . وأرست

الباخرة فى وسط النهر وعبرنا نحن الى البر فى قوارب . وكنت انا فى مؤخرة القارب ويليني يوسف باشا الشلالى ولما كنت انا عطشان وكان بجانبه كوز رجوته أن يملأه من النهر ويناولنيه حتى اشرب . ورأى غوردون ذلك فابتسم والتفت الى وقال لى بالفرنسية : « ألا تعرف أن يوسف باشا على الرغم من وجهه الأسود فى مركز أعلى من مركزك ؟ كان يجب الا تطلب منه أن يسقيك » فاعتذرت بالعربية الى يوسف باشا وقلت له انى طلبت منه الماء وانا غائب الذهن فأجابنى بانه مسرور لان يخدمنى .

ولما وصلنا نزلت أنا وغوردون فى الاسماعيلية ونزل يوسف باشا وحسن باشا فى الباخرة الثانية بردين . واخذ غوردون يشرح لى حالة دارفور شرحاً وافياً وقال لى : انه يرجو أن توفق الحملة فى الانتصار على السلطان هرون ، لأن البلاد مضى عليها مدة طويلة من الزمن وهى فى حروب وسفك دماء وانها لذلك فى اشد الحاجة الى السلام والراحة . واخبرنى ايضا ان حملة جسى الموجهة ضد سليمان زبير ستنتهى قريباً وانه لن يمضى عليه زمن طويل حتى يقتل او يهزم ، لأنه قد فقد معظم من عنده من البازنجر او حملة الاتواس وأنه من المحال أن يصمد أمام الخسائر التى اوقعها به جسى . وكانت الساعة فوق العاشرة عندما ودعنى غوردون . وكان قد امر باشعال النار لانه كان ينوى السفر الى الخرطوم وعندما سلمت وتنحيت قال لى :

« فلترافقك السلامة يا عزيزى سلاطين وليباركك الله . انى واثق بأنك ستعمل جهدك مهما كانت الظروف . وربما عدت انا الى انجلترا ولعلنا نتلاقى بعد » .

وكانت هذه الكلمات آخر ما سمعت منه ولكن من كان يمكنه أن يتصور ذلك القدر الذى كان مدخراً لكل منا ؟ وشكرته أنا لتلطفه ومعاونته وعندما بلغنا الشط انتظرت هناك حتى تقوم الباخرة ثم ما هى الا دقائق حتى سمعت ذلك الصفير الحاد ورفعت المرساة وتحركت الباخرة وولت ومعها غوردون وقد ذهب بعيداً عنى الى الأبد .

وفى صباح اليوم الثانى ركبت الجواد الذى أعطانيه غوردون وقد حملنى أربع سنوات بعد ذلك فذهبت الى أبو جراد ومنهـا سافرت الى أبو شوكه وخوصى ثم الى الأبيض حيث يوجد الدكتور زوريخين المفتش الصحى وكان على وشك أن يسافر الى دارفور فاتفقنا على السفر معاً الى داره ، ثم استأجرنا الجمال بمساعدة على بك شريف حاكم كوردفان وبينما نحن على وشك الرحيل اذا به يناولنى رسالة تلغرافية تنبىء بسقوط سليمان زبير فى داره فى ١٥ يوليه سنة ١٨٧٩ كما كان قد تنبأ غوردون عندما قال لى انه لابد خاضع أو مهزوم .

وهنا يجب أن اذكر انه عندما فتح زبير باشا دارفور تركهـا لعناية ابنه سليمان وسافر هو الى القاهرة . وفى سنة ١٨٧٧ عين غوردون سليمان هذا حاكماً على بحر الغزال ولكن نشأ خـلاف بينه وبين من يدعى ادريس أبتر أحد أهالى دنقلة وكان زبير باشا قد وكل اليه العناية ببعض المسائل . ولكن اسرة زبير تنتمى الى قبيلة الجعالين الذين كان بينهم وبين الدناقلة تحاسد وتباغض . وانى اعتقد ان كثيراً من القلق فى السودان يرجع الى هذه الحقيقة .

فان سكان مديريه بحر الغزال خليط من قبائل الزنوج التى كانت مستقلة كل منها من الأخرى حتى جاءهم عرب الدناقلة وعرب

الجمالين فاتحين بغية الاتجار بالعبيد . وينسب عرب الجمالـــين أنفسهم الى عباس عم النبى وهم يفخرون بهذا النسب ويباهون الدناقلة به . والدناقلة ينتمون فى زعمهم الى العبد دنقل . والمأثور أن هذا الرجل على الرغم من أنه كان عبداً قد ارتفع الى أن صار حاكم النوبة وان كان مع ذلك يدفع خراجاً لبهنسة الأسقف القبطى للبلاد الواقعة بين سراس ودبا . وقد أسس دنقل هذا بلدة سماها دنقلة ؛ وصار سكان هذا القسم بعد ذلك يدعون دناقلة . وغالبيتهم من أصل عربى ولكنهم لاختلاطهم بالسكان قد فقــدوا مرتبتهم . وهم بالطبع يؤكدون انتسابهم للعرب ولكن الجمالين لا ينفكـــون يذكرون أن أصلهم من العبد دنقل ويعاملونهم بالاحتقار والازدراء . ويجب على القارىء أن يذكر هذه العلاقة بين الجماليين والدناقلة لأنه يتوقف على فهمها فهم كثير من حوادث السودان التى وقعت بعد ذلك .

وانتهى الخلاف بين سليمان زبير وادريس الى شجار . فشكا ادريس سليمان فى الخرطوم وطلب معاونة الحكومة وحصل على جيش بقيادة جسى باشا ثم تلا ذلك تلك الحملات التى انتهت بسقوط سليمان فى بحر الغزال . وكان جسى قد وعده بالابقاء على حياته ولكن الدناقلة دسوا له فاعدم . وكان له شريك يدعى رابح لم يسلم منه خوفاً من انتقام الدناقلة . فأخذ كوكبة من الجنود وسار بهم فى الشمال الغربى فأخذ يجازف ويقتحم الأهوال حتى بلغ قطراً قريباً من بحيرة تشاد فاستولى عليه وصار ذا خطــر عظيم فى حظوظ القارة السوداء .

وهناك مسألة أخرى يجب علىّ ذكرها بخصوص الخلافات بين القبائل لما لها من الأثر فى حوادث السودان التى وقعت بعد ذلك والتى يحسن لذلك شرحها مع بعض التفصيل .

. لما زار غوردون دارفور زيارته الثانية عرف وتحقق من أن تجار الأبيض السودانيين يبيعون الأسلحة والبارود للثائر سليمان وكانوا بالطبع يعطفون عليه لما ينالون منه من الربح . وكانت هذه الذخائر الحربية ترسل بواسطة الجلابة او صغار التجار بين الأبيض وبين بحر الغزال وكان هؤلاء يربحون منها ربحاً عظيماً مثال ذلك ان ثمن البندقية ذات الانبوبتين كان من ستة عبيد الى ثمانية . وكان ثمن صندوق الخراطيش عبداً او عبدين . وقد حاول الموظفون فى الأبيض وقف هذه التجارة ولكن الصعوبات كانت عظيمة . وكانت قبائل العرب الرحل تسكن المراكز الواقعة بين كردوفان وبحر الغزال . وكان بين هؤلاء العرب قبائل الرزيقات والحوازمة والحمر والمسيرية . وكان من السهل على التجار الجلابة ان يخرجوا قوافل صغيرة وان يجتازوا ويختبئوا فى الغابات الكثيرة التى لم يكن يسكنها أحد . واذا اتفق ان موظفا مصريا التقى بهم فانه كان يمكن التغلب عليه برشوة صغيرة .

وكان غوردون يعرف كل هذا ؛ ولذلك امر بوقف التجارة بكل انواعها بين بحر الغزال والأبيض . وأمر كذلك التجار بترك المراكز الواقعة جنوب الأبيض والطويشة وطريق داره وحصر تجارتهم فى الجزء الشمالى والغربى ما دامت الحرب دائرة فى بحر الغزال . ولكن على الرغم من الدقة التى اتبعت فى تنفيذ هذه الأوامر كان الربح الناتج من التجارة مع سليمان اكبر واقوى اغواء من أن تنفذ هذه الأوامر حتى كان التجار لا يعبأون باكتشاف امرهم . ولم يكن فى يد الحكومة ما يمكنها من ان توقف هذه التجارة التى زادت بدلا من أن تنقص بعد ذيوع هذه الأوامر . فعمد غردون لهذا السبب الى وسائل حاسمة وأمر المشايخ والعرب بان يقبضوا على التجار الجلابة ويرسلوهم بالقوة الى داره وطويشة وأم شنجه والأبيض والقى عليهم تبعة وجود الجلابة فى بلادهم بعد تاريخ معين .

. وانتهز العرب الحريصون هذه الفرصة وأخـذوا ينهبـون الجلابة بل التجار الوادعين الذين عاشوا بينهم زمناً طويلا والذين لم يكن لهم اقل دخل فى تجارة المهربات الحربية . فجمعوا القمح والزوان بلا تمييز وربحوا بذلك ربحاً عظيما . فما هو ان ذاعت اوامر غوردون حتى حمل العرب على التجار حملة عامة فلم ياخذوا منهم تجارتهم فقط بل اخذوا كل ما يملكونه حتى جردوهم من كـل شىء وساقوهم كالبهائم وهم تقريباً عراة يعدون بالمئات الى طويشة وداره وأم شنجه . وكان هذا عقاباً عظيماً لهم على مساعدتهـم أعداء الحكومة .

وكان كثير من هؤلاء التجار قد اقاموا بين العـرب سنوات وكان لهم زوجات وأولاد وسريات وأملاك كبيرة وقعت كلها فى أيدى العرب . والحق أن هذا الانتقام من هؤلاء التجار الـذين كانوا يتجرون بالمهربات الحربية وبالعبيد كان هائلا وان كانـوا هـم يستحقونه على مبدأ السن بالسـن والعين بالعين . وكانت نتائج هذا العمل بعيدة المدى . وذلك لان معظم هؤلاء الجلابة كانوا من الجعـالين الذين ذكرناهم فانغرست بينهم من ذلك الوقت وبين العرب الذين اذلوهم واباحوا تجاراتهم عداوة لا تزال مستمـرة للآن والدلائل تدل على انها فى ازدياد لا فى تناقص .

ولو اعتبرنا المروءة والانسانية لقلنـا ان هذا الاعتداء على الجلابة يستحق المناقشة من حيث عدالته . ولكن عند تدقيق الفحص نجد أن الظروف لم تكن تسمح بمعالجة هذا الظـرف الاستثنائى بالوسائل السياسية أو بروح العطف الانسانى فانه لم يجـد فى الحالة وقتئذ سوى اتخاذ اجراءات شديدة فعالة . والعرب أنفسهم يقولون : « نار الغابة تلزمه الحريقة » يعنون بذلك أنه اذا شبت النار فى الغابة لم يكن سبيل النجاة منها الا باحراق جزء من الغابة

بحيث اذا وصلت النار الكبرى لا تجد ما تأكله فينجو الإنسان منها بوقوفه في المكان الذى احرقه هو نفسه · وهذا المثل يقبل التطبيق على الحالة التى ذكرناها .

ولما كان لهؤلاء التجار الجلابة (وجلهم من الجماليين والشايقية والدناقلة) اقارب فى وادى النيل وكان لهم اصدقاء يشتركون معهم فى النخاسة وسائر التجارة اوجدت اوامر غوردون سخطاً بينهم اذ لم يكادوا يفهمون العلة فى ضرورة اتخاذ هذه الاجراءات الشديدة .

الفصل الثانى

اقامتى فى دارفور وتاريخها السابق

غادرنا الابيض انا والدكتور زربوخين المفتش الصحى الذى كنت قد قابلته فى القاهرة وكانت مغادرتنا للأبيض فى يوليو سنة ١٨٧٩ فاخذنا طريقنا الى الفوجة آخر محطة تلغرافية ، وهنا تسلمت رسالة تلغرافية من غوردون يقول لى فيها انه مسافر الى الحبشة فى مهمة مع الملك يوحنا .

ولما بلغنا ام شنجه وجدناها مزدحمة بالجلابة الذين طردوا من الجنوب وكانت حالتهم تبعث على الشفقة . ومن الغريب أنــه شاعت عنى اشاعة مقتضاها ان غوردون خالى ، ولعل سبب ذلك زرقة عينى وانى كنت حليقاً ، وكان الجلابة ينظرون الى بعين الخوف لهذا السبب وكانوا يعدون غوردون أصل بلائهم الحاضر ، وأخذوا يغمروننى بالعرائض لمعاونتهم فاخبرتهم بأن أم شنجه ليست داخلة ضمن نطاق اعمالى ، ولذلك لا يمكننى مساعدتهم . وقلت ايضاً انه لو كان فى مقدورى مساعدتهم من مالى الخاص لما فعلت .

وقد خالفت هذه القاعدة فى حالة واحدة ولكن قبل ان اقص هذه الحادثة يجب ان اقول : انه لا ينبغى الحكم على عملى من وجهة

الآداب المسيحية فقط بل أنا اقر بأنى خرجت عن حدود الشريعة الاسلامية ولكن عندما يقرأ القارىء القصة بأجمعها سيوافقنى على جميع ما عملته ويشترك معى فى العواطف التى بعثتنى على هذا العمل .

فقد زارنى فى احد الايام طائفة من التجار وطلبوا منى أن اتوسط فى مسألة شاب عمره ١٩ سنة وأصله من الخرطوم . وقصوا على ان هذا الشاب قبل مغادرته الخرطوم كان قد خطب ابنة عم له جميلة ولكنها فقيرة وتواعدا على الزواج بعد أن يسافر الشاب فى تجارة ويجمع بعض المال . فلما وصل الى أم شنجه عرف عجوزاً غنية افتتنت به اشد الافتتان . ولم يخبرنى هؤلاء التجار عن الشاب هل هو طمع فى اموالها او لا . ولكن المسألة انتهت بأن تزوجته هذه العجوز ووجد هو نفسه انه اصبح ثرياً فلم يكن له رغبة فى الرجوع الى الخرطوم وتطليق امرأته . وبلغت اخباره ابنة عمه فى الخرطوم فاستولى عليها ذهول وطلب الى ان احل هذه المسألة . فماذا افعل .

فاستدعيت الشاب وكان جميلا وجماله فوق المألوف فتنحيت به فى ناحية وأخذت اكلمه بكل جد ووقار واظهرت له سوء عمله فى التزوج بعجوز اجنبية عنه وكيف أن خطيبته تبكى حتى كاد يذهب بصرها وهى وان كانت فقيرة ولكنه يجب شرفاً ان يرعى مودتها ووعده لها . فتردد مدة طويلة ولكنه اخيراً رضى بأن يذهب الى القاضى ويطلق هذه العجوز . وكنت قد استدعيت القاضى وأخبرته انه اذا طلق الشاب زوجته يجب عليه أن يخبر المرأة بهذا الطلاق بكل رفق ولطف لانى لا أرغب فى ضوضاء ، واستوثقت من اقارب الشاب بأنه بعد طلاقه يجب ان يسافر الى الخرطوم ثم أوصيت موظف الحكومة فى أم شنجه بأن ينفى هذا الشاب بعد يومين من

طلاقه ويأمر بعدم بقائه فى البلدة بعد هذين اليومين . وأوعزت له بان يقول ما شاء امام العجوز ويلقى على تهمة الخلاف بشرط ان يجتهد فى ان تعطى الشاب مبلغاً من المال يقوم بحاجته مدة سفره الى الخرطوم . ولم اكن اتصور وانا اعمل هذا العمل الزوبعة الهائلة التى اثرتها على راسى . ففى الساعة الرابعة بعد الظهر وانا منسطح على العنجريب فى عشتى سمعت صوت امراة غاضبة ترغب فى أن ترانى فحدست من تكون هذه المراة واستعددت للقائها وأمرت بدخولها . وما هو ان صارت فى العشة حتى رات الدكتور زربوخين الذى كان معى وقتئذ فصاحت فيه وهى هائجة مجنونة : « لن اقبل الطلاق . هو زوجى وانا زوجته . تزوجنى على أصول الشريعة وأناارفض الطلاق » .

فدهش الدكتور زربوخين وتمتم كلمات مكسورة باللغة العربية واخبرها بانه لا يعرف شيئاً عن هذه المسالة وان التبعة تقع على انا وحدى . ولم اتمالك من النظر والتامل فى هذه المراة الغريبة . فقد كانت ضخمة قوية عنيدة وكانت من الغضب بحيث لم تراع ادب اللياقة الذى تراعيه الشرقيات فى مخاطبة الرجال . فقد انفتل برقعها لشدة هياجها .وبدا راسها مغطى بمنديل حريرى عديد الالوان وقع بعضه على كتفيها . وكان وجهها يضرب الى الصفرة وقد كبسته الاسارير وفى كل من خديهاثلاثة خطوط من الوشم بين الواحد والآخر نحو نصف بوصة . وكان معلقاً بانفها قطعة من المرجان الاحمر ويتدلى من اذنيها قرطان كبيران من الذهب أما شعرها فكان حلقات صغيرة عديدة قد شمطت لتقدمها فى السن وظننت وانا انظر اليها انى لم ار قط امراة اكثر دمامة منها . وأنا فى هذه التاملات واذا بنميمها الذى تحول الى تسالنى السؤال نفسه الذى سالته للدكتور المرعوب . فتركتها حتى هدات قليلا ثم قلت :

« انى ادرك تماماً ما تقولين ولكن لا بد من الخضوع لما لا مفر منه فان زوجك سيتركك وانت لا يمكنك ان تتركى البلدة معه . وتقولين انك لا ترغبين فى الطلاق ولكن تذكرى أن الشريعة تحل للرجل الطلاق » .

فصاحت بى : « لو لم تتوسط لما طلقنى . لعنة الله على يوم جئتنا فيه » .

فقلت : « ارجوك الا تقولى ذلك فانت امرأة غنيـــة واظن انك لن تجدى صعوبة فى الحصول على زوج أكبر سناً من زوجك الذى طلقك » .

فصرخت : « لا اريد أحداً غيره » .

فقلت بحدة : « اسكتى . اقارب زوجك السابق يريدون ان يتركك ويسافر . وقالوا انه لا يربطه بك الا اموالك . والآن مهما قلت فانه سيغادرك غداً . الست تخجلين من التزوج بشاب صغير قد كان يمكن ان يكون احد احفادك وانت عجوز » .

فجنت جنونها عندما فهت بهذه العبارة ولم تستطع ضبط نفسها فمزقت برقعها ورفعت يديها لا أدرى ماذا كانت تريد أن تفعله لو لم يدخل القوامن ويجليها عن الغرفة بالقوة وهو يحذرها من الفضيحة التى تجلبها على نفسهاباعمالها هذه . وفى اليوم التالى سافر الزوج وهى فى غم شديد .

وبعد سنوات لقيت هذا الزوج وكان قد تزوج ابنة عمه فشكر لى صنيعى وتخليصى له من مخالب تلك العجوز . وكان فى

ذلك الوقت ابا سعيداً له اولاد عدة . وليس لي حاجة بان اقول بانى نمت تلك الليلة مرتاحاً لهذا الصنيع الذى لم يكلفنى شيئاً .

وبعد ذلك بيومين برحنا ام شنجه وبتنا في جبل الطلة فاستقبلنا هناك حسن بك أم كادوك شيخ قبيلة برنى وكان على ولاء كبير للحكومة وقد منحه غوردون رتبة بك . وكان رجلا كهلا سميناً جداً عريض المنكبين ووجهه مستدير دائم الابتسام وقد يمكن أن نسميه « فولسطاف السودان » جرياً على شكسبير الذى سمى اكبر شخص مضحك فى دراماته « فولسطاف » فاننا بعد سنوات عندما انقلبت الأحوال وصار النسادة عبيداً صرنا أنا وهو ياورين عند الخليفة وكان مزاجه البهيج هذا كثيراً ما يخفف عنا اعباء حياتنا التى كنا لا نتحملها احياناً وكان اخوه اسماعيل على النقيض منه رجلا طويلا نحيفاً يميل الى الجد . ولم يكن يتفق هذان الاخوان فى شىء الا فى مسألة واحدة هى حب المريسة (الجعة السودانية) والتهالك على شربها . وكان لكل منهما اناء يدعى أنه بلبل توضع فيه هذه المريسة فيتسابقان ايهما يفرغ اناءه قبل الآخر .

وقد دعوانا الى العشاء معهما وشوى لنا خروف كامل على فحم الخشب يصحبه عدة من الدجاج المشوى وطبق من العصيدة التى تؤكل فى كل وجبة فى السودان .. وكان أيضاً على المائدة عدة آنية من المريسة . وقد طاب لنا الطعام فأكلنا وتركنا المريسة لهما وشربنا نحن شيئاً مما عندنا من النبيذ الأحمر . وقد شرب حسن واسماعيل كلاهما من النبيذ والمريسة ما شاءا وكان إثر الخمر فى الأول عندما صدمته حمياها أن جعلته يتدفق فى الحديث اما الثانى فقد انعقد لسانه وصمت . وكان حسن يروى لنا بعض ما يعرفه من غوردون وقد اكتأب وحزن عندما عرف بسفره الى الحبشة .

وقال لى بلهجة الحزن : « قد لا يرجع غوردون من الحبشة وقد يسافر الى بلاده فلا نراه ثانياً » ومن الغريب أن قولته هذه كان فيها شىء من الصحة . ثم ترك الغرفة وعاد بعد برهة ومعه سرج وسيف وهو يقول : « انظر . هذا هو آخر ما أعطانيه غوردون لما رافقته الى الفاشر . ما اكرمه وأرأفه » وعرض علينا اسماعيل سترة مطرزة بالذهب أهداها اليه غوردون . وقال حسن : « كان غوردون لا يعرف الكبر . فى أحد الأيام ونحن فى الطريق الى الفاشر . صاد أحد الخدم طائراً فلما حططنا رحالنا فى الظهر وضع الطباخ قليلا من الماء على النار حتى اذا غلى غمس فيه الطائر لكى ينزع ريشه . ورآه غوردون يفعل ذلك فذهب اليه وأخذ يساعده فى نزع الريش فاندفعت أنا اليه ورجوته ان يكف من ذلك وأنا اقوم بدلا منه بهذا العمل » ولكنه قال لى : « وهل تظنني أخجل من العمل ؟ انى قادر على أن أخدم نفسى ولست فى حاجة لأن يقوم بخدمتى فى المطبخ رجل حائز لرتبة بك مثلك » .

ولم يكف حسن عن مسامرتنا حتى ساعة متأخرة من الليل وقد حكى لنا عن تجاربه لما فتح الزبير دارفور ثم ما تلا ذلك من الثورة الى حالتها الحاضرة وكان كثيراً ما يعود الى ذكر غوردون . ومما قاله : « كنت مرة مسافراً مع غوردون فمرضت وجاء غوردون يعودنى فى خيمتى . وبينما هو يحدثنى قلت له انى كنت منغمساً فى الشراب وان وعكتى الحاضرة لم تحدث لى الا لانقطاعى عنه منذ ايام . وكان قولى هذا هو الصيغة غير المباشرة التى أردت منها أن يعطينى غوردون شيئاً من الشراب . ولكن ساء فالى فان غوردون وبخنى وعنفنى وقال لى : « انت مسلم وديانتك تحرم تناول الخمر . انى فى غاية الدهشة . اقلع عن هذه العادة فكل منا يجب أن يطيع أوامر دينه » فقلت له : « لقد اعتدت الشرب طول حياتى فاذا انقطعت عنه الآن فانى أمرض ولكنى ساعتدل فى

المستقبل » فبانت امارات الرضا على وجه غوردون وهز يدى مسلماً وودعني وخرج وفى صباح اليوم التالى أرسل لى ثلاث زجاجات من الكونياك واوصانى بالاعتدال فى شربه .

وكان اخو حسن صامتاً لا ينبس بكلمة وكان مرتفقاً يملأ كوباً وراء آخر من المريسة ويشربه بجد ووقار ونظام كانه نظام بسامة ولما انتهى من الشراب وقف فى روية وتؤدة ومسح شاربيه وقال بلهجة الحزن : « نعم . نعم . الكونياك شراب طيب وهو ليس خمراً بل دواء وغوردون رجل عظيم بار ولن نراه ثانياً » .

وذهبنا الى الفراش فى ساعة متاخرة وامرنا قبل نومنا ان نعد الدواب للقيام فى الفجر فلم ننم الا وقتاً قصيراً . ولما استيقظنا واردنا الركوب أنا والدكتور زربوخين نظرنا حوالينا نبحث من اهل البيت لكى نودعهم قبل سيرنا . ونحن فى ذلك واذا باسماعيل يعدو الينا وراسه يميل من اثر الشراب السابق وقال لنا : « ايها السادة اننا سمعنا على الدوام بأن بلادكم عدل وانا واثق بأن الضيف هناك لا يسيء الى رب البيت . وامس عندما امرتم الدواب التى تحمل امتعتكم بالسفر سرق رجالكم السجادة التى وضعتها لكم لتقعدوا عليها » .

فبحثت وتاكدت بان احد رجالى قد سرق هذه السجادة الثمينة وارسلت وراء الجمال قواصاً لكى يدرك هذا اللص ويحضره وقعدت انتظر . وبعد مدة جاء القواص ومعه السجادة ووراءه عسكرى زنجى من العوس الثمانية الذين كانوا فى صحبتنا ولما استجوبنا هذا العسكرى قال انه حملها خطأ ولكننى لتاكدى من جريمته أمرت بجلده وارساله سجيناً الى ام شنجه . وقد تعكر مزاجى لهذه الحادثة لانى كنت اعرف ان الناس هنا يحكمون على الاسياد بما

يرون من الخدم وكنت واثقاً بأنى اذا لم أعاقب هذا الخائن فـان مثل هذه السرقات ستكرر فى المستقبل .

واعتذرنا الى حسن وأخيه ثم شرعنا فى السفر الى الفاشر التى بلغناها بعد خمسة أيام ومررنا فى طريقنا على بروش وأرجود .

وقد كانت الفاشر طول مدة القرن الماضى عاصمة دارفور وهى مبنية على قارتين أو رابيتين واحدة فى الشمال واخرى فى الجنوب يفصلهما واد عرضه نحو ٤٠٠ ياردة يدعى وادى تندلتى . وفى الغرب قلعة على تل حولها حائط من الطوب النيىء عرضه ثلاثة اقدام وحول الحائط خندق عمقه ١٥ قدماً . وكان فى الأركان أربعة أبراج وبها مدافع تطلق قنابلها من فتحات صغيرة .

وكان هذا الحائط يحتوى على مبانى الحكومـة ومساكـن الضباط وثكنة الجنود وكان الخيالة غير النظاميين يسكنون خارجاً . وكان سكان القلعة يستقون الماء من آبار فى الوادى تبعد عنهم بنحو خمسين ياردة .

وكان مسدجاليه بك وهو رجل ايطالى حاكماً على الفاشر وقد لاقانا بالبشر وخصص لنا أمكنة فى مبانى الحكومة وكنا قد أصبنـا بحمى من مسيرنا فى الأمطار فقر رأينا على أن نرتاح بضعة أيام .

وبعد أن استرحنا استأنفنا السفر أنا والدكتور زربوخين الى داره ورافقنا على سبيل التشييع مسدجاليه بك واخبرنا أن زوجته ستحضر الى الخرطوم وانه قد طلب اجازة لكى يسافر ويستقبلها فيها ثم يحضر وإياها الى الفاشر فاقترحت عليه أن ينتظر حتى تنتهى مسألة السلطان هرون ، ثم يحضر وزوجته بعد ذلك ولكنه أجابنى بأنه ليس هناك أقل خوف وأن فى البلاد جيوشاً كافية لقمع أى

حركة ، ولكنى كنت سمعت بأن نفوذ هرون عظيم وأن هناك خوفاً على جنود الحكومة من ضغطه عليهم . ولما كنت حديث العهد بالمجيء الى السودان وقليل الخبرة بأحواله لم اقدر على ان اعطى رأياً باتاً فى الموضوع فودعته هو وسعيد بك جمعة الحكمدار وسرنا الى داره عن طريق كريوت وراس الفيل وشميرية .

وكان لزربوخين هيئة تدل على انه اكبر منى سناً وكانت له لحية طويلة سوداء وكان يضع على عينيه نظارة سوداء اما انا فكانت هيئتى تدل على أنى اقل عمراً من الحقيقة فلم يكن شاربى قد نبت الا قليلا وكانت لى سحنة الصبيان فكنا لا نسير فى اى مكان حتى يظنه الناس انه هو الحاكم والطبيب أو الصيدلى . ولما قاربنا غاية سفرنا كان الدكتور زربوخين مريضاً بالحمى ولذلك تأخر بدابته عنى ومشى وئيداً حتى وصلت الى شميرية قبله . وشميرية هذه على سفر يوم من داره . وكان اهل القرية يستعدون لاستقبالنا فكنسوا المنازل ووضعوا الحصير ووضع القاضى والشيخ سجاداً لكى يستريح الحاكم القادم . وبرك جملى ونزلت عنه ولما سالونى عن شخصى قلت اننى احد حرس الحاكم واخبرت من معى من الحرس بالا يقولوا شيئاً . وأخذ القرويون يسالوننى عن الحاكم الجديد فقلت لهم : « إظنه سيجتهد بأن يعمل ما فى جهده وانه يميل للعدل والتسامح » .

فقال واحد منهم : « ولكن هل هو شجاع طيب القلب » وكان هذا السؤال تصعب الاجابة عليه . فقلت : « يبدو عليه كانه لا يخاف ولكنى لم أسمع شيئاً عن شجاعته . وأظن أنه طيب القلب ولكنه بطبيعة الحال لا يمكنه ان يرضى كل أحد » .

فقال آخر : « لو كان لنا حاكم مثل فوردتون باشا لرضى كل واحد وامنت البلاد بأنه لم يتوقف قط عن الانعام على الناس

والطافهم وما جاءه فقير قط وعاد خائباً ولم أسمعه يتكلم بقسوة الا مرة واحدة وذلك حين كان سليمان زبير فى داره فانه التفت الى القاضى وقال ان بين السودانيين من لا يستحق ان يعامل بالرأفة به . فقال القاضى : « اجل سمعته يقول ذلك ولكنه كان يشير بقوله هذا الى الجلابة وتجار النيل الذين كانوا يشتركون مع الزبير وابنه فى جميع التجارات غير الشرعية التى كانوا يتكسبون منها ».

وقال شيخ القرية واسمه مسلم ولد كباشى : « غوردون بطل . فقد كنت انا اشتغل معه فى القتال مع عرب ميهه والخوابير فى سهل فافه فى يوم شديد الحر . وتقدم العدو واجلانا عن الخط الاول وكانت الحراب تقع علينا كثيفة من كل جانب ورأيت حربة تقع على قيد شعرة من غوردون فما بالى ولم تنل النصر الا لثباته هو واحتياطيه المؤلف من مائة رجل ، ولما كانت المعمعة على اشدها اخرج سيجارة واشعلها . انى ما رايت شيئاً قط فى حياتى مثل هذا. وفى اليوم التالى عندما شرع فى توزيع الغنائم لم يغب عن ذهنه احد ، ولم يحفظ لنفسه شيئاً وكان رفيقاً بالنساء والأطفال ولم يأذن بسبيهم كما هى عادتنا فى الحرب بل كان يطعمهم ويكسوهم على نفقته أو كان يردهم الى منازلهم عند انتهاء الحرب . وفى أحد الأيام سبينا عدة نساء بدون علمه وحجزناهن ولو علم بفعلنا لرأينا منه الويل » .

وبعد سكوت سألته عن الاحوال فى داره وصفات الموظفين لانى كنت سمعت انهم لا يوثق بهم وانهم لا ينظرون بعين الرضا الى مجيئى .

وهنا وصل الدكتور دربوخين وسائر القافلة فوقف الشيخ والقاضى وأعيان القرية فى نصف دائرة لاستقباله . اما انا فقد

تنحيت جانباً واختفيت . وأخذت انصت لما يقول مسلم ولد كباشي الذى بدأ يحيى الوالى الجديد ويصف له فرحه بقـدومه وكـان زربوخين لا يعرف من العربية الا القليل فارتبك اشد الارتباك لهذه التحية .

وقال لهم : « الحقيقة انني لست الحاكم . انا مفتش الصحة ولا بد ان الحاكم قد وصل قبلى ولكن بالنسبة لأن الرجال الذين معه قليلون ربما لم يحسبه أحد لذلك انه هو الحاكم » فتقدمت أنا عندئذ وشكرت للقرويين وأنا اضحك لطفهم وحسن استقبالهـم وأكدت لهم بانى سأعمل جهدى لكى أرضيهم وانى منتظر منهم ان يعاونونى على انفاذ الأوامر . واخذوا بالطبع يعتذرون الى عن خطئهم ولكنى وضحت لهم أنه ليس هنـاك ما يدعو الى هـذا الاعتذار وقلت لهم انى ارغب فى أن تكون علاقتى بهم متينة حميمة وانى ارجو أن تكون هذه رغبتهم ايضاً . ومن هذا الوقت صـار مسلم ولد كباشى من أعز أصدقائى وبقى كذلك فى أوقات الفرح والحزن على السواء حتى برحت البلاد .

وقد هاجت هذه الحادثة الصغيرة شهوتنا للطعام وتعدنـا وتناولنا طعاماً فاخراً من الضأن المشوى ولما انتهينا امتطينا الدواب واسترحنا فى الليل تحت شجرة على مسير ساعتين من داره . وعند شروق الشمس ارسلت رسولا لكى يخبر بقدومنا ولما مررنا فى ارباض المدينة خرجت الحامية واصطفت واستقبلتنـا استقبـالا عسكرياً واطلقت سبع قنابل اكراماً لنا وكان معها حسن حـلمى الحكمدار وزوجال بك نائب الحاكم والقاضى وبعض أعيان التجار وذهبنا جميعاً الى القلعة حيث دار الحكومة وقضينا نصف ساعة فى التفتيش ثم ذهبت الى مسكنى وامرت بتهيئة بعض الغرف للدكتور زربوخين فى مسكنى لأنى اردت ان ينزل عندى ضيفـاً بضعـة ايام .

وما كدنا ننتهى من العشاء حتى سمعت ضوضاء بين الخدم الذين كانوا يدافعون رجلين من الدخول الينا . وكان هذان الرجلان رسولين يحملان خطاباً من احمد فاطنج وجبر الله وهما الرئيسان للحامية غير النظامية فى بير جوى وهى على مسيرة ثلاثة ايام فى الجنوب الغربى من داره . وقد قالا فى الخطاب أنهما علما ان السلطان هرون سيغير عليهما وانهما بالنسبة لقلة عدد الحامية قد قرروا اخلاء مكانهما ما لم تأتهم امدادات من الحكومة وقالا ايضا أنهما اذا تركا مركزهما فان جميع القرى ستنهب .

ولم يكن ثم متسع من الوقت لتأجيل فأمرت حسن افندى رفقى بان يعد مائتى جندى نظامى وعشرين فارسا للقيام فى الحال معى الى جوى .

وما انتصف الليل حتى كان قد اعد كل شىء وودعت الدكتور زربوخين وقلت له اؤمل ان أراه بعد اربعة ايام او خمسة وخرجت متوجهاً نحو الجنوب الغربى .

وكنت شاباً قوياً فى اشتياق الى الحرب وانى اذكر الآن مقدار فرحى الشديد للقاء السلطان هرون ومناجزته . ولم يخطر ببالى شىء من المشاق وانما كل ما كنت مشتاقاً اليه انى كنت أرغب فى ان أبين لجنودى انى قادر على قيادتهم . وفى الصباح حططنا رجالنا وكان جميع الجنود زنوجاً حتى ضباطهم . اما الجنود الراكبة فكانوا من الأتراك والمصريين وخطبتهم جميعاً قلت لهم انى الآن غريب منهم ولكن عليهم ان يعرفوا انى مستعد لان اشاركهم مشاقهم فى كل وقت وانى ارجو ان يكونوا ممتلئين حماسة وان نسرع للقاء العدو . وكانت خطبتى بسيطة ولكن كان لها وقع فى نفوس الجند وعندما انتهيت منها رفعوا اسلحتهم فى الهواء فوق رؤوسهم على الطريقة السودانية وصاحوا بأنهم لن ينثنوا عن الظفر او الموت .

وفى الظهر حططنا قرب قرية فأخذت اراقب رجالى وافحصهم وكانوا كلهم على أهبة ومعهم ذخيرة كافية . وكان مع كل جندى زمزمية من جلد المعز أو الغزال واسمها سن (وجمعها سنين) ولكن لم يكن معهم طعام . ولما سألت عن سبب ذلك قيل لى : « أينما ذهبت فى دارفور تجد الطعام » فذهبت الى شيخ القريــة وطلبت منه تقديم كمية من الدخن . وكانوا ينقعون الدخن فى الماء ثم يعصرونه ويمزجونه بالتمر الهندى ثم يأكلونه . أما العصارة فكانوا يشربونها وكانت مزازتها تطفىء الظمأ . والغالب ان الاوروبيين لا يستطيعون هضم هــذا الطعــام ولكنه مغــذ جــداً والجنود السودانيون لا يأكلون تقريباً شيئا غيره وهم سائرون الى القتال . وقد اعتدت تناوله بالتدريج ولكنى وجدت انه اذا لم يكن الانسان فى صحة تامة فانه يعقبه سوء هضم شديد . وأحضر لنا شيــخ القرية الدخن ومعه عصيدة وزعت على الرجال . وبينمــا هــم يأكلون دعوت الضباط لأن يأخذوا شطراً من اللحم المحفوظ بالعلب الذى كان معى فأخذوه واستطابوه قائلين انه أفضل من الدخــن والعصيدة وبعد ذلك طلبت من الكاتب ان يكتب لشيخ القرية صكا بمقدار ما تسلمناه منه من الدخن لكى يحط ثمنه من مقدار ما يدفعه لجابى الضرائب . ولكن هذا الرجل رفض قائلا : ان اطعام الجنود ليس فقط من واجباته بل ان أصول الضيافة والكرم تقتضيه . فقلت له : انى أعرف أن أهالى دارفور أسخياء ولكنى أجد أن طعام ٢٠٠ نفس يعدو حدود السخاء وانه لذلك يجب عليه أن يتســلم ثمن طعامه . فرضى أخيرا واطمأن الى جنيئى وقال : انه لو سار الجنود على هذا المبدأ لسر السكان ولكن لسوء الحظ قد اعتــاد الجنود اقتحام المنازل واخذ ما فيها حتى أن الأهــالى صــاروا يخشونهم وعندما ينزلون قراهم يجتهدون فى اخفاء ما عندهــم . فشكرت للشيخ قوله هذا ووعدته بأنى سأصلح هذه الحالة .

وعند غروب الشمس وصلنا الى بير جوى وكان بها حامية غير نظامية عددها ١٢٠ رجلا يقودهم أحمد قاطنج وجبر الله . وقد اخبرانى بانهما بعثا جواسيسهما لكى يعرفوا حركات السلطان حرون وانهما لا يظنان انه قد نزل بعد من جبل مرة الى الوادى . وكنت فى غاية الاعياء وقد تملكنى النعاس فذهبت الى فراشى لأنام ولكن اطراد قرع الطبول اكراما لى وضربان رأسى منعانى من النوم وفى الصباح شعرت أنى مريض . ولما جاءنى أحمد ورأى ما أنا فيه قال لى : « يمكننا معالجة هذا بأيسر سبيل . فعندى رجل يوقف ضربان الراس فى الحال وهو افضل من الدكتور الذى فى داره والحقيقة انه ليس فى داره دكتور وانما هو صيدلى يقال له دكتور على سبيل التادب والتجمل » .

فقلت : « ولكن كيف يمكنه ان يعالجنى ؟ » .

فقال : « هذا شىء بسيط . يضع يديه على راسك ثم يقول شيئا فتبرأ بل تعود أحسن مما كنت قبل أن تمرض » .

فقلت : « اذن ادعه الآن » .

وكنت شابا وجاهلا فى تلك الأيام وخطر ببالى أن أحد هؤلاء العرب ربما قد زار أوروبا وعرف شيئا عن العلاج المغنطيسى وأنه قد ارصد حياته لفائدة الناس وشفائهم . وأنى أعترف بأنى شعرت بشىء من القلق لما قاله احمد لى . وبعد دقائق قليلة أدخل أحمد الى غرفتى رجلا طويلا اسود له لحية بيضاء يظهر عليه انه من سكان بورنو وقال لى : « هذا هو الطبيب الذى سيشفيك من ضربات الرأس » .

ولم يتردد الطبيب لحظة بل وضع يده على راسي وضـــغط صدغي بابهامه وسبابته ثم تمتم جملة كلمات لم افهمها ويصق في وجهي . فهببت واقفا لهذه الفظاعة وضربته ضربة القته عــلى الأرض . وكان احمد واقفاً بجانبي متكئاً على عكازته فرجـــاني الا انظر للمسالة هذه النظرة وقال لي : « ليس بصقته قلة أدب . بل هو جزء من العلاج وستستفيد منه » ولكن الطبيب المسكين الذي زايلته ثقته بنفسه وقف بعيداً عني وقال « وجع الراس من الشيطان ويلزمني ان أطرده . وفي القرآن آيات تدل على امكـــان طرده بالنفث وبذلك يقف عمله السيء في رأسك » .

ولم اتمالك من الضحك على الرغم من مضـــايقتي وقلت : « وانا اذن على عفريت وعلى كل حال ارجو ان يكون عفريتاً صغيراً وان تكون قد نجحت في طرده » ولم اسمح له باعادة الرقية واعطيته ريالا وامرته بالخروج . فخرج وهو يدعو لراسي بالشفاء ولكـــن بقي على الرغم من هذا الدعاء يؤلمني .

ولم تأتني الى هذا الوقت أخبار من هرون فبقيت طول اليوم في فراشي وزارني صديقاي قاطنج وجبر الله عدة مرات . وقد عرض على اولهما جواده فرفضت قبوله . اما الثاني فقد عرض على احدى خدمه وقال لي : « انها صغيرة جميلة وقد تربت تربية حسنة في منزلي . وهي تعرف الطبخ واعمال البيت وتفهم في الأمراض » فرفضت قبولها ايضاً وتركني جبر الله وهو مكسور الخاطر لأني لم اقبل هديته . ولكني كنت مضطراً الى هذا الرفض لأني بعـــد ان جربت رقية الطبيب لم اكن شديد الرغبة في أن اسلم نفسي لمراحم آنسة سودانية مهما كانت براعتها .

وفي صباح اليوم التالي استيقظت وقد عادت الى عـــافيتي ولما لقيني احمد واخبرته بأني تعافيت قال لي فوراً : « انا كنـــت

متحققا من انك ستشفى لان عيسى (الطبيب) لم يضع يده على احد الا شفاه » .

ومضى يوم آخر بدون أن يأتينا خبر عن هرون . وفي اليوم التالي رجع الينا حوالى الظهر أحد رسل جبرالله وقال لنا ان هرون قد جمع رجاله ولكنه لم ينزل بعد من التلال التى اتخذها مقراً له وقت الصيف . وفي الرابع (من وصولنا لبير جوى) جاءنا رسول آخر وقال ان هرون لما بلغه انى تركت داره وجئت الى بير جوى لمقاتلته سرح رجاله الذين ذهبوا الى جبل مرة .

فلما أسقط في يدى وذهب املى في القتال عدت الى داره وكان الدكتور زريوخين قد برحها وترك لى خطاباً يقول لى فيه انه يرجو لى النجاح . ووجدت ايضاً الكاتب الذي صحبني منذ ان كنت مفتشاً مالياً وجاء معي الى داره قد جن مدة غيابه ووضعوه في منزل بجوار منزلى فلما ذهبت اليه لكى أراه وقف وعانقنى وهو يصيح : « الحمد لله . لم يفعل السلطان هرون شيئاً لك . زوجل بك رجل خائن احترس منه . لقد أمرت بايقاد النار فى القاطرة لكى يحملك القطار الى اوروبا حيث تتمكن من رؤية أهلك وسأذهب معك . ولكن يجب الحذر من زوجل بك فانه وغد سافل » .

وكان ظاهراً انه قد فقد عقله ولكن المجانين احياناً يقولون الحق . فأخذت فى تهدئته حتى رقد وسمع صفير القاطرة واوهمته أنى معه فى القطار ثم تركته لعناية الخدم وخرجت . وبعد خمسة أيام مات هذا المسكين واظن أن سبب موته انفجار عرق فى دماغه .

وشرعت انا فى تدبير امور مديرية داره وبعد شهر تسلمت خطاباً من مسدجاليه بك يقول لى فيه (وكان مكتوباً بالفرنسية)

انه قد عزم على ان ينتهى من هرون ولذلك هو يامرنى بان اخرج سراً عن طريق منواشى وقبة بقسم من الجنود النظامية واتجه نحو جبل مرة واغير على نيورنه حيث مقام السلطان هرون . وقال لى انه قد ارسل قوة من الفاشر عن طريق طرة وقوة اخرى من قلقل عن طريق ابى حرز وسيلتقى الجميع فى مكان واحد ويعملون معاً فى مقاتلة هرون .

فاذعنت للأمر وغادرت داره ومعى ٢٢٠ جندياً نظامياً و ٦٠ من البازنجر وسرنا حتى بلغنا نيورنه حيث السلطان هرون فى جبل مرة فوجدناه قد جلا عنها وفى صباح اليوم التالى خرجت بفصيلة من الجنود ابحث عن هرون ولكننا لم نذهب بعيداً حتى سمعنا عيارات نارية تطلق بسرعة من ناحية نيورنه فركضت جوادى راجعا فوجدت الجنود الذين تركتهم قد اشتبكوا فى قتال مع قوة اخرى معادية فادركت حالا أنها احدى القوات التى ارسلت لمساعدتى من الفاشر ولكنها لم تصل فى الوقت المعين لها . فلما وصلت الى نيورنه ووجدت قوة مرابطة تحتلها اطلقت عليها النار وهى تحسبها أنها تابعة لجيش السلطان هرون . وقد تكلفت مشقة كبيرة فى وقف اطلاق النيران التى قتل بسببها سبعة وجرح احد عشر ومر عيار فى ملابسى واصيب جوادى بعيارين .

وبقينا فى نيورنه عشرة ايام ولما لم يكن فى مقدورنا ان نحصل على أخبار صحيحة عن هرون قررت العودة . وكنا نحن فى عودتنا نمر على عدة قرى فنفاجئها لأن أهلها لم يكونوا ينتظرون مجيئنا من الغرب . وكان السلطان هرون قد جند معظم الرجال . أما الباقون فقد فروا الى التلال . ولكن رجالى تمكنوا من القبض على نحو ثلاثين امرأة سرن معنا مدة قصيرة . وقد فوجىء أهالى احدى القرى بنا فلم يتمكنوا من الهرب ولما رأيت أن جميعهم من النساء

أمرت الجنود بالوقوف حتى أتيح لهن الفرصة للفرار ثم أمرت الجنود أيضاً بأن يسيروا صفاً واحداً حتى لا يتفرقوا فى القرى ويعبثوا فيها .

ومما حدث ان اماً مسكينة كانت تحاول الهرب فباغتناها فنفرت تاركة وراءها طفلين على صخرة وأخذت هى تعدو كالغزال على سند الجبل . فذهبت الى حيث الطفلين فوجدتهما عاريين ليس عليهما شىء سوى عقد من المرجان حول عنقيهما وحزام من المرجان أيضاً حول وسطيهما . وكان كلاهما أسود كالغراب والارجح انهما كانا توامين يبلغ عمر كل منهما ١٨ شهراً . فنزلت عن الجواد وذهبت اليهما فأخذا فى الصراخ وكل منهما يمسك بالآخر فحملتهما وأمرت خادمى بأن يحضر قليلا من السكر . فسكتا فى الحال وصارا يبتسمان خلال الدموع ويقرضان السكر الذىكان فى الأرجح أحلى ما ذاقاه مدة حياتهما الصغيرة الماضية . وكان عندى مناديل حمر احملها على الدوام معى لكى اقدمها هدايا فلففت كلا منهما فى منديل ووضعتهما على الصخرة كما كانا وسرت بعيداً عنهما . ونظرت اليهما بعد مدة فرايت انساناً هو امهما يزحف على الصخر اليهما . فلما بلغتهما عانقتهما ودغدغتهما بعد أن كانت قد يئست من حياتهما . وأخذت هذين الولدين فى لباسهما الجديد وعلى شفتيهما اثر السكر الحلو .

وبعد ايام ونحن لم نبلغ بعد داره جاءتنى الأخبار بانه فى مدة غيابى عن هذه البلدة اغار عليها هرون وانتهبها وفر ثانياً الى التلال ومعه الغنائم والسبايا العديدة . فأخذت ادلاء من القرى المجاورة وخرجت أتعقبه ولما أن صرنا على مسافة سفر يومين فى الجنوب الشرقى من الفاشر لقيت جنوده الذين لم يتوقعوا مجيئنا .

وقد وفقت للاقتراب منهم بدون ان يروني ثم حملنا عليهم حتى مزقناهم شر ممزق واستولينا على مقادير كبيرة من الأسلحة وأفرجنا عن السبايا اللواتي كن في حوزتهم . وقتل جواد هرون ولكن هرون نفسه مع بضعة من اتباعه تمكنوا من الهرب وبعد ايام قليلة انهزموا امام جيوش تلتل التي كان يقودها نور انجره وقتل هرون وبقتله عاد السلام الى البلاد وانتهت الثورة .

ولما عدت الى داره وافاني خطاب من جسي باشا من بحر الغزال يقول فيه أن الدكتور فلكن والقسيس ولسون مبعوث الرسالة الكنسية الانجليزية في طريقهما من اوغندا الى الخرطوم عن طريق داره ومعهما وفد من الملك متيسا الى جلالة ملك انجلترا . ورجاني جسي أن اقدم لهما جميع المساعدات التي في مقدوري وقال انهما قد شرعا في السفر الى داره في اليوم الذي كتب فيه هـذا الخطاب . وقد وصلا الى داره بعد ذلك بأيام قليلـة وتمتعت بصحبتهما مدة وجودهما عندي .

وقد أخبراني عن اشياء مهمة اما انا فقد حكيت لهما عن آخر الأنباء الاوروبية وهي وان كانت قد مضى عليها أشهر قد كانت مع ذلك جديدة عندهما .

وفي الصباح سمعت ان رجال وفد الملك متيسا لما رأوا الجمال اول مرة خافوا منها وفروا . فقلت للدكتور فلنكن : « بما انـك ستضطر الى اتمام سفرك على ظهر الجمال فمن الصواب ان تعتاد ركوب الجمال انت ومن معك . فأحضر رجال الوفد حتى ندربهم على ركوبها » .

فذهب وارسلت انا في احضار جمل من احد التجار . وكان جملا سمينا ضخما وحضر رجال الوفد وآخرون غيرهم فما رأوا

الجمل حتى طار صوابهم وفروا هائمين . ولم يوقفهم عن الاستمرار في العدو سوى ثباتنا انا والدكتور فلنكن واوضح لهم الدكتور فلنكن أن الجمل حيوان وديع صبور وانهم سيستأنفون السفر الى مصر عليه وليس فيه ما يدعو الى الخوف ولكنهم مع ذلك لم يتقدموا الا على حذر ووقفوا على مسافة منه لا يجسرون على لمسه وكان تعجبهم عظيماً عندما رأوا القواص يمتطيه ويسير به وينيخه . واخيراً تطوع أشجعهم لأن يركبه وساعدناه على تسنمه وقام به الجمل وهو خائف ولكنه اخذ ينظر الى رفقائه من مكانه العـــالى ويوضح لهم سهولة ركوب الجمال وملاذه . والظاهر انه دعاهم الى ركوبه فقد برك الجمل وتكاكاوا عليه جملة وارادوا جميعــاً الركوب وحاول بعضهم ان يركب عنقه وتعلق آخرون بذنبه وتعلق نحو ستة منهم برجله ودهش الجمل لأول وهلة لهذا الازدحام حوله ثم تنبه وأخذ يضرب برأسه يميناً وشمالا حتى نفض جميع هؤلاء « الوجنديين » عنه وهب وقفا وهم مبعثرون حوله . وأظنني لم اضحك فى حياتى قدر ما ضحكت فى هذه الفرصة . فقد ظن رعايا الملك متيسا (الوجنديون) أن الجمل جبل يتحمل اى عبء ويقوى على النهوض به ولبثوا مدة ذاهلين خائفين لا يقوون على الاقتراب منه ثانياً . ولكن أخذوا بالتدريج يتعلمون ركوبه فبدأ واحد ثم آخر يقترب منه ويركبه حتى انه عندما جاء ميعاد سفرهم كانوا جميعاً يعرفون كيفية قيادته .

.

وكان فى منزلى عدة اولاد من الذين استخلصناهم من ايدى النخاسين ولما لم يكن للدكتور فلنكن خادم يخدمه فقد اقترحت عليه أن يأخذ معه احد هؤلاء الاولاد فقبل ذلك مسروراً واعطيته صَبياً من الفرتيت يدعى كبسون وكان ذكياً فعزم الدكتور على أن يربيه فى أوروبا . وبعد سنتين ونصف سنة وانا بالفاشر جاءنى خطـــاب مكتوب بالانجليزية من كبسون هذا يشكرنى فيه لأنى اذنت لـــه

بالسفر مع الدكتور فلنكن الى « بلاد كل من فيها طيب القلب رؤوف» ويقول انه قد تنصر وانه أسعد الأولاد وارسل مع الخطاب صورته فى ملابس افرنجية .

وجاء ميعاد سفر صديقى وكانا فى اشتياق اليه فركب الجميع جمالهم وقاموا الى الخرطوم عن طريق طويشة .

وبعد مدة جائنى خطاب من مسدجاليه بك يقول فيه انـــه مسافر الى الخرطوم لكى يحضر زوجته ، ولكنه ما كاد يصل الى الخرطوم حتى نشب خلاف بينه وبين ولاة الأمور هناك فاستقـــال وعين بدلا منه مديراً على دارفور على بك شريف الذى كان قبلا مديراً على كردفان .

وقريبــاً من ختام سنة ١٨٧٩ او فى اوائل سنة ١٨٨٠ تسلمت خطاباً مكتوباً بالفرنسية من غوردون كتبه منذ شهرين قبل وصوله الى ضبره طابور فى الحبشة . وقد مزق الخطاب منذ سنين ولكنى اتذكر كلماته بالحرف تقريباً وهى :

عزيزى سلاطين

لما انتهت مهمتى مع الملك يوحنا عزمت على أن ارجـــع فى الطريق التى جئت منها . ولكنى وأنا بالجلابات أدركنى رجـــال تابعون للراس عدل واجبرونى على الرجوع وسياخذوننى محروساً الى كسلة ومنها الى مصوع . وقد أحرقت جميع الأوراق التى يخشى منها . وسيسقط فى يد الملك يوحنا عندما يعرف أنه ليس رئيس بيته .

صديقك ــ غوردون

الفصل الثالث

حــكومة دارفور

كانت سنة ١٨٨٠ سنة سلام وهدوء نسبيين فى داره . وكانت اهم اعــمالى ادارية فقد زرت تقريباً جميع القرى بنفسى وعرفت جميع القبائل العربية القوية التى كانت على الدوام مشتبكة بعضها مع البعض فى قتال متواصل أو موشكة على القتال وقد تمت عــدة مرار بالصلح بينها .

ووجدت فى ختام سنة ١٨٨٠ ان لدي عدة أشياء تستحــق مراجعة الحاكم العام فطلبت الاذن بالذهاب الى الخرطوم لــكى اقابل رؤوف باشا الذى صار حاكماً عاماً بعد سفر غوردون وقــد اجيب طلبى فبرحت داره فى سنة ١٨٨١ وبلغت الخرطوم بعــد أسبوعين .

هناك وجدت زربوخين الذى رحب بى وانزلنى بمنزله القريب من مكان الرسالة الكاثوليكية الرومانية وكان ملكاً للمرحوم لطيف دويونو وهو رجل ملطى كان نخاساً شهيراً .

وفى مدة اقامتى فى الخرطوم كنت أحادث رؤوف باشا كثيراً عن أحوال دارفور واقترحت انه يحسن عدلاً وانصافاً أن تخفض

الضرائب فى الفاشر وفى كبكبيه . وطلبت منه أيضا أن يأذن لى بأن أجبر العرب على أن يعطونى كل عام عدداً من العبيد لكى املأ بهم الفراغ الذى يقع فى الجيش بالأمراض والوفيات والحوادث . وطلبت أيضا منه أن يأذن للعرب بأن يدفعوا الضرائب عبيداً بدلا من المواشى لأنى أؤمل بهذه الطريقة أن استرجع الى جيشنا جنود (البازنجر) الذين كانوا ملتحقين بجيش سليمان زبير وصاروا الآن متفرقين فى القبائل وقلت ان معرفتهم بالأسلحة من أسباب الخطر الدائمة للحكومة . فوافق رؤوف على جميع طلباتى وأعطانى صكا مكتوباً بذلك .

ولما كنت فى الخرطوم جاءنى فى يوم ما من يدعى حسن ولد سعد النور وهو دارفورى وكان أبوه قد قتل مع وزير أحمد شحاته فى شقة ، فرجانى أن اتشفع له لكى يعود الى دارفور فقابلت رؤوف باشا وطلبت ذلك منه فرضى . ولكنه بعد أيام أرسل لى وقال انه عاد فالغى أمره وانه لا يسمح بعودة هذا الرجل الى دارفور . فقلت ان كل جنايته انه اشترك فى الثورة وقد فعل غيره ذلك وانه لا سبيل له الآن الى ايصال الأذى بالحكومة . ولكن رؤوف باشا أبى أن يوافقنى على رجوعه وشعرت أنا بالاهانة لأنى كنت وعدت هذا الرجل بأنه سيرجع فقلت لرؤوف باشا أنه بين اثنتين : اما رجوع الرجل واما قبول استقالتى وخرجت مغضباً فاستدعانى بعد ذلك بيومين وقال لى انى كنت مخطئاً فى وعد هذا الرجل بالرجوع فأقررته بذنبى فقال لى انه سمح برجوعه وانه يعتقد انى موظف عنيد ولكنى ذو كفاية ولذلك طلب من الخديو توفيق باشا أن يعيننى حاكماً لدارفور وأن يمنحنى لقب بك . فشكرته وأكدت له انى سأعمل جهدى لكى أحقق ثقته فى .

ثم طلب منى رؤوف باشا أن اكتب له ضماناً اتحمل فيه تبعة مسلك نور فى المستقبل . فكتبت هذا الضمان وأنا مسرور لأنى

شعرت انه بعد كل ماتحملت من المشاق لاجل رجوعه الى وطنه سيحسن سلوكه ويثبت ولاءه وامانته . ولما عدت الى منزلى ارسلت فى حضور نور وكان قد مضى عليه يومان وهو لا يدرى ما تنتهى اليه مسألته فلما اخبرته بانه قد اذن له بالرجوع الى وطنه انكب على قدمى واخذ يشكرنى ويكثر من الدعاء لى . وشعرت بانه رجل شريف يمكن الاعتماد عليه ولكنى كنت وقتئذ اجهل انى قد ضممت الى صدرى ثعباناً .

وانتهت اجازتى بالخرطوم بسرعة بين الاصدقاء الكثيرين . وقد وصل الينا فى أواخر يناير سنة ١٨٨١ الاسقف كومبونى والاب اوهر ولدر والاب دختل وكانوا قد جاءوا من القاهرة . ووصل اليها أيضاً حسن باشا رئيس المالية وبوسانى وهانسل القنصل وقد نزل أوهر ولدر ودختل فى منزلى وكم كان لنا من حديث معاً عن وطننا المحبوب .

وفى ٢٥ يناير سنة ١٨٨١ وصل جسى باشا الى الخرطوم وصحته فى غاية السوء . قد برح مشرى الرق وركب النيل قاصداً الى الخرطوم فحجز السد سفينته . والسد هو تلك النباتات التى تنمو فى النيل بكثرة بحيث يحتاج احياناً الى قطعها بالفؤوس لكى يشق طريقاً للسفينة وبقى ثلاثة اشهر وهو يعالج اجتياز السد ولقى الأمرين من جوع وأمراض بين رجاله . ومات أكثر رجاله وصار بعضهم ياكل بعضاً للجوع ، ثم انجده اخيراً ملدرو فى الباخرة بردين وحمله عليها الى الخرطوم حيث عنيت به الراهبات . ولكن الصدمة التى نالت جسمه كانت قد هدته فلم ينجح الدكتور زربوخين مع كل ما بذله فى رد عافيته اليه . ثم قررنا جميعاً ان يرسل الى مصر وبذلنا كل مجهود لكى يشعر بالراحة والرفاهية فى سفره . وكان يرغب فى أن ياخذ معه خادمه الماظ وكان خصياً . ولكن رؤوف

باشا خشى ان تتقول الاقاويل عن ادارته فى السودان بوجود هذا الخصى مع جسى باشا فرفض ان يأذن له بمرافقته · ولكن الحاجى والحاج زربوخين عليه جملاه يلين فى النهاية ويسمح له بالسفر معه . وفى يوم ١١ مارس حملنا جسى الى ذهبية الحاكم العام حيث سارت به الى بربر . ومن هناك حمل الى سواكن ونزل فى الباخرة التى نقلته الى السويس وكان قد تغلب عليه الضعف حتى لم يكن يقوى على الحركة · ووصل الى السويس فى ٢٨ مارس ونقل الى المستشفى الفرنسى ولكنه مات بعد وصوله بيومين ·

ولم تكن الحال فى هذه الاثناء على ما يرام فى دارفور فقد كتب الى زوجال بك يقول : ان عمر واد دارهو قد سار سيرة سيئة فى شقة وتدمت خطابه هذا الى رؤوف باشا فارسل اليه فى الحال تلغرافاً يأمره فيه بأن يسافر الى الفاشر .

ولم يعد لى فى الخرطوم ما يؤخرنى عن السفر فعزمت على ان اقوم بأسرع ما يمكن لكى اتسلم اعمالى . ووضع رؤوف باشا باخرة تحت تصرفى فتركت الخرطوم فى ٢٩ مارس ورافقنى الاسقف كومبونى والاب اوهرولدر الذى وعدته بأن أحمله على جمالى الى الابيض . وقد شيعنا هانسل القنصل وماركو بولى بك وزربوخين وماركيه الى طرة الحضرة حيث ودعناهم . ولم افكر وانا أودعهم اننى لن الاقى منهم بعد ذلك سوى واحد وأن تقدر لى العودة الى عاصمة السودان فى ظروف غريبة . وكنت شاباً يملأنى احساسى بالمركز الجديد الذى شغلته والتبعات العظيمة التى تحملتها بحماسة وأمل فى المستقبل . ولكن الاقدار كانت تخفى منا حظاً آخر .

وبعد مسيرة خمسة ايام بلغنا الابيض فبرحها الاسقف وقام بسياحة فى جبل نوبة اما الاب اوهر ولدر فقد بقى مدة ثم سافر فى اعمال الرسالة الى دلين فى جنوبى كردفان . ومكثت فى الابيض

بضعة أيام ثم تسلمت تلغرافا لكي أقوم الى فوجه فودعت صديقى وسافرت اليها . وكان مقدراً لى الا أرى صديقى الأسقف فانه مات فى الخرطوم فى سنة ١٨٨١ .

اما الثاني أوهر ولدر فقد حكم علينا القدر بان يمنى كل منا بمحن عديدة قبل أن نتلاقى اسيرين عند المهدى الذى كان يوشك ان يقلب ويقتلع كل نظام أو حكومة فى السودان :

ولما برحنا الابيض غذذنا السير حتى وصلنا دارة ومنها الى الفاشر حيث بلغتها فى ٢٠ أبريل . ووجدت الأحوال الادارية قد بلغت درجة عظيمة من الارتباك والفوضى فقضيت بضعة أشهر وانا اجتهد فى ايجاد شبه نظام فيها ونجحت فى ذلك بعد ان جلت فى أنحاء المديرية وباشرت عدة أعمال بنفسى وكبر نجاحى فى الاصلاح .

ولم اكن قد رايت بعد الجزء الشمالى الغربى من المديرية فتملت باخبار القتال بين عرب البادية وعرب المهرية وعولت على زيارة هذا الجزء . وفى منتصف شهر ديسمبر سنة ١٨٨١ برحت الفاشر ومعى ٢٠٠ من الجنود المشاة وبعض الخيالة غير النظاميين وكان يقودها عمر واد درهو .

وبعد مغادرتنا الفاشر حططنا رحالنا للمبيت قرب آبار مدجوب وهى تقع فى منتصف الطريق الى قبة فلما خيم الظلام خرجت امشى نحو الآبار وكانت ملابسى تشبه ملابس الجنود فلم يكن من السهل معرفة شخصى وتعدت قريباً من الآبار انظر الى النساء وهن يستقين . وجاء بعض الخيالة لكي يسقوا خيولهم وطلبوا من النساء ان يعطينهم دلاءهن . فرفضت النساء وقلن لهم : « بسنملأ جرارنا اولا ثم نعطيكم الدلاء » .

فقال احد الجنود : « لكأنكن تحكمن علينا بالعقاب من الله . وهذا جزاء منح الحرية للبلاد . والله لو لم يكن سلاطين معنـا لأخذناكن الثن وجراركن ملكاً لنا » فأجبته قائلات « الله يطـول عمره » .

فرجعت وانا في غاية السرور لاني سمعت بأذني شهـادة السودانيين بارتياحهم الى الاوروبيين الذين نجوهم من المظالم التي كانت تتسم بها حكومة البلاد السابقة .

ولما برحنا كبكبية وصرنا على مسيرة نصف يوم منها أدركتنا رسل ارسلها الينا آدم عمر برسالة مكتوبة بالشفرة الفرنسية بعثها الى مركوبولى بك باسم الحاكم العام . وكانت قد ارسلت لبـبلا الى فوجه ثم الى كبكبيه من طريق الفاشر وهذا نصها :

« اغار درويش يدعى محمد احمد بدون مسوغ على راشد بك وجنوده قريباً من غدير . وأباده هو والجنود . الثورة خطرة جدا . اعمل اللازم في مديريتك حتى لا ينضم الى هذا الدرويش اى واحد من الساخطين » .

فكتبت الرد في الحال وهو : « وصلت الى الرسالة . وسأتخذ الاجراءات اللازمة لانفاذ أوامرك » .

وقد كنت سمعت قبل وصول هذه الرسالة الى بمدة ان شيخا من مشايخ الدين قد ظهر واخذ يناوىء الحكومة ويحثا الناس على العصيان . ولكنى لما لم اسمع شيئاً عنه من الحكومة بصفة رسمية استنتجت أن مسألته قد سويت ولكن ابادة المدير راشد بك وجنوده

صارت تبدو لى الآن فى غاية الخطر . والظاهر أن الحركة قـد امتدت بنجاة ولكن من كان يمكنه وقتئذ التنبؤ بالنتائج الهائلة التى بلغتها فيما بعد هذه الحركة .

ولم يكن من الممكن الآن ان ارجع بعد ان شرعت فى السير نحو عرب البادية وعرب المهرية بدون أن اثير القلق فى النفوس من علة رجوعى فى نصف الطريق فعولت على ان اتمم هذه المهمة قبـل رجوعى .

ومن الغريب ان عرب البادية هؤلاء مع انهم محاطون من كل جانب بالمسلمين يكادون يؤلفون القبيلة الوحيدة التى لا تزال متعلقة بعادات الوثنية القديمة فى وسط افريقيا . فاذا سئل احد رؤسـائهم أن يصرح بدينه قال : (لا اله الا الله محمد رسول الله) ولكنه لا يعرف شيئاً غير هذه العبارة فهو يجهل القرآن ولا يصلى مع المسلمين .

وكانت عرب البادية يجتمع رجالها تحت شجرة كبيرة جداً من شجر الهجليك وقد فرشت أرضها بالرمل فيتمنون على الـه مجهول ما يريدون ويدعونه الى حمايتهم .

ولهم أعياد دينية تقع فى أوقات غير معينة فيصعدون الى التلال ويقفون على القمة التى يطلونها بالجير ثم يذبحون اضحياتهم . وهم طوال الأجسام لهم هيئة شريفة ولونهم اسود شديد السواد ولكن انوفهم دقيقة وأفواههم صغيرة وهم لذلك اشبه بالعـرب منهـم بالزنوج . ونساؤهم مشهورات بشعرهن الطويل السبط وبينهن جميلات يشبهن جميلات العرب . وهم يلبسون وزرة من جلود الحيوان ولكن النساء والطبقة العالية من الرجال يلبسون ملابس طويلة مصنوعة من قطن دارفور . وطعامهم غاية فى البساطة .

فهم لا يعرفون القمح ولا يزرعونه وانما يأخذون لب القرع الذي ينمو عندهم بكثرة وينقعونه في آنية مصنوعة من لحاء الشجر . ثم يقشرونه ويتركون اللب في الماء حتى تذهب عنه مرارته ثم يصفونه ويمزجونه بالملح ثم يجففونه ويطحنونه دقيقاً يخبز مع اللحم فيكون طعاماً .

ولهم عادات غريبة في الميراث . فاذا مات احدهم اجتمع اقاربه وحملوه الى قبره في الجبانة التي تقع عادة خارج الحلة أو القرية التي يعيشون فيها . فاذا دفن وقفوا مستعدين بنشار لهم اشارة خاصة فيعدون الى بيت الميت متسابقين فمن بلغه قبل غيره غرز رمحه او قوسه فيصير بذلك الوارث الوحيد لما ترك الرجل من مال ونساء ما عدا ام المتوفي وله الحق عندئذ في ان يتزوج النساء او يسرحهن حسب حالته المالية فان عدد النساء يتوقف على غنى الرجل أو فقره .

ووصلنا اخيراً الى كابو حيث اخبرني الزغاوة الكبير الشيخ صالح دنقوسة بأن رؤساء عرب البادية سيحضرون في الغد . واتفقت معه على أن تكون شجرة الهجلك مكان اللقاء والمفاوضة وان يكون ميعاد المفاوضة بعد ساعة من شروق الشمس ويكون هو ترجماناً بيني وبينهم . وامرت رجالي بنصب خيامهم على بعد نصف ميل من شجرة الهجلك ثم صففتهم في صباح اليوم التالي استعداداً للقاء رؤساء البادية الذين اخبرنا صالح المذكور بقدومهم ، ووقفت مع ضباطي ومع السنجق عمر واد دارهو متقدمين على الجنود بنحو مائة ياردة ومعنا الخدم وقوفاً الى جانب الخيول . ثم ظهر لنا رؤساء البادية قادمين الينا ومعهم صالح وايديهم مكتوفة الى صدورهم ورؤوسهم منكسة . وقد احضروا معهم ترجماناً فتبادلنا التحية بواسطته ثم أمرت ببسط السجاد على الأرض

ودعوتهم الى الجلوس عليه . أما أنا وضباطي فقد جلسنا على الكراسي ثم تناولنا شيئاً من السكر والماء والملح وشرعنا في المفاوضة .

وكان رجال البادية اربعة كلهم طويل شريف الهيئة ذو ملامح حسنة في سن الكهولة وكانت ملابسهم جلابيب بيضاء أحضرها لهم صالح وكانوا يحملون السيوف العربية المستقيمة وكانت أسماؤهم : جار النبي وبوش وعمر وكركره ولكني لست متأكداً بانهم لم يتخذوا هذه الأسماء العربية المطنطنة وقتياً للظرف الحاضر فقط . وكان اتباعهم يبلغون من ستين الى سبعين رجلا يلبسون القمصان والجلود وقد وقفوا وراءهم على بعد منهم . وقعد صالح دنقوسة قريباً من الشيوخ ومن المترجم .

وتكلم جار النبي مخاطباً المترجم قائلا « كرسي سلم » فقال المترجم : سلم يعني انه مستعد للترجمة ثم شرع في المفاوضة قائلا

« نحن من قبيلة البادية وقد كان آباؤنا واجدادنا يدفعون الخراج لسلطان دارفور كل سنتين أو ثلاث عندما كان يرسل جباته لجمعه . وأنتم الأتراك قد تغلبتم الآن على دارفور ولم تسألونا قط أن ندفع لكم خراجا . وأنت (لسلاطين) قد صرت حاكما للبلاد كما أخبرنا بذلك صديقنا واخونا دنقوسة ونحن نقر بطاعتنا لك وقد أحضرنا معنا رمزا لهذه الطاعة عشرة خيول وعشرة جمال وأربعين بقرة . فهل لك الآن أن تقرر قيمة الخراج المطلوب منا ؟ » .

وصارت النوبة الى في الكلام فبعد أن قلت « كرسي سلم » قلت أنا أشكركم على خضوعكم وسأطلب خراجاً صغيراً ولكني جئت

هنا لكى أطلب منكم ان تردوا الى المهرية جمالهم التى سرقتموها وتردوا اليهم أسراهم الذين تحبسونهم الآن » .

فتريث جار النبى هنيهة ثم قال : « منذ عهد آبائنا ونحن فى ثارات مع العرب المحيطين بنا فاذا قاتلناهم واسرنا منهم اسرى فمن حقنا أن نطلب فداءهم وكثيرا ما قبلنا قبلا فكاك أسرى المهرية » .

فسألت الشيخ حسب الله عن صحة هذه الدعوى فاجاب بالايجاب ، فسألته ثانياً هل كانت هذه العادة تجرى مدة سلاطين دارفور فقط او أنها جرت أيضاً بعد دخول دارفور فى حكم الحكومة المصرية » .

فأجاب : « قبل ان تفتحوا البلاد ومنذ سنتين غزت المهرية بلادنا فصددناهم فارتدوا عنا » .

فنظرت الى حسب الله ووجدت من عينيه ان الرجل يقول الحق فقلت « قد يكون ذلك ، ولكنى فى تلك الوقت لم احكم هذه البلاد وأنا أعرف أنكم فى تلك الأيام كنتم تعملون ما كنتم تظنونه صوابا ولست الومكم على ما فات ولكنى أنا الآن الحاكم واطلب منكم السير على رغبتى . فيجب اذن أن تردوا الاسرى ولكن بما ان المهرية قد بدأوكم بالهجوم فانا اسمح لكم بأن تحتفظوا بنصف الجمال برهانا على شجاعتكم فى رد غارتهم » .

فخيم سكوت طويل ثم أخذ الاربعة يتفاوضون معاً . واخيرا أجاب جار النبى بقوله : « سنطيع امرك . ولكن بما ان جمع الجمال يحتاج الى مدة طويلة لتفرقها فى انحاء البلاد فانه من الأسهل علينا ان نرد الأسرى » .

فقلت : « اذن التفتوا لما اقول ونفذوا هذه الأوامر باسرع ما يمكنكم . ردوا الجمال وأنا اعفيكم من خراج هذا العام لانى اعرف أن من الصعب أن تدفعوا الخراج وتردوا الجمال فى وقت واحد » .

ورأينا أن هذه التسوية قد وافقتهم حتى صاروا يكثرون من الشكر والدعاء فطلبت منهم البقاء لصباح اليوم التالى وقلت ان صالح سيمنى بكل حاجاتكم . ثم امتطينا خيولنا وامرت الجنود بأن يطلقوا ثلاث طلقات . وقد ذعروا عندما صكت آذانهم لأنهم لم يسمعوا اطلاق العيارات النارية قبلا . ثم أمرت صالحاً بأن يحضرهم لى فى صباح اليوم الثانى وركضت جوادى الى مضرب خيامنا .

وقضيت طول النهار وانا مشغول البال بشأن رجوعى الى الفاشر بدون أن يؤثر رجوعى فى نجاح بعثتى . ولم يكن من المتيسر لى أن أبقى حتى ارى رد الاسرى وكنت ايضاً قلقاً بشأن قرب الماء الذى أعطاه لنا المهرية وقد وبخت حسب الله لعدم اتقانه هذه المهمة .

ولما جاءوا فى صباح اليوم التالى سألتهم هل ارسلوا الرسل لجمع الاسرى والجمال فاجابونى بالنفى فقلت لهم فى لهجة التعنيف انى لن اقدر على الانتظار لكى أرى تنفيذ اوامرى بنفسى . فقال جار النبى : « نحن هنا يا مولاى لكى ننفذ اوامرك فيمكنك أن تسافر حين تشاء ونحن نسلم الاسرى والجمال الى دنقوسة وحسب الله » .

فقلت : « عندى اقتراح آخر . فانى لا اشك فى اخلاصكم وولائكم ولكنى احب أن أزيد معرفتى بكم ولذلك ارى أن تصحبونى انتم ومن تريدون أن يرافقكم الى الفاشر وفى اثناء غيابكم تنتدبون من

ترغبون فى ندبه لكى يسلم الرجال والجمال لحسب الله الذى سيبقى هنا مع دنقوسه . وعندما تبلغنى الأخبار وأنا بالفاشر بأن مندوبيكم قد فعلوا ذلك اردكم انا الى بلادكم مثقلين بالهدايا . انكم لم تزوروا الفاشر قبلا ويلذ لكم رؤية عاصمة المديرية وقوة الحكومة وانى واثق بانكم ستوافقون على اقتراحى هذا . وستسرون لما تشاهدونـــه هنالك حتى انكم ستوافقون بعد ذلك دائماً على كل ما أطلبه منكم فى المستقبل » .

فقال صالح ان الاقتراح حسن ولكنه قد سبق أن رأى الفاشر ولذلك هو لا يرغب فى زيارتها ثانياً . ورأيت من وجوه الآخرين انهم يستحسنون الفكرة وبعد محادثات طويلة وافقونى على السفر معى . وكانوا لعلمهم بأن سفرنا يتوقف على انتداب من يثقون به لتسليم الاسرى والجمال اخذوا يتشاورون بسرعة فى انتداب عدد منهم لكى يقوموا بهذا العمل ولما انتهوا من ذلك زودوهم بستة رجال لخدمتهم واخبرونى باستعدادهم للسفر . ولكنهم قبل ان يسافروا طلبوا منى ان يقسموا يمين الولاء فوافقتهم على ذلك . وكان لأخذ هذه اليمين حفلة نظامها كما يلى :

احضروا سرج جواد ووضعوه على الأرض ثم وضعوا فوقـــه قدرا تحتوى على فحم خشبى متقد وغرزوا فى السرج رمحاً . ثم تقدم شيخ بعد شيخ منهم وصار يتلو كل منهم كلمات ثم يقسم فى نهايتها اليمين التالية :

(لا تمس ساقى هذا السرج وليطعننى هذا الرمح ولتاكلنى هذه النار اذا انا نكثت بهذا العهد الذى أتعهد به أمامه) .

وبعد هذه اليمين المحرجة لم يكن ثم ما يريبنى فى ولاء هؤلاء الناس أو فى شرفهم وأمرت بالشروع فى السفر بعد الظهر وبرحلة

كاموا برفقة رؤساء البادية وحاشيتهم وأمرت صالحا وحسب الله بأن يخبرانى عن تنفيذ الاتفاق وتسليم الرجال والجمال . وكنت راغباً فى الوصول الى الفاشر بأسرع ما يمكننى ولذلك تركت رؤساء البادية مع فرقة المشاة وأوصيت الضباط بالعناية بهم طول مدة سفرهم ثم اصطحبت عمر واد دارهو وحرس الشايجية وأسرعنا فى السفر الى الفاشر .

وكان أول ما سمعته من الأخبار عند وصولى وفاة أميليانى دانزنجر الذى كان فى شقة . وقد كان قبلا مامور القبة ولكنى كنت ارسلته اليه لكى يمثل الحكومة فى جنوبى دارفور وكان يشكو من مرض القلب منذ سنوات ثم قضى عليه اخيراً . ولم يفهم الموظفون الذين حوله سبب موته هذا الفجائى ولذلك اشتبهوا فى أنه قد مات مسموماً فحملوه على جمل وارسلوه الى داره ففحص الجثة الصيدلى المقيم هنالك وقال ان الموت طبيعى ودفنت الجثة فى داره واقمت انا نصبا من الحجر عليه تذكارا لهذا المواطن المسكين الذى لقى حتفه فى هذه البلاد النائية .

ثم بلغنى ان فى شقة قلاقل قد جرت حديثا وانى محتاج لذلك للسفر الى داره والاقامة بها جملة ايام . وجاءتنا ايضا اخبار مزعجة من الحالة فى كردوفان والخرطوم ولكن كان المظنون فى دوائــر الحكومة أن الثورة ستقمع بالحملة العسكرية التى ارسلت لهــذا الغرض وبعد ايام وصل رؤساء البادية وقد أمرت بغية التأثير فيهم جميع جنود الحامية بالخروج والعرض امامهم وفى الليل اطلقنــا جملة اسهم نارية اكراماً لهم . وقد انتدبت المدير لكى يقوم بحراستهم وراحتهم ولكنى لسوء الحظ لم اتمكن من البقاء معهم طويلا . فما كادت الخيول تستريح حتى شرعت فى السفر الى داره يصحبنى عمر واد دارهو ومائتان من الشايجية وانتدبت السيد بك جمعة لكى يمثل الحكومة مدة غيابى .

الفصل الرابع

رواية الخليفة عن المهدى

ظهر لنا ان حركة الدراويش كانت خطيرة جداً . ولقد ولد هذا الرجل محمد احمد قريباً من جزيرة ارغوا من عائلة فقيرة خاملة ولكن افرادها كانوا يدعون انهم من نسل النبى . ولكن هذه الدعوى لم يكن احد يأبه لها وكان يعرف محمد احمد هذا باسم الدنقلاوى وكان أبوه فقيهاً عادياً وقد علمه القراءة والكتابة وهو صبى وأخذه الى الخرطوم ولكنه مات فى الطريق فى كريرى حيث بنى ابنه له بعد ذلك ضريحاً سماه « قبة سيدى عبد الله » .

ولم يجد محمد احمد من يعتمد عليه بعد وفاة ابيه فاخذ يدرس ويثابر على القراءة وكانت نفسه تنزع الى التفقه فى الدين فأحبه استاذه واوصاه بحفظ القرآن عن ظهر قلبه . ثم سافر الى بربر وتتلمذ لمحمد الخير فاتم عليه تعليمه الدينى وبقى جملة سنوات فى بربر يدرس ويقرأ وكان لتواضعه وذكائه محبوبا وفى حظوة من جميع المعلمين . ولما بلغ سن الرجولة غادر بربر الى الخرطوم فصار تلميذا للشيخ محمد الشريف وكان رجلا وقورا مشهورا وكان أبوه نور الدائم صاحب الطريقة السمانية المعروفة .

وواجب شيخ الطريقة ان يكتب فقرات من الأدعية والحديث فيحفظها تلاميذه عن ظهر قلب ويكررون تلاوتها حتى يتمهد بذلك لهم الطريق الى تصور الجنة التى هى غاية كل مؤمن . ولكل شيخ مذهبه وهو يحمل اسم مؤسس الطريقة مثل طريقة الخاتمية والخضرية والتعانية والسمانية الخ . وتلاميذ اصحاب الطرق هؤلاء يطيعونهم ويلزمونهم .

واظهر محمد أحمد تعلقه بالطريقة السمانية وتعلق بصاحبها الشيخ محمد شريف ثم رحل الى جزيرة أبه فى النيل الابيض قريبا من كاوه وحوله جماعة من تلاميذه المخلصين المتعلقين به . وكانوا يرتزقون بزرع الارض كما كانت تاتيهم هدايا عديدة من المؤمنين الذين كانوا يمرون عليهم فى النيل صعوداً او هبوطاً وكان عم محمد احمد مقيماً فى الجزيرة منذ سنوات فتزوج ابنته محمد أحمد . وكان اخواه محمد وحامد يعيشان هناك وكانا يشتغلان بصنع القوارب ويعاونان أخاهما على العيش . وحفر محمد أحمد لنفسه شبه صومعة فى شاطىء النيل وكان يعيش هناك بعيداً عن الناس وكان يصوم عدة أيام ولا يزور رئيس الطريقة الا من وقت لآخر لكى يثبت له اخلاصه .

وحدث فى احد الايام ان محمد شريف جمع لمناسبة ختان أبنائه مشايخ الطريقة والتلاميذ واذن لهم فى الغناء والرقص لأن الله يغفر فى مثل هذه الظروف الخاصة فى الافراح ما يحدث من الخطايا والذنوب المخالفة ولكن محمد احمد لما انطبع عليه من التقى والصلاح استنكر الغناء والرقص وضروب الطرب الاخرى . وأوضح لأصدقائه مخالفتها كلها للدين وأنه لا يمكن أى انسان مهما كان قدره ولو كان شيخ طريقة أن يترخص فيها . وبلغت هذه الاقوال محمد شريف فأكبر من محمد أحمد وعظ تلاميذه واستنكر الحجج التى

ابلى بها وطلب منه أن يبرر اقواله . وكانت نتيجة ذلك ان تقدم محمد احمد بالاعتذار وهو يتذلل امام التلاميذ والاتباع ويطلب الصفح . ولكن محمد شريف أخذ يلعنه وينسب اليه الخيانة والخروج على شيخه بعد ان اقسم يمين الولاء له ثم محا اسمه من قائمة الاتباع المذكورين فى الطريقة السمانية .

فذل محمد احمد وصغر وذهب الى أحد اقاربه وطلب منه أن يصنع له « شعبة » والشعبة عبارة عن خشبة مشقوقة يوضع العنق فى شقها فتنضم عليه وتؤلم الانسان بذلك ألماً شديداً . ثم ذر على وجهه رماداً وعاد الى محمد شريف فى هذه الهيئة يرجو الصفح ويقر بالتوبة والندم ولكن شيخ الطريقة رفض أن يخاطبه فعاد محمد احمد خائباً الى اهله فى ابه وكان يحترم مؤسسى الطريقة السمانية الشيخين نور الدائم والطيب احتراماً عظيماً ولذلك كان لطرده من طريقتهما وقع عظيم فى نفسه لا يكاد يحتمله .

وحدث بعد ذلك ان سافر محمد شريف الى بلدة قريبة من ابه فذهب اليه محمد احمد فى الشعبة ووجهه ملطخ بالرماد يستغفر ويتوب ولكن الشيخ طرده افظع الطرد وقال له : « اخسأ عنى يا خائن . اخسأ أيها الدنقلاوى الشقى الذى لا يخاف الله والذى يخرج على معلمه ومولاه . لقد حققت قول من قال : الدنقلاوى شيطان مجلد بجلد انسان . انك تثير الشقاق بين الناس فاخسأ عنى فانى لن أغفر لك » .

وكان راكعاً يسمع هذا الكلام الجارح ثم انتصب وخرج والدموع تنهل من عينيه ولكن هذه الدموع لم تكن دموع الندم بل دموع الغيظ والحقد اللذين كان يتلظى بهما قلبه وكان مما يزيده غيظاً قلة حيلته فى غسل هذه الفضيحة من نفسه . فعاد الى اهله واخبرهم أن محمد شريف قد طرده ولن يقبله فى الطريقة ثانياً وانه

قد عزم على أن يطلب من الشيخ القريشي أن يقبله في طريقته وكان هذا الشيخ قد خلف الشيخ الطيب جد محمد شريف وقد أذن له في تعليم الطريقة السمانية واعطاء العهد منها وكان بينه وبين محمد شريف لهذا السبب غيرة شديدة .

وجاء جواب الشيخ القريشي يقول فيه انه مستعد لقبوله - وتهيأ محمد احمد هو وتلاميذه للذهاب الى مسلمية حيث الشيخ القريشي وأخذ العهد منه . وبينما هو في ذلك واذا برسالة من محمد شريف قد وصلته يقول له فيها انه يأمره بالقدوم وانه قد عزم على الصفح عنه وعلى الاذن له بان يعود الى ممارسة الطريقة . فرد عليه محمد احمد رداً ابياً قال فيه إنه لا يطلب الصفح لأنه لم يذنب وانه لا يحب ايضا أن ينقص مكانة الشيخ بان يجتمع به ملتأ امام الناس وهو « دنقلاوى شقى »

واستقبله الشيخ القريشي مرحباً وانتشرت حكاية رفض محمد احمد قبول الصفح من شيخه في جميع انحاء السودان . ولم يكن الناس قد سمعوا بمثل هذا العمل من قبل واخذ محمد احمد يصرح بأنه ترك مولاه القديم لأنه قد خالف الدين جهرة . فعطف عليه الناس عطفاً كبيراً لهذا السبب وجعلوا يتحدثون به وكبر مقامه في عيونهم وقد بلغت هذه الحادثة أهل دارفور وصارت حديثهم وصار هو بطلا يعجب به لرفضه الطاعة لمولاه .

وحصل على اذن من الشيخ القريشي بان يعود الى ابيه حيث كان يزوره الناس من جميع البلاد يتبركون به وصارت العامة تهرع اليه وترى فيه مظلوماً خرج على ظالمه وابى الضيم : وكانت تأتيه الهدايا فيفرقها بين الفقراء ولا يأخذ شيئاً منها لنفسه حتى صار يلقبه الناس بلقب « الزاهد » .



ثم سافر الى كردوفان حيث يكثر الفقهاء . وهم من أجهل الناس واكثرهم خرافات . فلقى نجاحاً عظيماً بينهم . ووضع رسالة وزعها بين اتباعه المخلصين حضهم فيها على تطهير الايمان الذى فسد وانحط بفساد الحكومة وعدم احترام الموظفين أركان الدين .

وبعد اشهر مات الشيخ القريشى فذهب محمد احمد واتباعه الى مسلمية حيث بنوا له ضريحا له قبة تذكاراً له .

وحدث فى هذا الوقت ان جاء رجل يدعى عبد الله بن محمد التعايشى من قبيلة البقارة أى الذين يقتنون البقر وطلب من محمد احمد أن يدخل فى الطريقة السمانية فقبله محمد أحمد واقسم أمامه يمين الولاء . وكان عبد الله هذا اكبر اخوانه الاربعة وكان أبوهم يدعى محمد التقى من قسم الحبيرة من فخذ التعايشى . وكان هذا الفخذ ينتسب الى « أولاد أم صورة » وكان لعبد الله اربعة أخوة ثلاثة ذكور وهم يعقوب ويوسف وسمانى وأخت تدعى فاطمة . وكانت علائق ابيهم باسرته سيئة ، ولذلك عزم على مهاجرة السودان والحج الى مكة ثم الاقامة فى جوار الرسول بالمدينة . وقد وصف اولئك الذين عرفوا محمدا التقى هذا بانه كان رجلا صالحاً متحرجا يؤدى واجباته الدينية بدقة ويشفى الامراض بالتعاويذ والتمائم وكان ايضاً يعلم الناس القرآن .

وكان عبد الله ويوسف اشد أولاده عصياناً وقد لقى منهم الأمرين فى تعليمهم بعض الآيات الضرورية للصلاة . أما يعقوب وسمانى فكان فيهما شىء من طبع والدهما وهدوئه وقد حفظا آيات القرآن وبعض الشروح وكانا يعاونانه على تأدية واجباته الدينية .

وقد اشتركت اسرة التعايشى فى مقاومة الزبير عند فتحه دارفور . وقد حكى الزبير بانه عندما كان يقاتل فى الشقة وقع

عبد الله اسيرا وكان أوشك ان يقتله لولا أن توسط بعض الفقهاء. وعرف له عبد الله هذه المأثرة فجاءه يوماً يقول له انه راى في نومه رؤيا تتلخص فى أن الزبير هو المهدى المنتظر وانه هو عبد الله احد اتباعه . قال الزبير :

« فقلت له اننى لست المهدى ولكنى لعلمى بشراسة العرب وأنهم اقفلوا الطرق قد جئت لفتحها واعادة التجارة الى ما كانت عليه » .

ولما انتهى الصلح مع الزبير عاد التقى هو واولاده عن طريق قلقة وشقة التى بقوا فيها سنتين ثم غادروها الى دار قمر عن طريق دار احمر والابيض . وكانوا قد نزلوا ضيوفاً على شيخ دار قمر وبقوا عنده عدة اشهر ومات هناك ابوهم التقى فدفنوه فى شرقلة وقبل موته أوصى اكبر أبنائه عبد الله بأن يحتمى ببعض المشايخ ثم يهجر هو واسرته السودان الى مكة حيث يعيشون بقية حياتهم ولا يرجعون الى السودان .

وسافر عبد الله وترك اخوته طبقاً لوصية ابيه فى عناية الشيخ عساكر ابو كلام وسمع فى طريقه عن الشقاق بين محمد أحمد وشيخ طريقة السمانية التابع لها وعزم على أن يذهب الى محمد أحمد وأن يطلب منه الاذن بالاندماج فى طريقته .

وقد قال لى بعد ذلك الشيخ عبد الله بن السيد محمد خليفة المهدى : « كان سفرى شاقا جداً . وكان كل ما أملكه فى الدنيا حمارا له دبرة فى ظهره فلم اكن استطيع ركوبه وانما كنت اضع عليه قربتى وغرارة القمح وابسط فوقهما ثوبى المصنوع من القطن واسوقه امامى . وكنت فى ذلك الوقت البس ثوباً فضفاضاً من القطن مثل سائر رجال قبيلتى . العلك تتذكر هذا الثوب يا عبد القادر » .

. (وكان يسميني عبد القادر فاذا كان احد آخر قاعداً وله هذا الاسم فانه كان يدعوني باسم عبد القادر صلاح الدين اى سلاطين) .

وكانت ملابسي ولهجة كلامي تدلان على أني غريب وبعدما عبرت النيل كان كلما قابلني أحد قال لي : ماذا ترغب هنا . اذهب الى بلدك . ليس هنا شيء تسرقه واهل النيل يسيئون الظن بنا لأن التجار الذين كانوا يذهبون الى الغرب للزبير كانوا يلاقون عنتاً كبيراً من العرب وكنت عندما أسألهم : اين المهدى المعروف باسم محمد احمد واين يقطن ؟ كانوا ينظرون الى متعجبين ويقولون : وأنت ماذا ترغب منه . انه لا ينجس شفتيه بذكر اسم قبيلتك .

« ولكن لم القى هذه المعاملة من كل الناس فان بعضهم كان يشفق على ويدلني على الطريق . وكنت مرة اجتاز قرية فأراد بعض اهلها ان يستلبوا مني حماري متعللين بانه سرق منهم في العام الماضي وكادوا ينجحون في ذلك لولا ان توسط رجل صالح وأجازني القرية بحماري . وكنت طول الطريق عرضة للسخرية والتهزئة ولولا ان البعض كان يشفق على ويعطيني شيئاً من الطعام لمت جوعاً . وبلغت بعد الجهد مسلمية فوجدت المهدى مشغولاً ببناء ضريح للشيخ القريشي . فما هو ان رايته حتى ذهب عني كل ما عانيته من المشاق وقعدت راضياً اعاينه واسمع اقواله وتعاليمه . وبقيت ساعات لا اجسر على فتح فمي امامه ثم تشجعت وأخبرته بقصتي والحالة السيئة التى صار اليها اخواني وعزمت عليه بالله والرسول الا ما ادخلني في طريقته . ففعل ومد الى يده فقبلتها مشتاقاً واقسمت له بالطاعة العمياء طول حياتي . وقد حافظت على هذا القسم حتى رفعه ملك الموت وسيرفعنا ايضاً يوماً ما ولذلك يجب أن نستعد للقائه في كل وقت » .

وكان عبد الله التعايشي كثيراً ما يحادثني بمثل هذه الاحاديث يبعث الى في الليل لكي اسامره فأقعد انا على الأرض ويقعد هو

على العنجريب الفاخر المفروش بحصير السعف . وكان يثق بى ولا يخفى عنى شيئاً فى الأول أما بعد ذلك فصار يتشكك من جهتى .

وكان يحب التملق وكنت أغلو انا فى ذلك فافوت الحدود ولكنى كنت ارغب فى أن يتم حديثه فقلت له : « اجل يا مولاى لقد حفظت وعدك وكافاك الله فبعد أن كنت محتقراً مهيناً قد صرت الآن رئيس البلاد وملكها . ولقد كان يحق لأولئك الذين سبوك واهانوك ان يشكروك ويعترفوا بفضلك فانك لم تنتقم منهم بل حلمت وتمالكت فثبت بذلك انك خليفة النبى » .

قال عبد الله : « لما اقسمت يمين الولاء للمهدى احضر احد تلاميذه ويدعى على وقال له ولى : انتما منذ الآن اخوان فليؤيد كل منكما الآخر وانت يا عبد الله اطع ما يامرك به اخوك .

« وكان على يجاملنى وكان فقيرا مثلى وكان كلما ارسل اليه المهدى طعاماً يشاركنى فيه فاصيب منه . وكنا فى النهار نحمل الطوب لبناء الضريح وفى الليل ننام على فراش واحد وتم بناء القبة بعد شهر وكان الزائرون يتوافدون على المهدى بالمئات فلم يكن لديه من الوقت ما يمكنه أن يرانى أو يفكر فى ولكنى كنت أعرف ان لى فى قلبه مكانة حتى انه جعلنى أحد حملة البيارق ولما غادرنا المسلمية كان الناس يهرعون الينا لكى ينظروا المهدى وكانوا يسمونه فى ذلك الوقت باسم محمد أحمد فقط وكانوا ينصتون الى اقواله ويرغبون فى بركته .

« ولازمتنا هذه الحال حتى بلغنا جزيرة أبه . وكان نعلاى قد بليا وكنت قد اضطررت الى اعطاء حمارى للمقدم (وهو رئيس التلاميذ) لكى يحمل عليه رجلا مريضاً . ولكنا وصلنا فى النهاية

الى بيت المهدى وهنا اصابتنى دوسنطاريا شديدة فأخذنى « أخى » على الى عشته المصنوعة من القش ولم تكن تكاد تسع اثنين وكان يأتينى بطعامى ويحمل الى الماء للوضوء .

« وذهب فى مساء أحد الأيام لاحضار الماء ولكنه لم يرجع . وفى صباح اليوم التالى أبلغت إنه وهو يستقى من النيل هجم عليه تمساح وافترسه . الله يرحمه . الله يغفر له » .

فكررت انا هاتين العبارتين وقلت : « ما أعظم صبرك يا مولاى . من اجل ذلك قد رفع الله مرتبتك . وهل لى يا مولاى ان اسألك هل اعارك المهدى التفاتة مدة مرضك » ؟ .

فقال : « كلا . فقد اراد المهدى ان يبلونى . ولم يخبره أحد بمرضى الا بعد وفاة على وجاءنى بعد ذلك فى مساء احد الأيام وكنت منهوكاً لا اقوى على النهوض فقعد بجانبى واعطانى مديدة سخنة من قرعتى وقال لى : اشرب هذا وثق بالله فانك ستشفى .

« ثم غادرنى وجاء بعض الاخوان فحملونى بأمره الى عشة قريبة من عشته . وكان هو نفسه يعيش فى عشة بسيطة . ومنذ أعطانى المديدة وانا آخذ فى التحسن والشفاء على حد وعده لى فانه لا يكذب ولا يقول الا الصدق » .

فأقول انا هنا : « المهدى لا يكذب ولا يقول الا الصدق وانت خليفة وقد سرت فى اثره واتبعت أوامره » .

ويتم الخليفة حديثه فيقول : « فلما اقتربت منه عادت الى صحتى بسرعة لأنى كنت اراه كل يوم وكنت أرى فيه نور عينى واسكن الى قربه . وكان يسألنى من عائلتى ويقول انه يحسن بهم البقاء فى كردوفان فى ذلك الوقت وكان آخر شىء يفوه به لى قوله :

« ثق بالله » . ثم اكثر من زيارته له وكان ياتينى كل يوم مرارا وباح لى يوماً بسره وقال لى ان الله قد بعثه مهدياً وان النبى قد أخذه الى حضرة الانبياء والرسل ولكن قبل أن يقول هو ذلك لى كنت انا اعرف منذ رأيت وجهه أنه هو المهدى المنتظر . أجل ما كان اسعد أيامنا فى ذلك الوقت . لا هموم ولا متاعب . والآن يا عبد القادر لقد سهرت وتأخرت . قم واذهب الى فراشك » .

فاسلم عليه واقول وانا خارج : « اطال الله عمرك وقواك على هداية المؤمنين فى الطريق السوى » .

ووجد المهدى فى شخص عبد الله أداة مطاوعة تقوم بما يطلبه منها . ومما يعجب له الانسان انه لولا شجار محمد احمد مع محمد شريف لما ارتفع شأنه . فانه أصبح ذا شهرة بعيدة فى جميع أنحاء الجزيرة (اى القسم الواقع بين النيل الأبيض والنيل الأزرق) وصار يمنى نفسه بالمراكز العليا التى كتبت له فى صحيفة القدر . وجعل يخبر اتباعه فى السر ان الوقت قد آن لتطهير الدين وانه سيقوم هو نفسه بهذا العمل فمن يرغب منهم الاشتراك معه فلينضم اليه . وكان يسمى نفسه « عبد الله » ويوهم من يحضره انه يعمل عن وحى من الله وقد أعلمه الخليفة بكل ما تجب معرفته عن قبائل الغرب وأخبره بأن فى هذه القبائل شجاعة وايد وانها اذا لاحت لها الفرصة للدفاع عن دين الله ورسوله فانها لن تتاخر عن اغتنامها فتهب للموت أو الظفر .

ونصح الخليفة للمهدى بان يقوم بسياحة فى كردوفان لكى يجذب اليه القبائل وقام كلاهما الى دار قمر (جمر) حيث كانت عائلة الخليفة التى انضمت إليهما . وقد أخبر المهدى أعضاء هذه العائلة بأن الوقت لم يحن بعد بتركهم بينهم اما الآن فمن الانفع أن يحضوا القبائل النازلة حولهم على الانضمام للمهدى .

وبرح المهدى دار قمر الى الأبيض حيث زار الاعيان والمشايخ وكان يحادثهم ويستطلع اراءهم ويؤسس لترسماته المستقبلـــة . وكان يسر الى أولئك الذين يثق بهم كل الثقة انه أمين على رسالة مطهر الايمان الذى افسده الموظفون . وكان السيد المكى رئيس مشايخ الأبيض امينه الذى وثق به وقد نصح له بأن الوقت الحاضر لا يلائم الثورة لأن الحكومة قوية والقبائل منشقة بعضهـــا علـــى بعض . ولكن المهدى كان أكثر تفاؤلا واتفق كلاهما على الا يتحرك الشيخ حتى يشرع المهدى فى الحركة التى سيكتم أمرها الى حين اعلانها .

ولما غادر المهدى الابيض سار الى تاج الله حيث التقى بمك آدم حاكم المركز الذى استقبله استقبالا حسناً ولكنـــه لم يعـــده بالتأييد لأن القاضى نصح له بالا يعد هذا الوعد ثم عاد الى أبه عن طريق شرقلة ٠

وكان محمد أحمد فى اثناء سياحته ينظر فى أحـــوال البـــلاد ويتدبرها وقد ادرك ان الطبقات الفقيرة فى الأمة تكره الحكومة اشد الكره وذلك لكثرة الضرائب الفادحة المضروبة عليها كما بينت ذلك فى أحد فصولى الماضية ، وكانت هذه الطبقات تعانى ما يوقعه بهـا الجباة الغلاظ السفلة من ضروب الظلم والعسف . وكان بين هؤلاء الجباة عد من السودانيين لم يكن تفلت منهم فرصة لاثراء أنفسهم وتوظيف اقاربهم بغية تحقيق هذا الغرض ايضاً . وقد عين غوردون التاجر السودانى الثرى الياس ومنحه رتبة باشا فـــكان لهـــذا التعيين اثر سيء فى نفوس الأهالى ٠ وهذا القول ينطبق على تعيين قريبه وهو تاجر ثرى ايضاً يدعى عبد الرحمن بن نجا . وكان كلاهما على كفاية يعرف حالة البلاد وكيفية حكم الأهالى ولكنهمـــا كانا يشتغلان لمصلحتهما .

ونتج عن تعيينهمـــا أن انتشر روح التحاســـد بين كبـــار السودانيين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أهلا لمثل وظيفة الياس أو قريبه عبد الرحمن . ولما أرسل الياس باشا الى ملك ادم يطلب منه دفع الضرائب رفض ملك آدم هذا الطلب رفضاً باتا مدعيا بانه من سلالة ملوكية وقال فى رفضه : « انى أدفع للتجار اثمان البضائع التى أشتريها ولكنى لا أدفع لأحد خراجاً . وفى الوقت نفسه أرسل الى الابيض يسأل هل مات الاتراك وسائر البيض حتى صـــارت الحكومة تعين التجار حكاماً بـدلا من ان تعين الأشراف وذوى البيوتات . وكان هذا سبب فصل الياس باشا وعبد الرحمن مـــن وظيفتيهما وتعيين الأتراك والمصريين فى مكانهما .

اما عن الموظفين الأوربيين فلم يكن فى السودان سوى عدد قليل . وكانوا محبوبين ومحترمين لأن الناس كانوا يثقون بهم ولكنى لا اشك فى ان بعض الاستياء كان يعزى اليهم . فربما أصدروا أوامر مصدرها حسن النية ولكنها كانت تخالف عادات الأهـــالى وتقاليدهم . ثم انى لا اشك فى ان موقفنا تجاه مسألة الرقيق قـــد أحدث استياء عظيماً بعيد المدى . فان الدين يأذن بالرقيق وقـــد كانت الأرض منذ عهد بعيد تفلح بالعبيد وكان العبيـــد يوكلـــون بالعناية بالماشية . ولست أشك فى أن النخاسة كانت تتطلب ارتكاب فظاعات وسفك دماء ، ولكن هذه الفظاعات لم يكن يبال بها او يفكر فيها مشترو العبيد وكانوا على وجه العموم يعاملون عبيدهم معاملة غير سيئة . ولم نقتصر نحن على منع تصدير الرقيق بل كنا ايضاً نسمع شكاوى العبيد ، وكنا على الدوام نحرر العبد الذى يشتكى مولاه .

وانتهز محمد أحمد فرصة الاستياء هذه من وجوهها العديدة وكان يعرف أن الدين هو العامل الوحيد فى ربط هـــذه القبـــائل

المتنازعة . فاعلن انه « المهدى المنتظر » فصارت له بذلك شخصية فوق شخصية اى انسان آخر وكان يأمل بذلـــك أن يطـــرد من السودان جميع الأوربيين والمصريين والأتراك • ولكنـــه لم يكن يعتقد أن الوقت قد حان بعد لأن يعلن جهاراً هذه الدعوة . فعمد الى تأييد دعوته بزيادة الأنصار واستمر على ذلك حتى صارت دعوته سراً مكشوفاً .

وكان محمد شريف قد أخبر رؤوف باشا الحاكم العام سرا بنية محمد احمد ولكن نزاعه السابق معـــه جعـــل ولاة الأمـــور لا يصدقونه واستنتجوا أنه يدس لخصمه الذى ذاعت شهرتـــه لصلاحه وتقواه . ولكن الحكومة علمت بعد ذلك من مصدر آخـــر أن محمد أحمد خطر على الأمن العام ونوت نية صادقة على أن تنتهى منه .

ولهذا الغرض ارسل رؤوف باشا يطلب محمد بك ابو السعود وامره بالسير فى الباخرة الى ابه واحضـــار محـــمد احـــمد الى الخرطوم . ولكن أصدقاء المهدى وانصاره احاطوه علمـــاً بنيـــة الحكومة واخبروه انه اذا حضر للخرطوم فسيعتقل بها وأن اعتقاله ليس الا من دس محمد شريف ، فلما وصل ابو السعود بك الى ابه استقبله عبد الله التعايشى وشقيق لمحمد احمد وقاداه الى حيث مقام الشيخ . فاخبره ابو السعود عن التقارير التى بلغت للحكومة عنه وهى بالطبع كاذبة ومن الاشاعات التى تشاع عنه وطلب منه لذلك أن يسافر الى الخرطوم ويكذب هذه الاشاعات التى اشيعت عنه امام الحاكم العـــام • فاجاب محمد احمد وقد وقف فجاة وضرب صدره بيده قائلا : « ماذا تريد منى . وحق الله ورسوله ما انـــا الا سيد هذه البلاد ولن اذهب الى الخرطوم لكى ابرىء نفسى » •

فتراجع أبو السعود للوراء مذعورا من هذه اللهجة واخذ يهدىء روع المهدى بكلمات رقيقة . ولكن المهدى الذى كان قد رتب هذا المنظر التياترى مع عبد الله ومع شقيقه صار يتكلم بحماسة وحرارة ويحض أبا السعود على ان يؤمن بما يقوله .

اما أبو السعود فكان الآن مهموماً بنفسه لا يبالى الا بان يرجع الى الخرطوم ، ورجع بالفعل وأخبر الحاكم العام بحبوط مهمته .

وأدرك محمد احمد انه ليس هناك مجال لاضاعة الوقت وان مستقبله يتوقف على مجهوده فلم يتوان عن الكتابة الى جميع أنصاره فى انحاء السودان يستثيرهم على الحكومة . اما الانصار القريبون منه فقد امرهم بان يستعدوا للجهاد .

وفى هذه الاثناء لم يكن رؤوف باشا مهملا امر المهدى ، فقد عرف من حديثه مع ابى السعود ان خطورة المسالة عظيمة جداً فعزم على ارسال فصيلتين للقبض على المهدى ووعد كلا من قائدى الفصيلتين بان يرقيه الى رتبة بكباشى اذا كان هو القابض عليه قبل الآخر وأراد من ذلك أن يحثهما على الاجتهاد والمنافسة ولكن عواقب هذا العمل كانت وخيمة جداً .

فان الجيش الذى كان يقوده أبو السعود نزل الباخرة « اسماعيلية » وكان بها مدفع فبرحت الخرطوم فى اغسطس سنة ١٨٨١ وسارت الى أبه . وكان هذا الجيش مؤلفاً من فصيلتين على كل منهما قائد . وقد اختلف هذان القائدان الواحد مع الآخر والاثنان مع ابى السعود وعرف محمد احمد بالحملة الموجهة اليه فاستعان بقبيلتى دغيم وكنانة فأعانتاه واستعد هو للمقاومة وأخبر من حوله

بان النبى قد ظهر له وقال له ان كل من اشترك معه فى هذا الجهاد سيعطى لقب « الشيخ عبد القادر الكيلانى » ولقب « امير الأولياء» وهما لقبان محترمان عند المسلمين . وعندما تفاقمت الحالة وعظم الخطر لم يتقدم للجهاد سوى عدد قليل سلموا انفسهم واموالهم المهدى .

ووصلت الباخرة الى أبه عند غروب الشمس وعلى الرغم من اوامر ابى السعود نزلت الفصيلتان لأن كل ضابط كان يرغب فى الحصول على رتبة بكباشى قبل الآخر . اما ابو السعود الذى كان قد انغرس الخوف فى قلبه منذ قال محمد أحمد أنه مولى البلاد فقد وقف بالباخرة فى وسط النهر ومعه مدفعه . وكان الضابطان كلاهما يجهلان المكان وكلاهما يرغب فى الحصول على رتبة بكباشى فسارا فى طريقين مختلفين على الشواطىء المتوحلة قاصدين عشة محمد أحمد . ولكن محمد أحمد كان قد ترك عشته واخذ أنصاره وتسلحوا كلهم بالسيوف والحراب والهراوات واختبأوا فى الديس . والتقت ألفصيلتان عند القرية كل منهما قد أتت من جهة مقابلة للجهة التى اتت منها الأخرى وأطلقت كلتاهما النار على القرية الخالية من السكان فاصابت كل منهما الأخرى وحدثت خسائر خطيرة من الطرفين . وفى وسط هذا الارتباك هب اتباع المهدى من كمينهم وضربوا الجنود الذين كان قد فقدوا قوتهم المعنوية فتشتتوا فى كل مكان . وتمكن بعض الجنود من أن يصل الى الشاطىء وأن يسحبوا الى الباخرة ورعب ابو السعود وأراد أن يبحر بالباخرة الى الخرطوم فى الحال . ولكن الريان أشار عليه بالبقاء للصباح لعل بعض الفارين من الجنود يتمكنون من الوصول الى الباخرة . ولكن لم يأت احد وفى الفجر اقلعت الباخرة تسير باقصى سرعتها حاملة هذه الأخبار المحزنة .

ويمكن أن ندرك نتيجة انتصار محمد أحمد . فـان رجالـه خرجوا من المعركة سالمين لم تنلهم خسائر قط او اذا كانوا قـد أصيبوا فاصاباتهم كانت طفيفة جداً . وقد جرح محمد أحـمد فى ذراعه فضمد جرحه عبد الله التعايشى ونصح له الا يخبر اتباعه به . والى هنا كان عدد اتباعه لا يزال صغيراً لأن الناس كـانوا يعتقدون أن الحكومة ستتخذ اجراءات فعالة لاخماد حركته .

واخذ عبد الله واخوته يحضون محمد احمد على ان يجعـل المسافة بينه وبين الحكومة بعيدة فعول بناء على حضهم أن يقوم الى جنوبى كردفان . ولكيلا يفهم اتباعه أنه ينوى الفرار من وجه الحكومة اذاع بينهم انه قد أوحى اليه ان يذهب الى جبل ماسة . والمأثور فى السودان أن المهدى يخرج من جبل ماسة . وهذا الجبل فى شمالى افريقيا ولكن المهدى تغلب على هذه الصعوبة بان اسم جبل ماسـة على جبل قدير الكائن بكردوفان . وقبل ان يغادر أبـه عين خلفاءه الاربعة طبقاً للوحى . وأولهم الذى كان يمثل ابا بكر الصديق كان عبد الله التعايشى . وثانيهم الذى يمثل عمر بن الخطاب كان على واد حلو من قبيلة دغيم . وثالثهم الذى يمثل عثمان بـن عفان لم يعين وقتئذ وقد عرض هذا المنصب على الشيخ السنوسى فرفضه . اما الرابع فكان على الكرار وكان من اقارب المهدى وكان صبياً .

ورفض اصحاب القوارب اولا نقل اتباع المهدى على النيـل لانهم كانوا يخشون أن تعدهم الحكومة مشتركين مع محمد أحمـد واتباعه ، وكان قد انضم اليهم فريق من قبيلتى دغيم وكنانة العربيتين . ولكن محمد احمد تغلب على معارضتهم وجعلهم ينقلونه فى النهايـة هو ورجاله الى الشاطىء الاخر . وسار الجميع الى دار تمـر وكان محمد احمد يدعو السكان الى الانضمام اليه ويطلب اليهم أن

يذهبوا معه الى جبل ماسة . واشتدت الحماسة عندئذ بين رجاله وكانت لا تفوت فرصة يخبرون فيها السكان عن المعجزات التى يأتيها المهدى .

وحدث مرة أنه وقف برجاله فى احد الأمكنة وكان قريباً منه ضابط معه ستون جندياً وكان هذا الضابط المدعو محمد جمعة يجمع الضرائب وخطر فى باله ان يهاجم المهدى ويقبض عليه ، ولكنه خوفاً من تبعة هذا العمل ارسل الى الابيض يستشير ولاة الأمر ولكن قبل ان تأتيه التعليمات من الأبيض كان المهدى قد جاز المكان برجاله . وبعد سنوات لقيت محمد جمعة وهو فى حالة تعيسة فى أم درمان وقال لى : « لو كنت اعرف بأنه سيقضى على بان أمشى حافياً وان أستجدى من الناس كسرة الخبز لما طلبت تعليمات من الأبيض وتركت هذا الدنقلاوى الشقى يفر من يدى . لقد كان افضل لى أن اقتل من أن اعيش هذه المعيشة التعسة » .

واتيحت فرصة أخرى للقبض على المهدى ولكنها فاتت أيضاً . فقد كان جيجلر باشا قد انتدب لمهمة تحقيق اختلاس حدث باتفاق مع موظف فى الابيض وبين تاجر سودانى ثرى يدعى عبد الهادى وسمع جيجلر باشا بأن المهدى قريب منه وذلك حوالى آخر سبتمبر فأنفذ اليه محمد سعيد باشا ومعه اربع فصائل من الجنود للقبض عليه واحضاره للأبيض . ولكن الحملة ، اما عن قصد او اهمال ، اخفقت فى مهمتها . فان الجنود على ما يظهر حطوا رحالهم فى المكان الذى نام فيه اتباع المهدى فى الليلة السابقة وبعد ان أضاعوا ثلاثة ايام بلا فائدة عادوا الى الأبيض وهم موسومون بالخوف من قتال المهدى فزادت بذلك كرامة المهدى ووجاهته .

وكانت نية محمد أحمد أن يقضى بعض الوقت فى جبل تاج الله. وسمع مك آدم بذلك فارسل اليه احد ابنائه بهدايا من القمح والغنم

ومعه رسالة منه ينصح له فيها بالتوغل بعيداً فى الداخلية . فاستمر فى سيره وبعد مشقات طويلة بلغ جبل غدير حيث كان يوجد قسم من قبيلة كنانة غير السكان الأصليين .

وكان راشد بك فى ذلك الوقت حاكماً على فشوده وكان يعرف حركات المهدى ولذلك عول على الغارة عليه قبل أن يتقوى بمن ينضم اليه . وكان فى فشوده رجل المانى يدعى برجوف وكان فى الأصل يشتغل بالفتوغرافية فى الخرطوم فارسله رؤوف مفتشاً لقمع تجارة الرقيق فى أعالى النيل .

وتقدم الآن راشد بك ومعه برجوف وكايكو بك ملك الشلوك قاصدين غدير . وكان راشد يقلل من أهمية المهدى فلم يكن يحفل باتخاذ الحرس والاحتياطات فكمن له المهدى وأوقع به وقتل من رجاله الف وأربعمائة الف نفس . وكان هجوم المهدى مفاجئاً وسريعاً حتى لم يستطع راشد ارسال صاروخ فى الهواء . وصمد راشد وقليل ممن معه للقتال ولكن رجال المهدى تكاثروا عليهم وقتلوهم .

ووقعت هذه الهزيمة فى ٩ ديسمبر ومن ذلك الوقت لم يتردد محمد أحمد فى المجاهرة علناً بأنه المهدى المنتظر . وكبر مقامه فى أعين العرب ومع ذلك لم تكن علاقته مع جواره على ما يجب . وقد أشار الخليفة عبد الله التعايشى الى هذه المدة وحكى لى عنها فقال :

« لما بلغنا الغدير كنا فى غاية الاعياء بعد هذا السفر الشاق الطويل . وكان للمهدى فرس واحد من تلك السلالة الحبشية الرديئة اما انا فقد سرت المسافة كلها تقريباً على قدمى . ولكن الله يهب القوة للمؤمنين الصادقين الذين يسلمون أنفسهم وما يملكون

لأجل الايمان . وكان أخوتي يعقوب ويوسف وسماني قد انضموا الينا وكذلك زوجة أبي التي كانت ترضع ابني على صدرها . ولم يرض أخي هرون البقاء فاتى معنا أيضاً . وكنت على الدوام في قلق بشأن اخوتي وزوجة أبي وعائلتي وابني هذا الذي تراه عثمان شيخ الدين ولم تكن مشاق السفر تهمنا نحن الرجال فان المصائب والكوارث تاتينا من عند الله ونحن نتحملها راضين شاكرين لأن الله قد اصطفانا لنعلي كلمته ونرفع دينه الذي ديس مع التراب وكنا نعلم اخواننا . ولكن (وهنا كان يبتسم) تعليم الدين لم يكن لياتينا بالطعام لأولادنا ونسائنا وكان الناس يهرعون الينا زرافات ولكن معظمهم كان في فاقة تزيد عن فاقتنا وكانوا ياتون الينا لكي نعولهم . اما المتيسرون فكانوا يتجنبوننا . أجل ان المال لعنة ومن كان غنيا في هذه الدنيا فانه لن ينعم بنعيم الفردوس ولم نكن نحصل على معونة ما من الناس الذين كنا نجوز بلادهم وكان المهدى مع ذلك يقسم ما يحصل عليه من القليل الذي لديه بين الحجاج الذين كانوا يقصدونه وكان قلبي يتفطر عندما اسمع بكاء الأطفال والنساء ولكني كنت عندما انظر الى وجه المهدى تعود الى الطمانينة وأثق بالله . أجل يا عبد القادر ان الصبر مفتاح الفرج . كن صبوراً والله يكافئك » .

وقد نبهت هزيمة راشد بك الحكومة الى خطورة الحالة وهيأت تجريدة بقيادة يوسف باشا شلالي وكان قد ظهرت مواهبه في حملة جسي باشا في بحر الغزال وكان مشهوراً بصدق عزيمته وبسالته . وهيىء أيضاً مدد آخر مؤلف من فرقة من الطويجية ومعهم بعض المتطوعين بقيادة عبد الله واد ضيف الله (شقيق أحمد واد ضيف الله) وعبد الهادي وسلطان ديمه . وارسل هذا المدد الى كردوفان .

وفى هذه الأثناء أرسل المهدى الرسل الى جميع الجهات تحمل بشائر انتصاراته وهدايته ودعا جميع الاهالى الى الانضمام اليه فى الجهاد وأطلق اسم « الأنصار » على اتباعه ووعدهم باربعة اخماس الغنائم التى تغنم فى الحرب . اما من مات منهم فقد ضمن له نعيم الفردوس . وبذلك استثار الصفات الكامنة فى نفس السودانى وأهمها الطمع والتعصب .

وكان جيش يوسف باشا شلالى يبلغ أربعة آلاف جندى يقودهم محمد بك عثمان وحسن افندى رفقى الذى كنت قد فصلته أنا من وظيفته قبلا . أما الخيالة غير النظامية فكانت بقيادة طه ابن صدر وهو رجل شجاع . وغادرت هذه القوة الخرطوم فى ١٥ مارس سنة ١٨٨٢ وعرجت على كوه حيث حطت رحالها تنتظر المدد الآتى من الأبيض .

وقد وجد عبد الله ضيف الله ان جمع المتطوعة ليس من المهمات السهلة . فقد كان الشعور العام انه من الخطأ ان يقاتل رجل صالح مثل المهدى ثم لم يكن هناك مطمع فى الغنائم لان اتباع المهدى لم يكونوا أحسن حالا من الشحاذين . وزيادة على ذلك كان الياس باشا اغنى تجار كردوفان وحاكمها المعزول يكره ضيف الله اشد الكره وقد استعمل سطوته فى منع الناس من التطوع . ومع ذلك تمكن ضيف الله من تجنيد بعض المتطوعة باتفاقه مع ولاة الأمور وصارت قوته بمن فيها من النظاميين ٢٠٠٠ قبل أن يبرح الأبيض والتقى بالجيش فى كوه فصار مجموع الجيش ٦٠٠٠ وذلك حوالى منتصف شهر مايو .

واستراح يوسف باشا قليلا ثم تقدم نحو الغرب وضرب خيامه فى ٦ يونيو فى مسات القريبة من جبل غدير وهو واثق بالظفر .

والحق انه لم يكن هناك حسب ظاهر الاحوال ما يدعو مثل يوسف باشا ومحمد بك وابو صدر الى الخوف من طائفة من العرب قد اضناها المرض والجوع والعرى . الم ينتصروا فى الماضى بجملة انتصارات فى النيل الأبيض وفى دونيله ؟ الم يفتحوا بحر الغزال ويخضعوا سلطان دارفور ؟ فماذا يمكن ان يفعل معهم هذا الفقيه الأعزل الجاهل ؟ .

ولكن عبد الله واد ضيف الله لم يكن مغتراً بقوته فقد حذر هؤلاء القواد من تصغير شأن المهدى . وقد وقع من ظهر جواده وهو خارج من الابيض وهنا الوقوع يعتبر فى السودان شؤماً يخشى منه ولكنه كان يصرخ فى الصحراء فلم يسمع له أحد . بل لم يعن أحد منهم ببناء « زريبة » من الأشواك والأغصان حول الجيش وانما اكتفوا بالتقاط قليل من القش وصنعوا منه سياجا واهياً لم تكن منه فائدة قط . وما جاء الفجر حتى جاءت طائفة المهدى التى اضناها الجوع والعرى والمرض واوقعت بجيش يوسف باشا . وكان ذلك فى ٧ يونيو ۰ فقد جازوا السياج الواهى وباغتوا الجنود وهم نيام فاجهزوا عليهم فقتل يوسف باشا وابو صدر وهما فى قميص النوم على باب خيمتهما . ولم تمض دقائق حتى أبيدت جميع الجنود تقريباً . وكان لابى صدر امرأة سرية فلما رأت مولاها يقتل هبت الى القتلة وقتلت اثنين منهم بمسدس فى يدها ولكن وقعت فوق مولاها بطعنة حربة بلغت قلبها . وصمد عبد الله واد ضيف الله بعض الوقت ولكنه هو ورفقاؤه قضى عليهم بعد مدة وجيزة من القتال .

وفى البلاد غير المتحضرة عندما يحدث شىء غريب يعزى على الدوام الى قوة الهية وكان هذا تأثير نكبة يوسف باشا فى عقول السودانيين المستسلمين للخرافات فقد مضى ستون سنة كان القطر السودانى محكوماً فيها بالمصريين والاتراك .

فقد كانت العادة المتبعة أن تعاقب القبائل التى لا تدفع الضرائب المطلوبة منها ولم يكن أحد يجادل فى حق الحكومة فى هذا العمل . اما الآن فهذا الفقيه قد ظهر وجمع حوله شراذم الرعاع الذين لم يتمرنوا على الأعمال الحربية وليس معهم عدة السلاح وأوقع بجيوش الحكومة فلم يكن هناك من يشك اذن فى انه المهدى المنتظر .

وكانت هزيمة يوسف باشا سبباً فى خضوع كردوفان كلها للمهدى فصار فى امكانه الآن أن يهيىء لنفسه العدة التى كانت تنقصه . فأخذ فى جمع الأموال والأسلحة والخيول وسائر الغنائم يوزعها على رؤساء القبائل التى انضمت اليه . وكانت هذه القبائل تعتقد انه المهدى المنتظر الذى لا تحدثه نفسه الا باقامة الدين ولا قيمة للأموال والأمتعة فى نظره .

وفشت أخبار المهدى فى كل ناحية وكانت هذه الأخبار اذا تنوقلت بين اهالى كردوفان الذين لم يصيبوا الا قليلا من التعليم يبالغ فيها مبالغة عظيمة . وخرج من الاهالى عدد عظيم تركوا بيوتهم يؤمون جبل غدير الذى كان يسمى الآن جبل ماسة وبعض من الأهالى تجمعوا حول رؤسائهم لمقاتلة موظفى الحكومة المشتتين فى انحاء البلاد .

وكانت هذه الاحوال توافق أهواء العرب الرحل فكانوا بدعوى الحرب الدينية يقتلون وينهبون الأهالى وكانوا يتهمونهم بالولاء للاتراك وفى الوقت نفسه أيضاً وجدوا فى هذه الحالة طمانينة من حيث عدم دفع الضرائب لتلك الحكومة المكروهة .

واتصل المهدى بتجار الابيض الذين كانوا بواسطة ثروتهم ونفوذهم يحكمون البلدة بل جزءاً كبيراً من سائر البلاد . وقد

ادركوا هم الحالة تماماً وكانوا يعرفون ضعف الحكومة وتوانيهـــا واستعد كثير منهم لمشايعة المهدى . وكان الياس باشا من أعظم المستائين من الحكومة وكان يكره احمد بك ضيف الله صديق محمد باشا سعيد ولذلك جد واجتهد فى السر فى جمع الانصار للمهدى . وكان عدد كبير من صغار التجار ينتظرون تحسن الأحوال التجارية اذا سقطت الحكومة وكان هناك قليل من التجار يكرهون المهـــدى ولكنهم كانوا يترقبون فوزه فلم تكن لهم حيلة سوى الانضمام اليه لئلا تقع زوجاتهم واملاكهم غنيمة لرجاله عندما يعقد له النصر .

أما مشايخ الدين فقد رأوا فى هذه الحركة ما يرفع مقـــامهم وكانوا يفخرون بأن واحداً منهم قد تجرأ على أن يعلن عن نفسه انه المهدى وكانوا يترقبون الوقت حين يطرد هذا المهدى جميـــع الاتراك من البلاد ويبقى هو الحاكم لها . وكان هناك عدد قليل ــ قليل جداً ــ من أولئك الذين كانوا يقدرون الخطر الذى تستهدف له البلاد اذا فاز المهدى وقد فعلوا كل ما يمكنهم لتنبيه الحكومة . ولكن عدد هؤلاء كما قلنا كان قليلا فلم يكن لهم أثر فى الحركة .

وأرسل الياس باشا ابنه عمر لكى يطلع المهدى على الحالة ويدعوه الى المجىء الى الأبيض . وكان محمد باشا سعيد ينتظر مجىء المهدى للأبيض ولذلك حفر خندقاً حول المدينة ظناً منه أن السكان سيصمدون للحصار واشار عليه أحمـــد بك ضيـــف الله بتحصين مبانى الحكومة ففعل وبنى حولها جداراً بارتفاع الصدر . ولكنه لبخله وقع فى خطأ فاحش اذ بدلا من أن يختزن الحبوب استعداداً للحصار ويشتريها بأثمان عالية رفض أن يشتريهـــا الا بالاثمان التى تباع بها وقت السلم . ولم تمض مدة حتى بيعـــت الحبوب لأولئك الذين شعروا بالانقلاب فى الحالة وعرضوا ثمنـــا اكبر مما عرضه محمد باشا سعيد .

وفى هذه الأثناء كان الاهالى يقتلون فى كل مكان . وكان العرب السفاكون لا يلتقون بجباة الضرائب او شراذم الجنود او الموظفين المتفرقين حتى يقتلوهم . واغار عرب البديرة على سكان ابى حرز وكادوا يبيدونهم . وكانت ابو حرز على سفر يوم من الابيض ولم يتمكن من الهرب الى الابيض سوى عدد قليل من الاطفال والنساء والرجال . اما باقى السكان فاما انهم قتلوا او اخذوا اسرى وقت فرارهم فى الصحراء المحرقة . وكان العرب يسقــون الفتيات اذا عطشن أما النساء المسنات فكن يلاقين الاهوال . فقد كان هؤلاء العرب لكى يحصلوا على خلاخيلهن واساورهن يقطعون ايديهــن وارجلهن .

وبعد أيام قلائل اغار العرب على بلدة اشــاف فى شمــالى كردوفان فنهبوها وقد دافع عنها نور انجره الذى كان هناك فى ذلك الوقت وساعده سنجق محمد آغا يابو الذى كان قواص غوردون , ولكنهما اضطرا الى التقهقر . وكان يابو هذا كرديــاً وقد فعــل العجائب فى تقهقره فقد جمع النساء والبنات فى الوسط وامرهن بأن يغنين غناء الحرب وكان يقول ان هذا الغناء ينفى الخوف عــن القلوب وكان يكر على العرب من وقت لآخر حتى نجح فى استرداد جميع الفارين تقريباً ووصل سالماً الى داره .

واغار العرب على داره هذه ولكنهم ارتدوا عنها أولا : ثم عادوا وجمعوا جموعهم يقودهم الشيخ رحمة الله فطوقوا البلدة ومنعوا عنها المؤن .

واجتمع جمع آخر من العرب فى كشجيل فارسل اليهم محمد باشا سعيد فصيلة من الجند فرقتهم ولكن الفصيلة فقدت من افرادها عدداً كبيراً حتى ليصح ان يعد انتصارها هزيمة . واجتمع هؤلاء العرب ثانياً فى بركة وكانت بها حامية مؤلفة من الفى رجل فقتلوا

وحدثت نكبة أخرى مشابهة لهذه فى الشط على النيل الابيض حيث قتل مائتا جندى . واغار العرب ايضا على الدويم فارتدوا عنها وخسروا الفى رجل .

وفى هذه الاثناء لم تكن رسل المهدى الذين ارسلهم الى الجزيرة وانين . فان عرب جهينة والحوارنة والاجليين ساروا الى سنار يقودهم ابوروف فحصروها ولكن جاء السنجق صالح واد الملك بقوة من الشايجية فرفع الحصار عنها .

وحاصر الشريف احمد طه مدينة ابي حرز الواقعة على النيل الازرق . وكان جيجلر باشا يقوم بوظيفة الحاكم العام رؤوف باشا وقد وصل الى جوار المدينة فارسل مك يوسف من الشايجية لمهاجمة الثوار ولكنه هزم . واستحى مك يوسف من الفرار فنزل من ظهر جواده وبسط فروته على الارض وامر احد عبيده بان يقتله . ويسافر جيجلر فى الحال الى الخرطوم وهيأ مددا عاد به واغار على احمد طه وقتله وارسل راسه الى الخرطوم . ثم طهر جوار سنار من الثائرين بدون أن يفقد عدداً كبيراً من رجاله ولكن على الرغم من هذا النجاح الوقتى كانت الحكومة تتسلم كل يوم اخبارا مزعجة عن الكوارث التى كانت تقع بجيوشها وبالسكان فى عدة اتجاه من السودان .

وكانت نتيجة ذلك ارسال عبد القادر باشا حاكماً عاماً للسودان فوصل الى الخرطوم فى ١١ مايو سنة ١٨٨٢ وشرع بهمة فى العمل على تحصين المدينة . وكان لعمله هذا تاثير فى الاهالى الذين اتضح لهم أن الحكومة تنوى العمل بهمة . ولكنه فى الوقت

نفسه أوضح لهم خطورة الحال . وقد أمنت دور الحكومة مثل مخازن المؤن والذخيرة والدفترخانة من جميع الطوارىء وسحب الحاكم العام الى الخرطوم حاميات القلابات وسنهيت وجره وكان الهدوء التام يشمل هذه المراكز .

وفى هذه الأثناء أدرك محمد احمد أن حضوره ضرورى لكى يشعل النار الخامدة ويحيلها لهيباً آكلا . ولذلك قبل دعوة الياس باشا للتوجه الى الأبيض وترك عمه محمود شريف مع بعض الأتباع فى جبل ماسة العناية بزوجاته وأولاده ثم هبط الى الوادى وجمع جموعه وسار بهم الى عاصمة كردوفان الغنية .

الفصل الخامس

الثورة في جنوبي دارفور

لما غادرت الفاشر قاصدا داره في أوائل سنة ١٨٨٢ كان معي ٣٥٠ جنديا راكبا بقيادة عمر ودارمو ولم يكن هذا الحرس ضروريا ولكني رأيت أن أؤثر في العرب وأريهم أن لدى الحكومة قوات كبيرة تخمد بها أية حركة تدفعهم اليها نزعاتهم ...

ولما بلغت داره زرت قبر اميلياني ونصبت شاهداً من الحجر عليه للذكرى . وكان نوجال بك يقوم مقامه في ادارة الأعمال وكانت الظواهر تدل على أن الحالة قلقة جداً . فقد خرج عرب الجنوب وهم الرزيقات والحبانية والمعالية على الحكومة فقد عقدوا عدة اجتماعات أعلن فيها أن الدراويش يهرعون للانضواء الى راية المهدي الذي أرسله الله لأعلاء كلمة الدين . فأمرت منصور أفندي حلمي بأن يسافر في الخال الى شقة لكي يعيد النظام الى نصابه وكان معه ٢٥٠ جنديا نظاميا و ٢٥ جنديا راكبا .

فسار عن طريق قلقة (كلاكة) وعدت أنا الى الفاشر لكي اجمع فصائل الجنود التي كانت متوزعة في انحاء البلاد لجمع الضرائب ولكي استعد بهم للطوارىء وقبل أن اغادر داره تحادثت

طويلا ومليا مع زوجال . وقد كنت اعرف هذا الرجل معرفة تامة عندما كنت حاكماً هنا وقد علمت انه تحادث مع عمر واد دارهو كثيرا عن احوال المهدى واعماله واتفق معه على انه اذا استمر النصر معقوداً بلوائه فانهما ينضمان اليه . وكان هذان الرجلان اغنى من فى المركز وكان لهما نفوذ عظيم بين الاهالى ولذلك كان انشقاقهما علينا خطراً جداً . فرايت ان اتحبب اليهما وان اعمل كل ما يمكن لمنع هذا الشقاق . فلما حادثت زوجال لم اشر الى مقابلاته العديدة مع دارهو ولكنى حصرت كلامى فى الاشارة عليه بانه بالنسبة لقرابته للمهدى وبالنسبة لأنه موظف كبير ينبغى له أن يعاون السلطة الشرعية فى البلاد .

ولما ودعت الضباط والموظفين شرحت لهم وجوب انتباههم الدقيق لواجباتهم واخبرتهم باتى ساعود من الفاشر فى اقرب وقت . ثم تركت الجنود الراكبة فى داره وسرت الى العاصمة التى بلغتها بعد سفر ثلاثة ايام . وهنا علمت أن المحطة التلغرافية فى فوجة قد استولى عليها الثائرون ورايت لذلك أن آمر بارسال المدد الى أم شنجه .

وكان نظام البريد قد تعطل تماماً واضطررت لهذا السبب الى ان ارسل خطاباتى الى الأبيض والخرطوم فى داخل قوائم الرماح او بين نعلى الحذاء او اخيطها داخل ملابس حاملها . وكنت قد طلبت من الخرطوم امدادى بالذخيرة ولكنها لم تصل الى لاهمال الموظفين فانها ارسلت الى الأبيض متاخرة لانقطاع المواصلات لم يمكن ارسالها الىّ .

وعلمت من داره ان مادبو زعيم الرزيقات قد رفض أن ياتى . فلم اشك بعد ذلك فى أن جميع القبائل الجنوبية قد خرجت على

الحكومة وانها تنوى كل النية الانضمام للمهدى فقررت أن يكون مقامى فى داره فأخذت ٢٠٠ جندى من المشاة و ٧٥ من الجنــود الراكبة وسرت بهم الى داره .

وعند وصولى أبلغت وقوع حادثة كانت فى ذاتها تافهة ولكن نتائجها كانت خطيرة جدا . فقد سبق ان ذكرت بانى وأنا مسافــر الى الخرطوم التقيت فى الطريق بالشيخ على واد هجير من قبيلة المعالية فرافقنى الى الخرطوم . وقد اثبت ولاءه للحكومة فعينته رئيساً لقبائل المعالية الجنوبية . وقد سمع هذا الشيخ بقرب عقد اجتماع عرب الرزيقات بقيادة الشيخ بلال نجور بغية الانضمام الى المهدى فعول الشيخ على على أن يحضر هذا الاجتماع ويقبض على الشيخ بلال متهما اياه بالثورة .

فسار الى مكان الاجتماع مع حميه وبعض أصدقائــه ورأى بعض الرجال المنتمين الى قبيلة قد حضروا أيضاً فطلب اليهم أن يخرجوا وينحازوا الى جانبه . ولكن لم يبال أحد بطلبه وحدثت فى اثر ذلك مشاغبة عومل فيها هجير وأصدقاؤه معاملة قاسية عنيفة حتى اضطروا الى أن ينجوا بانفسهم . ولكن حكاية فرارهم انتشرت على غير وجه الحقيقة بحيث أنه عندما وصل هجــير الى زوجتــه ومعه حموه واصدقاؤه تلقتهم بقولها :

« راجلى اضليم وابويا ريطة · سفر يومين سووهم فى جبطة » .

ومعنى ذلك : « زوجى ظليم (ذكر النعام) وأبى أنثى نعام حتى أنهما قضيا سفر يومين فى لحظة » .

واقتفى بلال نجور اثر الهاربين تصحبه المعالية فهجم على دار الشيخ هجير . واخذ الذين حول الشيخ هجير يحثونه على الفرار الى شقة ليدخل فى حماية منصور . ولكنه كان يتضور من آلام الكلمات اللاذعة التى عيرته بها زوجته فرفض الفرار وقال :

« لن افر لكي انجو بنفسي . خير لي ان اقع بالسيف من ان تضحك مني امرأة » .

وقد وعد واوفى وعده فانه قاتل الجموع حوله قتال الأبطال حتى شقت حربة رأسه نصفين فوقع وهو يتلو الصلاة حتى مات . وقتل حموه ووقع فى جانبه اما زوجته التى كانت سبب كل هذا البلاء فقد وقعت اسيرة واستعبدت ودعانى منصور حلمي لكي اذهب الى شقة لرغبته فى الاتفاق مع القبائل لأنى امثل الحكومة وبهذه الصفة يكون له تاثير اكبر فيهم . واقترح ان نبنى قلعة حصينة فى شقة ونضع فيها مدفعين . ولما كان الاتفاق مع العرب ضرورياً فانى قررت اجابة طلبه وسافرت الى شقة ومعى ١٥٠ من الجنود النظامية و ٢٥ جندياً راكباً ومدفع .

وكنت فى أثناء سفرى اسمع من الاخبار ما يثبت انتشار الثورة وانتصار المهدي ولما وصلت الى قرية المادبو فى دمين جاءني رسول واخبرنى هذاالخبر الغريب وهو ان منصور قد اغار على هذا الشيخ قريباً من شقة وفقد معظم من معه وبات فى شبه حصار فى مراى فأرسلت فى الحال فى طلب امداد من داره وبقيت مدة الانتظار فى دمين وانا لا اشك فى ان المادبو ينوى ان يهاجمني وقد تحقق ظني . وقد انضم الى الشيخ عفيفى من قبيلة الحبانية ومعه ٢٥ من الخيالة والحق ان مآثر هذا الشيخ الموالى لجديرة بان تدون .

ففى مساء احد والشمس توشك ان تغرب خرج رجالى يجمعون الحطب فاغار عليهم المادبو بخيوله التى تراءت لنا بأنها تقصد الى زريبتنا وهى تعدو . فلما رآهم الشيخ عفيفى أسرج فى الحال جواده وامتطاه واشرع حربته وقال لى :

« عارفنى زين . أنا تور الطقش ابو جلب من آدم . انا بدور عالموت » .

ومعنى هذا « أنت تعرفنى جيداً . انا الثور الناطح . قلبى من صخر . انا ابحث عن الموت » .

قال ذلك واندفع خارجاً من الزريبة ثم اختفى بين الأشجار وبعد لحظة عاد وحربته تقطر الدم ووراءه جواد قد استلبه . وخرج شيخان آخران اشتبكا فى قتال خفيف ففقدا جواداً وغنما جواداً آخر . وبعد هنيهة سمعنا طلقات البنادق فخشيت ان يكون جيش المادبو قد وصل فطلبت الخيالة من العرب وجملتهم يقفون موقف الدفاع فى الزريبة . ولكنى عرفت بعد ذلك بقليل ان ما وصل من جيش المادبو قوة صغيرة قد احتمت فى ادغال الأشجار فارسلت خمسين رجلا لطردهم من مكمنهم فطردوهم وقتلوا منهم ثلاثة .

وفى صباح اليوم التالى ظهر العدو وهو يتقدم نحونا بقوات كبيرة فنفخنا فى البوق وذهب كل جندى الى مكانه . واغاروا علينا من الشمال الغربى وهم يحتمون بدغل من نارنا . وكان فى وسط زريبتنا ربوة فوضعت فوقها ديواناً كنا قد وجدناه فى احدى عشش المادبو فجعله أحد المصريين كرسياً . فقعدت عليه واخذت أشرف منه على حركات العدو واراقب أيضا حركات جنودنا فى الزريبة . وتقدم العدو حتى صار على مدى اطلاق النار وصار البندق يصفر

حول آذاننا . وقمت أنا لكي أعطي الأوامر وما كدت أترك الكرسي حتى مزقته رصاصة فرأيت من الأنسب الا أعرض نفسي للرصاص . واقترب العدو منا كثيراً واشتدت ناره ولكن رجالنا كانوا محتمين فلم نصب الا بأقل خسارة ولكن اصابات الدواب كانت كثيرة بحيث خفت ان تفنى جميعا فأمرت خمسين رجلا بالخروج بها من الجهة الجنوبية وداروا بها الى الغرب واعملوا النار في العدو بينما كنا نحن في الزريبة نطلق النار عليهم أيضاً فتكلف العدو خسارة جسيمة حتى جلا من مكانه . ولكننا لم ننل هذا النصر بدون أن ندفع ثمنه غاليا اتذكر اننا خسرنا ١٢ رجلا .

وفي المساء استولى التعب على الرجال فناموا وكنا ننتظر قضاء الليل في هدوء ولكن حوالي الساعة الحادية عشرة فوجئنا باطلاق نار حامية . ولكن كان الظلام شديداً فلم يمكن تسديد الرماية فأمرت رجالي بألا يجيبوا ففتر اطلاق النار ثم وقف نهائياً .

وطلبت الشيخ عفيفي واقترحت عليه أن يرسل بعض رجاله لكي يبحثوا عن مكان المادبو ووعدتهم بالمكافأة الحسنة اذا هم أخبرونا عن مكانهم الحقيقي . فذهبوا وعادوا بعد ساعتين واخبرونا بان المادبو مع رجاله من البازنجر في قريته . أما العرب فقد خيموا في جنوب القرية وغربها . وكانت قوتهم كبيرة ولكنهم لم يتخذوا أية احتياطات للدفاع ، وزحف جواسيسنا الى جوارهم وسمعوا احاديثهم وضحكهم واستهزاءهم بنا لأننا لم نجب على اطلاق النار علينا في الليل وقالوا انه لم يمنعنا من ذلك الا شدة خوفنا .

فاستدعيت سبعين من رجالنا واخبرتهم أمام الضابط باني أرغب منهم في مفاجأة المادبو في قريته . واننا اذا قاتلنا قوة تزيد على قوتنا في العراء فاننا في الأرجح نخسر خسارة جسيمة . ولكننا

قد تحققنا الآن ان العرب غير مستعدين فاذا هاجمناهم فى الليـــل وهم على غرة فانهم يفقدون كل ما عندهم من قوة معنوية وتتاح لنا الفرصة بذلك للعودة الى داره والحصول على مدد جديد فوافق الجميع على هذه الخطة واراد الضباط ان ينضموا الى رجال هذه الغارة ولكنى رفضت ذلك .

وقد تركت خلفى ضابطين وأربعين من حملة الابواق وسبعين رجلا وخرجت انا من الزريبة ومعى عفيفى الذى رفض ان يفارقنى وخشيت أن يخرج أحد من رجال أبى سلامة ويفشى امرنا فامرت الضباط وشددت عليهم بالا يأذنوا لاحد بالخروج من الزريبة وأن يكونوا على يقظة تامة . وصرنا نتقدم بحذر يدلنا الجواسيس على الطريق . فلم تمض ساعة حتى وجدنا أنفسنا على مقربة مـــن العدو . وقد ثبت لى ان جواسيسنا قد ابلغونا الصدق وكنت انا ايضاً أعرف هذه الجهة من قبل . فقسمت قوتى قسمين . أحدهما يقوده محمد آغا سليمان احد أهالى بورنو والآخر أقـــوده انـــا وأخذنا نزحف الى ان صرنا على بعد ٦٠٠ أو ٧٠٠ ياردة من العدو وهنا أمرت حامل البوق بعمل اشارة لاطلاق النار عـــلى العـــدو الوادع . وعقب ذلك ارتباك رجال العدو واختلاطهم فترك رجال المادبو (البازنجر) اسلحتهم وفروا . واجفلت الخيول لهذه الحركة الفجائية فى وسط الليل فجمحت فى كل جهة والعرب فى اثرها وبعد دقائق كانت القرية خالية وكنا نسمع جلبة الفارين الذين هربوا من شرذمة تقدرها سبعون رجلا فقط .

فقد نجحنا تماماً واحتاج المادبو الى عدة ايام لكى يجمع فيهـــا رجاله الفارين واحرقت قريته وارتفع لهيبها الى السماء وانـــار مكان المعسكر المهجور . وغنمنا عدداً كبيراً من السروج والبنادق القديمة والقيناها كلها فى النار ولكننا ابقينا بنادق رمنجتون وعددنا

الى الزريبة حيث حيانا الجنود هناك اجمل تحية وكانوا فى اشــد القلق وهم ينتظرون رجوعنا .

ولم تكن قد وافتنى اخبار من داره فقررت العودة اليها وبعد مسير ثلاثة ايام وصلت الى البلدة حيث وجدت الامداد والذخيرة . ولما كان الرجال الذين رجعوا معى منهوكين فقد قررت أن استبدل بهم رجالا من الأمداد الجديدة واذهب لانجاد منصور حلمى . ولكنى فى الصباح دهشت اذ وجدت خطابا يقول إن منصور فى طريقه الى داره وانه سيبلغها فى اليوم التالى . وكان هذا الخبر من أسـوأ ما سمعت لأن معناه مضاعفة الصعوبـات فى استعـادة شقـة واحتلالها .

ووصل منصور فى صباح اليوم التالى ومعه قليل من العبيد الذين كانوا يتهافتون من الاعياء . وعلمت انه قد ترك رجاله لما القاه العدو فى قلبه من الرعب وعاد وحده الى داره . فلم اتوان فى معاقبة هذا الضابط الجبان وقبضت عليه وارسلت الجواسيس فى كـل ناحية ابحث عن جنوده ولم اعد افكر فى اعداد حملة لاستئنـاف شقة . وبعد عشرة ايام جاءتنى الأخبار السارة بأن هؤلاء الجنـود قريبون من داره . وظهر أن من يدعى على آغا جمعة تراجع بهـم لما تركهم منصور الى داره وحماهم من مناوشات العــدو وحمـل جرحاهم وجاء معه بعض تجار شقة الذين طلبوا حمايته .

وكان سعيد بك جمعة فى هذا الوقت حاكما على الفاشر وكنت قد كتبت اليه مرارا لكى ينجدنى بالجنود والذخائر ولكنى وجــدت انه لا يود أو لا يقدر على اجابة طلباتى وسافرت الى خشبة حيث كنت قد اتفقت مع القبائل الموالية على لقائى هناك .

الفصل السادس

حصار الأبيض وسقوطها

كبرت آمال المهدى بانتصاراته المديدة السابقة وكان الياس باشا يحضه على القدوم الى الأبيض فترك جبل قدير ومعه آلاف من العرب النخاسين والمتعصبين وانحدر بهم الى كمبة وهى قرية صغيرة فى ارباض الأبيض .

وارسل من هناك الخيالة للاستكشاف ولدعوة الراغبين فى الانضواء للمهدى وارسل ايضا الى محمد باشا سعيد يامره بالخضوع وقرىء خطاب المهدى امام الضباط فاقترح محمد بك اسكندر قتل الرسل حملة هذا الخطاب ، وكان محمد باشا سعيد غير موافق على هذا الاقتراح أولا ولكنه وافق فى النهاية واعدم الرسل فوراً .

ولم يضن المهدى باى مجهود لاثارة من حوله فكان يعظ الدهماء الذين حوله ويصف جنات النعيم التى وعد بها المؤمنون الذين يشتركون فى الجهاد . وفى صبيحة يوم الجمعة ٨ سبتمبر سار الناس وهم يغلون حماسة وليس معهم سوى السيوف والحراب وجموعهم تموج نحو المدينة . وكانوا قد تركوا ما غنموه من الأسلحة فى حملة

راشد وشلالى . واخذ المتحصنون فى المدينة يصبون عليهم نــار البنادق ولكن هذه الجموع التى لم تكن تطمــح الا الى الغنــائم والاسلاب . لم تكن تبالى بمن يقتل منها فكانوا يتقدمون ويملأون الخنادق ويجوزون الحواجز ودخل بعضهم المدينة . وفى هذه اللحظة امر الضابط نسيم افندى حامل البوق بأن يعطى الاشارة للتقــدم واخذ الاشارة حملة الابواق فى كل مكان فنادوا بالهجوم فخرجــت الجنود الى سطوح المنازل وتعلقوا بالأسوار والحيطان وصبــوا النار والرصاص فوق رؤوس رجال المهدى . ورأت هذه الجموع الرصاص ينزل عليها كالبرد فتراجعت ببطء الى الوراء . وحاولوا مرة اخرى أن يتقدموا فردتهم الجنود ثانياً وقتلاهم يعدون بالآلاف واخيراً خرجوا وتنحوا عن المدينة وانتصرت حامية الأبيض انتصاراً باهراً .

وقد قتل فى هذا الهجوم شقيق المهدى المدعو محمد وشقيق الخليفة عبد الله المدعو يوسف وقتل أيضاً القاضى وعدد من الأمراء . وكان المهدى مدة الهجوم محتمياً وراء منزل صغير . ولو كان محمد باشا سعيد سمع نصيحة احمد بك ضيف وطارد الدراويش بعــد اختلاطهم وتقهقرهم لكان نجح فى القبض على المهدى وتمكن من حقن الدماء الغزيرة التى أريقت بعد ذلك .

ولكن سعيد باشا قنع بهذا الانتصار الوقتى واعتقد ان المهدى قد سحق ، وأنه لا يجرؤ على معــاودة الهجوم وأن هذه الهزيمة ستحبط أغراضه وتزيل سطوته . وقد أدرك اقارب المهدى وأصدقاؤه هذه الحالة ايضاً ونصحوا له بان ينتقل الى تل جانزاره الذى يقع فى الشمال الغربى من المدينة ومكث هناك يحاصر المدينة حصــاراً مكشوفاً وينتظر الأسلحة والذخائر التى ارسل فى طلبها من جبــل قدير .

وفى هذه الأثناء كانت دلين وهى مركز المرسلين المسيحيين فى حالة خطرة وكانت بها حامية مؤلفة من ٨٠ عبداً . وكان المهدى فى طريقه الى الابيض وقد ارسل احد انصاره وهو مك عمر لكى يأسر او يقتل من بها . وكان الأب اوهر ولدر والأب بونومى قد اتفقا على الهرب الى فاشودة ولكن تدبيرهما حبط لجبن الضابط الذى كان يقود فصيلة الجنود . فاضطرا الى الاذعان وسرق منهما كل شىء وسيقا اسيرين الى الابيض . وحاول هنا المهدى هو والخليفة عبد الله ان يجعلاهما مسلمين هما وسائر الراهبات ولكنهم رفضوا جميعاً .

وفى اليوم التالى اخذهم الجنود وحولهم الدراويش يزعقون ويزيطون الى ساحة فسيحة حيث أقيم عرض كبير . ثم أوهموا جميعاً بالقتل ولكن عفى عنهم فى النهاية ووكل أحد السوريين المدعو جرجى استامبولى بالعناية بهم ، وكان هذا السورى من اهالى الابيض الذين انضموا الى المهدى .

وفى هذا الوقت ظهر نجم مذنب فى السماء فاعتبره السودانيون نذيراً بسقوط الحكومة وان المهدى قد ظهر على الأرض .

وارسلت الحكومة تجريدة بقيادة على بك لطفى لرفع الحصار عن بارة والابيض ، ولكن بينما كان الجنود يسيرون وقد بلغ بهم العطش أغار عليهم عرب الجوامة يتودهم فكى رحمة . وكان عدد الجنود الفين ولم ينج منهم سوى مائتين تمكنوا من الوصول الى بارة . وبعد ذلك هوجمت بارة وكانت بها حامية صغيرة فصمدت وقاومت مدة ، ولكنها اضطرت فى نهاية سبتمبر الى التسليم .

وسقطت بارة بعد حصار طويل منظم . وكانت الحامية قد اوقعت بالمحاصرين وكلفتهم خسارة جمة ، ولكن شبت نار فى مخازن

الحبوب ثم فعل الجوع والمرض افاعيلهما ولم يكن هناك أمل في المعونة فطلبت جنود الحامية من مسرور افندى الحكمدار ونور انجره ومحمد آغا جابو ان يسلموا . فسلموا المدينة في يناير سنة ١٨٨٣ لعبد الرحمن واد النجومى الذى ساقهم الى جانزاره .

واحتفل المهدى بسقوط باره فاطلق مائة مدفع . وسمعت الحامية في الأبيض اطلاق النار فظنت ان الحكومة ارسلت جيشا لرفع الحصار ، ولكن عندما عرفت الجنود الحقيقة وأن بارة قد سقطت تراخت عزائمهم وفت في أعضادهم . فقد مضت عليهم اشهر وهم يعانون فتك الجوع . فقد ارتفعت أسعار الأقوات بحيث أن ثمن الدخن كان قبل تسليم المدينة بشهر قد بلغ أربعمائة ريال للأردب ، وثمن الجمل ١٥٠٠ ريال وثمن الفروج ٣٠ او ٤٠ ريالا وثمن البيضة ريالا أو ريالا ونصفاً . ولست أحتاج الى وصف هذه الحالة فقد اغنانى عن ذلك أخواى فى الأسر الأب أوهرولدر والأب وسنيولى اللذان وصفا فظائع هذه الأيام فلن أعيد ما قالاه . انما يكفى أن اقول انه بعد حصار دام خمسة اشهر ذاق فيه المحاصرون أنواع الحرمان ، ومات فيه عدد عظيم من الأهالى ومن الحامية جوعاً اضطر محمد باشا سعيد الى التسليم . وكان يرغب فى احراق مخازن البارود ولكن الضباط رجوه الا يفعل ذلك ضناً بحياة زوجاتهم وأولادهم . فكتب الى المهدى يقول انه مستعد لتسليم المدينة . فأجاب المهدى بأنه لا خوف عليه هو وسائر الضباط وفى صباح اليوم التالى أرسل وفداً مؤلفاً من التجار برياسة محمد واد عريف الى سعيد باشا يطلب منه ومن كبار الضباط ان يحضروا لديه .

وقد أحضر الوفد معه أكسية من المرقعات وهى لباس الدراويش المؤلف من رقع مختلفة لكى يلبسها سعيد باشا وضباطه . فلبسوها وركبوا جميعهم الخيول وساروا والحزن

مخيم على وجوههم وغادروا تلك القلعة التى دافعوا عنها دفاع الأبطال . وكان مع سعيد باشا محمد بك اسكندر الحكمدار ونسيم افندى واحمد بك ضيف الله ومحمد بك يس وعدة ضباط آخرين .

واستقبلهم المهدى وهو قاعد على عنجريب قد فرش بجلد جدى ويسط يده لهم لكى يقبلوها وعفا عنهم . وقال لهم انه يعرف انهم لم يقاوموه الا لانهم كانوا مخدوعين لا يعرفون أنه المهدى الذى جاء يؤدى رسالة الهية . وهو يعفو عنهم الآن ويطلب منهم ان يقسموا له يمين الولاء ويطيعوه فى جهاده . ولما انتهى من ذلك اعطاهم ماء وبلحاً وحضهم على الزهد فى الدنيا والاقبال على الآخرة . ثم التفت الى سعيد باشا وقال : « لست الومك باعتبارك تركياً لدفاعك عن المدينة ، ولكنك لم تحسن فى قتل الرسل لأن الرسول لا يقتل » .

وقبل ان يجيب سعيد باشا أسرع اسكندر بك وقال : « مولاى المهدى ، ان سعيد لم يأمر بقتل الرسل ، ولكنى انا الذى فعلت ذلك بصفتى حكمداراً للقلعة وذلك لأنى اعتبرتهم ثائرين . وانى اقر بأنى لم احسن فى عملى هذا كما قلت » .

فقال المهدى : « لم اقصد بكلامى الى أن تبرر عملك . فان الرسل قد نالوا كل ما كانوا يرغبون فيه . فانهم لما اخذوا الخطابات منى كانوا يرغبون فى الاستشهاد وقد تحققت رغبتهم . وقد أنعم الله عليهم بالنعيم . ولعل الله يمنحنا ما نالوه » .

وفى اثناء هذه المحادثة كان ابو النجا ورجاله قد احتلوا القلعة بتدبير سابق واحتلوا ايضاً مبانى الحكومة ومخزن البارود . أما الأمراء فقد احتلوا مساكن الضباط . وأمر المهدى واد العريف

وكان صديقا سابقا لسعيد باشا بأن يأخذه هو والضباط الى منازلهم ولكنهم عندما بلغوها علموا أن الأمراء قد احتلوها وان أملاكهم قد صودرت . وبعد قليل دخل المهدى المدينة وأمر باخراج الحامية من الخنادق . أما النساء والأولاد الذين كانوا ينتظرون اسعافهم فقد أمروا بأن يخرجوا من المدينة ويذهبوا الى معسكر المهدى وألا يأخذوا شيئا معهم وفتشت النساء تفتيشا يثير النفس اذ كن يعرين من ملابسهن وكل ما وجد معهن أرسل الى بيت المال حيث وزعت الأموال بين الأمراء وسائر الأعيان . وكانت مناظر التفتيش تؤلم النفس فإن جنود المهدى كانوا فى طلب الذهب يجلدون الاهالى لكى يعترفوا بما عندهم .

وطلب أمير بيت المال أحمد واد سليمان سعيد باشا لكي يسلمه ما عنده من الأموال فاجاب سعيد باشا بانه لا يملك شيئا . وكان المشهور انه رجل غنى ولكنه انكر وكابر وبلغ انكاره المهدى فاستدعى واد سليمان وطلب منه ان يبحث مع خدم سعيد باشا . ثم طلب هو سعيد باشا وأخذ يحادثه عن الدين وكان كثيراً ما يسأله أمام المجتمعين من الناس لماذا لا يدلهم على خزانته التى يحفظ فيها أمواله ، وكان سعيد باشا ينكر ويلح فى الانكار ويقول انه لا يملك شيئاً . ومضى وقت ثم جاء واد سليمان الذى كان قد نجح فى أن يحمل احدى الخادمات على أن تعترف بالمكان الذى خبأ فيه مولاها أمواله ، وأسر الى المهدى حتى لا يسمع الناس بانه وجد الأموال مخبوءة فى حائط .

أما المهدى فاشار عليه بالجلوس ثم أخذ يعظ الجموع أمامه عن غرور الدنيا وضرورة الزهد ، ثم التفت فجأة الى سعيد باشا وقال : « لقد حلفت يمين الولاء فلم تخفى أمر أموالك ؟ المال أصل البلاء فهل تنتظر ان تجمع أكثر مما جمعت ؟ » .

فقال سعيد باشا : « ليس عندى مال ربحته ظلماً او عدلا . فافعل بى ما تشاء » .

فقال المهدى : « هل تظننى رجلا مثل سائر الناس . الا تعرف اننى المهدى المنتظر . وان ابى قد كشف لى عن خزائنك التى اخفيتها فى الحائط ؟ اذهب يا احمد واد سليمان الى بيته ثم ادخل الى غرفته فتجد على الحائط الايسر قريباً من الباب مكان الأموال فجرد الحائط من الجبس تجد اموال التركى فاحضرها الينا .

وكان سعيد باشا مدة غياب واد سليمان قاعدا مقطبا عابسا فى جوار المهدى . وعرف ان مكان امواله قد افشى ، ولكنه كان من الكبرياء والأنفة بحيث رفض ان يصرح بانه قد كذب وسكت عن الكلام . وبعد دقائق عاد سليمان ومعه صندوق من التنك وضعه امام المهدى فلما فتحه وجده مملوءاً بالذهب المجموع فى اكياس . وقد عدوا فيه سبعة آلاف جنيه .

ثم قال المهدى : « يا محمد سعيد . لقد كذبت ولكنى ساعفو منك . خذ يا احمد هذا المال وقسمه بين الفقراء والمحتاجين » .

فنهض محمد سعيد باشا وهو يقول : « انك تدعو الى الزهد ثم تاخذ اموالى فافعل بها ما شئت » ثم سار خارجاً .

فقطب المهدى وقال بصوت خافت : « دا ما ينفعنا » وبعد ايام تعلل عليه بعلة وامر بقتله كما قتل ايضاً احمد بك ضيف الله وعلى بك شريف ويس . وهذه كانت نهاية هؤلاء الرجال الاربعة الذين دافعوا عن الأبيض . والحق انهم كانوا جديرين بحظ احسن من هذا .

الفصل السابع

المهدية فى دارفور

لما وصلت الى خشبة جهدت جهدى لكى انظم قوة لمقابلة المادبو • وكانت القبائل التى طلبتها لمعونة الحكومة قد وصلت وصار جيشى يتالف كما ياتى :

جنود نظامية ببنادق رمنجتون	٥٥٠
جلابة	٣٠٠
بازنجر مسلحون	١٣٠٠
جنود مختلفة	١٠٠
المجموع (ومنه ٦٠٠ يحملون رمنجتون)	٢١٥٠

وكان يقود البازنجر شرف الدين . وكان لدينا مدفع جبلى و ١٣ رجلا من الطوبجية .

وكانت القبائل الموالية تتالف من البيجو والبركة والزغاوة (فى جنوب دارفور والمصرية والتاجو والمعالية الذين كانوا يعادون الشيخ أبو سلامه . وكان عددهم كلهم نحو ٧٠٠٠ رجل يحملون الحراب و ٤٠٠ حصان .

وكانت الحامية التى غادرتها فى داره مؤلفة من ٤٠٠ جنـــدى نظامى و ٧ مدافع والطوبجية اللازمين لها و٣٠ فرساً و٢٥٠ من البازنجر وكانوا كلهم تحت قيادة زوجال بك الذى كان يؤدى وظيفة قائمقام بدلا من أميليانى بك وقد تركت معه من يدعى جوتفرت روث وهو سويسرى كان قد أرسل الى السودان بشأن وقف النخاسـة . وكان عالماً فى اللغة العربية وقد اسررت اليه انى لا اثق بزوجال بك وطلبت منه ان يعرف كل ما يمكن معرفته عنه من قرابته ويطلعنى على كل شىء يعرفه عنه .

وفى نهاية أكتوبر غادرت خشبة مع جميع الجيش وسرنا فى اقليم الرزيقات وكان مغطى بالديس الكثيف والاحراج . وكنـا معرضين بذلك للهجوم فجعلت سير الجيش بحيث لا يمـكن أن نباغت بكمين يبعث فينا الارتباك والاختلاط

وكان البازنجر فى جناحى الجيش ومعهم الأبواق لتنبيهنا عن اى خطر . وجعلت مؤخرة الجيش أقوى من الجناحين وذلك حتى اذا هوجم جناح امكننا ان نجد الوقت الكافى لنزيده من قلب الجيش . وكان واجب المؤخرة من اشق الواجبات لانه كان عليهم أن يعنوا بالجمال التى تقع والا يغفلوا عن الفارين أو الذين يتخلفون . ولذلك جعلت السير فى المؤخرة مناوبة فيمنة الجيش تصير مؤخرة ثم تصير ميسرة ثم تعود يمنة وهلم جرا . وكنت ايضاً أخفف الاعمال عـــن البازنجر والجنود النظاميين بهذه الطريقة .

وكنت اؤمل بهذه الطريقة أن ابلغ شقة بدون اية خسـارة جدية وكان قصدى عند وصولى ان ابنى قلعة هناك واضع عليهـا المدفع ثم اترك الحامية هناك واخرج بتجريدات خفيفة الى البـلاد المضطربة حيث تتاح الفرصة لحملة الحراب بأن يغنموا ما يمكنهم من ماشية الرزيقات .

وعند وصولي الى ديين وجدنا كميات من الحبوب التي اختزنها المادبو في القرية الجديدة التي بناها . فقسمتها بين الجنود واطمأننت بأن عندهم من الزاد ما يكفيهم جملة ايام . واسترحنا ثلاثة ايام وبثثنا طلائعنا لكي يدلونا على امكنة المياه في الطريق ثم استأنفنا المسير الى شقة .

وكنت محموماً في هذه الأيام فسلمت قيادة الجيش لشرف الدين وهو يليني في القيادة وأمرته الا يتركني . وفي اليوم التالي عندما غادرنا قرية كندري وبعدما أن استرحنا قليلا تصايح الجنود في المؤخرة بأن بعض الخيالة يتقدمون للهجوم علينا ووقف في الحال كل رجل في مكانه وعلى الرغم من الحمى المستولية على ذهبت الى حرس المؤخرة ورأيت بعض الخيالة الذين ربما كانوا يبلغون بعض مئات ولكن الأشجار كانت تخفيهم وكان لذلك من المستحيل تقديرهم تقديراً صحيحاً فأشرت لحرس جناحي الجيش بأن ينضموا الى ثم تقدمت ومعي خيالة الجيش وفرسان العرب وحصلت مناوشة بين الأشجار انتهت بتقهقر العدو بعد ان غنمنا منه ستة خيول . وبلغت خسارتنا سبعة خيول قتلت ، وفقد رجلان وجرح البعض ثم طاردنا العدو مسافة وعدنا واستأنفنا السير حتى الغروب فعسكرنا في مكان يدعى أم ورقة .

وكنت لا ازال أعاني الحمى فأخبرت شرف الدين بأن يتبع التدبيرات التي انهيها اليه بشأن ترتيب الجيش . وفي الصباح شرعنا في السير حتى اذا مضت ساعتان بلغنا ارضاً نزة رأينا في جنوبها الشرقي بعضاً من العشش التي يبنيها عبيد الرزيقات الذين يشتغلون في الحقول . وذهبت بمقدمة الجيش الى هذه العشش لفحصها وكان الجنود يعاونون الخيل على السير في هذه الحماة التي كانت تنغرز فيها أرجلها . ونحن في ذلك واذا بنا نسمع

من المؤخرة اشارة الخطر تلاها فى الحال اطلاق الرصاص فتركت المقدمة فى المشش وركضت جوادى الى الميسرة واخذت تسعين جنديا نظاميا وذهبت الى المؤخرة ولكن كان مجيئنا متأخراً فقد أطلق البازنجر والجنود النظاميون فى المؤخرة اول طلقة وبينما هم يملأون انابيب البنادق لاطلاق الثانية هجم عليهم العدو بجموع كثيفة فزحزحهم الى الوراء فى ناحية . ورأى جنودنا فى القلب هذا الاختلاط بين العدو والولى فامتنعوا عن اطلاق النار . فاشرت لحملة الأبواق بان يشيروا على جنودنا بالرقاد ثم يسددوا مرماهم الى افراد العدو الذين اختلطوا بنا ويصيبوا ايضاً من ياتى بعدهم من الأعداء . وبهذه الطريقة وقفت الهجوم وقسمت العدو قسمين واحدة الى اليمين وآخر الى اليسار . وذهب هذان القسمان الى ميمنتنا وميسرتنا للاشتباك معهما فى القتال .

وكان الاختلاط الآن هائلا لا يمكن وصفه . فان الأعداء العرب الذين دخلوا الى قلب جيشنا كانوا لا يزالون فيه وقد اعملوا سيوفهم فى البازنجر ولم يكن مع البازنجر ما يدافعون به لأنهم كانوا لا يحملون سوى البنادق . أما الجنود النظاميون الآخرون فلم يجدوا من الوقت ما يساعدهم على تجريد السيوف وذلك لمفاجاة الغارة . ولكننا تمكنا فى النهاية من قتل جميع العرب الذين جازوا الى قلب جيشنا . أما حرس الميمنة وحرس الميسرة فقد هوجموا من الأمام والخلف فلم يستطيعوا تحمل الصدمة وفروا فى كل جهة فتلقاهم فرسان الرزيقات المختبئون فى الغابات وقتلوهم .

ولم تدم المعركة اكثر من عشرين دقيقة ولكن خسارتنا فى هذا الوقت القليل كانت عظيمة جداً . ومن حسن حظنا ان العدو الح فى مطاردة الفارين من جناحى جيشنا . وتمكنا نحن من تطهير القلب من جنود العدو ولكن ضحايانا كانت كثيرة وكانت الخسارة بين

اولئك الذين أطاعوا اشارتنا بان يرقدوا قليلة ولـكن اصابـات البازنجر الذين لم يدربوا كانت غير قليلة وقتل ايضاً عدد كبير من جمالنا .

وفى وسط الاختلاط رايت أحد الأعداء يمر بالقرب منى ويحمل معه كيساً أحمر يحتوى على الفتائل التى نطلق بها البنادق . وكان يبدو عليه أنه يظن انه غنم شيئاً عظيماً . والحق انه كان بالنسبة الينا شيئاً عظيماً لانه لا فائدة من البنادق بدون هذه الفتائل . وكان بجانبى خادم أسود لا يتركنى فقلت له : « هاك يا كير فرصة تثبت بها شجاعتك التى كثيراً ما وصفتها لى . خذ حصانى واذهب وراء هذا الرجل واحضر منه الكيس الاحمر » .

فقفز الى الحصان وفى يده حربة وطار به وبعد دقائق قليلة عاد ومعه الكيس الأحمر ومعه ايضاً حربة حمراء بالدم .

واختفى فرسان العدو فعملنا اشارة الاجتماع ولكن لم يلب النداء سوى بضع مئات فقسمتهم قسمين احدهما للحرس والآخر يشتغل بجمع الذخيرة من اولئك الذين قتلوا . ووضعنا ما جمعناه على الجمال ثم سرنا الى قرية عالية يمكن منها مشارفة السهل حولها . ثم جمعنا مقداراً من الاشواك وصنعنا بها زريبة بأسرع ما يمكننا خوفاً من ان يفاجئنا العدو فى اى وقت . وبعد أن انتهينا من ذلك فكرنا فى الجرحى الذين حملناهم الى داخل القرية وعملنا كل ما فى استطاعتنا لتخفيف آلامهم .

وكانت الجثث مبعثرة فوق الأرض لا يحصيها العد دع عنك من قتلوا . الغرابة والعجب انه فى هذا المكان نفسـه انهزم ادم طربوش وزير السلطان حسين وقتل فى المعركة .

ثم حان حين نداء الأسماء وهو واجب محزن . ووجدنا أنه قتل من ضباط المشاة الأربعة عشر عشرة وجرح واحد . وقتل من رؤساء الجلابة الشيخ خضر ومنجل مداني وحسن واد ستارات وسليمان واد فتح وتقى أحمد وحسيب وشكلوب . ومن الطوبجية الثلاثة عشرة لم يبق سوى واحد أما اليوناني اسكندر الذي جرح في دبيبن ولم يكن جرحه قد برىء بعد فقد قتل أيضاً . وجمعنا ونحن في حزننا الموتى لكي نقدم لهم آخر تجارتنا . ووجدنا بين أكداس الجثث جثة شرف الدين مطعوناً في قلبه ثم حفرنا في هـذه النزة قبورا وصرنا ندفن اثنين أو ثلاثة معاً في كل قبر .

أما الجرحى المساكين فلم يكن في مقـدورنا أن نساعدهم كثيرا فان أولئك الذين كانت جروحهم خفيفة كانـوا يشتغلون بتضميدها بأنفسهم . أما الذين كانت جروحهم خطرة فلم يكن عندنا لهم سوى الكلمات الطيبة .

وكانت رؤية هؤلاء الجرحى مما يؤلم النفس ويجعل الانسان يشعر بعجزه التام عن تخفيف ما بهم . ورأيت أحد الخدم ومعه حقيبتي وكان بها بعض الأقمشة للتضميد فاخذتها وجعلت أضمد بعض الجراحات . وأنا في ذلك خطر ببالي أني لم أر خادمي مرجان حسن وكان معه أحد جيادي . وكان صبيا سريا ذكيا لم يكمل بعد السادسة عشرة من عمره وكان هادئا شجاعا شريف النفس . فقلت للصبي الذي يحمل حقيبتي : « قل لي يا عيسى أين مرجان الذي كان يسوق جوادي مبروك (وكنت قد وضعت في جيوب سرجه مذكراتي وخرائطي) قل لي أين هو » . انه صبي نشيط ولا بد أنه قد ركب الجواد وتمكن من الفرار .

ولكن عيسى بدت عليه امارات الحزن والوهن عند سؤالى هذا فهز رأسه وشرقت عيناه بالدموع ثم سلمني قطعة من لجام الجواد فقلت له : « ما هذا » ؟

فقال : « مولاى · لم أحب ان أزيد حزنك · لقد وجدت مرجان قريبا من هنا راقدا على الارض وبصدره طعنة الرمح · ولما رآنى تبسم وقال : « لقد عرفت أنك ستأتى لكى ترانى · ودع مولاى وقل له انى لم أجبن ولم أسلم الجواد الا بعد أن وقعت مطعونا فى صدرى وقطعوا اللجام من يدى وجروا به · قل لمولاى ان مرجان كان أمينا . خذ السكين من جيبى فانها لمولاى . أعطها له ثم سلم عليه كثيرا » ·

ثم غص عيسى بريقه وسلمني السكين وهو ينشج فآلمنى جدا الخبر ألما شـــديدا ووهنت قواى عند سماعه . أجل يا مرجان . ما أصغر سنك وما أشرف نفسك · وما أفدح مصيبتى فى فقدان هذا الخادم الأمين بل الصديق المخلص ·

وقلت لعيسى : « قل لى : كيف كانت النهاية ؟ » ·

فقال عيسى : « كان عطشان فحملت رأسه بين يدى ولم تمض بضـــع دقائق حتى مات فنهضت وتركته فقد كان على أن أؤدى أعمالى ولم يكن ثم وقت للبكاء » ·

ثم قوينا سياج الزريبة وحفرنا الخنـــادق وراءه ثم أمرت بدق الطبول ونفخ الأبواق وأطلقنا بضع عيارات وذلك لكى يعرف الفارون أو الجرحى الذين ارتطموا فى الوحل أننا قد وجدنا ملجأ قريبا منهم · وجاءنا عدد كبير من هؤلاء فى النهار · وفى آخر النهار نادينا الأسماء فوجدت أن عندنا ٩٠٠ رجل وهم البقية المهزومة

الحزينة لجيش كان يبلغ ٨٥٠٠ رجل ولكننـــا مع ذلـك رضـــينا بالنتيجة • ولم يبق من فرساننا وخيالتنا سوى ثلاثين ولا بد أن العدو قد غنم عددا كبيرا من الخيول وأن بعضها قد فر ورجع الى داره كل الى مسكنه ولكن الشائر كانت كثيرة لدينـــا لأنها تخلفت عمن قتلوا •

وعند الغروب عاد رجال الرزيقات فدهشوا اذ رأونا متحصنين مستعدين لقاتلتهم وأرسل المادبو رجاله من البازنجر لقاتلتنا ولكن بعد مناوشة قصيرة رددناهم ثم خيم الظلام ووقف القتال •

وبينما أنا قاعد وأتكلم مع الضـــباط اقترب منـا الشيخ عبد الرسول ومسلم واد كباشي وسلطان بيجو واقترحوا علينا التقهقر من مركزنا الحاضر ونحن في جنح الظلام لأنه لم يبق لنا أمل في الانتصار على العدو بعد خسارتنا الفادحة • فقلت لهم : « ترغبون في التقهقر الآن ولكن ماذا نصنع بجرحانا • هل نتركهم لرحمة العدو ؟ » •

فخجلوا وصمتوا • فقلت لهم : « ليس اقتراحكم حسنا • لقد كنت أنا أحادث الضباط في هذا الشأن الآن ورأينا أن نبقى هنا عدة أيام وليس أمامنا ما نخشاه سوى الجوع يمكننا أن نذبح الجمال المجروحـــة والضعيفة ونقوت بها الجنود ثم لا بـــد أن نجد ما نقتات به أيضا هنا والمؤكد أن العدو سيهاجمنا ولكننا سنرده بسهولة وبهذه الطريقة نعود الثقة الى رجالنا بعد ما فقدوها للخسارة الفادحة التي وقعت بنا • انى أعرف الرزيقـــات فهم لن يقعدوا هادئين يترقبوننا •• وأنا واثق بأنه لا بد من الاصطدام مع المادبو والشيخ جانكو وسائر رجاله من البازنجر الذين سبق أن طردناهم الى بحر الغزال • وسيستريح الجرحى ويتعافون قليلا فأولئك

الذين ليس بهم ســـوى جراح طفيفة سيمشون على أقدامهـم . أما من جراحهم بليغة فاننا نحملهم على خيولنا . وأظن أن اقتراحي هذا أفضل من اقتراحكم » .

وفي أثناء كلامي سمعت سلطانا يوافق على رأيي ولم أنته من كلامي حتى أمن الجميع عليه واتفق رأينا على البقاء .

ثـم تكلمت موجهـــا كلامي الى جميع الحاضرين وقلـــت : « هل تعرفون سبب هزيمتنا اليوم » ؟ .

فأجابوا بالنفي جميعا فقلت : « اليكم السبب . في هذا المساء وجدت بين الجرحى قائد المؤخرة حسن واد ستار وقد قال لي ان شرف الدين لم ينفذ تعليماتي بشأن تبديل المؤخرة كما فعلنا في الأيام السابقة فاغتاظ الجنود النظاميون لهذا السبب وتركوا مكانهم وانضم كل منهم الى فرقته بدون اذن ولم يرســـل مكانهم رجالا آخرين . وفي الوقت نفسه ترك العرب الموالون المؤخـــرة وانضموا الى الجناحين وعندما هوجم حسن واد ستارات لم يكن معه من الرجال سوى ٢٥٠ من البازنجر لا يحملون سوى البنادق القديمة . وقد دفع شرف الدين عن اهماله حياته ووقعت بنا الخسارة جميعا . وليس هذا وقت التلاوم فلنفكر في شيء آخر . اذهبوا الى رجالكم وشـجعوهم ثم ناموا حتى تصبحوا مستعدين لما يأتي به الغد . ولكن أنت يا سيد اغافو له لا يمكنك أن تنام للجرح الذي بك ولذلك سنصنع لك عنجريبا قريبا من باب الزريبة واذا حاول أحد أن يخرج بدون اذني فاضربه بالرصاص » .

فانفضوا من حولي وصرت وحدي فطفقت أفكر في موقفنا وأتدبر . ورأيت أن من المرجح أن نتمكن من التقهقر الى داره وكان

لدينا أكثر من ٨٠٠ بندقية • ولكن شعرت بمرارة الخســـارة الماضية فقد قتل أحسن ضباطنا وخشيت أن يبلغ نبأ هزيمتنا داره فيكون له أسوأ أثر في رجال الحكومة والأهالي معا • فأيقظت الكاتب وامرته بأن يكتب خطابين قصيرين : أحدهما لزوجـــال والآخر للحكيمدار محمد فرج وأخبرتهما بأنه على الرغم من خسارتنا الكبيرة فان حالتنا حسنة وأننا نرجو أن نرجع الى داره بعد أسبوعين .

ولكن اذا وصـــل الى داره بعض الفارين وأخذوا يشيعون الاشاعات المقلقة عن حالتنا فيجب اعتقالهم حتى أعود • ثم كتبت أنا بضعة أســـطر لجوتفريت روث أصف له الحالة وأخبره بأني سارجع الى داره قريبا مع الباقي من جيشنا وانه يجب أن يتشجع ويبعث الرجاء في نفوس من له • وكتبت أيضا بضعة أسطر لأمي واخوتي وأودعهم لأنه لم يكن من الممكن أن نتنبأ بما تنتهي اليه هذه القلاقل ورجوت جوتفريت روث أن يوصل هذه السطور في حالة قتلي الى أهلي في وطني •

وتناولت الخطابات الثلاثة وقمت الى عبد الله أم درامة شيخ العرب المصرية الذين يقطنون قريبا من داره فأيقظته وقلت له : « أين أخوك سلامة » ؟

فقال وهو يشير الى رجـــل نائم في جانبـــه : « هاكه » ثم أيقظه •

فقلت : « يمكنك يا سلامة أن تخدمني الآن أجل خدمة وهي خدمة تفيدك أنت أيضا • اني أريد منك أن تأخذ هذه الخطابات التي تراها وتذهب بها الى داره وتسلمها للرجل الأوروبي المسمى روث وقد رأيته مرارا • واركب جوادي الذي كثيرا ما مدحته في

هذه المهمة • وعليك أن تسافر الآن وعندما تبلغ خط العدو المحيط بنا الآن وكض جوادك فانهم كلهم نيام فيمكنك أن تختفي في الظلام قبل أن يعدوا خيولهم للعدو وراءك • ومتى جزت خطوطهم فانت آمن وعندئذ تبلغ داره في بحر يومين وسأكافئك باعطائك فرسى السوداء التي في الاصطبل في داره » •

وبينما أنا أتكلم كان سـلامة يشـد حزامه على وسطه وكل ما قاله لي : « أين الخطابات ؟ » •

فناولتها له فاخذها وقال : « ان شاء الله وبمعونة الله سأوصل هذه الخطابات الى أصحابها • ولكنني افضل ان اركب فرسي فانه لم يكن يجري بسرعة فرسك الا أنه يقوى على حملي • فهو يعرفني وانا أعرفه • وفي مثل هذه المهمة يكون التعارف مفيدا » •

واخذ يسرج فرسه وكتبت أنا رقعة الى روث وطلبت منه أن يسلم الفرس السوداء لحامل الخطابات وناولتها لسـلامة بعدما اخبرته بمضمونها • ثم قاد فرسه الى الباب وكان هناك سـيد أغافوله يتململ على فراشه اذ كان مجروحا في ساقه اليمنى وذراعه اليسرى • فاخبرته بمهمة سلامة فأمر له بفتح الباب • وامتطى سلامة فرسه وحمل في يده اليمنى رمحه وفي اليسرى جملة مطارد صغيرة يزرق بها العدو على بعد وشرع في السير •

فقلت له : « مع سلامة الله » فقال : « أنا واثق بالله » واتاد في سيره أولا حتى اقترب من خطوط العدو وهو يسير على حذر • ثم سمعت دبدبة سريعة ثم عيارا أو عيارين ثم خيم السـكوت كأنه الموت • فقلنا جميعا : « ليكن الله معه » وعدنا الى الزريبة وقد بلغ منا الاعياء وما هو أن انطرحنا حتى نمنا •

ولما استيقظت في الفجر وجدت الرجال يشتغلون في التحصين وكان كما تنبأت فان العدو عاود الهجوم • ونشط اطلاق النار من الجانبين مدة ولكن بالنسبة لمكاننا المشرف اضطر العدو الى التقهقر بعد ان أوقعنا به وكبدناه خسارة جسيمة • وقد قتل وجرح منا عدد قليل وكان من القتلى علي واد حجاز وهو جمالي شجاع • ولما كانت نيتنا البقاء هنا بضعة أيـــام فان رجالنا جدوا في تحصين الزريبة وأخذنا ندفن من ماتوا منا وكان الفساد قد انتشر في أجسامهم وامتلأ الهواء برائحتهم •

وقضينا في الزريبة خمسة أيام كان العدو يهاجمنا فيها مرة أو مرتين كل يوم . وقد حدث في اليـــوم الثالث أن كريمه نور قائد مدفعية المادبو قتل فثبطت عزائم العدو وفتروا في هجومهم عن ذي قبل •

ولكن نهض لنا عدو آخر وهو القحط . فقد أكلنا كل شيء يؤكل فانتهت لحوم الجمال ولم يكن لدينا حبة ذرة • وقد اقتتنا أنا والضباط في المدة الأخيرة بكسرات من خبز الذرة كنا نطبخها مع ورق نبات يدعى كوال ونضرب هذا الخليط حتى يصـــير شبه عصيدة لا طعم لها • ولم يكن ثم ما يرجينا بتخفيف وطأة العدو أو بمجيء جيش لانقاذنا فلم يكن من الممكن أن نبقى أكثر مما بقينا وكان الجوع قد أثر فينا وأضعفنا •

وعلى ذلك جمعت جميع رجالنا وكان عددهم نحو ٩٠٠ رجل كلهم ما عدا قليلا من العرب مسلح بالبنادق • أما العرب فكانوا لجهلهم بالبندقية يؤثرون عليها حرابهم ثم خطبتهم خطبة قصيرة قلت فيها ان دماء ضباطهم ورؤسائهم تهتف بهم أن اثاروا لنا وان نساءهم وأولادهم ينتظرونهم مشتاقين لرؤيتهم ولكن من المحال

أن يصلوا اليهم ما لم يتحملوا الآلام بالصبر ويواجهوا المشاق بالجلد والشجاعة ثم ختمت خطبتي بقولي ان أولئك الذين قد مكن الخوف قلوبهم قد فروا يوم المعركة وأما الذين يقفون أمامي الآن فقد صمدوا وعانوا المشقات وأن الله سيكافئهم على جهودهم بالنصر .

فأجابوا بالهتاف وبرفع البنادق فوق رؤوسهم وهذه اشارة للطاعة ثم صرفتهم وأمرتهم بالاستعداد للرحيل في اليوم التالي . ثم نزعت من البندقيات القديمة التي تخلفت عن القتلى زنودها وجمعتها ثم القيتها في بركة أما البندقيات فقد أحرقتها . والقينا كل ما لا حاجة لنا به في الماء وقسمنا الباقي بين الجنـــود . فخص كل رجل بين ١٦ الى ١٨ دستجة من الخراطيش ولكننا أتلفنـــا البارود الذى يستعمل في البادق القديمة لئلا يستفيد منها العدو . أما رصاص الخراطيش فقد وضعناه تحت رؤوس من ماتوا حديثا .

فلمـــا كان السبت وهو اليـــوم السابـــع لنكبتنا بعد طلوع الشمس خرجنـــا من الزريبة وألفنـــا القـــلب وحـــوله المقدمة والمؤخرة والميمنة والميسرة وشرعنا في التقهقر وكان عندنا جملان فقط فجعلناهما يجران المدفع في القلب وأرسلت أنا في كل جانب فارسين للاستكشاف . وكان في القلب ١٦٠ جريحا فكان القادر يمشي على أقدامه ومن لم يقدر حملناه على خيولنا القليلة ، كل فرس يحمل رجلين أو ثلاثة وكنت أنا راضيا بالسير على قدمي ولكن الح على الضباط في الركوب فركبت لكي أشرف على الفلاة حول الجيش وكنا جميعا نعرف بأن العدو سيهاجمنا بعد خروجنا من الزريبـــة فملأنا المدفع وعولنا على ألا نبيع حياتنا رخيصة وكنا واثقين باننا اذا نجحنا في رده مرتين أو ثلاثا فانه لن يعـــاود الغارة علينـــا وقررنا أن نسير في الجهة الشمالية الغربيـــة لأن الأرض هنـــاك مكشوفة ولكننا كنا نجهل مكان مياه الأمطار لأن أدلتنا قد فروا أو قتلوا .

وقبل أن يمضي على مسيرنا ساعة هوجمت مؤخرتنا فأدركت ان الساعة الحاسمة قد أزفت • فأمرت بالوقوف في الحال وضممت الجناحين الى القلب • ثم اصطحبت حرسا مؤلفا من خمسين رجلا وسرت نحو المؤخرة وكانت تبعد عنا نحو مائتي ياردة • ونقلنا المدفع الى آخر القلب من جهة المؤخـــرة وكلفنا الجرحى بملء البنـادق حتى لا يضيع وقت الجنود المقاتلة •

وقبيل أن يظهر مشاة العدو كنا نسمع وقع أقدامهم فاستعددنا لهم بحيث أنهم عندما ظهروا سددنا اليهم النار من حرس المؤخرة • فتوقفوا قليـــلا ولكنهم كانوا يســـتندون الى كثرة عظيمـة وراءهم فتشـــجعوا وكل منهم قد شرع حربته في يده اليمنى وحمل تحت ذراعه اليسرى عدة مطارد . وتمكنوا من الاقتراب منا حتى أصاب بعضهم بعض رجالنا بالمطارد التي تزرق على بعد • ولكننا أعملنا فيهم النار وكان مدفعنا يرميهم من القلب • فتقهقر رجالهم من حملة الحراب وصرنا وجها لوجه مع البازنجر وأصبح القتال بالنار من الجانبين ولكن جاءتنا امدادات من القلب فاستطعنا بهم أن نرد العدو بعد قتال عنيف دام عشرين دقيقة •

وكنت عند اطلاق أول عيار قد نزلت عن ظهر جوادي وهذا معناه في السودان عدم الأمل في الفرار والاصرار على واحدة من اثنتين : الظفر أو الموت • ولما انتهى القتال تحلق الجنود حـولي وأخذوا يهزون يدي بالنصر الأول الذي انتصرناه على العدو •

وبينما نحن نشـتغل بالقتال من المؤخرة كانت ميسرتنا قد اشتبكت أيضا وانتصرت في النهاية ولكن خسارتها كانت جسيمة وجرح أحسن قائد باق لدي وهو زيدان آغا جرحا بليغا • وكان نوبي المولد وظهرت كفايته في حملة دارفور اذ قاد فصيلة مؤلفة

من ١٢ رجلا واستخلص بها مدفعا من العدو وكان قد غنمه منا • ولهذا العمل كوفيء بترقيته الى رتبة ضابط والآن أراه مصابا بعيار فى رئته اليمنى • فسألته عن صحته فقال لى بعد أن مد يده الى : « أما وقد انتصرنا فما بى من بأس » ثم ضغط يدى وبعد دقائق مات •

وقتل أيضا من جانبنا ٢٠ وجرح عدد كبير • فدفنا القتلى بعجلة اذ لم يكن لدينا من الوقت ما يسمح بالحفر العميق ولكننا غطيناهم حتى لا نعير بأننا تركنا قتلانا بلا دفن ، ثم استأنفنا مسيرنا بحيطة وحذر ولكن ثقتنا فى أنفسنا زادت عن ذى قبل •

وفى الساعة الثالثة عاود العدو الغارة على المؤخرة ولكن الغارة كانت خفيفة فطردنا المغيرين بدون أن نخسر أحدا • ثم وقفنا وأحطنا الجيش بزريبة منتظرين من العدو غارة أخرى • ولكننا دهشنا اذ لم نتلق هجمة واحدة من العدو طول الليل ، وفى الصباح بعد أن نفد ماؤنا استأنفنا السير • ونحن فى مسيرنا عاود العدو الغارة ولكن هجومه هذه المرة كان أضعف من هجومه فى الأمس فطردناه بأقل عناء • واستمر سيرنا حتى الظهر بدون أن نجد ماء • فتفيأنا فى ظل بعض الأشجار وأخذ رجالنا يبحثون عن نوع من الفجل يسمى « فايو » وهو كثير العصارة وله ثلاث ورقات صغيرة تدل عليه فكان رجالنا يقلعونه من الأرض ويمصونه فيطفيء عطشهم بعض الشيء ، ولكن كنا مع ذلك فى حاجة لازمة للماء . وبعد أن استرحنا استأنفنا المسير ثانيا فالتقينا مصادفة براع من الرزيفات يسوق غنما • فتسابق الرجال الى الغنم واحتازوها من راعيها الذى وقف مبهوتا مروعا لا يحاول الفرار وكان رجالنا ينوون قتله لولا وساطتى • فأمرت بوضع الغنم فى القلب وأحضر الراعى الى ويداه موثقتان الى ظهره وقبل أن أستجوبه أمرت بتوزيع الغنم

كل رأس لخمسة رجال وما يتبقى لنا . وكان عدد الخراف يبلغ نحو مائتين . ما أجل هذه النعمة التى أنعم الله بها علينا ونحن فى جوعنا هذا !

ثم التفت الى الرجل وقلت له انى لن أقتله اذا هو هدانا الى غدير ماء واذا أثبت أمانته فانى أكافئه وأسمح له بالذهاب الى أهله فرضى وقال : ان الغدران التى حولنا صغيرة ولكن اذا تكلفنـــا المسير مسافة فانه يضمن لنا بلوغ « القولة البيضاء » وهو غدير كبير نجد فيه ماء يكفينا أشهرا . وكنت غير واثق به فأمرت صف ضابط وثمانية رجال بمراقبته وألا يجعلوه يبعد عنى . ثم استأنفنا المسير وفى المساء وقفنا وصنعنا زريبة بتنا فيها كالعادة ومررنا ببضعة غدران ولكن ماءها لم يكن يكفينا وكنا نقاسى الشدائد من العطش فما جاء الفجر حتى قمنا واستأنفنا المسير بعد ليلة قضيناها من الأرق من شدة العطش .

وعند الظهر أشار الدليل الى بضعة أشجار قال ان الغدير تحتها . فوقفنا فى الحال وملأنا المدفع والبندقيات واستعددنا للمقاومة . فقد ترجح لدى أن العدو سيقدر عطشنا فينتظرنا تحت الأشجار ويفاجئنا بالنار . فأمرت الرجال بأن يراعوا النظام بكل دقة أو لا يستسلموا للفوضى . ولكن ما كاد يظهر الماء حتى هرع اليه الرجال يترامون عليه بلا نظام .

وكانت قبيلة الميما ثائرة الآن فأرسلت التعليمات الى عمر ولد دارهو لكى يقوم بمائتى جندى نظامى ومائتين من الخيالة الى بلاد الميما . وقررت فى الوقت نفسه أن أقاتل الخوابير الذين كانوا قد اتحدوا مع الميما . وذهب دارهو اليهم وأدى مهمته بنجاح اذ هزم الميما فى فاقة وفى وودة . وقمت أنا بمائة وخمسين جنديا

نظاميا وخمسين من الفرسان وسرت فى طريق شميرية وبير أم الوادى حيث كان الخوابير ينتظروننى للهجوم على • ولكن بعد قتال قصير هزموا وتشتتوا وغنمنا منهم عددا كبيرا من الخراف والثيران •

ولما انتهيت من القتال بعثت الى دارهو لكى ينضم الى فى بير أم الوادى بمن تبقى من رجاله • وبعد أيام قلائل أدركنا وأخبرنا بكل أعماله وانتصـــارات المهدى فى كردوفان التى أقلقتنى قلقا عظيما • •

وكنت فى الليلة التى أرسلت فيها الى دارهو التعليمات لكى ينضم الى قد جاءنى رجل يدعى عبد الرحمن واد شريف وألح فى مقابلتى وكان هذا الرجل تاجرا معروفا فى داره وقد سبق أن زار الخرطوم وبدأ كلامه معى بقوله انه بالنسبة لمعاملتى الحسنة له فانه رأى من واجبه أن يخبرنى عن تسليم الأبيض وذلك حتى أتمكن من الاحتياطات اللازمة فى مثل هذا الحادث • وكان هذا الخبر صدمة قوية فشكرته وطفق هو يصف لى كيفية سقوط البلدة • فقد كان حاضرا فيها وقت التسليم ثم سافر الى أهله فى داره وسمع وهو فى طوبشة عن وجودى فى بيرام الوادى فأسرع فى ادراكى حتى يبلغنى أمر هذا السقوط •

ورأيت أنه من غير المفيد أن تبقى المســألة سرا فاستدعيت دارهو وسليمان بسيونى وأخذنا نتحدث معا فى هذا الموضوع • وكان واضحا لكل منا أن هذا الخبر سيكون مشجعا لأولئك الذين يكرهون الحكومة وصار من الضرورى لذلك أن أذهب الى داره •

ولما كنا قد عاقبنا الميما والخوابير فقد رأينا أن نرسل حملة الى طوبشة وكتبت فى اليوم التالى الى سعيد بك جمعة بأن يجلو

عن أم شنجة ويأخذ معه الحامية وجميع الأهالي الذين يرغبون في تركها ويأخذهم جميعا الى الفاشر • وكنت كتبت له أنه بالنسبة لسقوط الأبيض فان العرب الآن سيوجهون نظرهم الى أم شنجة وهم اذا حاصروها صار من المحال تخليصها منهم وانه يجب بالنسبة للظروف الراهنة أن يجمع الجيوش في الفاشر • وأمرته باقامة حرس في فيفا ووده حتى تبقى الطريق مأمونة بين الفاشر وبين داره • ثم أمرت عمر واد دارهو بأن يقوم هو وجيشه في الحال الى الفاشر وأن يوزع الغنائم التي غنمها من المميا بين جنوده وحامية الفاشر • أما ما غنمه من الخوابير فيعطى للجيوش المقيمة في داره • وفي نفس اليوم انفصلنا فذهبت أنا الى داره وذهب دارهو الى الفاشر •

وانتشر خبر سقوط الأبيض في كل مكان وظهر أثر ذلك في القبائل العربية فصاروا يجتمعون ويقررون الثورة على الحكومة •

ولما وصلت الى داره أمرت بشراء كل ما يمكن من الذره وكان مدخرا لدينا كمية كبيرة منها ولكني رأيت من الأنفع ادخار أكثر مما عندنا . وأرسل الى الشيخ عفيفي يقول ان قبيلته قد ثارت وانضمت الى الرزيقات ولكنه هو لا يريد أن ينكث بعهده ، ولذلك قد ترك أسرته وعشيرته وقصد الى عن طريق حلبة وانه أرسل أخاه على برسالة الى بشارى بك واد بكير رئيس قبيلة بني حلبة حيث أقسم له بأن يمر في بلاده آمنا وانه لذلك يأمل الوصول الى في بضعة أيام •

وبينما أنا في انتظاره واذا باخبار سيئة تقول انه قتل • وقد فقدت فيه أكثر العرب ولاء لي • وتبين بعد ذلك أن بني حلبة الذين أمرهم رئيس قبيلتهم بأن يجيزوه أرادوا أن يأخذوا منه

أغنامه وثيرانه فرفض فقاتلوه فاظهر بأسا عظيما ولكن كمن له بعض العرب وراء الأشجار واغتالوه بحرابهم بينما كان يطارد العرب الذين هزمهم مرتين ٠

ورجع الى محمد ولد عاصى الذى كنت ارسلته مع خالد ولد امام الى كردوفان واخبرنى بالحالة هنالك ٠ وقد بشرنى بأن الحكومة فى الخرطوم تهيىء جيشا للاستيلاء ثانية على كردوفان ولكن لابد من مضى وقت طويل قبل أن تهيأ التجريدة وتشرع فى السفر ٠

فاخبرته باذاعة هذه الأخبار فى كل مكان ثم سالته عن علاقة زوجال بالمهدى فأجابنى على الرغم من أبحاثه لم يتحقق على وجه التأكيد هل تجرى بينهما مكاتبات ولكنه لا يشك فى ان المهدى يرسل رسلة الى زوجال فيخبرونه شفويا بما يرغب ٠ وهؤلاء الرسل هم التجار الجائلون ٠ وقد وافقنى على رأيى بأن زوجال لمركزه وتربيته يعرف بواعث هذه الثورة ولذلك ليس من المرجح أن يشترك مع الثائرين ٠

ولا شك فى أن تسليم الأبيض قد أضعف مركزنا وكان علينا أن نعمل بحذر وحيطة ما دامت مديرية كردوفان كلها قد صارت فى يد المهدى ٠ وكنت أرجح ان أخبار ولد عاصى عن اســـتعداد الحكومة فى الخرطوم لارسال حملة للمهدى سيجعل المهدى يحتفظ بقواته ويجمع جيشه فى مكان واحد للمقاومة ، وعلى ذلك ليس من المحتمل أن يوجه جيشه الينا ٠ ورأيت أن أرصد كل وقتى للقبائل العربية التى هيجها سقوط الأبيض ومنشـورات التعصب وكان يخشى منها أن تتمادى فى هياجها وترتكب أى شطط ٠ ولم يكن من المنتظر أن يتم تهيئة التجريدة الخاصة بكردوفان قبل الشتاء فكان علينا أن نثبت ونقاوم بأية وسيلة حتى هذا الفصل ٠

وعلى الرغم من اقامة مراكز حربية فى فافا وفى وودة فان عرب الخوابير تجمعوا فى أم الأوادى وانضم اليهم بعض رجال الميما الذين غاظهم انقطاع المواصلات الى بلادهم وحمسهم سقوط الأبيض وكانوا يثيرون الهياج والفتن فى جميع البلاد بين داره والفاشر ولم تقو حامية فافا على مهاجمتهم . فعزمت لذلك على غزوهم لكى أريهم أن سقوط الأبيض لم يثبطنا والتقيت ٢٥٠ جنديا قديما مدربا على الحروب ثم دربتهم بضعة أيام على قتال السنجة وأخفيت يوم شروعى فى السفر عن كل أحد .

ثم أخذت جميع الخيول وكانت تبلغ نحو السبعين وأشرت على واد عاصى بأن يطلعنا على أخبار داره ثم خرجنا وأسرعنا فى المسير فلم يمض يومان حتى بلغنا جوار بير أم الوادى حيث قد اجتمع عرب الميما والخوابير . ولم يكن معنا سوى أسلحتنا وذخيرتنا ولم نحمل ميرة لأن نيتنا كانت الهجوم ثم الرجوع . وفى اللحظة التى ظهر فيها العدو أمرت رجالى بتثبيت السنجة . وقاتلنا البازنجر وبعد عشرين دقيقة نجحنا فى تفريقهم ودخل بعض عرب الميما فى صفوفنا فقتلوا كلهم بحراب البنادق (السنجة) ثم أمرت الفرسان بأن يطاردوهم وأمرت الجنود النظاميين بأن يسيروا وراء الفرسـان ليبحثوا عن مكان البطيخ لأن الفارين سيقصدونه بالطبع لكى يقصعوا عطشهم وقد نفذت هذه الأوامر وقطعنا البطيخ وقبضنا على عـدد من النساء والأطفال وتفرق الرجال فى كل مكان يبحثون عن الماء ومات كثير منهم عطشا . وفى اليوم التالى أحرقنا خيام العدو وأخذنا النساء والأطفال الى بئر أم الوادى التى اعتزمنا الهجوم عليها الآن . فدافع العدو دفاع اليأس عنها وخسرنا ١٦ رجلا قتلوا و ٢٠ جرحوا . وأدركت من هذه الخسارة أن الجنود النظاميين عندى قد قلوا جدا فى حين أن العدو يزداد حتى بعد هزيمته .

ولما كنت الأوروبي الوحيد في بلاد غريبة وكان السكان حولي يدسون لي ويكرهونني كنت ألجأ الى وسائل عديدة لكي أعرف المؤامرات والترسيمات التي تدبر حولي . وكنت أحيانا بواسطة النقود أو الهدايا التي أرسلها سرا أعرف ما سيحدث لي قبل حدوثه وأحتاط له .

وكنت بواسطة الخدم أستغل البغايا اللواتي كن يصنعن المريسة أي الجعة الوطنية وكان يشربها عندهن رجال الطبقات الدنيا . وكان الخدم يخبرونني بأن رجالنا وهم يتعببون هذه الخمر ويسكرون يتكلمون عن ثورة المهدي الذي لم يكونوا يعطفون عليه . ولكنهم كانوا يقولون أن الحكومة قد عينت في المراكز العليا ناسا من النصارى لمحاربة المهدي ولذلك فالنتيجة يجب أن تكون سيئة . ومما قالوه أنهم وان كانوا يحبونني الا أنهم يعزون ما أصابنا من الخسارة وما قاسيناه من الآلام الى أني مسيحي . وكنت متحققا بأن هذه الآراء ليست من ثمار ذهن الزنوج الذين لا يبالون بالدين وانما هي من ذهن أولئك الجنود الذين يكرهونني ويشتهون ازالة سلطتي وبث روح العصيان بين رجالي .

وعند قيامي من بير أم الوادي جاءتني أخبار سيئة أيضا ، فقد أخبرني الخدم بأن بعض الجنود الذين يذهبون الى حانة البغي التي كنت ارشوها لكي تخبرنا بكل ما يدور في حانتها قد ائتمروا على ترك الجيش . وعلمت بعد البحث أن الداعين الى ترك الجيش هم بعض من رجال قبيلة الفور وصفوف ضباطهم فانهم على قولهم قد سئموا هذا القتال وقد تحققوا أن أيام الأتراك قد باتت معدودة في السودان وانهم ينوون ترك جيشنا والذهاب الى جبل مرة للانضمام الى سلطان دود بنجه خليفة سلطان هرون . ولما كان أكثر رجالي من قبيلة الفور فاني شعرت بخطورة الحالة وأرسلت

ى الحال الى البكباشى محمد أفندى فرج وأخبرته بما سمعت •
ندهش وأكد أنه لم يسمع شيئا قط عن هذا الموضوع وانه لن
بهمل في الاستقصاء ومعرفة الجناة ومعاقبتهم • فأمرته بأن يلتزم
التكتم والا يفعل شيئا يلقى بينهم الشك والتوجس • وأرسلت
وهو معى الى خادمى وأعطيت له صرة بها نقود وأمرته بأن يذهب
بها الى البغى ويعطيها لها ويطلب منها أن تدعو هؤلاء الرجال الى
منزلها وتسقيهم على حسابها ما شاءوا • وفى الوقت نفسه طلبت
منها أن تخفى الخادم بحيث يسمع ما يدور من الحديث بين الجنود
وأخبرتها بأنها اذا نفذت هذه الأوامر فانى أكافئها مكافأة سنية •
وعاد خادمى بعد قليل وأخبرنى بأن كل شىء قد رتب على ما تهوى •

وفى اليوم التالى أرسلت للبكباشى وأعطيته أسماء ستة من
الزعماء وأمرته بالقبض عليهم وزيادة على ذلك أعطيته أيضا التفاصيل
الخاصة بمراكزهم من الجيش وتاريخ ذلك •

وبعد نصف ساعة عاد ومعه الستة المقبوض عليهم وهم
مقيدون من خلف وكانوا كلهم من الفور • وكان وراءهم عدد من
القواصين والنظارة فطردتهم ثم سألت هؤلاء الستة أمام ضابطهم
عن سبب خروجهم على الحكومة • فأنكروا انكارا باتا وجود هذه
النية عندهم وانهم براء من كل ما نسب اليهم • فقلت لهم : « ولكننى
أعرف أنكم عقدتم جملة اجتماعات فى منزل خديجة • وقد أتحت
لكم كل فرصة لكى تتعقلوا ولكنكم أبيتم الا الطغيان فأمس كنتم
عندها تشربون المريسة واتفقتم على أن تنفذوا تدبيركم اليوم •
وكان غرضكم أن تضموا اليكم الجنود وتخرجوا بأسلحتكم من
الباب الغربى للقلعة وبعد ذلك تذهبون الى السلطان عبد الله وكنتم
تنوون انفاذ خطتكم بالقوة • ألم تقل أنت يا محمد أنه لديك مئتا
رجل يطيعونك ويعملون ما تشير به عليهم ؟ ألا ترون أنى أعرف
كل شىء فما فائدة الانكار ؟ » •

وســمعوا كلامي وهم سكوت وعرفوا أنهم قد افشى تدبيرهم فاعترفوا بكل صراحة وطلبوا الصفح والمغفرة ٠ فقلت لهم : « ليس هذا في يدى الآن ٠ اذهبوا الى ضابطكم واعترفوا له بكل شيء أمام سائر الضباط والفصل بعد ذلك للقانون » ٠

ثم أمرت الضابط بتاليف محكمة عسكرية وأن يجعل جميع صفوف الضباط يشهدون المحاكمة ولكنى افهمته بان يجعل المحاكمة مقصــورة على المقبوض عليهم وذلك حتى لا يفر ســائر الجنود المشتركين فى المؤامرة ٠ وفى عصر اليوم نفسه تسـلمت محضر التحقيق والاعترافات ولكن لم يكن قد حكم بعد عليهم ٠ فرددت الأوراق وطلبت النطق بالحكم فجاءنى ضابطهم وأخبرنى بأن المحكمة حكمت بضربهم بالرصاص ولكنها تطلب تخفيف الحكم ولكنى شعرت بضرورة التنكيل بهم حتى يتعظ بهم غيرهم فأيدت الحكم وأنا فى أشد الألم والجزع وطلبت تنفيذه فى الحال ٠

ثم أخرجنا المحكوم عليهم وحفرنا ست حفر ووقفنا كلا منهم على حفرة خارج الزريبة وركع كل منهم ركعتين ثم ضربوا بالرصاص ولم يبدوا أقل خوف . وخطبت الجنود الحاضرين عن خطر المؤامرات وان كل من يحدث نفسه بالثورة والفتنة سيعاقب مثل هذا العقاب وقلت لهم انى أؤمل أن تكون هذه المأساة الأولى والأخيرة من نوعها وأن تكون علاقتنا فى المستقبل علاقة الصداقة ٠

وكنت حزينا مغيظا لهذا الحادث فقد تذكرت العدد الكبير الذى فقدناه في المعارك الماضية والآن أضطر أنا الى اتخاذ أقسى الاحتياطات لحفظ النظام ٠ وكان الدساسون حولى يعملون جهدهم لاضعاف سـلطتى وهم يجهلون انهم لو نجحوا فى ذلك لما تحسنت حالهم والحقيقة أنه جاءهم زمن بعد ذلك كانوا يتحسرون فيه على عصيانهم أوامر ذلك الأوروبى الذى يكرهونه الآن ٠

وارسلت في ذلك المساء في طلب محمد أفندى فرج وسألته عن مجريات النهار وماذا كان وقع ضرب الجنود بالرصـــــاص فى سائر الجيش . وأضفت الى ذلك أنه يجب أن يعرف الجنود عدالة الحكم وان الجانين يستحقونه واننا استعملنا الرأفة مع سائر من اشتركوا فى المؤامرة ثم قلت : والآن يا فرج أفندى انى أرغب فى أن تكون صريحا مخلصا لى . وأنا اعرف أنك تميل الى وتطيعنى ولولا ذلك لما طلبت أن أخاطبك وحدك هنا . فأخبرنى الآن كيف ينظر الى الجنود والضباط ؟ وهل يحبوننى أو يكرهوننى ؟ ولست بالطبع أقصد اولئك الذين يبحثون عن مصالحهم الشخصية » .

فقال فرج أفندى : « ان رجالنا لم يتعودوا هذه الصرامة فى الأحكام ، ولكنهم مع ذلك متعلقون بك لأنك مواظب على دفع المرتبات فى مواعيدها وهذا شىء لم يألفوه قبل . ثم هم يعرفون لك صنيعك فى توزيع الغنائم بينهم . ولكننا خسرنا هذا العام خسارات فادحة ولذلك سئم رجالنا القتال » .

فقلت : « ولكننا مضطرون الى القتال . فنحن لا نخرج للفتح او للمجد الحربى وأنا شخصيا أوثر الراحة والدعة » .

فقال فرج أفندى : « انى أفهم هذا بالطبع ولكن هذه الخسائر التى كان يمكن تجنبها قد أثرت فى الجنود . فقد فقد أحدهم أبا وآخر أخاه وآخرون فقدوا بعض قرابتهم أو بعض أصدقائهم . واذا استمر هذا فان القتال يشق عليهم » .

فقلت : « وأنا أيضا أدرك ذلك وان كنت لم أفقد أبا أو أخا فانى فقدت أصدقاء . ثم انى أخاطر بحياتى العزيزة ، كما يخاطر الجنود بحياتهم . فأنا على الدوام معهم وجسمى عرضة للرصاص أو للحراب مثل أجسامهم » .

فقال : « انهم يعرفون ذلك تمـــام المعرفة ويجب عليـــك ان تشكرهم لاطاعتهم رجلا أجنبيا يخاطرون بحياتهم معه » .

فقلت : « حقا انى أجنبى أوروبى . وليس هذا سرا مكتوما ولا أنا أتعير منه ، فهل رجالنا مستاؤون من ذلك ؟ أصدقنى » .

وكان محمد فرج من أحسن الضباط تربية . وقد درس فى عدة مدارس في القاهرة ولكنه دخل الجيش جنديا بسيطا . وكان يعرف في غيره الميزات التى يمتاز بها ، وكان على الدوام مستعدا لأن يتعلم من أولئك الذين حصلوا على تربية أعلى من تربيته . ولم يكن متعصبا أو متدينا ولكنه كان حاد المزاج كثير التذمر . وكان تذمره وحدته جماع ما عنده من الصفات السيئة وقد قادته الى ارتكاب بعض الجرائم فنفى من أجلها الى السودان .

فلما طلبت منه أن يصدقنى رفع رأسه ونظر الى وقال : « ترغب منى فى أن أخبرك الحقيقة . فهاكها : انهم لا يعترضون عليك لأنك أوروبى بل لأنك غير مسلم » .

والآن عرفت منه ما أردت معرفته . فقلت له : « ولم يعترضون على ديانتى ؟ لقد مضيت السنين الطوال فى دارفور وهم يعرفون أنى مسيحى فما اعترض أحد على » .

فقال : « تلك أيام أخرى تختلف عن أيامنا الآن . فان هذا الوغد المدعو المهدى قد تستر بالدين وله أنصار يحضون الناس على اتباعه لكى يبلغوا اغراضهم السافلة .

وقد انتشر بين جنودنا رأى لا أعرف من أول من اذاعة مقتضاه أن هذه الحرب دينية وأنك لن تربح معركة فيها وان الهزائم ستتوالى

عليك حتى نفتل فى النهـاية . وأنت تعرف أن الجنـود الجهلة يصدقون هذه الأقوال وهم يعللون هزائمهم بأنك مسيحى . ورجالنا لا يدركون أن خسائرنا ناشئة عن تفوق العدو علينا فى عدد الرجال واننا مادمنا لا نؤمل فى مجىء امداد فاننا سنستمر على الهزيمة » .

فقلت له : « هبنى صرت مسلما فهل رجالنا يصدقون اسلامى ويؤملون فى النصر وهل هذا يزيد ثقتهم فى ؟ » .

فقال لى : « يصدقونك بلا شك أو على الأقل كثرتهم تصدقك . الم تتحين كل فرصة لاظهار احترامك لديانتنا وأجبرت غيرك على احترامها ؟ تأكد أنهم سيثقون بك . ولـــكن هل تغير دينك عن عقيدة ؟ » قال هذا وهو يبتسم .

فقلت له : « اسمع يا محمد أفندى . أنت رجل ذكى قد حصلت على تربية وتعرف أن العقيدة لا شأن لها فيما نحن فيه الآن . وفى هذه الدنيا يحتاج الانسان الى أن يعمل أعمالا تخالف عقيدته اما اضطرارا واما لســـبب آخر . وحسبى أن يصدقنى الجنود ويثقوا بى ويقلعوا عن خرافاتهم السخيفة . ولست أبالى بتصديق سائر الناس ، وأنا أشكرك الآن شكرا جزيلا وأطلب منك ألا تجعل هذا الحديث يخرج من فيك لأحد » .

وتركنى محمد أفندى فرج فتأملت وترويت قليلا فى الموضوع ثم استقر رأيى على أن أظهر فى اليوم التالى أمام الجيش كأنى مسلم . وكنت على تمام المعرفة بأنى فى اتخاذى هذا الموقف سيلومنى البعض . ومع ذلك قد عزمت على امضـــاء نيتى لكى أقطع على الدساسين حبل دسائسهم وتتاح لى الفرصة لأن أحتفظ بالمديرية التى عهدتها الى الحكومة المصرية . وكنت فى شبابى لا أبالى كثيرا

بالدين ولكنى كنت أعتقد انى بالتربية والعقيدة مسـيحى مؤمن بالمسيحية وان كنت أميل الى التسامح والى أن يختار كل انسان طريقة الصلاح التى يشتهيها . ولم يكن ذهابى الى السودان بصفتى مرسلا مسيحيا وانما كانت المهمة التى اعرفها ومن أجلها ذهبت انى موظف فى خدمة الحكومة المصرية .

وعند طلوع الشمس أمرت بعرض الجيش وانتظارى ثم ارسلت الى زوجال لكى يبعث الى القاضى أحمد واد بشير وأيضـا التاجر المعروف محمد أحمد . فلما حضرا حادثتهما فى الشئون العامة ثم طلبت منهما أن يحضرا العرض معى داخل القلعة . ثم اتخذت القيادة فى العرض وأمرت الجنود أن يصطفوا فى هيئة مربع ثم امتطيت جوادى ودخلت داخل المربع ومعى الضباط والموظفون ثم قلت :

« أيها الجنود ، لقد كابدنا المشاق العديدة معا ونزلت بنا الكوارث الفادحة . وما الكوارث الا محك الرجال . ولقد جاهدتم وقاتلتم ببسالة الأبطال وليس عندى شك فى أنكم ستداومون على ذلك . فاننا نقاتل من أجل مولانا الخديو حاكم البلاد ومن أجل أنفسنا أيضا . ولقد اشتركت معكم فى الأفراح والأتراح وعندما كان يلوح الخطر كنت على الدوام معكم لا أخيم فى اللقاء . وانى وان كنت رئيسا فحياتى ليست أغلى من حياتكم » .

فصاح معظمهم : « الله يخليك » .

فاستأنفت قولى : « وقد سمعت ان البعض يعدنى أجنبيا غير مؤمن بالاسلام ولكنى اقول لكم انى مؤمن كما أنتم مؤمنون . أشهد ان لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله » .

وعندما نطقت بهذه الشهادة رفع الجنود بنادقهم ثم هزوا رماحهم وصـــاحوا بالتهنئة وتقدم الضباط والموظفون لتهنئتى بالاسلام . ولما عاد النظام قلت انى سأصلى معهم ثم أمرت فرج أفندى باعادة الصفوف ثم صرف الجنود .

ولما انتهى كل شيء دعوت زوجال بك والضباط لكى يشربوا القهوة ويتنـــاولوا الغـــذاء معى . وودعنى الجميع وهم يؤكدون لى فرحهم وطاعتهم ولما غادرونى أمرت فرج أفندى بأن يشترى عشرين ثورا وان يوزعها بين رجالنا « كرامة » وأن يعطى لكل ضابط ثورا ودفعت أنا ثمن هذه الثيران .

وكان الأثر الذى أحدثه عملى فى رجالنا أكبر مما انتظرت فلم أعد أرى منهم ذلك الاكراه الذى كنت أراه منهم عندما أطلب منهم الخروج فى التجريدات وان كان عدونا يزداد كل يوم فى العدد والقوة .

وكان التجار الذين كنت ادفع لهم نقودا لكى يرسلوا الى الأخبار قد أخبرونى بأن الجيوش ترسل من القاهرة الى الخرطوم وان الحكومة تتهيأ بسرعة لارسال تجريدة بقيادة ضباط أوروبيين لاسترجاع كردوفان . اما الأهالى فقد انضموا جميعا بلا استثناء الى المهدى وكانوا مصممين على المقاومة .

وكانت جميع القبائل فى جنوبى دارفور قد ثارت ولكن الجزء الشمالى بالنسبة لمراكزنا الحربية وبالنسبة لاتصال قبائله بمصر واستفادتهم من القوافل الصادرة عن مصر اليهم لم تكن قد بدت فيه بعد أمارة للثورة . ولم نجمع بالطبع أية ضرائب منذ وقت طويل ولذلك كنا ندفع مرتبات جنودنا من المال الاحتياطى .

وبدأت انتصارات المهدى المتوالية تظهر أثرها فى زوجال بك ولاحظت تغيرا فى سلوكه وان كان على الدوام يراعى اظهار الولاء والطاعة . وقد وضح لى أنه فى قلبه يحب الفوز للمهدى ابن عمه لأنه كان يعرف أنه فى مثل هذه الحالة سيعود فوز المهدى عليه بأكبر المنافع . وكان محبوبا لدى مرؤوسيه وكان بالنسبة الى أهالى السودان يعتبر حاصلا على قسط من التربية والتعليم وكان يخدم الناس مادامت هذه الخدمة لا تمس جيبه ، وكان يشاع عنه انه سخى وكان ثريا له منزل كبير ومائدة مبسوطة وأظن أن سبب حب مرؤوسيه له أنه كان يغتفر لهم ذنوبهم ويسمح لهم بملء جيوبهم بطرق خفية غير مشروعة . وقد توصل أكثر قرابته بواسطة نفوذه الى الحصول على مناصب حسنة وصاروا بذلك اثرياء ، وعلى ذلك رأيتنى مضطرا الى أن أحتاط له . فان حب الجمهور له وموافقته على آرائى واطاعته أوامرى جعلتنى أكره وجود شقاق صريح بينى وبينه. ومثل هذا الشقاق لو حدث كان يؤدى الى نقض سلطتى . وعلى ذلك اضطررت وقتيا الى أن أتركه وشأنه . والمثل السودانى يقول : « ابعد النار عن القطن وأنت ترتاح » . وكان هذا المثل ينطبق على حالتنا ولذلك لزمته .

ثم طلبت فرج أفندى ووداد عاصى وقاضى البشير وكانوا كلهم يوالون الحكومة ويرجون بقلوبهم نجاحهم فأفضيت اليهم بالخطة التى انتويتها فأجمعوا على الموافقة . ولما خرجوا استدعيت زوجال بك وقلت له :

« اسمع يا زوجال . انت معى هنا ولا يشهدنا نحن الاثنين الا الله . فابن عمك المهدى قد فتح كردوفان وقد سقطت الأبيض وانضم اليه جميع الأهالى والبلاد التى بيننا وبين حكومتنا واقعة تحت يديه . وقد مال قلبك اليه عندما رأيت نجاحه فهل نسيت

كل ما صنعته لك الحكومة ؟ وهل نسيت الوسام والرتبة اللذين منحكهما الخديو بوساطة حكومة السودان ، وهل يمكنك أن تنسى واجباتك المكلف بها بحكم منصبك » ؟ .

فقال زوجال : « ان المهدى ابن عمى ولا يمكننى أن أنكر أن قرابته لى تجعلنى أميل اليه . ولكنى مع ذلك قد قمت فى الماضى جميع واجباتى وأؤمل أن أقوم بها أيضا فى المستقبل » .

فقلت : « لقد قمت بواجباتك على وجه العموم ولكنك على اتصال بالمهدى فلم تنكر ذلك عنى ؟ » .

فأجابنى زوجال بسرعة : « انى غير متصل به مباشرة ولكن التجار الذين يفدون عليه من كردوفان ينقلون الى رسائل شفوية منه وقد أقسمت لحملة هذه الرسائل ألا أخبرك ، وهذا هو السبب فى كتمانى أمر هذه الرسائل ولكنى أؤكد لك أنه ليس فيها سوى أخبار عن كردوفان وأنه لم يحاول أن يجعلنى أنضوى الى لوائه » .

فقلت له : « ليكن الأمر كما قلت . فانى لا أطلب منك أن تبرر نفسك ولكن أخبرنى ماذا سمعت عن تلك التجريدة التى تهيئها الحكومة لاسترجاع كردوفان » .

فقال : « سمعت أن جيشا عظيما وصل الى الخرطوم وأنهم سيحاولون به فتح كردوفان » .

فقلت له : « لن يحاولوا ذلك فقط بل هم سينجحون فى فتح كردوفان . وأنت يا زوجال رجل تفهم وتعرف أنى اذا اضطررت بالظروف فانه يمكننى أن أمنع أذاك ، ولكنى لا أظن أنه من الحكمة

أن افضل ذلك الآن . دع عنك أنه مما يؤلمني أن أتخذ اجراءات ضدك فقد خدمت الحكومة بولاء مدة طويلة كما أنك صادقتني مدة طويلة ولذلك فانا مستغن عنك الآن ويمكنك أن تذهب الى كردوفان . فان الحركات الدينية يكون لهـــا لمعة وورنق على بعد فيعطف عليهـا الانسان ، ولكن عند الاحتكاك بها تظهر حقيقتها فتذهب عنها جاذبيتها وتزول منها روعتها . وسأكلفك بحمل رسائل الى الخرطوم سرا وسيكون مضمون هذه الرسائل شرح المهمة التي أرسلت في شأنها . وبما أن التجريدة ستشرع في السفر الى كردوفان في الشهر الآتي فأنا أطلب منك أن تجهد جهدك في منع المهدى من ارسال تجريدة الى دارفور أو تحريض الناس على الثورة . فاذا فعلت ذلك فان الفائدة تعود عليك وعليه . وأذا نجحت التجريدة فانا أتحمل كل التبعات التي تقع عليك فليس هناك ما تخشاه . ولكن اذا نجح المهدى ـ لاقدر الله ـ فهناك يقطع ما بيننا وبين الحكومة فلا يمكن تخليصنا والمرجح وقتئذ أننا نخضع للمهدى ، وفي هذه الحالة يتسلم البلاد وهي في حالة حسنة . ولكي أضمن ولاءك وقيامك بهذه المهمة خير قيام سأحتفظ بزوجاتك وأولادك هنا في القلعة ، وسيحسب المهدى حسابا لهذا العمل ولا يعرض أهلك للخطر » .

فقال زوجال : « سأنفذ تعليماتك وأثبت لك اخلاصي . وهل تريد أن تكتب خطابا للمهدى ؟ » .

فقلت : « كلا لا أريد أن يكون بيني وبينه أية معاملة . وأنا عارف تماما بأنك ستتلو عليه حديثنا هذا . وابن عمك رجل ماكر وسيستغل ذهابك اليه بقدر امكانه ولكن مادمت تفي بوعدك لي فاني أعنى كل العناية بأسرتك . ومع أننا قد استغنينا عنك اسميا فاننا سنستمر على دفع مرتبك بالكامل ، أما اذا لم تف بوعـدك فـــان ضماننا لا يستمر وأود منك أن تشرع في السفر بأسرع ما يمكنك ويكفيك ثلاثة أيام تستعد فيها » .

فقال زوجال : « اني أوثر البقاء مع أهلى ولكنى بما أنك تريد منى تأدية هذه المهمة كى تمتحن اخلاصى فأنا أقوم بها وملء قلبى الحزن » .

ثم ارسلت فى طلب فرج أفندى وواد عاصى والقاضى وأخبرتهم بحضور زوجال بالمهمة التى كلفته بها . فبدا عليهم شىء كثير من الانفعال والدهشة وطلبوا من زوجال أن يقسم يمينا بالولاء فأقسم بالقرآن وبالطلاق بأن يلزم الاتفاق الذى بيننا .

فكتبت الخطابات الى الحكومة ووصفت الحالة فى دارفور وبعد ثلاثة أيام خرج زوجال فى رحلته ومعه ثلاثة من الخدم قاصدا الأبيض عن طريق طوبشه . وكان معروفا فى كل مكان أنه من قرابة المهدى . فلم يكن لذلك يخشى أحدا وعلمت بعد ذلك أنه قوبل فى كل مكان بحفاوة واكرام .

وأخذت على عاتقى الآن ان أركز مدافع جديدة فى زوايا القلعة وجمعت كل ما أمكننى جمعه من القمح . ولكن هذه المدة القصيرة من الســـكينة لم تدم طويلا فقد حرض الشيخ الطاهر الدجوى زوج ابنته بشارى بك واد بكير على الغارة على داره . وكان بشارى بك رئيس قبيلة بنى حلبة فأرسلت له خطابا أهدده فيه ، ولكنه أغار على عرب المصرية وقتل منهم عددا وأسر نســـاء وأطفالا . فعبأت ٢٥٠ من الجنود النظاميين و ١٠٠ من البازنجر وسلمت قيادتهم الى مطر أحد قرابة زوجال ، ولم أستطع أن أجمع من الخيول سوى ٢٥ فرسا لأن مرضا غريبا انتشر بينها وبهذه القوة خرجت قاصدا داره .

وبعد مسير ثلاثة أيام بلغنا أمكة حيث أغار علينا بنو حلبة بقيادة بشير بك وكان معهم صديقي القديم جبرالله . ولكن لم يكن معهم من الآت النارية الا عدد قليل ولذلك فرقناهم بسهولة . وفي اليوم التالي عاودوا الغارة في كلمباسي وهي على مسيرة يوم ونصف من أمكة وهنا أيضا اضطررناهم الى الفرار بسهولة .

وقد عزا رجالنا قلة خسائرنا الى صلاتي يوم الجمعة معهم لا الى قلة البنادق عند العدو ، ثم سرنا الى خشبة وأخرجنا شيخها وعرضنا عليه صلحا ولكنه رفض . ثم سرنا الى جورو على مسيرة نصف يوم . وبينما نحن في الطريق كانت تتقدمنا طليعة مؤلفة من ١٢ فارسا . فأغار عليهم بشارى بك وحده واخترق صفهم وجرح أحدهم جرحا بسيطا ثم ثنى جواده هو بين الطليعة وبيننا على حدود الغابة وعلى بعد ٨٠٠ ياردة تقريبا منا .

ثم تقدمت نحوه ثلاثمائة خطوة فعرفته ولكنني لم أرمه وأرسلت اليه خادما أعزل لكي يقول له : « ان الحاكم يقدم لك تحيته ويخبرك بأنك اذا كنت ترغب في أن تظهر بسالتك لزوجتك فليست هذه هي الطريقة لاظهار ذلك · وانك اذا عدت الى مثل ما فعلت فانك لابد مقتول » .

وكانت الطريق بيننا وبينه خالية الا من بعض الأشجار هنا وهناك ورأيت الخادم يذهب اليه ويقف أمامه بضع ثوان ثم عاد الينا مسرعا وقال : « ان بشارى بك يقدم لك تحيته وهو يقول انه لا يرغب في الحياة بل يشتهي الموت » .

يا لغفلة الرجل · لقد وجد ما اشتهاه .

ولما بلغنا جورو صنعنا زريبة وكنت متأكداً بأن بشارى بـك سيتهور ويغير علينا ولذلك أمرت الجنود بأن يخرجوا من الزريبـة نحو ثلاثمائة خطوة ووضعت الخيالة على الجانبين وأرسلت عشرين فارساً الى الغابة لكى يغثر العرب بهم ويخرجوا اليهم وما كـاد هؤلاء العشرون يخرجون فى مهمتهم هذه حتى رأينا عربيين راكبين قد ركضا فرسيهما اليهم وفى يد كل منهما حربة قد أشرعها . وكان هذان الرجلان بشارى بك وخادمه . وقبل ان يبلغ رجالنا عثر فرسه ووقع وبينما كان خادمه يساعده على النهوض والركـوب اغار عليه رجالنا ورموه بمطرد فى وجهه نفذ فى عينه فكبه . أمـا خادمه فقد أصيب بحربة نفذت فى ظهره وقتلته . وركضت فرسى انا اليه فوجدته فى النزع فان رجالنا طعنوه بعد وقوعه مـرتين بالحراب . وهجم علينا ابنه لكى يخلصه فجرح ولكنه نجا بنفسه وقد كان معه شيخان وهما شرطيه حبيب الله والتوم قتلا كلاهما . فقبضنا على خيولهم جميعاً ثم هتفت بالجنود فحضروا الينا فأركبت وراء كل خيال واحداً من المشاة وطلبت منهم أن يطاردوا العـدو لاعتقادى انهم لن يثبتوا للقتال بعد موت قادتهم .

وركضنا خيولنا نحو ميلين فوجدنا العرب وهم فى فرارهـم فأمرت الجنود بالنزول عن الخيول واطلاق النار عليهم ثم حولـت الخيالة الى بنى حلبة . ولم نشفق على أحد فى هذا القتال لأن رجالنا كانوا مصرين على الانتقام للشيخ عفيفى الذى قتل قريبـاً من هذا المكان .

وبعد ساعات قليلة تم تشتيت العدو فعدنا الى الزريبة . ونحن فى طريقنا وجدنا جثة بشارى بك فطلب منى الضبـاط ان

يقطعوا رأسه لكى يرسلوه الى داره ولكنى احتراماً لابن اخته الذى طلب الصلح بالأمس كففتهم عن هذا العمل واعطيته الجثة فى كفن من القماش وحضرت أنا بنفسى حفلة دفن هذا الصديق القديم الذى صار عدونا على الرغم منه واشتهى الموت فوجده .

وفى هذا القتال قتل منا رجلان وجرح عدد آخر وكان بين هؤلاء سلامة الذى حمل خطابى وانا فى أم ورقة الى داره وكان عـــلى الدوام فى مقدمة المغيرين .

ثم عدنا الى جورو . وكنت قد أصبت بدودة غينيا فى كلتـــا ساقى فلم اكن أستطيع البقاء على السرج لشدة ما كان بى مـــن الالم . ولم تكن ثم فائدة من البقاء بعد أن سحقنا بنى حلبة فعدنا الى داره .

الفصل الثامن

حملة هكس باشا

بعد أن سقطت الأبيض فى يدى المهدى أخذ يلتفت الى زيادة قوته . وكان أنصاره على ضفتى النيل يوافونه بكل ما يجد من الأخبار فكان يعرف أن عبد القادر قد طلب أمداداً من القاهرة . وكان يعرف أن هذه الأمداد قد وصلت وان الحكومة عازمة على استرجاع المديريات التى خرجت من يدها . وكان هذا هو سبب الحاحه فى الدعوة الى الجهاد وكان يذكر اتباعه بأن الحرب توشك أن تشب وانهم منصورون فيها .

وكان جيجلر باشا قد نجح فى دويم فى نوفمبر سنة ١٨٨٢ كما نجح ايضاً عبد القادر باشا فى معتوق فى يناير سنة ١٨٨٣ وأحرز كلاهما النصر . ولكن المهدى لم يكن يبالى بهذه الهزائم وانما كان همه منصرفاً الى تلك التجريدة التى كانت تهيئها الحكومة فى الخرطوم بقيادة ضباط أوروبيين لكى ترسل الى كردوفان . ولذلك سارع الى نشر المنشورات يدعو فيها القبائل الى ترك بلادهم والانضمام اليه . وعندما كانت تجتمع هذه الجموع العديدة عنده كان يعظهم بحماسة ويحضهم على الزهد فى هذه الدنيا والاهتمام بالآخرة وكان يقول : « انا أخرب الدنيا وأعمر الآخرة » .

وكان بعد الانصار المطيعين له بلذات النعيم التى لا يمكن عقلا ان يصفها وينذر المخالفين بعقاب الجحيم . وكانت تذاع المنشورات فى هذا المعنى فى كل مكان وكان يبعث للأمراء يطلب منهم الا يبقـوا احداً فى خدمتهم سوى اولئك الذين يحتاجون اليهم فى الزراعة . وأما من كانوا فى غنى عنهم فعليهم ان يرسلوهم اليه لينضووا الى لوائه .

وكان الأولاد والنساء والرجال يهرعون الى الابيض لكى يروا هذا الولى ويسمعوا ولو كلمة واحدة من وعظه . وكان الجهـلة يرون فى وجهه ما يدل على الوحى وانه الرسول الحق من عند الله .

وكان يلبس الجبة والسروالين ويتحزم عليهما بحزام من قش ويضع على راسه طاقية يتعمم عليها ثم يقف خاشعاً امام انصاره ويحضهم على حب الله والزهد فى هذه الدنيا . فاذا دخل بيته تغير كل هذا اذ كان يعيش فى ترف ونعيم بحيث تسترقه شهوة الطعام والنساء فينغمس فيهما انغماس سائر السودانيين . وكانت النساء أو الفتيات اللواتى يؤسرن يحضرن امامه فيختار أجملهن ويضمهن الى حريمه . اما اللواتى كن يجدن الطهى فكن يرسلن الى مطبخه .

وبعد سقوط الأبيض اخذ يفكر فى تعيين الخليفة الرابع وقر رأيه على ان يعين محمد السنوسى وهو اكبر شيخ دينى فى شمالى افريقيا لهذا المنصب . فأرسل طاهر واد اسحق برسالـة الـى السنوسى لهذا الغرض . ولكن السنوسى نظر بازدراء الى الرسول ولم يكلف نفسه مشقة الاجابة .

وشرع المهدى فى تنظيم حكومته . وكانت ادارتـه غايـة فى البساطة . فاسس أولا بيت المال ووضع فى رياسته صديقه الامين

احمد واد سليمان وكان يجبى الى بيت المال هذا جميع العشــور والفطرة والزكاة المأخوذة على جميع الغنــائم أو الأمــلاك التى استصفيت من أصحابها والغرامات التى تفرض فى السرقات وشرب الخمور والتدخين . ولم يكن هناك نظــام لايــرادات الحـكومة ومصروفاتها . ولذلك كان احمد واد سليمان حراً فى الاعطاء والمنع لمن يشاء .

وكان القضاء فى يد القاضى الذى أطلق عليه المهــدى اســم « قاضى الاسلام » وكان له مساعدون . وكان أول من حصل على هذا المركز احمد واد على الذى كان قاضياً تحت ادارتى فى شكة وكان بعد الثورة فى مقدمة المغيرين على الأبيض . وكان المهدى وخلفاؤه يحفظون لأنفسهم حق معاقبة أى مجرم وخاصة ذلك الذى يشك فى مهدوية المهدى . وكان الموت عقاب المجرم فى هذه الحالة . ولما كانت هذه العقوبات تخالف الشريعة فان المهدى منع درس الفقه وأمــر بتحريق جميع هذه الكتب ، ولم يكن يسمح بقراءة شىء غير القرآن . ولكنه مع ذلك لم يكن يأذن لأحد بشرحه علنا .

وكانت المواصلات بين المهدى وسكان الجزيرة الذين كانــوا يعتبرون أنفسهم أنصاره المخلصين لا تنقطع . وعرف منهم أخباراً عن سفر عبد القادر الى كاوه وسنار ومعه قوة كبيرة وكانت هــذه المدينة قد حاصرها أحمد الكاشف ولكن عبد القادر باشا هزمه فى مشرع الوادى ورفع الحصار . وطارد صالح بك الثائرين حتى جبل سخيدى وأجلاهم الى صحراء بين هذا الجبل وبين كاوه ولم يكن بها ماء فمات كثير منهم بالعطش . وهذا المكــان لا يــزال يــدعى عند السودانيين « تبكى وتسقط » لذكرى الذين ماتوا عطشا فيه .

ولكن هذه الهزائم لم تضعف حب الجمهور للمهدى . وليس شك فى انها كانت تخفف عبء الموظفين وقتياً ولكنها لم تكن تمنع

مجيء اليوم المتوقع من الجميع . ولو كانت نصائح عبد القادر باشا قد سمعت لتغير حال السودان . فقد كان لا يوافق على ارسال تجريدة كبرى لتخليص كردوفان ولكنه كان ينصح بتوزيع الامدادات التي تاتي من القاهرة على مراكز على النيل بحيث تكون هناك حاميات ثم يترك الثوار وشأنهم مؤقتا . وكان عنده ما يكفي لقمع الثورة في الجزيرة بين النيلين الأبيض والأزرق وأيضا لمنع تقدم المهديين من الغرب .

ولو اتبعت هذه النصائح لكان الارجح ان سوء ادارة المهدى تؤدى الى الخلل والشقاق فيمكن للحكومة استرجاع ما فقدته بعد مدة قليلة . ولم يكن في مقدورى الاحتفاظ بدارفور أكثر مما احتفظت به وحتى لو فرضنا أنه وقع في يد المهدى لكان هذا أيسر الشرين . ولكن ولاة الأمور في القاهرة لم يكونوا من راى عبد القادر باشا وكانوا يرون أنه يجب أن تعاد للحكومة كرامتها وسلطتها مهما كلفها ذلك ، ودبروا لذلك تجريدة يقودها هكس باشا الانجليزى ومعه ضباط أوروبيون فاستدعى عبد القادر باشا الى القاهرة وقام مقامه علاء الدين باشا الحاكم العام للسودان الشرقى سابقاً . وعرف المهدى كل ذلك واستفاد منه .

وفي هذه الاثناء وصل زوجال الى الأبيض حيث احتفل باستقباله فاطلق مائة مدفع تكريماً له واشيع في كل مكان ان دارفور قد سلمت نفسها للمهدى الظافر . واعتبر ايضاً رجوع زوجال الى دارفور ضماناً قوياً على دخول دارفور في طاعة المهدى وانها لذلك ليست في حاجة الى ارسال قوة من الجيش ووجه المهدى الآن كل عنايته الى درس الحالة في النيل .

وبعد وصول هكس باشا قام في الحال الى كاوه وهزم الثائرين في مرابية في ٢٩ ابريل سنة ١٨٨٢ وقتل أحمد المكاشف .

وكان عثمان دجنة أحد النخاسين في سواكن قد بعثه المهدى لكى ينشر الدعوة الى الجهاد فى بلاد مختلفة وقد اثبت المهدى بعد نظره فى اختيار هذا الرجل الذى ذاع اسمه بعد ذلك وكان يقدر أنه اذا ثار السودان الشرقى فان الحكومة ترتبك وتؤخر تجريدة كردوفان أو لا ترسلها مطلقاً .

ولست أدخل فى تفاصيل الوقائع التى دارت بين هذا الأمير الجسور وبين الحكومة فانها معروفة مشهورة ولا تحتاج الا للاشارة اليها هنا فقط . ويكفى أن أقول ان المهدويين نجحوا فى شرقى السودان ولكن نجاحهم لم يؤثر فى الحكومة كما رغب المهدى بل بقيت على عزمها من تهيئة التجريدة لكردوفان . وفى أوائل سبتمبر سنة ١٨٨٣ غادر هكس باشا الخرطوم الى الدويم على النيل الابيض حيث انضم اليه علاء الدين باشا الذى طلب اليه أن يصحب التجريدة .

وانى لا اشك فى ان ولاة الأمور فى القاهرة كانوا يجهلون الحالة فى كردوفان اذ كانوا يتصورون أن ارسال مثل هذه التجريدة لكردوفان يقضى على المهدى الذى صار الآن الحاكم المطلق فى المديريات الغربية وليس فيها أحد سوى أنصاره ، فهل نسوا أن المهدى اباد القوى التى كان يقودها راشد وشلالى ولطفى وان باره والأبيض وغيرهما من البلاد قد خضعت له وانه أصبح يملك من البنادق أكثر مما يملكه هكس فى تجريدته ؟

وهل غاب عنهم أن هذه البنادق قد صارت الى أيدى رجال ماهرين يعرفون كيفية استعمالها . وان من هؤلاء الرجال من كان يستخدم البازنجر ويصيد الفيلة والنعام وانه قد تألفت تحت أيديهم فرق حربية ماهرة ؟ ثم الم ينضو الى راية المهدى آلاف من الجنود النظاميين وغير النظاميين الذين كانوا فى خدمة الحكومة قبلا ؟ وهل

خطر لهم ان هؤلاء الرجال كانوا ينوون ترك الانضمام الى هكس باشا عند رؤية جيشه ؟

لقد جهلت الحكومة في القاهرة كل ذلك وخاطرت بحياة الالوف لجهلها هذا . واظن انه كان بين أعضاء الحكومة من كان يعرف السودان ويعرف المثل القائل : « اللي بياخد أمي هو أبويا » والمهدى قد استولى على البلاد ويمكن أن نقول مجازا أنه تزوجها . لذلك نظر اليه السكان كما ينظرون الى مولاهم وحاكمهم ولم يكونوا يبالون وقتئذ بما نالوه من رعاية فى الحكم السابق . ولا انكر أن هناك شواذ ولكن ملاحظاتى هنا تنطبق على الكثرة .

وكانت تجريدة هكس مؤلفة من عشرة آلاف رجل تسير فى هيئة مربع فى وسطه ستة آلاف جمل وكان سيرها فى أعشاب ونبات يزيد طولها على قامة الانسان فلم يكن فى مقدور الجنود أن يروا الى أبعد من مائتى ياردة الى ثلاثمائة وذلك فى الجهات المزروعة المكشوفة حيث يقطن بعض الناس ويكشفون بعض الأرض للزراعة وكان عليهم أن يكونوا مستعدين على الدوام لملاقاة عدو أكثر منهم عدداً وعدة وتجربة بالحروب وقد اشتهر رجاله بالفوز والشجاعة والاندفاع ولم يكن فى طريقهم سوى آبار قليلة وان كان بها مستنقعات عديدة .

ولو انهم كانوا اخذوا الطريق الشمالى ، طريق جبروه وباره لوجدوا الأرض مكشوفة أمامهم والماء وفيراً فى عدة أماكن . وهذا الماء اذا لم يكن يكفى الجيش فانه باستعمال الوسائل الحديثة فى الاستقاء واستنباط الماء كان يكفيه . وفى هذه الحالة كان يمكن الاستعانة بقبائل الكبابيش فى مقاتلة المهدى ، وكان يمكن عندئذ الاستغناء عن عدد كبير من الرجال والحيوانات التى استعملت فى النقل .

وكانت الجمال فى وسط الجيش تؤلف غابة كثيفة من الأعناق والرؤوس . وكان من المستحيل أن يطلق العدو عيارا واحدا دون أن يصيب أحد هذه الجمال فانه اذا اخطأ احداً من الأمام لم يخطىء الاصابة فى الوسط أو المؤخرة .

وكان يمكن ترك هذه الجمال مع الحرس فى دويم أو فى الشط ثم ارسال فصائل من الجيش لاعداد الطريق فى الشمال او الغرب او الجنوب وانشاء مراكز حربية فى البلاد التى تخضع . وبديهى ان هذا العمل كان يحتاج الى عام ولم يكن فى ذلك من بأس اذ لم يكن ثم داع للعجلة . ثم يجب ان نذكر ان الخلاف بين هكس والضباط الاوروبيين كان عظيماً كما كان هناك ايضاً خلاف بين علاء الدين باشا وبين الضباط المصريين .

ثم كان هذا الجيش مؤلفاً فى الأغلب من جيش عرابى المنحل الذى انهزم أمام الانجليز ولا شك فى أن الجنرال هكس كان يعرف هذه الأشياء وقد سئل مرة فى الدويم عن الموقف فقال : « أنا مثل المسيح بين اليهود » ومع ذلك سار فى طريقه وربما كان يعتقد أنه اذا رفض السير فان شرفه يجرح .

واخذت هذه الكتلة المؤلفة من البشر والحيوان تسير سيراً بطيئاً وكان السكان الذين يقطنون فى طريق الجيش قد فروا . وكان العرب يظهرون فجاة ثم يختفون من وقت لآخر . وكان هكس ينظر خلال نظارته فى احدى المرات فرأى فرساناً مختبئين بين الأشجار فامر بالوقوف وانفذ قسماً من الخيالة لكى يتقدم . وبعد دقائق عاد الخيالة وهم فى ارتباك شديد بعد أن فقدوا عدداً من رجالهم وجرح عدد آخر ورووا انهم رأوا قوة كبيرة . فانفذ هكس الجنرال فاركار ومعه نصف اورطة لكى يذهب الى مكان المناوشة ويعاين الحالة

هناك . فعاد وقال أنه رأى ستة مقتولين وقد جردوا من كل شيء ولكنه لم ير احداً من العدو وكان هناك آثار عشرة من حوافر الخيل فكان قسم الخيالة قد انهزم امام هؤلاء العشرة .

وفي اليوم التالي ظهر ثلاثة من الفرسان فهجم عليهم فاركار وليس معه سوى خادمه فقتل اثنين وقاد الثالث أسيراً . وقد أخبرني عن هاتين الحادثتين بعض من بقي من التجريدة وكانوا يصفون سير الجيش وهو في هيئته المربع كأنه سلحفات تزحف . ولم يكن من الممكن وهو في هيئته هذه أن تسرح الجمال للرعي فلم تأكل هذه الجمال سوى ما وجدته وهي محصورة في هذا المربع وكان ما وجدته قليلا فكان ينفق منها كل يوم مئات . وكانت تأكل بطانة الرحال المحشوة بالتبن . ولما خلت الرحال من التبن لصق الخشب بلحمها فآذاها أذى كبيراً ومع ذلك كانت هذه الجمال تجر سيقانها وتسير حاملة أثقالها وأثقال من يقع من أخواتها .

ولا شك في أن فاركار والبارون شكيندورف والماجور هيرلث وغيرهم من الضباط الاوروبيين وبعض كبار ضباط المصريين كانوا يجهدون جهدهم لكي يساعدوا هكس باشا في هذه الظروف الحرجة ، ولكن معظم الجيش كان يجهل تماماً الأخطار الموشكة أن تقع به . وكان فيزتلي المسكين يرسم صوره وكان دونوفان يكتب مذكراته ، ولكن أين ذلك الذي يمكنه ارسالها الى بلادهما ؟

وما هو أن عرف المهدي أن الجيش قد شرع في السير حتى أذاع المنشورات بين القبائل يدعوهم فيها الى الجهاد ، ويعد فيها المطيع بالمكافأة والعاصي بالعقاب وغادر هو الأبيض وضرب خيمته تحت شجرة كبيرة ينتظر قدوم الجيش المصري واقتدى به خلفاؤه وأمراؤه فتكون من ذلك معسكر ضخم . وكانت جيوش المهدي

تعرض كل يوم وتقرع الطبول وتطلق المدافع وتدرب الجنود والخيول وكلهم يستعد للمعركة الكبرى . كان المهدى قد أرسل الأمراء الحاج محمد أبو جوجه وعمر واد الياس باشا وعبد الحليم مسعد الى الدويم لكى يراقبوا تقدم الجيش ويقطعوا مواصلاته ولكنهم أمروا بألا يهاجموا الجيش بالذات . وقد علموا قبل سفرهم مقدار القوة المصرية ورجوا المهدى فى أن يسمح لهم بمهاجمتها ولكنه رفض .

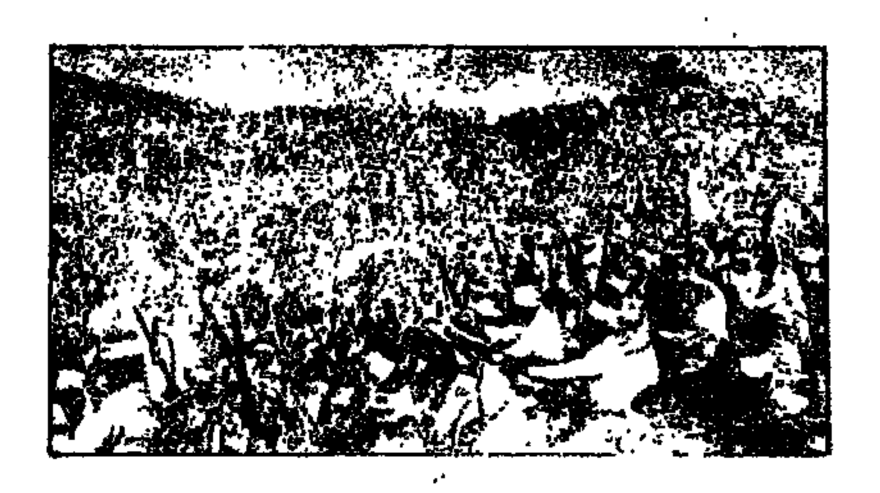
وقبل أن تصل القوة الى رهاد رأى جوستاف كلوتز (وهو صف ضابط المانى وكان قبلا خادم البارون سكندروف ثم صار خادماً عند مستر أودنفان) أن المهدى سيقضى عليها اذا التقى بها نفر من الجيش بنية أن يذهب الى المهدى لكى ينضم اليه . وكان يجهل البلاد فأخذ يجول وفى صباح اليوم التالى عثر عليه المهديون وكانوا يوشكون أن يقتلوه ولكنه صار يجاهد بالقليل الذى يعرفه من العربية لكى يفهمهم أنه يرغب فى مقابلة المهدى فأرسل مع الحرس الى الأبيض . وكان لابساً ملابس الخدم ومع ذلك توافد عليه الناس زرافات لكى يروا هذا الانجليزى الذى جاء للمهدى يرجوه فى طلب الصلح . ولما أحضر الى المهدى صار هذا يسأله عن التجريدة أمام الاوروبيين الحاضرين . ولم يتردد جوستاف فى وصف الجيش أسوأ وصف وأن صفوفه خلو من الشجاعة والوفاق . وارتاح المهدى الى هذه الاخبار ، ولكن جوستاف أخبره أيضاً أن الجيش لن يسلم وانه لا بد من معركة يباد فيها عن آخره ، ودعا المهدى جوستاف الى الاسلام فأجاب وأسلم ثم وكل المهدى به عثمان واد الحاج خالد .

ووثق المهدى من الظفر الى حد أنه وضع المنشورات العديدة فى طريق الجيش يدعو هكس باشا الى التسليم . وبدهى أن هكس باشا وضباطه لم يجيبوه ولكن كان لهذه المنشورات بعض التأثير

فى اولئك الذين كانوا يخافون على حياتهم . واستعمل بعضهم هذه المنشورات لاغراض وبطريقة اغتاظ منها المهدى أشد الغيظ وكان بعد ذلك يعاقب الذين نجوا من القتل بأشد العقوبات اذا علم أنهم دنسوا هذه المنشورات الملهمة باية طريقة !!

وقبل ان يبرح هكس باشا الدويم كانت الحكومة قد أبلغته انه سينضم اليه ستة آلاف رجل من جبل تاج الله وبضع مئات من عرب الحبانية ، وكان كل يوم يتشوف لرؤية هذه القوة لكى ينشط بها جنوده الذين خارت قواهم وضعفت آمالهم . ولكن هذه القوة لم تصل اليه بل لم يصل اليه أى خبر عنها .

وعندما غادر هكس رهاد قصد الى علوية فى دار غدايات أملا فى ان يجد هناك ماء يستقى منه الجيش . وفى ٣ نوفمبر وصل الى كشجيل التى تقع على بعد ٣٠ ميلا فى جنوبى الأبيض .



وكان المهدى فى هذه الأثناء قد حمس جنوده واخبرهم أن النبى قد أوحى اليه أن عشرين ألفاً من الملائكة سيقاتلون الكفار مع جنوده يوم المعركة . وفى أول نوفمبر برح الأبيض قاصداً الى بركة فانضمت قواته الى جيش الأمراء الذى كان قد أرسله قبلا واخذ الجميع فى مناوشة المصريين والتضييق عليهم وكان العطش والاعياء قد فعلا فيهم فعلهما . وفى ٣ نوفمبر كان أبو أنجه والجهادية السود مختبئين فى غابة كثيفة فصبوا نارهم على قلب المصريين حتى اضطر الجيش الى الوقوف واقامة زريبة حوله وكانت الدواب والرجال هدفاً ظاهراً لا يخطئه اى رام . فكان فى كل لحظة يقع جمل او بغل او انسان قد أعياه السير . واستمر هذا التقتيل ساعات وكل فرد من الجيش يعانى الآلام من العطش ولا يستطيع السير الى أى جهة . ولم يغادر العدو مكانه حتى الأصيل وبقى بعد ذلك يراقب الجيش كما تراقب القطة الفأر . وكانت خسائر العدو قليلة فلم يقتل منهم سوى أمير أو اثنين وكان أحدهما ابن الياس باشا ولا غرابة فى قتله فقد تحمس وتهور حتى صار على قيد ذراع من الزريبة . وما أشد ما كان يعانيه هكس فى هذا الوقت . اذ بدلا من أن يجد رجاله الماء كان العدو يمطرهم رصاصاً ومع ذلك كان الماء قريباً منهم لا يبعد ميلا واحداً . ولكن لم يكن معهم احد يعرف هذه الجهات وهم لو كانوا يعرفونها لما انتفعوا بهذه المعرفة الآن لفوات الفرصة .

. .

وفى الليل زحف أبو أنجه ورجاله ثانياً وصبوا النار طول الليل على هذه الكتلة المؤلفة من الناس والدواب وخارت قوى المصريين فكانوا يندبون حظهم قائلين « مصر فين يا ست زينب دلوقت وقتك » أما السود فكانوا منبطحين على بطونهم فلا ينالهم رصاص المصريين الذى كان يذهب فى الهواء فوقهم وكانوا يردون على المصريين بقولهم : « دى المهدى المنتظر » .

وفى صباح اليوم التالى تقدم هكس وقد خلف وراءه اكراما من القتلى وبعض المدافع التى قتل رجالها . ولكنه قبل ان يقطع ميلا هجم عليه نحو مائة الف من المتحمسين المتوحشين الذين خرقوا الجيش ودخلوا الى القلب وحدثت عندئذ مقتلة هائلة ، ولم يحاول الثبات للعدو سوى بعض الضباط الاوروبيين والخيالة الاتراك ولكنهم هوجموا من كل جانب فقتلوا تقريباً عن آخرهم . ثم قطع رأس البارون سكندروف ورأس الجنرال هكس وحملا الى المهدى فطلب فى الحال كلوتز الذى صار اسمه الآن مصطفى وطلب اليه ان يعرفه صاحبى هذين الراسين ولكن المهدى لم يكن فى حاجـة الى التعريف فان كل أحد قد عرف انهما قتلا وبعد هذا النصر المبين عاد المهدى وخلفاؤه الى بركة وقد أسكرهم هذا الفوز .

وكان فى ميدان القتال عدد كبير من الأمراء واتباعهـم قـد تخلفوا لجمع الغنائم وارسالها الى بيت المال . وقد جردت الآلاف من القتلى من جميع ملابسهم وارسلت الى بعد ذلك بمدة مذكرات فاركار وأيضا مذكرات أودنفان فقرأت كل ما كتباه وما أعظم مقدار ما قاسيته من الحزن من هذه القراءة . فقد كتب كلاهما شيئاً كثيراً عن الخلاف والشقاق فى الجيش وعن الشجار بين الجنرال هكس وبين علاء الدين باشا . وقد حمل فاركار على رئيسه حملة قاسية لأغلاطه الحربية فقد أحس كلاهما بالنكبة قبل وقوعها ، ولذلك كان فاركار يلوم رئيسه لأنه مع معرفته بالحالة المعنوية السيئة للجيش خرج به للقتال . ولم يحصل الضباط الأوروبيون على أية معرفة ولكن يظهر ان أحد الضباط المصريين المدعو عباس بك عاونهم بعض المعاونة . وأذكر انى قرأت العبارة التالية بقلم فاركار « سألت أودنفان اليوم عن المكان الذى سنكون به بعد ثمانية أيام فأجابنى بقوله : فى العالم الآخر » .

وكانت مذكرات أودنفان مكتوبة بهذه اللهجة ايضاً . وكـان قلقا بشـأن فرار كلوتز ، وذكر هذا الفرار كمثال عن شعور سائر

الجنود وأنكر قوله : « كيف تكون حالة الجيش اذا كان خادم أوروبى يهجره وينضم الى العدو » ويقول فى مكان آخر : « هانذا أكتب مذكراتى وتقاريرى ولكن من هو ذاك الذى سيحملها الى وطنى » .

وبعد خمسة عشر يوماً عاد المهدى الى الابيض ومعه الغنائم التى أودعها بيت المال . وكانت هذه الغنائم تحتوى مبلغاً كبيراً من النقود غير المدافع والبنادق ومع ذلك قد نهب العرب شيئاً كبيراً من هذه الغنائم على الرغم من العقوبات الوحشية التى كان يعاقبهم بها أحمد واد سليمان . وقد كان من المألوف أن تقطع يد السارق اليمنى وساقه اليسرى . أما الزنوج المكرة فقد سرقوا كمية وفيرة من الذخائر خبأوها فى الغابات وفى معسكرهم وأفادتهم بعد ذلـــك فوائد عظيمة .



وكان دخول المهدى الى الابيض دخول الظافر الذى يستقبل بضروب الحفاوة الوحشية . فقد كان الناس يترامون أمامه ويكادون يعبدونه . وليس شك فى أن انتصاره فى شيكان قد جعل السودان بأجمعه طوع أمره . فكان الأهالى من النيل الى البحر الاحمر ومن وادای الى كردوفان ينظرون الى هذا الولى ويترقبون حركاته . وكان أولئك الذين آمنوا قبلا بهدايته يستمسكون بايمانهم وينشرون نفوذه أكثر من ذى قبل . اما أولئك الذين استرابوا أولا فى دعوته فقد ثابوا الى اليقين بعد هذه الانتصارات العظيمة المتوالية . وأولئك الذين كانوا يعرفون فى قلوبهم أن هذه البدعة غش ومكر رأوا أنه يجب عليهم أن ينضموا الى المهدى مادامت الحكومة غير قادرة على تثبيت سلطتها حتى فى مديريات النيل .

وقد عرف فى هذا الوقت عـــدد كبير من الأوروبيين وبعض المصريين المقيمين فى المدن خطورة الموقف ولم يتوانوا فى الخروج من القطر السودانى أو على الأقل فى ارسال ما يخشون عليه من امتعتهم ومنقولاتهم الى الشمال وقد أيقنوا أنه لا بقاء لهم بعد الآن فى السودان الذى بسط عليه المهدى نفوذه .

الفصـــل التاســع

ســقوط دارفور

في ذلك الوقت كنت قد شفيت من مرضى (الدودة السودانية) وشعرت بأني أقوى على الخروج في تجريدة أخرى . ولكن عدد أتباعي المخلصين كان قد نقص نقصا سيئا وأيضا قلت ذخيرتنا . وكان سيد بك جمعه يرسل الى بأنه غير قادر على أن يسعفني بما أطلب من الذخائر واحتج في ذلك بأن عرب الزبدية والمهرية قد بدا منهم شيء من العصيان حتى أنهم استولوا على مواشي بعض الناس المقيمين في جوار الفاشر وعندما طلب منهم ردها رفضوا .

وكانت كل آمالي معلقة الآن بنجاح جيش هكس باشا . وكان من حسن حظي أني كنت أجهل الطريق الذى اتخذه كما كنت أجهل أيضا الحالة المعنوية السيئة التي كان فيها الجيش . وكان قد مضى على الآن نحو عام لم أتسلم فيه أية رسالة من الخرطوم وكنت قد لجأت الى الحيلة لكى أحتفظ بحماسة رجالنا فادعيت بأنه جاءتني أخبار عن انتصارات الحكومة . وقد أذعت هذه الأخبار في شكل رسائل ملفقة قرئت علنا على الجيش وقوبلت باطلاق المدافع وهتاف الجنود . والحقيقة أني أنا الذى لفقت هذه الأخبار . ومن الحق أن أقول اني تسلمت في هذا الوقت رسالة صغيرة من علاء الدين باشا يقول فيها أن الخديو قد عينني قائدا عاما لجيوش دارفور وأن

الحكومة قد عزمت على ارســـال قوة لمعاقبة الثائرين وأرسلت نسخا عديدة من هذه الرسالة الى الفاشر وكبكبيه وأمرت باذاعتها بين الجمهور واطلاق النار عند قراءتها . واحتفلت بمقدم حامل هذه الرسالة احتفالا كبيرا وأثقلته بالهدايا . وأعلن أمامنا أنه عندما غادر الخرطوم كانت الحكومة تهيىء التجريدة التى قال عنها انها لابد منصورة وكان الواقفون على الحالة مترددين فى تصديق هذه الأقوال ولكنهم سروا مع ذلك لهذه الأخبار .

وبعد أيام قليلة عاد الى خالد واد امام الذى كنت أرسلته الى كردوفان ليأتينى بصحيح الأخبار وأفضى برسالة شفوية من زوجال يقول فيها ان الحكومة تهيىء تجريدة لمقاتلة المهدى . ولكن بعد أيام قبض على رجل قريبا من شقة ومعه خطاب من خالد للمادبو يطلب منه أن يستعد للقائه قريبا لكى يساعده فى اتمام مشروع . فلم يبق عندى شـــك فى أن خالدا قد انضـــم الى زوجال وصار خادمه المخـــلص .

وللحال أمرت بالقبض على خالد واحضاره الى فاعترف بأن زوجال قد أمره بأن يأخذ زوجاته الى مكان مأمون خارج عن منطقتى وأن يحضر زوجتين منهن اليه فى كردوفان وهذا هو سبب كتابته تلك الرسالة للمادبو .

فأمرت بالقبض على أسرة زوجال وتقييد خالد ثم استصفيت أملاكهما وضممتها الى بيت المال وأقمت حراسا على أملاك المقبوض عليهم الآخرين .

وصارت الصعوبات تتكاثر على يوما بعد يوم بل ساعة بعد ساعة . ولم آكن لأبالى كثيرا بخيانة زوجال فقد كنت دائم التوجس

منه قليلا ولكنى قلقت قلقا شديدا للأخبار السيئة التى جاءتنى عن تجريدة هكس .

وكان وقتى مقسما بين ذهابى وايابى من القتال فى قمع الفتن التى أخذت فى الانتشار بسرعة مدهشة . ففى أحد الأيام أخرج لمنازلة المادبو وبعد يوم أخرج لقمع فتنة بها رئيس آخر ثم جاءتنى فى أحد الأيام أخبـــار هزيمة دارهو أمام الميما . فاقترحت على الضـــباط اخـــلاء داره وحصر قواتنا للدفاع عن الفاشر ولكنهم رفضـــوا .

أضف الى كل هذا ذلك الخلاف الذى فشا بين أولئك الذين كنت أحسبهم من أخلص المخلصين لى . فان حسن واد سعد النور الذى حصلت له عن العفو فى الخرطوم كما يذكر القارىء والذى ضمنت ولاءه للحكومة وأذنت له بالاقامة فى داره والذى أعطيته منزلا بجانب القلعة وحين مات جواده أعطيته جوادا آخر والذى استخلصته لجلب الأخبار واثقا من ولائه وطاعته قد خاننى وتناسى كل هذه المروءات والافضال التى تكرمت بها عليه وركب الجواد الذى أعطيته له وذهب الى المهدى فصار من أخلص أتباعه .

وكانت المواصلات بينى وبين الخرطوم قد انقطعت منذ مدة بعيدة فان المهديين كانوا يقظين وكانوا يقبضون على أى انسان أرساله بخطـاب الى الخرطـوم وتمكنت فى احدى المرات وأنا أقاتل بنى حلبة من ارسال خطاب للقاهرة بواسطة قافلة كانت سائرة الى أسيوط فى طريق الأربعين .

ولكن طرق تخبئة الرسائل التى اتبعتها الى الآن كانت قد عرفت فلم يعد فى الامكان استعمالها . ومن هذه الطرق وضع

الرسالة بين نعلي الحذاء أو بين أديمي المزادة أو في قصبة الرمح .

وكنت في أحد الأيام أنظر في شئون القلعة فرأيت الجنود يعالجون حمارا به عرج في ساقه الأمامية . فألقوه على الأرض ثم فتحوا في جلده على الكتف فتحة أدخلوا فيها خشبة صغيرة ثم حززوه تحزيزات وذروا النطرون على الجروح وأخرجوا الخشبة . فخطر في بالي أن أرسل رسالة تحت جلد حمار بهذه الطريقة الى الخرطوم وانتخبت حمارا طيب الجرم ثم أدخلته منزلي حيث لا يرانا أحد وكررت هذه العملية ووضعت في الفتحة التي فتحتها مذكرة صغيرة لففتها في مثانة جدي ولم يكن حجم هذه الرسالة يزيد على طابع بريد ثم خطت الجرح بخيط من الحرير ونهض الحمار بعد ذلك كأن لم يكن به شيء . وأخبرني الرجل الذي ندبته لارسال هذه الرسالة بأنه سلمها لعلاء الدين باشا في الشمط قبل أن تقوم التجريدة بيوم أو يومين الى الأبيض . وأنه أخبر الرسول بأن الرد غير ضروري وأنه سيصحبه الى الأبيض حيث يرسله من هناك الى بخطـاب .

وكانت حالتنا من حيث المدخر من الذخائر سيئة جدا فان مجموع ما كان لدينا من الخراطيش لم يكن يزيد على ١٢ علبة لكل بندقية فاذا غامرنا بقتال فان نصف هذه الكمية يذهب في أول معركة . ولم يكن هناك أمل بالاسعاف فأخذت أفكر في أحسن طريقة للثبات بدون أن تفقد ذخيرتنا القليلة . واضطررت لذلك الى أن ألجأ الى الحيلة كسبا للوقت .

فوسطت بعض العرب الموالين لنا لكي يفاوضوا الثائرين ويقولوا لهم اننا مستعدون للتسليم ولكن لا يمكننا أن نسلم لهم

اذ لا ثقة لنا فيهم بعد قتالنا المتواصل مدة طويلة، ولذلك اذا ارسل المهدي رسوله فاننا نسلم له البلدة وحكومة المديرية .

وكنت في هذه الانتظار أتسقط الأخبار عن بحملة هكس وأحسب المدة التي يجب أن تصل في نهايتها الى الأبيض حيث يقاتل الفريقان وتقع الوقعة الحاسمة . وكنت أختلف الى السوق وأتحادث مع الأهالي عن الأحوال وكان كل أحد يعرف أن جيشا عظيما قد أنفذ الى الأبيض ولكن لم يكن أحد على يقين من النتيجة .

وأخيرا حوالي آخر نوفمبر شاعت الاشاعات عن هزيمة الجيش وكان على هذه الاشاعات مسحة الصدق ولكننا مع ذلك تعلقنا بالشك ولكن بعد يوم أو يومين جاءنا الخبر الأكيد بأن الجيش المصرى قد اصطلم . فانسدل علينا الغم جميعا لهذا الخبر . وهكذا قضى علينا بعد هذه الشدائد والخطوب أن نقع في يد العدو وقد سدت دوننا أبواب النجاة . ولكن هل بقى بصيص من أمل بأن الأخبار قد بولغ في رواياتها ؟

لقد كان عندنا هذا البصيص ولكنه انطفأ فجأة اذ علمنا أن زوجال قد وصل الى أم شنجة وأن المهدى قد عينه « مدير عموم الغرب » .

وفى ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٨٣ جاءنى الرســـول الذى كنت أرسلته الى المهدى وكان لابسا جبة فروى لى خبر الهزيمة المنكرة التى نالت الجيش وناولنى خطابا من زوجال يطلب منى فيه التسليم ويخبرنى عن هزيمة المصريين ولكى يثبت لى هذه الهزيمة أرسل الى بعض تقارير الضـــباط ومذكرات فاركار وايضـــا مذكرات أودنفان .

وفى المساء جاءنى فرج افندى وعلى افندى الطويجى ضابط المدفعية واخبرنى بان الضباط قد قرروا التسليم للمهدى لا لزوجال بك • وقد اوضحوا الاسباب التى الجأتهم الى هذا القرار فان كل واحد منهم قد اقتنع تمام الاقتناع بانه لا سبيل الآن للحكومة أن تنقذهم وأن الجيش فى داره لا يزيد على خمسمائة وعشرة رجال ومنهم عدد كبير لا يصلح للقتال • وان الحالة المعنوية للجيش منحطة ، ولا أمل فى الحصول على أى انتصار وأن الذخائر لا تكفى معركة واحدة سواء كنا مدافعين أو مهاجمين . وقالا لى أيضا انه لا يمكننى أن أسوم الجيش على القتال لأن الجميع قد عزموا على التسليم • فأخبرتهما بأنى سأفكر فى هذا الموضوع وأخبرهما فى صباح اليوم التالى عن رأيى الأخير •

وفى تلك الليلة لم تغمض عيناى • فجعلت أتحسر وأندب هذا الحظ الذى يقضى علينا بعد معاناة الشدائد والأهوال بأن نسلم ونخضع . ثم بعد الخضوع ماذا خبأه القدر لنا ؟

وعرضت الحالة من البداية الى النهاية وانا فى هذا السهاد . لقد مضى على أربع سنوات وأنا أجاهد لتثبيت الحكومة ومقاومة الفتن الداخلية التى قمعتها ثم مقاومة حركة المهدى التى دخلت الى أصول الادارة وفشت فيها كالسوس وأخذت تتآكلها وتسرى فيها من الغصون الى الأوراق حتى ذبلت وجفت •

والخلاصة أن هذه الدعوة المهدية قد تغلغلت الى قلوب الضباط والجنود فقد كانوا قبلا ينصبون لها العداء ويكافحونها لأنى كنت ألوح أمامهم بقوة الحكومة وعودة سلطتها بنجاح حملة هكس وبالفوائد التى تعود عليهم اذا ثبتوا على الولاء الى حين يهزم الجيش المهدى • وكنت أجهد جهدى لكى أثبت للجنود والضباط ضرورة

فوز الحكومة فى النهاية ولكن جاءت هذه الهزيمة المنكرة فاقتطع كل أمل • وقد كافحت الدسائس من الداخل والخارج • والقارىء يعرف مبلغ النجاح الذى نجحته فى ذلك • وكان يمكننى بواسطة الكمية القليلة من الذخائر التى لدى أن أقاتل بضع ساعات ولكن هل كان من المتيسر أن يخضع لى الضباط والجنود فى مثل هذا القتال ؟ فقد ذهبت رغبتهم فى القتال ولم يعد لى حق فى أن أجبرهم على أن يضحوا بأنفسهم فى قضية لم يعودوا يبالون بكسبها •

وبعد أن عرضت الموقف من جميع جوانبه تبين لى أن التسليم ليس فقط أسلم السبل بل هو السبيل الذى لا مفر منه • وبعد أن قررت فى ذهنى هذا القرار عدت الى الوجه الشخصى للمسألة • فانى باعتبارى ضابطا كنت أمقت هذا التسليم • ولم أكن أخشى شيئا أو أخاف على حياتى • وكنت واثقا بأنى اذا سئلت عن مسلكى فى المستقبل يمكننى أن أبرر كل ما عملته •

ولكن لفظة التسليم نفسها كانت كريهة وكان يكرهها أكثر فى نظرى أنى أوروبى مسيحى وأنى ساكون بين آلاف من السودانيين كل منهم ينظر الى كأنى دونه فى المقام • صحيح أنى أسلمت وتركت دينى ، ولكنى لم أفعل ذلك الا لكى أهدىء ثائرة الضباط والجنود على وقد نجحت فى غايتى أكثر مما توقعت ولكن هذا العمل لم يكن وفق مزاجى • ولم أكن أدعى فهم الآراء الدينية بدقة تخولنى الحكم على صلاح عملى أو فساده ولكننى كنت فى قرارة قلبى مسيحيا مثل جميع المسيحيين الذين أعرفهم • وعلى ذلك لم أكن أستمرىء الظهور بمظهر ادعاء الاســـلام • دع عنك أنى كنت أعرف أن تسـليمى سيضعنى فى يد هذا المصـلح الدينى السخيف (المهدى) وأنى سأضطر لذلك الا اظهر فقط بمظهر المسلم العادى بل بمظهر المؤمن بالمهدى المتحمس لدعوته •

فهل يمكن لأحد أن يعتقد أنى كنت انظر للمستقبل بعين السرور ؟ ومع ذلك يجب ان أعترف بأن هذه الاعتبارات الدينية لم يكن لها فى نظرى وزن يعادل تلك الاعتبارات الأخرى عن تأدية واجبى • وعلى وجه العموم اقول انى شعرت بأنه قد يحتم على الآن أن أسلم وأن أحقن الدماء التى لن تجدى اراقتها شيئا • ولم يكن هناك سبب يدعونى الى الخضوع للذل والهوان وما يشبه الرق بعد التسليم • فقد خطر لى أن أنتحر ولكن نفسى ثارت على هذا الخاطر ، فقد كنت فى شبابى وقد مضى على أربع سنوات كلها تبعات ومجازفات ولم أكن أشتهى أن تختم حياتى وأنا فى هذا العمر حتى مع انتظار تلك الأيام السود القادمة وقد من الله على برحمته وأبقانى فى تلك الحروب المتوالية وهو لابد يبقينى حتى أعود فأخدم تلك الحكومة التى حاولت أن أخدمها فى الماضى بولاء وأمانة •

هذه هى الخواطر التى كانت تساورنى عندما بدأ شعاع الفجر يقشع الظلام فى تلك اللحظات التى لن أنساها فى حياتى • وانتهيت بعد التفكير الطويل الى أنه لم يبق لى سوى التسليم وأن أرضى بأن أكون محكوما لأولئك الذين كنت أحكمهم وأن أخضع لأولئك الذين كانوا يخضعون • ويجب فوق كل هذا وذاك أن أكون صبورا • واذا مارست هذه الخلائق فى نفسى ورضتها عليها وحقنت دمى بها ونلت بعد ذلك حريتى فان هذه التجارب ستفيد بلا شك الحكومة التى أخدمها • ونهضت من فراشى وأنا على هذا العزم ولبست ملابسى الرسمية لآخر مرة اذ استبدلت بها بعد ذلك جبة المهديين التى مثلت فيها دورا جديدا فى حياتى • ومع ذلك فقد كان يخفق تحت الجبة قلب كله ولاء للحكومة وكله عزم على الاستفادة من هذه التجاريب اذا أذن الله بالعودة • ورأيت ان المسألة ستتلخص بينى وبين هؤلاء الأسياد الجدد فى أينا يتغلب ذكاؤه على الآخر • ولم أجبن عن هذا الكفاح المنتظر مع انى لم أكن فى حاجة الى الاعتذار

والتبرير لو أني جبنت اذا اعتبرت السنين الطوال التي قضيتها في الأسر وفي الحياة المزدوجة التي اضطررت الى الظهور بها ٠

وفي صباح اليوم التالي حضر الى الضابطان فعرضت عليهما خطاب زوجال الذي يطلب فيه مني التسليم وأن أقابله في ٢٣ ديسمبر في حلة الشعيرية حيث يسلمني بيده خطاب المهدي الى ٠ ومما كتبه الى زوجال أيضا أنه يضمن حياتي وحياة جميع من معي من الرجال والنساء والأولاد ٠

ثم طلبت الكاتب وأمليت عليه خطابا لزوجال أعلنت فيه خضوعي وخضوع الحامية واتفقت على مقابلته في ٢٣ ديسمبر عند حلة الشعيرية وسلمت هذا الخطاب لرسول يقوم به لايصاله الى زوجال الذي صار اسمه الآن سيد محمد ابن خالد ٠

وفي أصيل الغد جمعت الضباط وأخبرتهم بأنه لما كانت المقاومة غير مجدية فقد قبلت اقتراحهم عن التسليم ٠ ولكني سأغادر داره في هذا المساء لكي أقابل زوجال في حلة الشعيرية واني سآخذ القاضي معي ، أما الضباط فسأتركهم مع الحامية . ثم شكرتهم بكلمات قليلة كانت شجى في حلقي لولائهم واستعدادهم للتضحية بأنفسهم في سبيل خدمة الحكومة وطاعتهم لي ، ثم ودعت كلا منهم باليد واحدا بعد آخر وودعت الموظفين المدنيين جملة وشرعت في السفر ٠

وكنا في منتصف الليل حين خرجت مع القواصين من داره ٠ وقد لاقيت المشاق في سفراتي الماضية وانا بدارفور ولكن هذا السفر كان أشق ما احتملته فقد كنا جميعا غارقين في تأملاتنا المحزنة حتى لم ينطق أحدنا بكلمة ٠ وعند الغروب استرحنا قليلا

ووضع الخدم الطعام امامنا ولكننا لم نمسه اذ لم تكن لنا شهوة للطعام ثم استأنفنا السير ولما اقتربنا من حلة الشميرية بعثت ياورى لكى يتقدمنا ويرى هل حضر زوجال أم لا • وعاد الينا فى الحال وأخبرنا بأنه هناك ينتظرنا منذ الأمس وبعد مدة قليلة بلغنا المكان فوجدناه واقفا وترجلت وتقدمت اليه لكى أحييه فضمنى الى صدره وأكد لى صـــداقته ورجانى أن أقعد ثم سلمنى خطاب المهدى • ولم يكن فى هذا الخطاب سوى تعيين زوجال أى سيد محمد بن خالد حاكما على الغرب وأن المهدى قد عفا عنى وأوصى بمعاملتى بالاكرام الذى يليق بمنصبى وأن يعامل سائر موظفى الحكومة السابقة باللطف والكرم • وبعد أن انتهيت من قراءة الخطاب قال لى زوجال ان المهدى انما عفا عنى للشهادة الطيبة التى شهدها فى حقى عنده ، وأنه سيقدم لى كل معونة . فشكرت له عطفه . ثم قدم الى الأمراء والطبيب حسن نجومى وقد كنت قابلتهم ســـابقا • ثم تناولنا الطعام وأخبرنى زوجال أنه ينوى السفر الى داره •

وبينما كنا نتحادث وصل الينا أحد ضباطى محمد آغا سليمان فلما رآنى لم يكترث لى أقل اكتراث بل ذهب الى زوجال وحياه تحية الحفاوة المبالغ فيها • فتذكرت انه كان قد اتهم مع اثنين آخرين بأنه جاسوس زوجال •

وأخذنى محمد (زوجال) وتنحى بى قليلا وخاطبنى فى شأن أقاربه وأسرته • فأخبرته بأن الجميع فى صحة جيدة وأن أقاربه لا يزالون معتقلين • ووافقنى على الاجراءات التى اتخذتها وقال انها أفادتنا نحن الاثنين • ثم قمنا وسرنا الى داره وقضينا الليلة فى الخيام قريبا منها ووافانا هناك عدد كبير من الأهالى والموظفين وكلهم قد لبسوا ملابس الدراويش وحيوا الوالى الجديد •

ولم تغمض عيناى فى تلك الليلة وكانت ليلة عيد الميلاد فتذكرت أهلى وأعياد الكنائس البهيجة التى يحتفل بها فى وطنى فى ذلك الوقت فى حين أجدنى هنا وحيدا مهزوما مضطرا الى تسليم رجالى وذخائرى الى العدو . وفى تلك الساعات الهادئة التى كانت أخفل ساعات حياتى حزنا وغما أخذت أعرض أمام ذهنى كل ما جرى لى فتحققت عندئذ أن أولئك الذين قتلوا فى ميدان الشرف كانوا أحسن حظا منى .

.

وفى الغد استقبل زوجال جميع الذين جاءوا اليه لكى يقدموا اليه طاعتهم وولاءهم ثم احتل الدراويش القلعة فتم له بذلك احتلال المديرية وتوافد عليه الأهالى لكى يقسموا له يمين الولاء للمهدى وفى النهاية عرض الجيش وأدى هذه المهمة نفسها .

.

ولقيت هنا المادبو الذى كان قد لحق بعبد الصمد فى برنجل فشيعنى الى المنزل وطلبت منه أن يقعد فقال :

.

« يبدو عليك كأنك مغتاظ منى وكأنك تعتقد أنى خنتك ولكن اصغ الى : لقد فصلنى ميليانى من وظيفتى باعتبارى رئيس المشايخ . فذهبت الى بحر العرب حيث طلبنى المهدى ولما كنت مؤمنا مسلما اتبعته فسمعت عظاته وتحققت من قداسة رسالته وحضرت هزيمة يوسف شلالى وانتصار رجال المهدى عليه انتصارا مدهشا فآمنت بدعوته ومازلت كذلك للآن . وقد وثقت أنت بالطبع بقوتك وأبيت أن تسلم بلا قتال . وعلى ذلك تحاربنا ولكنى لم أكن أقاتلك أنت شخصيا وانما كنت أقاتل الحكومة والله يعلم ما نسيت قط أنك كنت تنظر الى نظرة الصداقة فدعك من الغضب وكن أخا لى » .

.

فقلت : « لم أغضب لما فعلت فانك واحد من آلاف ولو كان في قلبي غيظ فان كلماتك قد أزالته » .

فقال المادبو : « أشكرك وأدعو الله ان يقويك وأن يرعاك في المستقبل كما رعاك في الماضي » .

فقلت له : « اني أضع ثقتي في الله . ولكني أجد من المشقات ان أتحمل ما أنا فيه . وان كان لا بد من تحمله » .

فقال : « كلا . كلا . أنا عربي ولكن اسمع ما أقوله لك . كن مطيعا صبورا . عليك بالصبر فقد قيل ان الله مع الصابرين » .

والآن أخبرك اني جئت اليك لكي أطلب منك شيئا وهو ان تقبل مني جوادي عربونا للصداقة بيني وبينك . وأنت تعرفه وهو « صقر الدجاج » .

وقبل ان أجد الوقت للاجابة غادرني وبعد دقائق عاد ومعه جواده وكان من أجمل وأكرم خيول القبيلة ثم سلمني رسنه . فقلت له « لست أقصد اهانتك برفض هديتك ولكني أخبرك أنه لم تعد لي به حاجة واني لن أركب كثيرا في المستقبل » .

فقال : « ومن يدري . اللي عمره طويل بيشوف كتير . فانت مازلت شابا وستركب كثيرا ان لم يكن هذا الجواد فجواد آخر » .

فقلت : « قد يكون ما تقول هو الصواب ولكن هل تقبل مني انت أيضا هذه الهدية ؟ » .

قلت ذلك وأشرت الى طبول الحرب التي كنا غنمناها منه . وأخذها خادمي وسلمها له ووضعت على الطبول سيفا آخر قدمته

ايضا هدية منى وقلت : « لا تزال هذه الاشياء ملكى اليوم ولذلك يمكننى أن اهديها اليك · أما فى الغد فلا أعرف من يملكها » ·

فقال : « انى أشكرك وأنا أتقبلها بكل سرور · لقد غنمها رجالك منا ولكن العرب تقول : « الرجال ستراده وراده · وهذا حق · فكم من مرة قاتلت وفررت ولكنى كنت أعود فاكر وأنجح » ·

وامر المادبو رجاله بحمل الطبول وخرج وهو مسرور ورقد أثر حديثه فى وتذكرت كلامه عن الصبر وان « اللى عمره طويل بيشوف كتير » ·

وفى صباح الغد امر الحاكم الجديد الأهالى بالخروج من منازلهم ثم فتش هذه المنازل وأرسل ما بها الى بيت المال · وكل من اشتبه فى حيازته مالا كان يجلده بلا رحمة أو تقييد قدماه ويربط الى حائط ورأسه مدلى حتى يغمى عليه · وكنت أناقش وأحاج ولكن خالد لم يكن ليثنيه كلامى ·

ثم أخذ خدم الموظفين من رجال ونساء وقدموا للمهدى ولكن الفتيات الوسيمات احتفظ بهن للمهدى ·

وبعد سبعة أيام من تسليمنا أخبرنى خالد أن سيد بك جمعه قد أرسل كبار الموظفين مع عمر واد دارهو لكى يعرضوا تسليم المدينة ولذلك قر رأيه على أن يسافر بنفسه الى الفاشر ولكنه عندما اقترب من المدينة كان الأهالى قد سمعوا بسوء معاملته لأهالى داره فقرروا عدم التسليم واضطر الدراويش لذلك الى حصار المدينة وفتق المحصورون فتوقا عديدة فى القوة المحاصرة ولكن الأهالى بعد ١٥ يوما من الحصار سلموا المدينة فدخلها خالد ومثل هناك الفصول

المروعة التي مثلها قبلا في داره بشكل أقسى ، وعذب عددا كبيرا من الناس تعذيبا وحشيا •

وكان بين المعذبين ضابط يدعى حماده أفندى وقد طولب بما عنده من المال فأصر على أنه لا يملك شيئا وكانت احدى امائه قد أخبرت عن وجود مقدار من الفضة والذهب عنده،ولكنها لا تعرف مكانها فأحضر أمام خالد الذى قال له انه كلب كافر • فلم يقدر حماده أفندى على ضبط نفسه ورد على خالد قائلا انه دنقلاوى سافل • وهاج خالد لهذه الاهانة وأمر جنوده بجلد حمادة أفندى حتى يعترف بمكان المال • ومضت ثلاثة أيام وهو يضرب كل يوم ألف سوط ولكن بلا أدنى فائــــدة ولو كان حجرا لما تحمل هذا الضرب كما تحمله • وكان كلما سأله الجلادون عن ماله يجيبهم قائلا : « أجل عندى أموال ولكنها ستدفن معى » •

وأمر خالد بوقف الضرب ثم سلم هذا المسكين لعرب الميما لكى يحرسوه • وقد دهش عرب الميما أنفسهم لجلد هذا الرجل الذى لم يلن عوده أمام هذا التعذيب •

وخشى ابراهيم نجلاوى الجلد فسمع أحــد الأمراء يدعــونه بالعبد فقتل فى الحال زوجته ثم أخاه ثم انتحر • وانتحر أيضا أغافولا مؤثرا الموت على التعذيب • فلما رأى خالد ذلك امر بوقف الجلد واكتفى بنفى المصريين فى أماكن متفرقة قريبة من المدينة •

وبعد سقوط الفاشر طلبنى خالد لكى ألحقه فبلغتها فى أوائل فبراير فأعطانى منزل سيد بك جمعه لكى أقيم فيه وأذن لى فى طلب خيولى وخدمى من داره . أما أمتعة البيت فيجب تســـليمها لبيت المال على سبيل الزهد فى الدنيا •

فنفذت كل هذه الأوامر وسلمت جميع أثاث المنزل لبيت المال ليد جابر واد الطيب ولم أحتفظ الا بالأشياء الضرورية للحاجات اليوميـة ٠

وكنت قد سمعت عنه وصول عن شجاعـة حماده وجلده فبحثت عنه ووجدته فى حالة مروعة ٠ فقد كانت جروحه من كتفيه الى ركبه واسعة متهرئة وكان الموكلون بتعذيبه يذرون عليها الملح والفلفل لكى يستخرجوا منه وهو فى هذه الآلام اعترافا بمكان أموالـه ٠

ولكن كل هذا التعـذيب لم يكن ليحـدوه الى الاعتراف ٠ فذهبت وأنا يائس الى خالد وأخبرته بحالة هذا المسكين ورجوته أن يسمح لى بنقله الى منزلى لكى أعالجه ٠ فقال خالد لى « انه رجل ماكر أخفى أمواله وأهاننى علنـا ولهذا يستحق أن يموت موتـ شـنيعة » ٠

فقلت له : « أرجوك بحق الصـداقة القديمة أن تعفو وتسلمه لى » ٠

فقال : « حسبنا ٠ أفعل ذلك اذا ركعت أمامى » ٠ والركوع فى السودان علامة الهوان العظيم فشعرت بالدم يصـبغ وجهى ولو أنى دعيت الى هذا العمل لكى انجى حيـاتى لما قبلت ولكنى رضيت بهذه الفضـيحة لكى أنجى هذا الرجـل التعس من آلامه المروعة ٠ وترددت لحظة ثم ضبطت نفسى وركعت ووضعت يدى على قدميه العاريتين فرفعهما وكأنه خجل مما طلب منى وأنهضنى وقال : « سأغفر عن حماده لأجلك ولكن عدنى بانه اذا أخبرك عن أمواله أن تبلغنى » ٠

فوعدته بذلك وأرسل معى رجلا الى حماده فهتفت بالخدم وحملناه على عنجريب ونحن نرفق به كل الرفق الى منزلى ثم غسلنا جروحه ونصحناها بالزبدة لكى تخفف آلامه ولم يكن من الممكن أن يعيش كثيرا وقدمت له حساء فطفق يلعن أعداءه بصوت خافت ·
وبقى فى منزلى أربعة أيام ثم طلب منى أن أقعد بجانب فراشه وأشار الى الخدم بالخروج · ثم همس الى كلمات لا أكاد أسمعها وقال : « لقد حان حينى · والله يجازيك الجزاء الحسن على ما أسديته الى من رأفة وشفقة . ولست أستطيع مكافأتك ولكنى اريد أن اظهر لك اعترافى بجميلك لقد خبأت أموالى » ·

فصحت به : « قف هنا · هل تريد أن تخبرنى عن مكان أموالك ؟ » ·

فقال نعم « لعلك تستفيد منها » ·

فقلت : كلا · لن أستفيد منها · فقد جئت بك هنا على شرط أن أخبر خالد بالمكان الذى أخفيت فيه أموالك اذا علمت ذلك · وأنت قد تألمت وقاسيت كثيرا وتوشك أن تفقد حياتك لاصرارك على اخفاء أموالك ومنعها من أن تقع فى يد أعدائك · فدعها اذن فى الأرض حيث هى فستبقى صامتة » ·

وكنت وانا اتكلم قد أخذ حماده يدى فى يده فقال :

« شكرا لك . الله يغنيك عن أموالى . الله كريم » ثم مد ساقيه وذراعيه ورفع سبابته قليلا وقال :

« لا اله الا الله محمد رسول الله » وأغمض عينيه وأسلم روحه ·

وتأملت فى هذه الجثــة الممزقة فامتــلأت عيناى بالدموع وتساءلت : كم بقى لى من السنين أتحمل فيها الآلام حتى أرتاح هذه الراحة الأخيرة • ثم ناديت الخدم وأمرتهم باحضار رجلين صالحين لغسل الجثة ولفها فى قماش وذهبت أنا الى خالد لكى أخبره بموته • فقال لى :

« ألم يخبرك عن مكان أمواله » •

قلت : « كلا • فان الرجل قد تصلب فلم يفش سره » فقال : « لعنة الله عليه • ولكن بما أنه مات فى بيتك فادفنه وان لم يكن يستحق الدفن وكان أجدر بنا أن نلقيه كالكلب على التل » •

فتركته وذهبت الى منزلى حيث دفنا حماده أمام المنزل بعد الصلاة المعتادة •

وكان خالد غاية فى الخبث والدهاء يقسو على موظفى الحكومة السابقين ويساهل الأهالى بلا داع ، وكان يضع قرابته فى الوظائف وكان مع اجتهاده فى أخذ أموال الأهالى يتجنب كل ما من شأنه أن يحدث استياء عاما • وكان يحتفظ لنفسه بمعظم الايرادات ويرسل من وقت لآخر هدايا للمهدى والخلفاء وكانت هداياه عدة فتيات وسيمات أو بعض خيول عتيقة أو بعض الجمال وذلك لكى يبقى محمود الذكر عند مولاه وولى نعمته •

وكان منزله حافلا بالضيوف والولائم • وقد تزوج مريم عيسى باصى أخت سلطان دارفور مع أن عمرها كان فوق الخمسين . وكان لهذه السيدة حاشية مؤلفة من المئات من العبيد والاماء على الطريقة السودانية ولم يخطر ببال خالد أنه يجب عليه أن يمارس فضيلة انكار النفس بعض الشىء كلما يأمر المهدى • وكان يأمر كل مساء

أن تصف مئات الأطباق والقفع المحملة بمختلف الأطعمة لأتباعه الذين كانوا يقعدون تحت النخيل فيذكرون مدائح المهدى ولا ينسون ذكر الأمير خاله من وقت لآخر ٠

وحوالى هذا الوقت جاءنى خطاب مطول من القاهرة بواسطة مدير دنقلة حمله الينا عربى موثوق به ٠ وفى الخطاب أمرنى بحصر قوات فى الفاشر وأن أسلم المديرية لعبد الشكور بن عبد الرحمن شطوط وهو من سلالة سلاطين دارفور ثم على بعد ذلك أن أخرج بالجيوش والذخائر الى دنقلة ٠ ولكن هذا الأمير الذى ذكر لى فى الخطاب كان لايزال فى دنقلة غير قادر على المجىء الى الفاشر ، وأنا أشك فيما اذا كان وصوله يغير أو يبدل فى الحالة ولم يكن من الممكن حصر قوات الفاشر بالنسبة لروح التمرد الذى فشا بين الجنود ، ولو كان فى قدرتى أن أجمع الجنود وأذهب بها الى الفاشر لما كان حينئذ ثم حاجة الى هذا الأمير ٠ فان الحكومة كانت تجد فى الأمانة والكفاية أكثر مما تجد فيه ٠ وأطلعت خالد على هذا الخطاب وأذن لى أن أكتب خطابا لأحد الأهالى يحمله هذا العربى الذى جاء من دنقلة فكتبته ولكنى لا أظن أنه وصل الى من أرسلته اليه ٠

وجاءتنا أخبار فى هذا الوقت تنبىء بسقوط بحر الغزال الذى كان يتولاه لبتون بك وأنفذ المهدى اليه الأمير كرم الله لكى يتولى حكومته ٠ وكان لبتون بك قد اضطر الى التسليم لأن جميع اخوانه تركوه فسلم المديرية بلا قتال فى ٢٨ ابريل سنة ١٨٨٤ ولو لم يهجره أعوانه لتمكن لبتون بك بواسطة قبائل الزنوج من الاحتفاظ بالمديرية ورد غارات المهدى عنها جملة سنوات ٠

ورغب خالد فى أن يرافقنى سيد بك جمعه الذى كان لا يزال مقيما فى القبة وقد قبلت مرافقته على الرغم من دسائسه السابقة ٠ وايضا طلب احد التجار اليونانيين مرافقتى فلم يعارض خالد وكان اسم هذا اليونانى ديمترى زيجاده ٠

وحوالى منتصف شهر يوليو غادرنا الفاشر أنا وزيجاده وكان معنا حرس مؤلف من عشرة رجال وبلغنا الأبيض بعد سفر شاق فتلقانا السيد محمود حاكم المهدى بلا حفاوة ، وأمرنا بأن نسافر فى اليوم التالى الى رهاد حيث يقيم المهدى ٠

الفصل العاشر

حصار الخرطوم وسقوطها

لما هزم المهدى هكس باشا وأباد تجريدته تحقق أن السودان كله قد صار عند قدميه . ولم تكن مسألة الاستيلاء على الخرطوم سوى مسألة وقت . وكان أول أعماله عندئذ أن أرسل قريبه خالد الى دار فور حيث كان يعرف أنه لن يجد أية مقاومة . وبواسطة كرم الله استولى على بحر الغزال وكل ما حدث أن حول الموظفون ولاءهم للخديو اليه . وكان ملك آدم قد خضع وجاء هو وأسرته وسكن الأبيض . ورسخت المهدية فى شرقى السودان ووجدت وطنا معدا لها بين العرب الشجعان النازلين هناك . وأبيدت الجيوش المصرية فى سنكلت وطمانيب وكانت نكبة الجنرال بيكر قد زادت ثقة العرب بأنفسهم وكان مصطفى حوال يحاصر كسلا .

أما فى الجزيرة بين النيل الأبيض والنيل الأزرق فان صهر المهدى واد البصير هزم الحكومة عدة مرات . وقد كانت هذه حالة البلاد عندما وصل غوردون الى بربر فى ١١ فبراير سنة ١٨٨٤ .

وكانت الحكومة المصرية باتفاقها مع الحكومة الانجليزية قد قر رأيهما على ارسال غوردون للسودان اعتقادا بأن معرفتـه البلاد تسكن الفتنة . ولكن الحقيقة أن هاتين الحكومتين وغوردون

نفسه كانوا يجهلون خطورة الحالة فى السودان • فهل كانت الحكومتان تظنان أن غوردون لشجاعته الشخصية واشتهاره بالرفق بالفقراء فى دار فور يستطيع أن يوقف تيار التعصب ؟ وهل كان نفوذ غوردون يمكنه من تهدئة عرب الجعالين النازلين بين بربر والخرطوم وفى الجزيرة ؟

لقد كان عكس ذلك هو المنتظر فان الحاكم الذى أمر بطرد الجلابة من الجنوب فى حرب الزبير كان خليقا بأن يكرهه عرب الجعالين لا أن يحبوه . فان أمر غوردون بطرد الجلابة قد أفقد عددا كبيرا من الجعالين من آبائهم أو اخوتهم أو أقاربهم ولم يكونوا ينسون أن غوردون هو السبب فى كل ذلك •

وفى ١٨ فبراير وصل غوردون الى الخرطوم فتلقاه الناس والموظفون بالبشر والحماسة وكان المتصلون به والمتنفعون منه يعرفون أن الحكومة لن تترك مثل هذا الرجل وحيدا بلا معونة • وكان أول ما عمله انه أذاع منشورا بتعيين المهدى حاكما على كردوفان والاذن بالنخاسة والرق واقترح الدخول فى مفاوضات مع المهدى وطلب منه الافراج عن الأسرى وأرسل اليه هدايا من الملابس الثمينة • ولو أن غوردون أذاع هذا المنشور ومعه قوة فى الخرطوم يستطيع أن يسير بها الى كردوفان لتم له ما أراد ولكن الأخبار بلغت المهدى بأنه جاء الخرطوم وليس معه سوى عدد قليل من الحرس . ولا شك فى أن المهدى تعجب من غوردون كيف يمنحه بالكلام ما حصل عليه هو بالسيف وما لا يمكن غوردون أن يسترده منه • وقد رد عليه المهدى بخطاب طلب فيه منه أن يسلم المدينة ويحقن بذلك دمه •

وكان الخليفة عبد الله يد المهدى اليمنى • وكانت قرابة المهدى يكرهونه لهذا السبب ويكيدون له • ولكنه كان يعرف تماما

أن المهدى لا يستطيع أن يدبر الأمور بدونه • فشكا الى المهدى دسائس هؤلاء الناس وطلب منه أن يعترف فى وعظه بما قام به من الخدمات للمهدية • فأذاع المهدى منشورا لا يزال يشار اليه للآن كما احتاج الخليفة عبد الله الى تغيير فى الحكومة أو سن قانون من جديد . وهذا المنشـــور يقضى على جميع أتباع المهدى بالطـــاعة للخليفة وان ينظروا اليه كأنه نائب المهدى الذى يقوم بتنفيذ مشيئته •

ولما قل الماء عزم المهدى كما سبق أن ذكرنا على الرحيـل بمعســكره الى رهـاد وهى على مسيرة يوم من الأبيض • وحوالى منتصف أبريل تم انتقال هذه الكتلة العظيمة المؤلفة من رجال ونساء وصبيان •

وكان المعسكر فى رهاد عبـارة عن بحر طام من العشش المصنوعة من القش يمتد الى أبعد ما يصل اليه النظر وكان المهدى يقضى نهاره فى الصلاة والوعظ وسائر واجباته الدينية • وكان قد عين محمد أبو حرجه واليا على الجزيرة وأنفذه اليها مع عدد كبير من الاتبـاع وأمره بأن يرأس الثورة على الحكومة ويحاصر الخرطوم •

وهذا هو وصـف الحالة كما وجدناهـا عند وصولنا انا واليونانى زيجاده وسيد بك جمعه الى رهاد ، ولما اقتربنا أرسلت أحد خدمى الى الخليفة لكى يعلمه بقدومنا • ولكنه تأخر فعزمنا على الركوب اليه بأنفسنا •

واتخذنا الطريق المؤدى الى السوق وسمعنا صوت الاومبية (الطبل) التى تؤذن بمقدم الخليفة • واتفق أنى وجدت أحد أهالى دارفور فسألته عن معنى دق الطبل فقال لى : « الأرجح أن الخليفة

عبد الله قد أمر بقتل أحد الناس وهذا أمر للناس لكي يشهدوا القتـل » ٠

ولو كنت من الذين يؤمنون بالتفاؤل والتشاؤم لتشاءمت من هذه المقابلة حيث يقتل انسان عند أول دخولي المعسكر ٠ ولكن سرنا حتى بلغنا مكانا رحبا مكشوفا ورأيت خادمي ووراءه رجل آخر وكلاهما يسرع الينا ٠ وصار بنا هذا الرجل وقال : « قفوا حيث أنتم فان الخليفة وحرسه ، قد خرجوا للقائكم وكان يظن أنكم خارج المعسكر » ٠

« ووقفنا وعاد الرجل يخبر الخليفة بوصولنا ٠ وبعد دقائق

رأينا جمعا من الفرسان وحولهم جمع آخر من المشـاة المسلحين وهم يسيرون على ايقاع الطبل ٠ ووراء هذا الجمع رأينا الخليفة نفسـه وكان قد وقف والى يمينه ويساره صـفان من الفرسـان ينتظرون أوامره ٠ وأمرهم الخليفة بأن يشرعوا في رياضة خيولهم ٠ وكانت هذه الرياضة عبارة عن أربعة من الفرسان يخرجون بخيولهم صفا واحدا ويجرون شوطا ثم يعودون أدراجهم ويكررون هذا الجرى عدة مرات حتى يضطرهم الاعياء الى الراحة وكانوا يركضون خيولهم الى مكاننا ورماحهم مشرعة حتى اذا بلغونا هزوا الرماح قريبا من وجوهنا وقالوا : « في شأن الله ورسوله » ثم ركضوا خيولهم ثانيا الى مكان الخليفة ٠

وبعد أن تكرر هذا الركض نحو نصف ساعة جاءني أحد خدم الخليفة وأخبرني بأن الخليفة يرغب في أن أركض على هذا النحو اليه ، ففعلت ذلك وهززت في وجهه الرمح وقلت : « في شأن الله ورسوله » وعدت الى مكاني ٠

فارسل الى يطلب مني أن أتبعه وبعد قليل بلغنا منزله ٠ وساعده على النزول عن جواده خادم . أما سائر الفرسان فوقفوا

على مسافة منه ثم اختفى وراء السياج وبعد دقائق أرسل الينا يطلبنا فقادنا الخادم الى مكان فسيح داخله منزل من القش حيطا، وسقفا • وكان فيه عدد كبير من العنجريبات عليها حصر من ورق النخيل • وأمرنا بالقعود على عنجريب ثم قدم لنا مزيجا من الماء والعسل فى قرعة وبعض البلح فاصبنا منهما وانتظرنا مجيء الخليفة ودخل علينا بعد مدة وجيزة فوقفنا فاخذ يدى وضمها الى صدره وقال : « الحمد لله الذى جمعنا • كيف حالك فى هذا السفر الشياق ؟ » •

فقلت : « شكرا لله الذى ابقانى حتى ارى هذا اليوم • لقد ذهب عنى تعبى عندما رأيت طلعتك » •



وكنت أعرف ان سبيل الحصول على مكانة ما لديه هو تمليقه.
ثم أعطى يده لسيد بك ولديمترى فقبلها كل منهما وسألهما عن حالهما . وصرت أتفرس فيه فرأيت أن لون وجهه هو السمرة الخفيفة ووجهه عربى عليه مسحة من الرقة ، وكانت لاتزال آثار الجدرى بادية فيه وكان أنفه منقاريا وفمه حسن عليه شاربان صغيران وعلى خده شعر خفيف يتكاثف حول الذقن . وكان ربعة بين القصير والطويل وسطا بين السمن والنحافة وكان لابسا جبة مرقعة مؤلفة من رقع مربعة كل رقعة تختلف فى اللون عن الأخرى وعلى رأسه طاقية قد تعمم عليها بعمامة من القطن وكان اذا تكلم تبسم فتبدو أسنانه البيضاء .

ولما حيانا رغب الينا فى الجلوس فجلسنا على الحصير فوق الأرض وجلس هو على عنجريب . ثم أعاد السؤال عن صحتنا وأبدى ارتياحه لبلوغنا مقام المهدى . وأشار لأحد الخدم فأحضر لنا طبقا من العصيدة وآخر من اللحم ووضعهما أمامنا ثم نزل الينا وطلب منا أن نأكل وكان يأكل بشهوة قوية كأنه يستمرىء طعامه كل الاستمراء ، وكان يسألنا بعض أسئلة ونحن نأكل . وقال : « لم انتظرتم خارج المعسكر ولم تدخلوا بلا اذن وهل يحتاج الناس للاذن لكى يدخلوا بيوت أصدقائهم ؟! » .

فقلت : « نحن نرجو عفوك . غاب عنا خادمنا مدة طويلة ولم يخطر ببال أحدنا أنك تخرج للقائنا . ولما اقتربنا من المعسكر سمعنا دق الطبل فسألنا عن معناه فقيل لنا : أن أحد المجرمين يقتل وكنا ننوى أن نسير وراء الطبل ولكن رسولك جاءنا عندئذ » .

فقال : « وهل بلغ من ظلمي أنه عندما تقرع طبولى يظن الناس أن مجرما سيقتل ؟ » .

فقلت : « كلا يا مولاى . أنت مشهور بالصرامة مع العدل » .

فاجاب : « أجل انى صارم · وهذا ما يجب على وسنعرف السبب فى ذلك عندما تطول مدة اقامتك معنا » ·

وكان بعض من يعرفوننى قبلا قد استأذنوا الخليفة لكى يدخلوا ويسلموا على فأذن لهم الخليفة ودخلوا ولكنهم لم تتح لهم الفرصة للكلام معى سوى عبد الرحمن بن نجا الذى كان فى تجريدة هكس فقد قال لى بلهجة سريعة خافتة :

« خذ حذرك والزم الصمت ولا تثق بأحد » فاثر كلامه فى ونقشته فى قلبى ·

ثم غادرنا الخليفة ، وحوالى الساعة الثانية بعد الظهر ارسل الينا لكى نتوضأ ونذهب الى المسجد وبعد دقائق جاءنا هو واخبرنا بأن نسير وراءه · وكان يسير على قدميه لأن المسجد الذى كان قريبا من عشة المهدى لم يكن يبعد عن منزل الخليفة سوى نحو ٣٠٠ ياردة ، ولما دخلنا وجدناه مزدحما بالمصلين الذين اصطفوا صفا بعد صف ولما دخل الخليفة تنحوا له باحترام · وفرش على الأرض لنا جلدة شاة وأشار هو علينا بأن نقعد خلفه · وكان مقام المهدى مؤلفا من عدة عشش كبيرة محاطة بسياج من الشوك فى الجنوب الغربى للمسجد · وكان فى المسجد شجرة تظلل عددا كبيرا ، ولكن سائر المصلين كانوا يصطلون الشمس المحرقة · وكان فى المسجد فى أقصى طرفه الأمامى الى اليمين عشة صغيرة كان يقعد فيها المهدى بعد الصلاة لمحادثة من يرغب فى رؤيتهم على حده · وبعد الصلاة دخل الخليفة الى هذه العشة وظننا أنه يريد أن يخبر المهدى بمجيئنا · وعاد الينا وقعد معنا وفى الحال خرج المهدى ويمم نحونا فوقف الخليفة ووقفنا جميعا وراءه · أما الباقون فقد لزموا مكانهم ولم ينهضوا . وتقدمت أنا قليلا فحيانى المهدى بقوله : « السلام عليكم » فرددنا عليه بقولنا : « عليكم السلام » ثم مد يده فقبلتها عدة مرات وفعل كل من سيد بك جمعه وديمترى مثلى · ثم أشار علينا بالجلوس ثم وجه الخطاب الى قائلا : « هل أنت مسرور ؟ »

فقلت : « أجل يا مولاى . لقد سررت ونلت السعادة بقربى منـك » .

فقال : « بارك الله فيك أنت وأخويك (يريد ديمترى وسيد جمعة) لقد كانت تبلغنى أخبار المعارك بينك وبين أتباعى فكنت أدعو الله لهدايتك . وقد سمع الله ونبيه لدعائى . وكما خدمت مولاك السابق لأجل المال الزائل يجب أن تخدمنى الآن لأن من يخدمنى يخدم الله والاسلام وينال السعادة فى هذا العالم والفرح فى العالم الثانى » .

فأبدى كل منا ولاءه وكنت قد أوصيت قبلا بأن أطلب مبايعته فانتهزت هذه الفرصة وطلبت ذلك . فدعانا الى أن نركع على طرف جلد الشاة ثم وضع كل منا يديه فى يديه وأقسمنا هذه اليمين :

« بسم الله الرحمن الرحيم . بايعنا الله ورسوله . وبايعناك على توحيد الله ولا نشرك بالله شيئا . لا نسرق ولا نزنى ولا نأتى البهتان ولا نعصيك فى المعروف . بايعناك فى ترك الدنيا والآخرة (كذا ...) ولا نفر فى الجهاد » .

ولما انتهينا من البيعة قبلنا يديه وصرنا معدودين من أنصاره المخلصين ، ولكننا كنا أيضا عرضة لأن يقع بنا عقاب هؤلاء الأنصار . وشرع المؤذن فى الأذان وكان المهدى يؤمنا فيصلى ونحن نكرر ما يقول . ولما انتهت الصلاة رفع الجميع أيديهم يدعون بالنصر للمؤمنين . ثم ابتدأ المهدى فى وعظه .

وكان حوله جموع عظيمة من الناس يعظهم عن غرور العالم وزواله ويحضهم على الزهد والا يفكروا الا فى الدين والجهاد ، وكان يصف لهم ملذات النعيم التى سيلاقيها المؤمنون بمذهبه ، الداعون الى دعوته . وكان بعض المتحمسين يقاطعونه بصيحات التواجد والطرب . والحق أنى مقتنع بأن جميع الحاضرين سواءا كانوا

مؤمنين ايمانا حقا بدعوته . وكان الخليفة قد خرج من المسجد في مهمة ما ولكنه نبه الملازمين لي أن يطلبوا منا البقاء مع المهدى الى الغروب .

وسنحت لي عندئذ فرصة بأن أنظر الى المهدى وأتعرف أوصافه . كان طويلا عريض الاكتاف خفيف السمرة متين البنية . وكان رأسه كبيرا وعيناه براقتين وكانت له لحية سوداء وعلى كل من خديه ثلاثة حزوز . وكان أنفه وفمه حسني الوضع وكانت عادته الابتسام على الدوام واذا ابتسم بدت أسنانه الناصعة وكان الفلج بين ثنيتيه فرجة يتفاءل بها السودانيون ويسمونها فلجة . وكان هذا سببا في حب النساء له اذ كانوا يسمونه « أبو فلجة » وكان يلبس جبة قصيرة قد أجيد غسلها وقد عطرت بالمسك والصندل والورد واشتهرت عنه هذه الرائحة حتى صارت تسمى « ريحة المهدى » وكانوا يقولون انها تماثل رائحة الفردوس ان لم تفقها . . .

وقد قضينا الوقت كله ونحن مكاننا نقعد فوق سيقاننا المطوية تحتنا حتى وجبت صلاة المغرب .

وفي هذه الأثناء كان يروح ويغدو من المسجد الى البيت عدة مرات . ولما انتهت الصلاة استأذنته في الخروج لأن الخليفة كان قد وعدني بلقائه في ذلك الوقت . فأذن لي ونصح لي بأن الزم الخليفة وأرصد نفسي لخدمته . فوعدته بالطاعة وبلزوم أمره بالحرف ثم قبلنا يده أنا وديمترى وسيد بك وخرجنا .

وكانت ساقاى تخدرتا من القعدة الطويلة حتى ما كنت أقوى على المشي عليهما ولم يبد على سيد بك ألم لأنه معتاد هذه القعدة . أما ديمترى فسار وراءنا وهو يتلفظ ألفاظا خافتة باللغة الاغريقية يلعن فيها المهدى . ورافقنا ملازم الى منزل الخليفة حيث قعدنا الى وقت العشاء .

وأخبرنا الخليفة بأنه بعد أن رآنا فى الصباح وفد اليه حسين خليفة مدير بربر فثبت لدينا من ذلك سقوط بربر وكانت الاشاعات قد بلغتنا ونحن على حدود دارفور ولكننا لم نلاق أحدا نتحقق منه هذا الخبر • ويبدو أن المدينة سقطت على يد الجعاليين وبذلك انقطعت المواصلات بيننا وبين مصر • وكان هذا الخبر سيئا للغاية وكنت أنتظر لقاء حسين خليفة لكى أتعرف منه صدق هذا الخبر •

وغادرنا الخليفة لكى ينام فمد كل منا ساقيه على عنجريبه واستسلم للأقدار •

وفى الصباح بعد فطور العصيدة واللبن سمعنا قرع الطبول تؤذن بخروج الخليفة وأسرجت الخيول فى الحال • وأشرت على الخدم بأن يعدوا لنا أنا والسيد بك جمعه جوادين امتطيناهما وأدركنا بهما الخليفة الذى كان قد سبقنا • وكان راكبا جواده بقصد النزهة فقط وكان معه عشرون من المشاة وكان عن يمينه رجل أسود ضخم من قبائل الدنكار وعلى يساره عربى طويل جدا يدعى أبا تشيكه كان يعاونه فى الركوب والنزول • ولما بلغ الرجة التى كان بها بالأمس أمر الفرسان بأن يكرروا الرياضة التى قاموا بها أمس • وبعد مدة سرنا الى نهاية المعسكر حيث أرانى الخليفة آثار زريبة وخنادق وأخبرنى أنها من عمل هكس قبل أن تباد قوته ، وكان قد مكث هناك ينتظر المدد من تاج الله . وكانت هذه الخنادق مصنوعة لمدافع كروب • وقد أثار هذا المنظر فى نفسى ذكرى أليمة عن تلك الآلاف التى أبيدت عن آخرها تقريبا وان هذه النكبة هى سبب وجودى فى مكانى هذا الآن .

وعند رجوعنا عرج بنا الخليفة الى منزل أخيه يعقوب الذى كانت عشته قريبة من عشة الخليفة اذ لم يكن بين سياج كل منهما

سوى ممر ضيق • وتلقانى يعقوب بالبشاشة • وبدا عليه من دلائل السرور مثل ما بدا على أخيه ونصح لى بأن أخدم الخليفة بأمانة •

ويعقوب أقصر من الخليفة عريض الاكتاف مستدير الوجه وبه آثار الجدرى وله أنف يرتفع من طرفه وشاربان ولحية خفيفة . وحظه من الدمامة أكثر من حظه من الجمال ولكن طريقته فى الحديث عجيبة من حيث اظهاره عطفه على محدثه • وكان يخاطبنا وهو يبتسم كما يفعل الخليفة والمهدى • ولا غرابة فى ذلك ما دامت أحوالهم فى هذا الرواج • ويعقوب يقرأ ويكتب وقد حفظ القرآن عن ظهر قلبه ، أما الخليفة فبالمقابلة الى أخيه يعتبر جاهلا . وهو أصغر سنا من الخليفة ولكنه مستشاره الأمين وصاحب الرأى الذى لا يعلى عليه • وويل لمن يرتأى رأيا يخالف يعقوب أو يشتبه فى أنه يدس له اذ لا رجاء فى حياته •

وأصبنا شيئا من البلح الذى قدمه لنا ثم استأذنا فى الخروج وعدنا الى رقوبه حيث قصدنا الى المسجد وقعدنا الى الغروب كما فعلنا البارحة وجاء المهدى فوعظ الناس فى الزهد فى الدنيا والجهاد حتى ينالوا نعيم الفردوس • وتحمس المصلون وقد أسكرهم التواجد فصاحوا بمدائح المهدى • أما نحن التعساء فكنا نتألم من مقصدتنا ونلعن فى قلوبنا المهدى والخليفة وجميع من حولهما من السفلة المنافقين •

وفى اليوم التالى طلبنا الخليفة وسألنا : هل نرغب فى السفر الى دارفور • وكنت أعرف أن هذا السؤال لم يوجه الينا الا على سبيل الامتحان فأجبنا بصوت واحد اننا نأسف أشد الأسف لفراق المهدى • ورأيت أنه كان ينتظر هذا الجواب فابتسم وامتدحنا لحسن اختيارنا •

واقترح علينا الخليفة أن نترك عشتنا وأرسل ديمترى مع ملازم الى أميره وكان يونانيا أيضا وأمر بمنحه عشرين ريالا • فلما غادرنا التفت الى سيد بك وقال : « وأنت يا سيد جمعه مصرى وكل انسان يحب بنى وطنه وعندنا كثير من المصريين وكلهم ابن مجرب• ثم أنت شجاع يمكن الاعتماد عليك ولذلك يجب أن ترافق أمير المصريين حسن حسين وسيعطيك منزلا ويقضى لك حوائجك وسأعمل أنا أيضا كل ما فيه راحتك » •

وسر سيد بك جمعه لهذا الترتيب ثم التفت الخليفة الى وقال : « أما أنت يا عبد القادر فغريب وليس لك أحد سواى • وأنت تعرف العرب فى جنوبى دارفور معرفة جيدة فبناء على أمر المهدى يجب أن تبقى معى ملازما لى » •

فأجبت مسرعا : « هذه هى أمنية قلبى • وانه لحظ حسن لى ان اتمكن من خدمتك ولك يا مولاى أن تثق بطاعتى وأمانتى » •

فقال : « انى أعرف ذلك • حماك الله وقوى ايمانك • ولا شك فى انك ستكون ذا منفعة كبرى للمهدى ولى » •

ثم اختليت بالخليفة فأعاد على مسمعى التعبير عن سروره بخدمتى ومرافقتى له • ثم حذرنى من الاختلاط بأقاربه الذين يحسدونه وربما أحدث اختلاطهم بى قطيعة بينى وبينه • وأمر ببناء بضع عشش لى من القش فى الزريبة المجاورة له والتى يملكها أبو أنجه (وكان غائبا فى جبال النوبة) وفى أثناء ذلك أبقى بعششى وأحضر الظهر والمساء وأسمع وعظ المهدى • فشكرته شكرا جزيلا ووعدته بالأمانة والولاء •

وفى اليوم التالى حضر حسين باشا خليفة فى سؤاله وكان أول ما سأل عنه حالة والى بربر السابق • فأجابه حسين باشا

بالجواب المعتاد • فأخذ في سؤاله عن الحالة في وادي النيل فوصف له حسين باشا البلاد التي بين بربر وفشودة وقال انها صارت الآن تابعة للمهدي وان المواصلات بينها وبين مصر قد انقطعت أما الخرطوم فان غوردون يدافع عنها ولكن عرب الجزيرة قد حاصروها • وكان بالطبع يصف الأحوال بالصبغة التي تروق الخليفة . وكان الخليفة مسرورا بهذه الأخبار ، وسروره يبدو عليه في اشاراته واستفهاماته • ووعد الخليفة حسين باشا بأن يقدمه في صلاة الظهر للمهدي وأكد له عفوه عنه • وقبل ذلك الميعاد يمكنه أن يستريح معي •

ورافقت الخليفة بعد ذلك الى المسجد ومعنا حسين باشا الذي قدم الى المهدي وعاد معي الى منزلي لقضاء الليلة • وتعشينا عند الخليفة كالعادة ثم قمنا الى عشتي • فلما خلا كل منا الى أخيه أعدنا التسليمات والتحيات ، وصرنا نندب الحالة التي وقعت فيها البلاد والتي أنزلتنا الى هذا الدرك • ثم قلت : « يا حسين باشا اني أعدك بالصمت فأخبرني الحالة في الخرطوم وما يفعل السكان هناك ؟ » •

فقال : « وا أسفاه • هي كما وصفت للخليفة • فان اذاعة المنشور باخلاء السودان قد قلبت الحالة ، وكانت سببا غير مباشر في سقوط بربر • ولست أشك في أنها كانت ستسقط على أية حال ، ولكن هذا المنشور أسرع في سقوطها • ولما كان غوردون في بربر منعته من اتخاذ هذه الخطة ولا أدري ما الذي جعله يسلكها ثانيا » •

وتحدثنا كثيرا عن الأحوال والحوادث التي وقعت لحسين باشا وكان رجلا مسنا وقد تعب فنام . ولكن حديثه أطار النوم من عيني • وجعلت أفكر في غوردون وقلت في نفسي هل هذا هو

غاية مجهودات غوردون لخدمة البلاد ؟ وهل تذهب ضحايا الرجال والمال بلا فائدة ؟ لقد عولت الحكومة المصرية على ترك البلاد وهى وان لم ننتفع منها فى الماضى فسيكون مستقبلها عظيما . وأقل ما فيها تلك الآلاف من الجنود السود الذين يمكن أن يجندوا فى الجيش . وستترك الحكومة هذه البلاد لأهلها وتبقى علاقتها بها ودية وتسحب حامياتها وذخائرها منها وترضى بقيام حكومة محلية .

وكان هذا هو الغرض من ارسال غوردون أملا فى أن تقديره بين الأهالى واحترامهم له (وكان هو يكبرهما أكثر من حقيقتهما) يمكنانه من تأدية هذه المهمة . ومن الحقائق أن غوردون كان محبوبا فى المناطق الغربية والمناطق الاستوائية حيث كسب حب الناس بطيبة قلبه وسخائه . وكان وقت اقامته فى تلك المناطق يكثر من التجوال والسياحة وكان جسورا عطوفا وقبائل تلك الجهات تقدر هاتين الصفتين . فلا شك اذن فى أن تلك القبائل كانت تحبه ولكنها صارت الآن تعبد المهدى ولذلك نسيت غوردون .

وليس السودانيون أوروبيين . اذ هم عرب وزنوج ولا يقدرون العطف والرقة قدرهما . وقد أذيع المنشور باخلاء السودان بين العرب وأخصهم الجعاليين وكانوا يكرهون غوردون لأنهم لم ينسوا بعد ما فعله مع الجلابة .

ولما جاء غوردون الى الخرطوم وليس معه قوة يستند اليها عرف هؤلاء العرب أنه يعتمد على نفوذه الشخصى فى تحقيق أغراضه . ولكن الواقفين على الحالة كانوا يعرفون أن النفوذ الشخصى هو نقطة من بحر فى حل المشكلة السودانية .

فما الذى أغراه باذاعة هذا المنشور والاعلان فيه عن اخلاء الحكومة المصرية السودان . وقد نصح له حسين باشا ألا يقرأه

فى بربر ولكن عندما وصل الى متمه قرأه أمام جميع الناس • فهل لم تبلغ غوردون منشورات المهدى التى أرسلها عقب سقوط الأبيض ؟ ألم يعرف أنه كان يدعو الناس فى هذه المنشورات الى اعلان الجهاد على الحكومة وأن من يعصيه فى هذا الأمر يعتبر خائنا للدين فتصفى أملاكه وتؤسر نساؤه وأولاده ويصيرون عبيدا للمهدى ؟

لقد كان غوردون يرمى الى الحصول على معاونة هذه القبائل حتى يتمكن من سحب الحاميات وكان يمكنه أن يتفق معها على ذلك • ولكنه الآن أضاع هذه الفرصة اذ كيف يمكن أن تساعده هذه القبائل اذا كان هو قد أعلن اخلاء السودان ومعنى ذلك ان تترك هذه القبائل لرحمة المهدى ؟ وماذا كان يفعل المهدى بهم لو أنه علم أنهم عاونوا غوردون على أن يسحب الحاميات ؟ ثم هل كان يمكنهم أن يقاوموا المهدى ومعه أربعون ألف جندى كل منهم يحمل بندقية وذلك غير الآلاف المتحمسين الذين يشتاقون الى الدمار والغنائم ؟

كلا . لقد كانت هذه القبائل أعقل وأحصف مما حسبها غوردون • كانت تعرف أنه اذا انسحب غوردون من البلاد وتيقن المهدى أنهم عاونوه فانه يستأصل شأفتهم ويسبى نساءهم وأولادهم • ولم يكونوا هم فى حاجة الى هذه التضحية •

واذا لم يكن فى مقدور الحكومة لأسباب سياسية وغير سياسية أن تحتفظ بالسودان فان من العبث أن يرسل غوردون ويضحى به بلا فائدة • ولم تكن ثم حاجة الى رجل ذى مهارة شاذة لكى يسحب جنود الحاميات والذخائر على البواخر الى بربر بحجة رفع الحصار عن المدينة وعندئذ تسحب جميع الحاميات أو معظمها . ولكن كان ينبغى السرعة فى هذا العمل ثم هو لم يكن ممكنا بعد سقوط بربر • ويجب أن نذكر أن بربر لم تسقط الا فى ١٩ مايو

أي بعد ثلاثة أشهر من وصول غوردون الى الخرطوم • وعلى كل حال نقول ان اذاعة منشور غوردون قد عجل سير الأحوال الى حد مزعج • فان الأهالى عرفوا نية الحكومة فى اخلاء السودان وصار كل منهم ينظر الى مصالحه الخاصة التى صارت على خلاف مع مصالح الحكومة التى قلبها مواطنهم المهدى •

ولم يكن فى مقدور غوردون مع صفات الشجاعة والنشاط التى يتصف بها بحق أن يوقف سير الأحوال بعد أن ارتكب هذه الغلطة السياسية الكبرى •

ولقد كنت أتقلب فى العنجريب وأنا فى هذه الأفكار بينما كان حسين باشا يغط فى نومه . ورأيت أن الايمان بالقضاء والقدر يفيد فى مثل هذه الساعة ، ولكنى كنت مازلت أوروبيا لم تبلغ نفسى هذه المرحلة وان كنت قد تعلمت بعد ذلك أن انظر الى الأشياء نظر التسليم والهدوء ، وعلمتنى تجاربى فى السودان أن أمارس تلك الفضيلة الكبرى ، فضيلة الصبر •

وانتشرت بعد أيام قلائل اشاعة بأن غوردون أغار على أبى حرجه وجرحه وأن قواته التى كانت قد طوقت الخرطوم قد وقعت وهزمت • فامتلأ قلبى سرورا بهذه الأخبار وان كنت قد تظاهرت بعدم المبـالاة •

ووصل الى معسكرنا صالح واد الملك وكان قد سلم نفسه فى فيداس ثم أرسله أبو حرجه بعد ذلك الينا • وعفا عنه الخليفة والمهدى فأثبت هذه الأخبار وأمدنى ببعض معلومات عن غوردون •

وفى هذا المســاء استدعانى الخليفة للعشــاء معه وما كدنا نسرع فى تمزيق كتلة اللحم الكبيرة التى أمامنا حتى سألنى قائلا « هل سمعت الأخبار اليوم عن الحاج محمد أبى حرجه ؟ » •

فقلت وأنا أشعر بالنفاق : « كلا • لم أترك بابك طول اليوم ولم ألتق بأحد » •

فقال الخليفة : « لقد فاجأ غوردون الحاج محمد من البر والبحر وكان البحر الأزرق في الفيضان • وقد أساط البواخر بـ ا يمنع رصاص البنادق من الوصول الى جنده • هذا الكافر رجل ماكر ولكنه سينال عقاب الله • وقد تقهقر رجال الحاج محمد وغوردون الآن في طرب النصر ولكنه مخدوع فان الله لا ينصر الا الذين يؤمنون به وسينتقم الله منه قريبا . وليس الحاج محمد ذا كفاية ولذلك سيرسل المهدى واد النجومى لكى يطوق الخرطوم ».

فقلت وأنا أقصد عكس ما أقول : « أرجو الا يكون الحاج محمد قد خسر خسائر فادحة » •

فقال الخليفة بحق : « لا حرب بلا خسارة ولكنى لم أقف على التفاصيل بعد » •

وكان انتصار غوردون قد عكر مزاجه فذهبت عنه دماثته وكان يبدو عليه أنه يخشى النتائج لهذا الانتصار . ولما ذهبت الى عشتى بعثت خادمى لكى يدعو صالح واد الملك سرا لزيارتى • فأخبرته بأنه الخليفة يؤيد رواية انتصار غوردون فقال لى انه سمع أيضا هذا الخبر من أفراد قرابته • وامتلأ قلبى بهجة وطربا لهذا النصر ، ووجدت نفسى أتحدث وأنا كلى رجاء بالمستقبل ولكن صالحا كان يعد هذا النصر وقتيا ، وكان يبنى اعتقاده هذا على أسباب معقولة •

وأخذ يوضح لى الحالة بقوله انه عندما وصل الى الخرطوم بدأ تأثير المنشور عن اخلاء السودان يظهر وزادت لذلك صعوباته •

وصارت قبائل الجعالين تجتمع وقد اختارت لها الحاج على واد سعد رئيسا وقد اجتمعت لديه قوة كبيرة ولكنه لأسباب شخصية كان يميل الى الحكومة فجعل يسوف فى القتال •

ورأى القناصــل فى الخرطوم أن الحالة تتفاقــم فطلبوا من غوردون أن يرسلهم الى بربر • وقد كان مما يشك فيه أن يصلوا سالمين الى بربر ، ولذلك نصح لهم غوردون بالبقاء فى الخرطــوم فبقوا • أما أهالى الخرطوم فقد أخذوا يتوجسون من غوردون لأنهم تحققوا من المنشور أن غوردون انما جاء لكى يسحب الحامية وان كانوا قد عرفوا بعد ذلك أن غوردون انما جاء لكى يدافع عنهم أو يموت معهم •

وجمع الشيخ عبيد وهو من أكبر مشايخ الطرق فى السودان اتباعه فى الحلفاى لكى يحاصر بهم الخرطوم • وأرسل غوردون بعض الجيش بقيادة حسن باشا حسين الذى كان حاكما على شقه لكى يجلوا المحاصرين عن أماكنهم ووقف غوردون على سطح قصره يراقب جنوده منه بتلسكوبه فرأى بعض ضباطه يفاوضون الثائرين فى التسليم فأحضرهم فى الحال وعقد لهم محكمة عسكرية ثم ضربوا بالرصاص • ولكنه على الرغم من هذه النكبة تمكن من تخليص الشايجيــه وكانوا موالين للحــكومة فانــه نــدب لهم الســنجق عبد الحميد واد محمد فأنقذهم وأحضرهم الى الخرطوم •

وكان صالح واد الملك فى فيداس قد طوقه الثائرون ، فرجا غوردون أن يفك الحصــار عنــه ولكن غوردون لم يتمكن من ذلك فاضطر الى التسلم ومعه ألف وأربعمائة من الجنود غير النظاميين وذخائرهم • وبعد هذا النصر جمع الحاج محمد أبو حرجه جميع سكان الجزيرة لمحاصرة الخرطوم •

وبينما كانت هذه الأحوال تجرى حول الخرطوم كان محمد الخير معلم المهدى السابق وكان قبلا يدعى محمد المذكر قد أتى الى النهر فعين المهدى تلميذه السابق أميرا على بربر ووضع جميع القبائل فى تلك المديرية تحت تصرفه • فجمع محمد الخير جميع أنصاره من الجعالين قبيلته وأمدهم بعدد كبير من البرابرة والبشارية وسائر العرب ثم طوق بهم مدينة بربر فلم يمض عليها بضعة أيام حتى سقطت •

وكانت مديرية دنقلة لا تزال ثابتة على ولائها للحكومة وذلك يرجع الى مكر مديرها مصطفى بك ياور • فانه عرض تسليم المدينة الى المهدى مرتين ولكن المهدى توجس شرا منه لأنه تركى وأرسل أحد قرابته سيد محمود على لكى يشترك هو وأمير الشايجية الشيخ حداى فى تسليم المدينة . فلما علم مصطفى بك ياور ذلك وكان عنده فى ذلك الوقت ضابط انجليزى (هو اللورد كتشنر) يشجعه على القتال جهز جيشا وأوقع بحداى ثم سحق المهديين فى كورش ، وقتل الأميران محمود وحداى •

أما فى سنار فلم تكن الحال على ما يرام • فقد حوصرت وكان المدخر بها من القمح كثيرا ولكن مواصلاتها كانت متقطوعة وحاول الحاكم نور بك أن يرد المحاصرين فنجح وأرجعهم الى مسافة بعيدة •

وجاءت الخطابات تترى الى المهدى رجاء أن يقدم الى النهر ولكنه لم يكن فى حاجة الى العجلة اذ كان متأكدا أن السودان كله قد صار فى يديه وأنه لا يمكن أن يؤخذ منه الا بجيش مصرى أو أجنبى كبير • وكان يعرض الجيش كل يوم جمعة ويحضر العرض بنفسه وكان جيشه مؤلفا من ثلاثة أقسام يقود كل قسم منه خليفة ، ولكن الخليفة عبد الله كان يسمى (رئيس الجيش . وكان قسمه يسمى الراية الزرقاء وكان أخوه يعقوب ينوب عنه وكان

الخليفة على واد حلو يقود قسم الراية الخضراء . أما الراية الحمراء او راية الاشراف فكان يقود قسمها الخليفة محمد شريف وكان للأمراء الأصاغر رايات خاصة .

وكان أمراء الراية الزرقاء يصــــفون جنودهم يوم العرض بحيث تواجه الشرق .

وكان جنودالراية الخضراء يصفون أمامهم بحيث يواجهون الغرب . ويصل بين هذين الصفين جنود الأشراف وأمراؤهم بحيث يواجهون الشمال .

وكانت جنود المهدى قد كثر عددها فكان العرض يحتاج الى ميدان كبير جدا مفتوح من ناحية واحدة يدخل منها المهدى ومعه صحابته . ويقول آخر أنه سمع أصواتا من السماء تبــارك فى انصار المهدى وتعدهم بالنصر . بل بعضهم يقول ويؤكد انه رأى الملائكة تبسط أجنحتها وتؤلف سحابة تقى الجيش وهج الشمس .

وبعد ثلاثة أيام من وصول خبر هزيمة الحاج أبو حرجه وصل الينا فى رهاد رجل ايطالى يدعى يوسف كوزى آتيا من الخرطوم . وكان قبلا فى بربر فلما سقطت تركه المسيو ماركه وكيل شركة ديبوزج لكى يتمم بعض الحسابات فى بربر ، وأرسله محمد الخير بعد سقوط بربر الى أبو حرجه وهذا بعثه الى غوردون بخطاب ولكن غوردون رفض أن يتلقــاه ورده الى خطوط العدو على الشاطىء الشرقى للنيل الأزرق فلما وصل الى المهدى أرسله ثانيا الى غوردون بصحبة رجل يونانى يدعى جورجى كالامانتينو ومعــه خطاب الى غوردون يطلب فيه منه التسليم . وارسلت أنا على يد هذا اليونانى بضع كلمات لكى يحملها الى غوردون سرا . وأذن لليونانى بأن

يدخل الى الخرطوم • أما كوزى فلم يؤذن له لان الضباط اتهموه بأنه عندما دخل فى المرة الأولى دعاهم الى التسليم •

ولما انتهى شهر رمضـــان استدعى أبو انجـه ومن معـه من القوات فى جبل الدائر وأعلن المهدى عندئذ أن النبى قد أوصى اليه أن يقوم الى الخرطوم ويحاصرها بنفســـه وأمر جميع الأمراء بجمع رجالهم والتهيؤ للسفر وكل من يتخلف عن هذا الجهاد تصفى أملاكه •

ولكن الناس الذين لم يكن لحماسهم حد لم يكونوا فى حاجة الى التحذير من التخلف فانهم كانوا يهرعون الى القتال وكل منهم طامع فى الغنيمة التى تنتظر انتصار المؤمنين • وكانت نتيجة اعلان المهدى الجهاد أن هاجر الناس جملة وكانت هجرتهم لا مثيل لها فى تاريخ السودان •

وغادرنا رهاد فى ٢٢ اغسطس وكانت قوات المهدى تسير فى ثلاث طرق مختلفة • فاتخذت القبائل التى تحمل على الجمال الطريق الشمالى • وكان طريقها على فرس وصلبة وطرة الخضرة • أما الطريق الوسطى التى تمر على طيارة وشرقله والشط ودويم فقد اتخذها المهدى والخلفاء والأمراء • أما البقارة وسائر القبائل التى لها مواش فقد اتخذت الطريق الجنوبية • وكنت أنا بالطبع ملازما للخليفة أرافقه ولكنى كنت عندما تحط رحالنا أرسل فى طلب صالح واد الملك الذى كان فى رفقة المهدى . وكان الخليفة لسبب لا أعرفه يكرهه وأمرنى بأن الزمه أنا وخدمى وكلف ابن عمه عثمان واد ادم بأن يعنى بأمرى • ومع ذلك كنت أدقق من وقت لآخر لرؤية صالح واد الملك وكان واقفا على الدوام على الحالة فى مديريات النيـل •

ولما كدنا نبلغ شرقلة شاعت اشـاعات عن رجل مسيحى مصرى وصل الى الأبيض وأنه فى طريقه الى المهدى • وكان البعض يقولون انه امبراطور فرنسا وآخرون يكذبونهم ويقولون بل هو قريب ملكة انجلترا • فلم يكن ثم شك فى أن الرجل أوروبى فشعرت بأشد الشوق لرؤيته •

. .

واخبرنى الخليفـة فى المساء بأن رجلا فرنسيا وصـــل الى الأبيض ، وأنه بعث فى طلبه واحضاره الى المهدى . ثم قال « هل أنت فرنسى وهل عندكم فى بلادكم قبائل مختلفة كما هو الحال فى السودان ؟ » •

وكان الخليفة يجهل أوروبا كل الجهل فجعلت أنير ذهنـه عن الموضوع بقدر امكانى • ثم قال الخليفة : « ولكن ما يريد منا رجل فرنسى يأتى الينا ويقطع هذه الطريق الطويلة ؟ عسى أن يكون الله قد هداه الى الصراط المستقيم » •

فقلت : « لعله يبقى فى صحبتك وصحبة المهدى » •

فنظر الى الخليفة وكان لا يصدق قولا وقال : « سنرى » •

ثم بلغنا شرقلة وما كدنا نحط رحالنا حتى أرسل الى مولاى وقال : « يا عبد القادر لقد وصل الفرنسى الينا وأمرت باحضاره هنا • فانتظر واسمع ما يقوله اذ ربما نحتاج اليك » •

ثم جاءنا حسين باشا وبدا لى أن الخليفة استدعاه • وبعد مدة جاءنا ملازم وأعلن أن الرجل الغريب واقف أمام الباب فأذن له بالدخول • ورأيته رجلا طويلا حوالى الثلاثين من عمره وكانت الشمس قد لوحت وجهه • وكان شارباه ولحيته خفيفة اللون وقد

لبس الجبة والعمامة • وحيا الخليفة بقوله : « السلام عليكم » • فلم يتحرك الخليفة من العنجريب بل أشار عليه بالقعود وبدأ بقوله : « لم جئت هنا وماذا ترغب منا ؟ » •

فأجاب بلهجة غريبة غير مفهومه بأنه فرنسى جاء من فرنسا •

فقال الخليفة : « تكلم بلغتك مع عبد القادر وهو يوضح لنا ما تقصد » •

فتحول الغريب الى ونظر الى متوجسا وقال بالانجليزية « نهارك سعيد يا سيدى » •

فقلت : « هل تتكلم الفرنسية • أنا اسمى سلاطين • الزم الجد ولا تتطوح . وبعد ذلك يمكنك أن تخبرنى على حدة ما تريده » •

فتذمر الخليفة قائلا : « ماذا تقولان ؟ انى أعرف مادا يطلب ؟ » •

فقلت له : « أخبرته يا مولاى عن اسمى وطلبت منه أن يتكلم بصراحة لأنك أنت والمهدى قد وهبكما الله معرفة ما يدور فى أفكار الناس » •

وأسعفنى حسين باشا وكان قاعدا خلفى فقال : « هذا حق • الله يطيل عمر الخليفة ثم التفت الى وقال : « لقد أحسنت فى تنبيه الغريب » •

فسر الخليفة لهذا التملق وقال : « باحثه عن غرضه » •

فقال الغريب بالفرنسية : « اسمي أوليفيه بان ، وأنا رجل فرنسي ، ومنذ صباي وأنا متعلق بالسودان ، أحب أهله ، وجميع أهل بلادي يشعرون شعوري ، ونحن في أوربا بيننا وبين بعض الأمم احقاد ، والأمة الانجليزية هي احدى هذه الأمم وقد رسخت قدمها في مصر واحد قوادها غوردون موجود الآن في الخرطوم فأنا جئت لكي أقدم للمهدي مساعدتي أنا وأمتي » .

فقال الخليفة بعد ان ترجمت له هذه الأقوال « أية مساعدة ؟ » فقال أوليفيه بان : « مساعدتي الآن هي النصيحة ، ولكن أمتي ترغب في صداقتكم وهي مستعدة لمعاونتكم بالمال والسلاح بعد شروط » .

فقال الخليفة وكأنه لم يسمع ما قاله : « هل أنت مسلم ؟ » .

فأجابه : « أجل ، أنا مسلم منذ زمن طويل وقد أعلنت اسلامي في الأبيض » .

فقال لي الخليفة : « اقعد أنت وحسين باشا هنا مع هذا الفرنسي وسأذهب أنا الى المهدي لكي أخبره عنه وأعود » .

فلما غادرنا الخليفة حييت هذا الغريب وعرفته بحسين باشا ولكن شعرت بشيء من الكراهية له لعلمي أنه قدم لمساعدة أعدائنا . ولكن مع ذلك نبهته الى أن يحذر في كل ما يقوله وأن يدعي ان الباعث له على المجيء هو الايمان لا الأغراض السياسية . واغتاظ حسين باشا من هذا الفرنسي حتى قال لي بالعربية : « هل تقديم المال والسلاح لهؤلاء الناس يعد سياسة ؟ هؤلاء الناس ليس لهم غرض الا القتل ونهب الناس واستعباد النساء والبنات ، لقد كنتم تنسبوننا الى القسوة والشر وتعاقبوننا حين كنا نشتري العبيد

السود مع أن العبد الأسود لا يمتاز على الحيوان الا فى أنه يقدر على حرث الأرض » .

فقلت : « معلهش اللى عمره طويل بيشوف كتير » .

وأخذنا كلنا نفكر ونتأمل كل فى حاله ننتظر مجىء الخليفة . وبعد مدة عاد الينا وأمرنا بالوضوء استعدادا للصلاة مع المهدى . فتوضأنا وذهبنا الى مكان الصلاة ووجدنا عددا عظيما من الناس كلهم يبالغون ويهولون فى شأن هذا الغريب الفرنسى .

ولما أخذ كل منا مكانه جلس أوليفيه بان فى النصف الثانى وجـاء المهدى عندئذ وكانت جبته نقية معطرة وعمامته قد رتب طياتها ترتيبا يفوق المعتاد وعيناه مكحلتين لهما بريق شديد وكان يبدو عليه أنه عنى عناية كبيرة لكى يؤثر بهيئته فى الناس . ولا شك فى أنه شعر بالسرور والزهو لرؤيته رجلا يأتيه من بلاد بعيدة يعرض عليه المعاونة .

وقعد على سجادة وطلب أوليفيه بان وحياه بابتسامة ولكنه لم يصافحه ثم أذن له بالقعود وسأله عن سبب مجيئه وكنت أنا المترجم بينهما .

وأعاد أوليفيه بان حكايته فطلب منى المهدى أن أترجم أقواله بصوت عال يسمعه جميع الحاضرين . ولما انتهيت قال هو أيضا بصوت عال : « لقد سمعت أقوالك وفهمت مقاصدك ولكنى لا أعتمد على معونة الناس وانما أعتمد على الله ورسوله . فان أمتك غير مؤمنة ولا يمكننى أن أعقد محالفة بينى وبين أمة غير مؤمنة وبمعونة الله سنهزم أعداءنا ونظفر بهم بواسطة الأنصار والملائكة الذين يبعثهم الينـا النبى » .

وعلا الهتاف من آلاف المجتمعين عند سماعهم هذا الكلام ·
ولما عاد النظام والسكون قال المهدى : « تقول انك تحب الاسلام وتعترف أنه حق فهل تؤمن به وهل أنت مسلم ؟

فقال الفرنسى : « أجل · انى مسلم · لا اله الا الله محمد رسول الله » ·

فمد المهدى يده فقبلهـا ولكنه لم يطالبه بيمين الولاء . ثم جاء ميعاد الصـلاة فنظمت الصـفوف وقضينا الصلاة · ثم وعظنا المهدى وشرح لنا الزهد فى الدنيا وكيفية النجاء وخرجنا مع الخليفة الذى أشار على بأن آخذ أوليفيه بان معى الى عشتى وأنتظر أوامره·

وخلا كل منا الى الآخر فتحادثنا مليا لا نخاف شيئا · وكنت أكره المهمة التى جاء من أجلها ولكن أيضا كنت أتحسر عليه لجهله فاعدت التحية ورحبت به وقلت له : « والآن يا عزيزى أوليفيه ، نحن هنـا وحـدنا لن يزعجنـا أحد فلنتكلم بصراحة . ولو أنى لا أوافـق على مهمتك ولكن أؤكـد لك بأنى سـأعمل كل ما فى استطاعتى للمحافظة عليك · لقد عشت أنا هنا جملة سنوات بعيدا عن المدينة فأخبرنى عما يحدث الآن فى العالم ؟ » ·

فقال لى : « اننى أثق بك كل الثقة ، واعرف اسمك ، وأحمد المقادير التى جمعتنى بك ، وهناك عدة أشياء تهمك معرفتها ، ولكن اقصر كلامى الآن على مصر » ·

فقلت له : « أخبرنى اذن عن ثورة عرابى باشا والمقتلة التى حدثت بسببه وتدخل الدول واحتلال الانجليز مصر » ·

فقال : « أنا محرر فى جريدة الأنديبندانس التى يرأس تحريرها روشفور الذى أظن أنك سمعت عنه . وأنت تعرف أن فرنسا وانجلترا نقيضان فى السياسة واننا نضع فى وجه انجلترا كل ما يمكننا من العراقيل . ولم أحضر انا ولى صفة النيابة على أمتى بل جئت بصفتى الشخصية فقط ولكن الأمة تعلم بمجيئى وتوافق عليه . وقد عرف ولاة الأمور الانجليز مقاصدى وقبضوا على فى وادى حلفا لارجاعى ولكن لما بلغت أسنا اتفقت مع العرب على أن يحملونى سرا الى الأبيض عن طريق الكمب . وقد استقبلنى المهدى مرحبا بى كما ترى ولذلك فانى أرجو الخير على يده » .

فقلت : « وهل تظن أنه يقبل اقتراحك ؟ » .

فقال : « اذا رفض اقتراحى فانى أظن أنه يعمل لايجاد علاقات حسنة بينه وبين أمتى وهذا يكفينى . وأظن أنه بما إنى جئت مختارا فهو لا يعارض فى سفرى ثانيا الى بلادى » .

فقلت : « هذا مما أشك فيه . قل لى هل لك عائلة ؟ » .

فقال : « نعم . لى زوجة وولدان فى باريس وهم لا يغيبون عن بالى وأرجو أن أراهم قريبا . ولكن أخبرنى لم يعارض المهدى فى سفرى ؟ » .

فأجبته قائلا : « انى أعرف هؤلاء الناس والى الآن لا أظن أن هناك ما يدعو الى الخوف على حياتك ولكنى لا أقدر أن اقول متى وكيف يمكنك أن تسافر الى بلادك ، وأرجو أن المهدى يرفض اقتراحاتك التى أظن أنها ربما تفيده ولكنى أرجو أيضا أن تعود سالما لعائلتك التى تنتظرك بنافد الصبر » .

وكنت قد أمرت الخادم باحضار شيء نأكله وطلبت احضار جوستاف كلوتز (خادم ودنفان الذى كان قد فر من جيش هكس وانضم الى المهدى) لكى يأكل معنا · وما كدنا نشرع فى تنـاول الطعام حتى دخل اثنان من ملازمى الخليفة وطلب من أوليفيه بان أن يتبعهما · فدهش لهذه الدعوة الفجائيـة وبدا عليـه الخوف وهمس الى بان أسال عنه · ودهشت أنا أيضا لأن لغته العربية لم تكن مفهومة فلماذا يطلبه الخليفة وحده ؟ وكنت أقول ذلك لمصطفى « كلوتز » واذا بملازم يطلبنى أنا أيضا · ولما دخلت على الخليفة وجدته قاعدا وحده وأشار على بالقعود فقعدت الى جانبه ·

ثم قال لى بلهجة الذى يسر الى شيئا : « ياعبد القادر أنت واحد منا · قل لى ماذا تظن فى هذا الفرنسى » ·

فقلت : « أظن أنه مخلص وأن قصـده حسن · ولكنـه لا يعرفك ولا يعرف المهدى ويجهل أيضا أنكما تعتمدان على معونة الله وحده ولا تحتاجان الى معونة انسـانية وان هذا هو سبب انتصاراتكم المتتابعة لأن الله يكون على الدوام مع المؤمنين به » ·

فقال الخليفـة : « لقد سمعت كلام المهدى عندما قال انه لا يرغب فى أية علاقة بينه وبين غير المؤمنين وانه يمكنه أن يهزم أعداءه بدون أن يستعين بهم » ·

فقلت : « هذا أكيد · ولا فائدة من وجود هذا الرجل هنا ويمكنه أن يعود الى وطنه ويخبر الناس هناك بالانتصارات التى يحرزها المهدى وخليفته » ·

فقال الخليفة : « لعله يفعل ذلك بعد . أما الآن فقد أمرته أن يبقى مع زكى طومال الذى سيعنى به ويقدم له حاجاته » ·

فقلت له بلهجة التوسل : « ولكنه يجد مشقة عظيمة فى التعبير عن فكره بالعربية اذ هو لا يزال يجهلها » ٠

فقال الخليفة : « لقد تمكن من الوصول الينا بدون مترجم ولكنى مع ذلك أسمح لك بزيارته » ٠

ثم أخذ يتكلم عن أشياء أخرى وأخذنى لرؤية الخيول التى أهداها اليه زوجاله من دارفور وكنت أعرف بعضها جيدا ٠ وبعد أن تركته ذهبت الى أوليفيه بان فوجدته قد أسند رأسه على يديه وهو فى تفكير عميق ٠ ولما رآنى هب واقفا وقال : « لا أعرف ماذا أقول عن كل هذا ٠ لقد أمرونى أن أمكث هنا وأحضروا لى أمتعتى ووكلوا بى رجلا يدعى زكى ، فلم يتركونى أمكث معك ؟ » .

فقلت بلهجة العطف : « هذه هى طبيعة المهدى والخليفة شر منه فى ترتيب الأشياء على ضد ما يرغب الانسان ٠ وأنت الآن تمتحن فى الصبر والطاعة والايمان ولكن لا تخش شيئا فان الخليفة يتوجس منا شرا نحن الاثنين ويجب أن نبقى منفصلين حتى لا ننتقد أعماله » ٠

قلت لزكى طومال : « يا صديقى هذا رجل غريب فانا أوصيك به خيرا فكن معه بحق صداقتنا القديمة » ٠

فقال : « لن يحتاج الى شىء أستطيع تقديمه اليه » ٠

ثم قال بتؤدة : « ولكن الخليفة أمرنى أن أمنع الناس من مخاطبته فأرجوك ألا تقابله كثيرا » ٠

فقلت : « هذه الأوامر لا تنطبق على ٠ فانى كنت منذ برهة عند مولاى الخليفة فأمرنى أن أزور هذا الغريب ٠ فأكرر عليك أن تعامله معاملة حسنة » ٠

ثم عدت الى أوليفيه بان وحاولت أن أدخل السرور فى قلبه واخبرته بان الخليفة قد منع الناس من مخالطته وان هذا الأمر فى مصلحته لأن اختلاطهم به قد يؤدى الى أن يدسوا له عنده ويوقعوا به . أما أنا فانى أزوره كلما سنحت الفرصة .

وفى اليوم التالى قرع طبل الخليفة ايذانا باستئناف السير. وكانت عادتنا أن نسير من الصباح الى الظهر ولذلك كان سيرنا بطيئا .وكنا عندما نقف أذهب الى الفرنسى فأجده قاعدا فى خيمته كالعادة . وكانت صحته جيدة ولكنه كان يشكو من سوء الطعام . وقال زكى بعد أن سمع هذه الشكوى أنه أحضر اليه العصيدة فلم يذقها . فاوضحت له أنه غريب لم يألف بعد الطبخ السودانى واقترحت عليه أن أجعل خادمى يهيىء له طبقا من الحساء وآخر من الرز . وسألنى الخليفة فى تلك الليلة هل رأيت أوليفيه بان ؟ فأخبرته بأنى قابلته وانى وجدته صائما لا يستطيع أن يأكل العصيدة فجعلت خادمى يهيىء له طعاما لئلا يمرض ولذلك أرجوه أن يسمح لى بذلك . فوافق الخليفة ولكنه قال : « ولكنك أنت تأكل من طعامنا فيحسن به أن يعتاد هذا الطعام فى أقرب وقت . ثم أين مصطفى « كلوتز » فانى لم أره منذ بارحنا رهاد » .

فقلت : « انه عندى يساعد الخدم على العناية بالخيول والجمال » .

فقال الخليفة : « اطلبه الآن » ففعلت وجاء بعد برهة صغيرة ووقف أمامنا فقال له الخليفة : « أين كنت ؟ انى لم أرك منذ أسابيع . هل نسيت أنى مولاك ؟ » .

فقال كلوتز فى لهجة التأفف : « لقد ذهبت الى عبد القادر باذنك وأنت لا تعنى بى وقد تركتنى وحدى » .

فقال الخليفة وهو غاضب : « سأعنى بك في المستقبل » ثم هتف بأحد الملازمين وطلب منه أن يخبر كاتبه ابن نجا بأن يضع مصطفى في الأغلال وخرج مصطفى وهو لا ينبس بكلمة .

ثم قال الخليفة : « ان عند مصطفى وعندك ما يكفيكما من الخدم فيمكنك أن تستغنى عنه . وقد كنت اختصصت به ولكنه تركنى بدون سبب . فأمرته بأن يلزم أخى يعقوب ولكنه تركه أيضا والآن عندما ذهب اليك قام في ذهنه أنه يمكنه أن يستغنى عنا جميعا » .

فقلت : « أعف عنه فان الرحيم يعفو . ائذن له بالبقاء مع أخيك فلعل هذا يصلحه ؟ » .

فقال : « يجب أن يبقى مصفدا عدة أيام حتى يعرف أنى مولاه وهو ليس مثلك . فأنت تأتى الى كل يوم »

وشعرت كأنه يقول هذا لكى يطمئننى لأنه رآنى قد تألمت ، ثم أمر بالعشاء فأحضر وأكلت أنا بشهوة أكثر من المعتاد حتى أوهمه بأنى راض . وكان قليــل الكلام وقت الطعام يبدو عليــه كأنه مهموم . وبعد العشاء حاول أن يقول شيئا يزيل به أثر الكآبة ولكن لهجته كذبته . ثم انفصلنا وعدت الى خيمتى وأنا أتأمل فى الحالة . فقد كنت عازما على أن أبقى على وفاق مع الخليفة حتى تتاح لى ساعة الخلاص ، ولكن صلفه وغطرسته وسوء أدبه قد جعلت هذا الواجب ثقيلا على .

وبعد أن سرنا خمسة أيام بلغنا الشط حيث وجدنا الآبار مسدودة فشرعنا فى فتحها وأقمنا بعض العشش هناك ، لأن المهدى قرر الاقامة هنا بضعة أيام . وكنت وقت مسيرنا أزور أوليفيه بان

ناجد آماله التى جاء بها تذهب بالتدريج . وكانت معرفته بالعربية قليلة جدا ولم يكن يؤذن له بالكلام الا مع العبيد الذين كانوا فى خدمته . ولم تمض عليه أيام حتى نسى مهمته الأصلية وصـــار لا يذكر شيئا سوى زوجته وأولاده . وكنت أحثـه على التفـاؤل بالمستقبل وأن ينزع عن نفسه هذه الكآبة التى لا تنفعه فى شىء . وكان الخليفة قد نسيه تقريبا فلم يكن يذكره أبدا .

وبعد وصولنا بيوم الى الشط وافانا محمد الشريف شيخ المهدى السابق الذى كان قد طرده من طريقته وكان أصدقاؤه قد حثوه على أن يذهب اليه ويستغفره .

ولكن المهدى أحسن استقباله وسار معه بنفسه الى خيمته وأهدى اليه فتاتين حبشيتين جميلتين وخيولا وغير ذلك . وبهذه المعاملة السمحة جذب المهدى اليه أنصار الشيخ محمد الشريف وضمن ولاءهم .

ولما غادرنا شرقلة جاءتناالأخبار بأن جيوش غوردون هزمت هزيمة منكرة . ولما بلغنا الشط جاءتنا تفاصيل هذه الهزيمة التى انتصر فيها الشيخ عبيد علي محمد باشا فى أم درمان . وكانت نتيجة هذا النصر أن الثائرين زادوا ضغطهم فى حصار الخرطوم ولما أمدهم واد النجومى بجيشه وجد غوردون أنه لم يعد فى قوته أى فتق فى القوة التى تحاصره .

وخرجنا من الشط الى الدويـم حيث عرض المهدى الجيش عرضا عظيما وأشار الى النيل وقال : « ان الله قد خلق هذا النهر ووهبكم مياهه لتشربوها وقسم لكم أن تملكوا جميع ما على ضفتيه من أرض » فهتف له الجميع هتاف الفرح والسرور وكل منهم يعتقد أن تلك البلاد العجيبة قد وقعت فريسة للمهديين .

وغادرنا الدويم الى طرة الخضرة حيث قضينا أيام العيد •
وكان أوليفيه بان الفرنسي قد أصيب بحمى ولما زرته قال لى :
« لقد جازفت جملة مجازفات في حياتي دون أن أفكر في نتائجها
ولكن مجيئى هنا غلطة فادحة . وقد كان أصلح لى لو أنى وقعت
في يد الانجليز ومنعوني من تنفيذ ارادتي » • وكنت أجهد جهدى
لكى أعزيه وأسرى عنه ولكنه كان يقابل كلامى بهز رأسه •

وفي العيد صلى المهدى بصوت عال غير عادى • ولما وصل الى
الخطبة بكى وانتحب انتحابا مرا • وكنا نحن الذين لا يؤمنون
بدعوته نعرف أن هذا البكاء نفاق لن يعقبه خير لأحد ولكن كانت
له النتائج المرغوبة فان قبائل النيل الأبيض سارعت الى الانضواء
تحت رايته وتحمس الناس أشد تحمس لسماعهم خطبته •

وبعد أن استرحنا يومين استأنفنا السفر ، وكنا نزحف زحفا
كالسلحفاة لكثرة جموعنا وازدياد عددهم يوما بعد يوم • وكانت
حالة أوليفيه بان تسوء كل يوم وتبين أن ما به هو التيفوس •
ورجانى أن أطلب من المهدى بضعة نقود لأن الذين يعنون به
يضايقونه بما يطلبونه منه • ففعلت وأمر المهدى أمين بيت المال
بأن يعطيه خمسة جنيهات ودعا له بالشفاء • وأخبرت الخليفة
بحال بان وبأن المهدى وهبه خمسة جنيهات فلامنى لأنى فعلت ذلك
بدون اذنه . وقال لى : « اذا مات هنا فانه يكون سعيدا فان الله
بقدرته قد نقله من الكفر الى الايمان » •

وفي صباح اليوم التالى أرسل الى بان فذهبت ووجدته
ضعيفا لا يقوى على النهوض • وكان قد مضى عليه يومان لم يذق
فيهما شيئا من الطعام الذى كنت أرسله له ، ولما قعدت الى جانبه
وضع يده في يدى وقال : « لقد جاءت ساعتى • وأنا أشكر لك

حنوك على ورعايتك لى • وآخر ما أطلبه منك من المعروف اذا نجوت من هؤلاء المتوحشين واتيحت لك الفرصة بزيارة باريس أن تذهب الى زوجتى المسـكينة واولادى وتخبرهم أنى وأنا أموت كنت لا أفكر الافيهم » •

وكان وهو يقـول هذا الكـلام تنحـدر العبرات على خديه الغائرين • وعدت الى تعزيته وتقويته ولكنى سمعت قرع الطبول فاضطررت الى تركه • وكانت هذه آخر مرة رأيته فيها ؛ وأمرت أحد خدمى المدعو نطرون أن يبقى معـه • ثم ذهبت الى الخليفـة فأخبرته بحالته السيئة ورجوته أن يأمر بابقائه فى احدى القرى حتى يشفى • فوافق الخليفة على مقترحى وطلب منى أن أذكره بهذه المسألة عند الغروب •

ثم جاء الغروب ولكن المريض لم يجىء بل جاء نطرون وحده فقلت له وكان يتغزز من خاطر يساوره : «أين يوسف ؟ » ويوسف هذا هو اسم أوليفيه بان الذى تسمى به حين صار مسلما •

فقال : « مات سيدى • وهذا سبب تأخيرنا • وقد دفناه » •

فدهشت وقلت : « كيف مات ؟ أخبرنى عما حدث » •

فقال : « اشتدت به علته حتى لم يستطع الركوب ولكنا كنا مضطرين الى السير • وكان من وقت لآخر يغيب عن وعيه ثم يفيق ويتكلم بكلمات لا نفهمها فوضعنا على سرج الفرس عنجريبا وربطناه به ، وجعلناه يرقد عليه ولكنه كان من الضعف بحيث لم يتماسك فوقه فوقع فجأة ولم يفق بعد ذلك ثم مات فكفناه فى شـال من القطن ودفناه واخذ زكى جميع أمتعته » •

فتبين لى أن مرضه كان قد بلغ به وأن السقطة قد عجلت الموت وكانت السبب المباشر له . يا له من مسكين . جاء الينا وآماله لا تبسعه ثم تكون هذه خاتمته ؟

وذهبت فى الحال الى الخليفة فأخبرته بوفاته فقال : « انه لسعيد » ثم أرسل الى زكى أحد الملازمين لكى يأمره بالاحتفاظ بأمتعته ثم أرسلنى أنا الى المهدى لكى أخبره بوفاته . وتأثر الخليفة وقال بضع كلمات تدل على عطفه وحنانه ثم تلا صلاة الموتى .

وبعد ثلاثة أيام اقتربنا من الخرطوم وصرنا على مسيرة يوم منها . وكنا ونحن فى الطريق قد رأينا بواخر غوردون فى النهر وبدا لنا أنها أتت الينا للاستطلاع ثم عادت بدوران تطلق عيارا .

ولما جاء المساء وضربنا خيامنا جاءنى ملازم من المهدى وطلب منى أن أذهب اليه فذهبت ووجدته قاعدا مع عبد القادر وأدام مريم وكان قاضيا سابقا وله نفوذ عظيم بين قبائل النيل الأبيض . وكان حسين خليفة هناك فصرت أنا رابعهم .

فقال المهدى : « بعثت فى طلبك لكى تكتب الى غوردون أن يسلم المدينة فلا يتعرض للهزيمة . وأخبره بأنى المهدى الصادق فعليه تسليم الحامية فيسلم . وأخبره أيضا أنه اذا رفض التسليم فاننا سنقاتله جميعا ، وقل له انك ستقاتله أنت بنفسك وان النصر مضمون لنا وانك انما تقول له ذلك حقنا للدماء » .

فالتزمت الصمت حتى دعانى حسين خليفة للاجابة فقلت : « مولاى المهدى . أرجوك أن تنصت الى فانى أريد أن أكون أمينا مخلصا فلا تغضب اذا وجدت فى قولى ما يخالف رأيك . فانى اذا كتبت الى غوردون أقول له انك المهدى المنتصر فانه لا يصدقنى

وإذا هددته بأنى أقاتله بيدى فهو لا يخاف من ذلك شيئا • ولما كانت رغبتك الوحيدة هى حقن الدماء فانى أطلب منه التسليم فقط • وسأقول له انه ليس عنده من القوة ما يمكنه من قتال المهدى وانه لا أمل له فى الحصول على معونة أحد ثم أقول انى سفير الصلح بينك وبينه » •

فقال المهدى : « انا موافق على ما تقول • اذهب الآن واكتب الخطابات وفى الغد تحمل الى غوردون » •

فذهبت الى خيمتى وكانت خيمتى قد تمزقت وبليت فاهديتها الى بعض من حولى ونصبت بدلا منها بعض الملابس على عصى كنت أجلس تحتها وأتظلل بها فى النهار • اما فى الليل فكنت أنام فى الخلاء • وبحثت عن مصباح وأخذت فى كتابة الخطابات وأنا قاعد على عنجريب • وكتبت أولا بضعة سطور لغوردون باللغـة الفرنسية قلت انى قد فقدت المعجم الفرنسى لأن المهديين قد أحرقوه ولذلك فانا أكتب بالألمانية حتى يمكننى التعبير باسهاب عن أغراضى ـ وقلت انى أؤمل أن الاقيه قريبا وأنى أدعو الله لنصره • وقلت أيضا ان بعض الشايجية الذين انضموا قريبا الى راية المهدى لم يفعلوا ذلك الا خوفا على أنفسهم وأولادهم وأن صدورهم لا تحمل الحقد أو البغضاء لغوردون •

ثم كتبت خطابا مسهبا بالألمانية قلت فيه أنى سمعت من جورج كالامنتينو أنه (أى غوردون) قد غضب من تسليمى للمهدى وانى لذلك أوضح الحقائق راجيا منه أن ينظر فيها ويعتبرها ثم شرعت فى شرح التجريدات التى جردتها لمقاتلة السلطان هرون • ثم قلت انه عند بدء الثورة المهدية كان الضباط الذين فى جيشى يسمعون أخبارا عن عرابى وانه طرد الأوربيين من مصر وان هزائمى تعزى الى أنى غير مسلم • فاضطررت لذلك الى القضاء على هذه

النسمائس بالادعاء بأنى مسلم ونجحت بهذه الطريقة الى أن اصطلم جيش هكس وانقطع كل أمل فى المعونة . وأخبرته عن تناقص جيشى بالحروب المتوالية حتى صار عدده لا يبلغ بضع مئات من الجنود وأن الذخيرة نفدت أو كادت . وأن الضباط والجنود طالبونى بالتسليم فلم يكن به بعد ذلك بصفتى أوربيا وحيدا من الخضوع • وأخبرته بأن هذا التسليم كان من أشق الأعمال على • ولكننى شعرت باعتبارى ضابطا نمسويا أنى عملت عملا لا أخجل منه • ثم قلت انى بما سلكته من المسلك الحسن مع الخليفة والمهدى قد حصلت على ثقتهما حتى أذنا لى بالكتابة اليه بحجة أنى أطلب منه التسليم ، ولكننى أعرض عليه نفسى لكى أقاتل معه حتى الموت أو النصر • فاذا وافق على قرارى لكى أنضم فانا أرجو أن يكتب الى بضعة أسطر بالفرنسية بهذا المعنى • ولكن لكى تجوز الحيلة يجب أن يكتب الى بضعة سطور بالعربية أيضا ، يطلب منى فيها أن أستاذن المهدى لكى أذهب الى أم درمان للمفاوضة فى الصلح والتسليم ثم أشرت الى ولاء صالح بك وبعض المشايخ الآخرين له ولكنهم لا يمكنهم أن يفروا اليه لأنهم فى هذه الحالة يضحون أولادهم وزوجاتهم •

ثم كتبت خطابا آخر بالألمانية الى القنصل هانسل أرجوه أن يعمل كل ما فى جهده لكى أعود الى الخرطوم وانى اذا رجعت الى الخرطوم أكون ذا فائدة كبيرة لأنى أعرف مقاصد المهدى ومبلغ قوته وما الى ذلك • ولكنى أخبرته بأنه فى حالة انعقاد النية على تسليم الخرطوم لا داعى لى للهرب فقد ذاعت اشاعة بين رجال المهدى مقتضاها انه اذا لم تات معونة لغوردون فانه سيسلم . ويخشى أنه اذا سلم غوردون ووجدنى المهدى قد فررت اليه فانه يصرف غضبه كله الى لأنى عاونت عدوه عليه •

وقد بدا لى أنه من الإنصاف والعقل أن أتأكد من هذه المسألة .
وكانت الاشاعات القائلة بأن حامية الخرطوم قد سئمت القتال تروج بيننا وأنها تنوى التسليم فشددت لذلك من عزم هانسل وقويته على الثبات وأن قوات المهدى ليست بالكثيرة التى يشاع عنها . وانه يكفى الجيوش المصرية أن تثبت وتنشط حتى يحق لها النصر وحضضته على الثبات ستة أسابيع على الأقل حتى تتمكن النجدات من انجادهم (ولما عدت الى القاهرة فى سنة ١٨٩٥ علمت أن خطاباتى هذه قد بلغت الى ولاة الأمور الانجليز وطبعت مع يوميات غوردون) .

وأخبرته أن عندنا اشاعة تقول أن الباخرة الصغيرة التى أرسلت الى دنقلة قد تحطمت فى وادى غمر ولكننى لا أعرف مبلغ هذه الاشاعة من الصحة أو الكذب .

وفى صباح اليوم التالى فى ١٥ أكتوبر أخذت هذه الخطابات وذهبت الى المهدى وأخبرته بأن يرسلها مع أحد خدمى الى أم درمان . ثم ذهبت وبحثت عن الصبى مرجان فورا وكان عمره يومئذ ١٥ سنة فسلمته الخطاب أمام المهدى . وأمر المهدى واد سليمان بأن يعطيه حماراً ومقدارا من النقود . وقبل أن يغادرنا مرجان أمرته وأكدت عليه بألا يخاطب أحدا سوى غوردون والقنصل هانسل وأن يقول لهما بأنى أرغب فى الذهاب اليهما .

وفى الظهر جاءنا فرسان من بربر وأكدوا لنا رواية تحطيم الباخرة وقتل الضابط ستيوارت ومن معه . وأحضروا معهم جميع الأوراق والوثائق التى كانت فى الباخرة وأمرنى الخليفة بأن أقرأ ما هو مكتوب منها باللغات الأوربية . ووجدت بين هذه الأوراق جملة خطابات مرسلة من الخرطوم ووثائق رسمية أخرى .

وكان أهم ما في الأوراق التقرير الحربي الذي يصف الحوادث اليومية في الخرطوم • ولم يكن ممهورا بتوقيع ولكنني لم أشك في أن كاتبه هو غوردون ولم أطلع الا على جزء من المكاتبات التي لم أتمه من قراءتها قبل أن دعاني المهدي وسالني عن محتويات هذه الأوراق فأجبته بأن معظمها رسائل شخصية وأن بها تقريرا حربيا لم أفهمه . وكان بين هذه المكاتبات لسوء الحظ بعض الخطابات والتقارير المكتوبة بالعربية تمكن المهدي والخليفة أن يقفا منها على الحالة في الخرطوم • وكان بينها خطاب نصفه بالأرقام ونصفه بالحروف مرسل من غوردون الى الخديو وقد تمكن عبد الحليم أفندي الكاتب السابق في كردوفان أن يفهمه • ووجدت بين تقارير القنصليات خبر وفاة صديقي أرنست مارتو الذي مات في الخرطوم من الحمى •

وناقشني المهدي في الأورق التي نرسلها الى غوردون لكي تقنعه بأن الباخرة قد تحطمت وأن الضابط ستيوارت قد قتل وكان يعتقد أن هذا يجعل غوردون مضطرا الى التسليم • فأشرت على المهدي بأن أحسن ما يقنعه هو تقريره الحربي وأنه يجب لذلك رده اليه • وطال الجدال في هذا الموضوع وأخيرا استقر الرأي على مقترحي •

وفي مساء اليوم الثاني عاد الى مرجان الذي كنت أرسلته بخطاب الى غوردون وغيره ولكنه لم يحضر معه جوابا • فلما سألته عن سبب ذلك قال انه عندما وصـــل الى قلعة أم درمان وسلم الخطابات خرج اليه بعد مدة ضابط القلعة وأخبره بأن يعود وأنه لن يجاوب على الخطابات •

وانجذبت هذا الصبي في الحال الى المهدي فأعاد هذا الجواب ثم ذهبت الى الخليفه وأخبرته بما جرى • وفي المساء نفسه دعاني

المهدى وأمرني بان أكتب خطابا آخر وقال انه متأكد أن غوردون سيجاوب عندما يسمع بتحطيم الباخرة · وأبديت استعدادا في الحال لطاعة أمره واشار علي بان يحمل مرجان هذا الخطاب ايضا فذهبت الى مكاني على العنجريب وقعدت الى ضوء مصباح ضعيف وكتبت بضع كلمات عن فقدان الباخرة ووفاة ستيوارت وذكرت جملة أشياء كنت قد شرحتها في خطاباتي السابقة وقلت له انه اذا كان يعتقد أني أتيت أمرا يخالف واجبات الضابط وان هذا هو الذي منعه من الاجابة على خطاباتي فأنا أرجوه أن يتيح لي الفرصة لكي أدافع عن نفسي حتى يحكم علي حكما سديدا ·

وفي الصباح ذهبت مع مرجان الى المهدى · وأمر المهدى احمد واد سليمان أن يعطى مرجان حمارا وسلمه خطابي ثم سافر مرجان وجاءنا بعد يوم ومعه جواب من هانسل مكتوب بالألمانية ومعه ترجمة بالعربية وهذا نصه :

عزيزي سلاطين بك ·

لقد وصلت خطاباتك وأنا أعرض عليك أن تمضي الى طابية راغب بك (في قلعة أم درمان) وأنا ارغب في أن أخاطبك بشأن الاجراءات الخاصـــة بتخليصنا · ويمكنك أن ترجع بعد ذلك الى صديقك ·

المخلص لك

هانسـل

ولم أفهم المقصود من هذا الخطاب · هل غايته الحقيقية خدع المهدى ؟ اذ لو كانت هذه هي الغاية لكانت الصيغة العربية كافية ثم خطر ببالي انه كان يمكنه ان يوضح غرضه باللغة الألمانية ولكن لعله توقى ذلك خشية وجود أحد في معسكرنا يفهم هذه اللغة

فيغرر بي · واعتبرت الفاظ الخطاب فوجدته يقصد أو يلمح الى انضمامه الينا · وقد كانت راجت بيننا اشاعات عن خوفه من سقوط المدينة ورغبته هو وسائر الضباط النمسويين فى التسليم للمهدى · ولكن لم يكن من الممكن أن يبت الانسان فى هذه النية · ثم قوله : « ويمكنك بعد ذلك أن ترجع الى صديقك » هل يقصد به رجوعى الى المهدى أو رجوعى الى غوردون والحق انى قد غطى على المعنى ولكنه كشف لى بعد مدة قليلة ·

وأخذت الخطاب فى الحال الى المهـدى وأخبرته بأن النص العربى يوافق النص الألمانى · ولما أتم قراءته سألنى هل أرغب فى الذهاب اليه فاجبت بأنى مستعد لتلبية أمره وأنى على الدوام طوع اشارته ·

فقال لى : « انى أخشى أنك اذا ذهبت الى أم درمان ولقيت القنصل يقبض عليك غوردون ويقتلك لأنى لا أعرف السبب فى عدم كتابته اليك لو كان يحسن بك الظن » ·

فقلت : « لست أعرف سبب سكوته عن الرد وربما كان عنده من الأوامر ما يمنعه من مخاطبة العدو · ولكنى أظن أنه يمكن تسوية الحالة عندما التقى بـ « هانسل » وأنت تقول ان غوردون ربما يقبض على ولكنى لا أخشى ذلك ولو حـدث هذا لأمكنك أن تخلصنى · أما أنه يقتلنى فهذا ما لن يحدث » ·

فقال المهدى : « اذن يمكنك أن تسـتعد للسـفر وتنتظر أوامرى » ·

وكنت عند ذهابى الى عشة المهدى قد سمعت بمجىء لبتون بك من بحر الغزال · وعند رجوعى الآن ذهبت اليه ووجدته واقفا بباب

الخليفة ينتظر الاذن بدخوله ، ولم يكن من القواعد المرعية أن يخاطب الانسان أحدا لم يحصل بعد على عفو المهدى فقال لى انه يؤمل الآمل كله أن أذهب الى الخرطوم . وقال أيضا انه ترك خدمه وأتباعه على مسيرة ساعات من المعسكر وطلب منى أن أستأذن الخليفة فى مجيئهم . وبعد دقائق دعاه الخليفة فعفا عنه واذن له باحضار أتباعه وأخبره انه سيقابل المهدى .

وذهبت أنا الى مكانى وقعدت على العنجريب وأنا فى أشد القلق إنتظر الأوامر لكى أذهب الى أم درمان . وكان يخطر ببالى وأنا قاعد أن المهدى ربما قد غير فكره ورجع عن عزمه بشأن سفرى : وأخيرا جاءنى خادم يخبرنى أن الخليفة أرسل ملازميه فى طلبى . فلما نهضت أخبرنى الملازم أن أسير معه الى عشة يعقوب حيث كان أخوه الخليفة . فسارعت الى عمامتى فتعممت واحتزمت وسرت وراءه ، ولكن لما بلغنا يعقوب قيل لنا ان الخليفة قد غادرها الى عشة أبو انجه . وداخلنى شك فى هذا التطواف فى الليل اذ لم تكن هذه عادتنا وكنت أعرف مقدار ما عند هؤلاء الناس من المكر والخديعة فاستعددت لأى حادث . ولما بلغنا زريبة أبو انجه أذن لنا بالدخول . وكانت هذه الزريبة واسعة وكان بها مظلات من قماش كل منها قائمة على عمود من خشب وكل واحدة منفصلة عن الأخرى بحائط من الذرة . وذهبنا فى ضوء مصباح الى احدى هذه المظلات فوجدت يعقوب وأبو انجه وفضل المولى وزكى طومال والحاج زبير قاعدين فى حلقة يتكلمون بجد ونشاط . وكان وراءهم بضعة رجال قد وقفوا وهم مسلحون ولكنى لم أجد أثرا للخليفة الذى قيل لى إنه يستدعينى وتأكدت عندئذ أن هناك مؤامرة على . وتقدم الملازم وخاطب يعقوب ثم أمرت بالتقدم وقعدت بين الحاج زبير وفضل المولى مواجها لأبو انجه .

فخاطبني أبو انجه قائلا : « لقد وعدت المهدى يا عبد القادر أن تخلص له » • وواجب عليك أن تفي بوعدك • ثم عليك أن تطيع الأوامر وان كان فيها ما يؤلمك • أليس كذلك ؟ » •

فقلت : « هذا حق • وأنت يا أبو انجه اذا سلمت لي أمرا من المهدى أو من الخليفة تجدني مطيعا » •

فقال : « اني أمرت بالقبض عليك ولكن لا أعرف السبب » وعندما قال هذا استل الحاج زبير سيفي وكنت قد وضعته على ركبتي كما هي العادة ثم سلمه لزكي طومال وقبض بكلتا يديه على ذراعي اليمنى •

فقلت للحاج زبير : « لم آت هنا لكي أقاتل فعلام تقبض على ذراعي ولكن افعل ما أمرت به يا أبو انجه » •

وهكذا قضى علي بما كنت أقضي به على غيري ، ثم وقف أبو انجه والحاج زبير وثقل ذراعي • ثم أشار أبو انجه الى مظلة في الظلام وقال : « اذهب الى هذه المظلة » •

فرافقني السجان ومعه ثمانية آخرون الى المظلة ثم طلب مني أن أقعد على الأرض وأحضرت لي السلاسل • وقعدت فوضع في كل من ساقي حلقة طرقت حتى تضام طرفاها • ثم وضع حول عنقي حلقة أخرى وبها سلسلة كانت تعوق حركة عنقي • وتحملت كل ذلك وأنا صامت • ثم غادر الحاج زبير وقال لي الحارسان اللذان تركا معي أن أقعد على الحصير الذي بجانبي •

والآن بدأت أفكر وكنت ألوم نفسي على أني لم أجازف وأفر الى الخرطوم على جوادي • ولكن هل كان غوردون يقبلني وقد ضربت

بعيدا عن الخطر كما قال المهدى ؟ ولكن ما هو حظى الآن ؟ هل هو حظ محمد باشا سعيد وعلى بك شريف ؟ ولم تكن عادتى التفكير فى همومى الشخصية وتذكرت قول الماذبو : « كن مطيعا وصبورا • الى عمره طويل بيشوف كثير » • وقد مارست الطاعة والآن يجب أن أمارس الصبر • أما العمر الطويل ففى يد الله وحده •

وبعد ساعة لم أنمها بالضرورة رأيت عددا من الملازمين يقتربون منى ومعهم المصابيح وعندما اقتربوا رأيت بينهم الخليفة عبد الله فوقفت وانتظرت •

ورآنى واقفا أمامه فقال : يا عبد القـادر هل سلمت أمرك للقدر ؟

فقلت بلهجة الاطمئنان : مذ كنت طفلا • لقد اعتدت الطاعة والآن يجب أن أطيع أردت أو لم أرد •

فقال : « ان صداقتك لصالح واد الملك وخطاباتك لغوردون قد جعلتنا نشتبه فى أمرك • وهذا هو ما الجانى الى أن أجبرك على أن تسير فى الطريق القويم •

فقلت : « اننى لم أخف صداقتى مع صالح واد الملك • انه صديقى وأظن أنه مخلص لك • أما خطاباتى لغوردون فقد أمرنى المهدى أن أكتبها » •

فقال الخليفة : هل أمرك بأن تكتب ما كتبت ؟

فقلت : « لقد كتبت ما أمرنى به المهدى ولا يمكن لأحد أن يعرف محتويات هذه الخطابات سواى أنا ومن كتبت اليه • وكل ما أرجوه يا مولاى هو العدل وألا تصغى لأقوال الدساسين » •

ثم غادرني فحاولت أن أنام ولكن أعصابي كانت هائجة . فكانت الخواطر المختلفة تمر برأسي . وكان الحديد حول عنقي وساقي يؤلمني أشد الألم فلم يكن النوم مستطاعا . وما كدت أغفي تلك الليلة برهة قصيرة . وفي شروق الشمس جاءني أبو انجه ومعه خدم يحملون طعاما . وقعد على الحصير الى جانبي ووضع بيننا الطعام . وكان الطعام فاخرا يحتوى على فراريج ورز ولبن وعسل ولحم مشوى وعصيدة . ولكني قلت له أنه ليست عندي شهوة للطعام فقال لي : « أظنك خائفا يا عبد القادر ولهذا لا يمكنك أن تأكل » فقلت : « كلا . لست أخاف شيئا . وانما لا أشتهي الطعام الآن . ومع ذلك سآكل شيئا حتى لا تستاء » . ثم بلعت لقمتين وكان أبو انجه يتودد الى ويظهر لي أني ضيفه المكرم .

ثم قال لي : « لقد استاء الخليفة لأنك لم تظهر له خضوعا وقال انك عنيد . وان هذا في رأيه هو السبب في عدم خوفك » .

فقلت : « هل كان يجب على أن ألقي نفسي على قدميه وأطلب منه العفو عن جرائم لم أرتكبها . أنا في يديه فليفعل بي ما يشاء » .

فقال : « غدا سنرتحل ونسير نحو الخرطوم ونضيق الحصار على المدينة ثم نهجم هجمة واحدة وسأطلب من الخليفة أن تبقى معي وسيكون هذا أهون عليك من ذهابك الى السجن » .

فشكرته وغادرني .

وقضيت اليوم كله وأنا وحدي . وكنت أؤدي الصلاة بمنابة أمام الحرس وغيرهم وكان في يدي مسبحة أسبح بها كما هو الشأن بين المسلمين الطيبين . ولكن الحقيقة أنني كنت أكرر عليها صلاة النصارى . (أبانا الذي في السموات) .

وكنت أرى على مسافة مني خيولى وخدمي وسائر أمتعتي ·
وجاء أحد خدمي الى وأخبرني بانه أمر بأن يلتحق بأبى انجه

وفى بكور اليوم التالى قرعت الطبول للتقدم فقوضت الخيام وحملت الجمال وتحرك المعسكر بأجمعه · وكان الحديد فى ساقى يمنعنى من المشى · فأحضروا لى حمارا وكانت السلسلة المربوطة بها الحلقة التى حول عنقى طويلة تحتوى عى ٨٣ حلقة كنت أسلى نفسى بعدها وأطويها طيات حول جسمى وحملت الى ظهر الحمار يسندنى من كل جانب رجل حتى لا أقع وكنت وأنا سائر يمر بى أصدقائى فيتحسرون ولا يجسرون على مخاطبتى ووقفنا بعد الظهر على ربوة أمكنتنا من رؤية نخيل الخرطوم فشعرت بالشوق الشديد يغالبنى للانضمام الى الحامية ·

ثم حططنا وأمرنا بضرب خيامنــا مؤقتــا تحت امرة الخليفة عبد الله · أما الأمراء الآخرون فقد ذهب كل منهم بجنده واختار مكانا لمسكره · وكنت فى هذا الوقت قد شعرت بالجوع الشديد واشتقت الى شيء من الطعام الذى قد قدمه لى أبو انجه فى الأمس · ولكن أبا انجه كان قد التحق بالخليفة وكان قد نسينى

وحدث أن زوجة أحد الحراس اهتدت اليه وأحضرت له خبزا من الذرة فأكلت معه وفى الصباح استأنفنا مسيرنا وبقينا نمشى نحو ساعة ثم حططنا ثانيا فى المكان الذى اختير نهائيا للمعسكر ·

وكان أبو انجه قد رتب كل شيء لكى أبقى معه ولا أرسل الى السجن فنصبت لى خيمة ممزقة قديمة وضع حولها زريبة من الشوك فقعدت تحت هذه الخيمة ووضع على بابها ديسة من الشوك يليها الحرس ·

وأمر المهدى الآن بتضييق الحصار . وفى المساء أرسل عددا من الأمراء الى الضفة الشرقية لمونة واد النجومى وأبى حرجه وطلب من جميع أهالى هذه الناحية أن ينضموا الى المحاصرين . وأمر أبو انجه وفضل المولى بأن يذهبا الى قلعة أم درمان لحصارها وكانت تقع على بعد ٤٠٠ متر من النهر من الضفة الغربية وكان يدافع عنها فرج الله باشا وهو ضابط سودانى ترقى من رتبة كابتن فى عام واحد الى أن صار قائدا للقلعة . وكان الذى رقاه بهذه السرعة غوردون . وتمكن أبو انجه من أن يحفر الخنادق بين القلعة والنهر ويضع فيها جنوده على الرغم من اطلاق النار عليه من البواخر والقلعة . بل تمكن أبو انجه من أن يغرق احدى هذه البواخر وهى الباخرة « حسينية » بواسطة مدفع سدد مرماه اليها . ولكن البحارة فروا الى الخرطوم .

وأهمل أمرى مدة الحصار وكان حرسى يغير كل يوم وكانت معاملتهم تختلف . وكانت الرقابة تشتد على اذ كان الحرس مؤلفا من عبيد أسرى ولكن اذا كانوا جنودا يعرفوننى فاننى كنت الاقى منهم بعض الحرية وكانوا يؤدون لى الخدمات الصغيرة ولكنهم كانوا يمنعوننى من مخاطبة أى انسان . وكان طعامى سيئا وكان أبو انجه مشتغلا بالحصار فبقيت أنا مدة غيابه تحت رحمة زوجاته وكان قد أمرهن باطعامى .

وحدث فى احدى المرات أن حارسى كان أحد جنودى القدماء فبعثته برسالة الى رئيسة زوجات أبى انجه أشكو اليها عدم اطعامى مدة يومين : فأرسلت الى جوابها تقول : « هل يظن عبد القادر أننا نسمنه هنا بينما عمه غوردون باشا لا عمل له الا فى القاء القنابل على زوجنا الذى ربما يقتل بسببه » .

وقد كانت هذه المرأة مصيبة فى قولهـــا اذا اعتبرت وجهة نظرها ٠

وكان يسمح احيانا لبعض اليونان بالمجيء الى ومخاطبتى وكانوا يخبروننى بما يجد من الأخبار ٠

وكنا عندما حططنا رحالنا هنا قد قبض على لبتون بك وقيده بالسلاسل بتهمة محاولة الانضمام الى غوردون ٠ ولما فتشت أمتعته وجدت فيها وثيقة وقع عليها الضابط مؤداها أنه اضطر الى تسليم المديرية واخذت زوجته وابنته البالغة من العمر خمس سنوات الى بيت المال ٠ وكانت زوجته زنجية فى خدمة « روسيت » القنصل الألمانى من الخرطوم ولما عين مديرا فى دارفور ذهبت معه ٠ فلما مات فى الفاشر التحقت بلبتون بك وسافرت معه الى بحر الغزال ٠ وأمر الخليفة بتصفية جميع ما يمتلكـه لبتون ولكنه أذن لزوجـة لبتون وابنته بأن يكون معهما خادم ٠

وفى أحد الأيام جاءنى جورجى كالامنتينو وأخبرنى بأن الجيش الانجليزى بقيادة ولسون يتقدم نحو دنقلة ٠ ولكنه لا يزال فى صعيد مصر وان كانت الطلائع قد بلغت دنقلة ٠

وكان غوردون بعد أن أذاع منشور اخلاء السودان قد افهم أهالى الخرطوم أنه سيجيء اليهم جيش لانجادهم ٠ وتمكن من بث روح الشجاعة والرجاء فى جنود الحامية ، ولكن بقى الشك فى ميعاد مجيء الجيش وهل يأتى قبل فوات الفرصة ؟

وفى أحد الأيام جاءنى ملازم من قبل الخليفة وطوق عنقى وساقى بملفات أخرى غير ما كان على واضاف اليها قضيبا من حديد وظننت أن الغرض من ذلك اذلالى ٠ وكنت لا أقوى قبلا على النهوض

لثقل ما احمله من القيود فلم تزد اضافة هذه القيود الجديدة شيئا لانى كنت راقدا طول الوقت ٠

ومضى اليوم التالى دون ان يحدث فيه شيء ٠ وكنت أسمع من وقت لآخر فرقعة العيارات بين المحصورين والمحاصرين ولكن اليونان الذين كانوا يزودوننى قبلا من الأخبار منعوا الآن من مخاطبتى فبقيت لذلك فى جهل من كل ما يجرى حولى ٠

وفى احدى الليالى بعد غروب الشمس بنحو أربع ساعات عندما كان النوم يتسلل إلى أعضائى وينسينى ما أنا فيه أمرنى الحارس بأن أنهض فى الحال فوقفت ورأيت ملازمى الخليفة اللذين أخبرونى بأن الخليفة فى أثرهم قادم الى ٠ ثم رأيت جماعة تحمل مصابيح فأخذت أسائل نفسى : لم يأتى الى الخليفة الآن ؟ ٠

ولما اقترب الخليفة منى قال لى بلهجة الملاطفة : « يا عبد القادر اقعد » ٠

ثم بسط له خدمه فروته فقعد الى جانبى وقال : « هنا ورقة أرغب فى أن تخبرنى عما فيها لكى تثبت لى امانتك » فأخذت الورقة وقلت : « سأفعل يا مولاى » ٠

وكانت الورقة لا تزيد فى الحجم على نصف ورقة سيجارة ، وقد كتبت من الجانبين وكان مكتوبا عليها باللغة الفرنسية ما يلى :

« عندى عشرة آلاف رجل تقريبـــا ٠ ويمكننى الدفاع عن الخرطوم الى آخر شهر يناير ٠ والياس باشا كتب الى ٠ وقد أجبر

على ذلك . انه رجل مسن وغير كاف . أنا أغفر له . جرب محمد أبو حرجه أو غن لنا اغنية أخرى » .

« غوردون »

ولم يكن هناك ما يشير الى الشخص المرسلة اليه هذه الرسالة . وكنت متأكدا بانه ليس في معسكرنا من يعرف الفرنسية وهذا هو سبب مجيء الخليفة الى .

فقلت : « الرسالة من غوردون وهي مكتوبة بخطه بلغة جفرية لا يمكنني أن أفهمها » .

فقال الخليفة وقد بدا عليه الغضب : « ماذا تقول ؟ أوضح ما تقول » .

فقلت : « هنا كلمات لا أدرك معناها . فان لكل كلمة معنى خاصا ولا يمكن أن يفهمها الا من اعتاد تفسير الجفر . ولو سألت أحدا من الموظفين السابقين لأكد لك صحة قولي » .

فهاج الخليفة وصاح بي غاضبا : « أليس في الرسالة اسم الياس باشا واسم محمد أبو حرجه » .

فقلت بلهجة التهكم : « لقد صدق من أخبرك بهذا فاني يمكنني أن أقرأ اسميهما ولكن لا أفهم شيئا عما يقصد من ذكرهما . ولعل الذي أخبرك بهذين الاسمين يمكنه أن يفسر سائر ما في الرسالة . ثم اني أجد فيها أيضا رقم ١٠٠٠٠ ولكن لا أعرف هل المقصود منه عدد الجنود أو غير ذلك » .

فاخذ الورقة من يدى ونهض وهو يقول : « انى مهما عجزت عما في هذه الورقة فان غوردون سـيـنهزم وستسقط الخرطوم » ثم تركنى مع الحرس ٠

والآن عرفت أن غوردون يقول أنه يمكنه الثبات الى آخر يناير وكنا في أواخر ديسمبر فهل يمكن انقاذ البلدة قبل فوات الفرصة ؟ ولكن ماذا يعنينى من كل ذلك ؟ هاأنذا مقيد بالسلاسل ولست أقدر على عمل شيء يغير مجرى الحوادث ٠

وبلغنا أول يناير الذى يقول غوردون أنه يمكنه ان يثبت فيه الى آخره وأخذت أشعر أن الساعة الحاسمة تقترب ٠

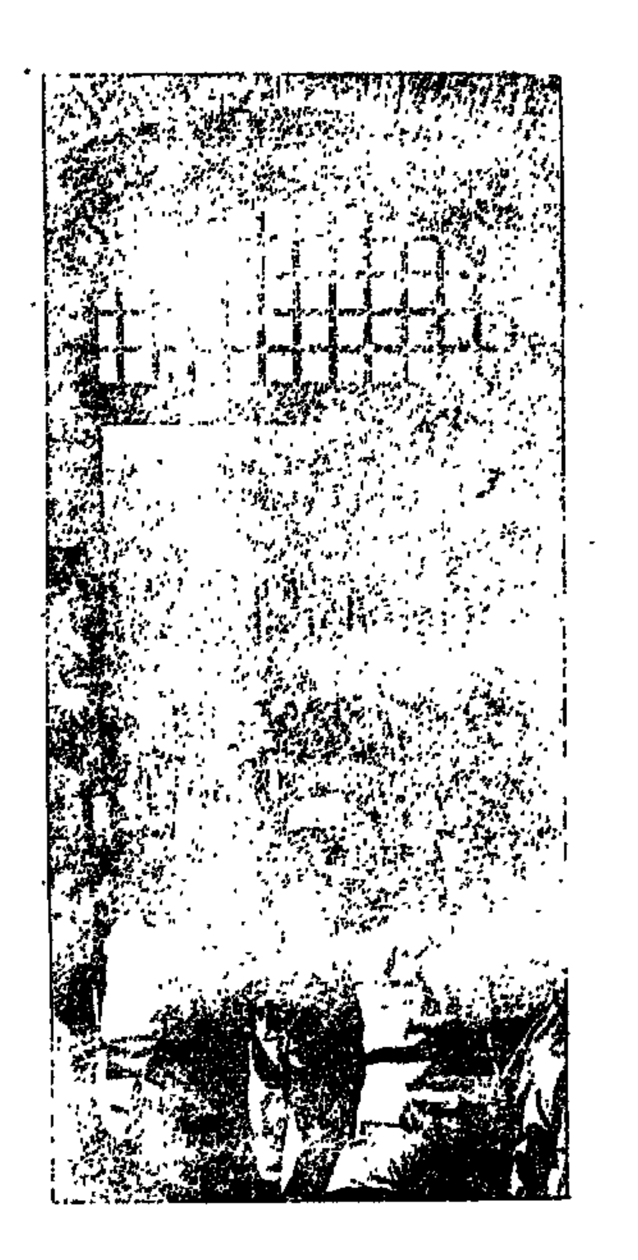
واشـــتد القتال بين قلعة أم درمان وبين الدراويش وكان فرج الله باشا يجهد جهده وحاول على الرغم من قلة عدد الحامية أن يفتق فتقا في القوة المحاصرة ويخرج ولكنه رد الى القلعة ثانيا ٠ وفقدت مؤونة القلعة وشرع عندئذ في مفاوضات التسليم ٠ وكان فرج الله قد خاطب غوردون بالرايات عن التعليمات الواجب اتباعها فأذن له غوردون في التسليم اذا لم يكن قادرا على الثبات ٠ وعفا المهدى عن جميع رجال الحامية ولما خرجت الحامية دخل رجال المهدى ولكنهم خرجوا في الحال لأن مدفعية الخرطوم أمطرتهم وابلا من القنابل وكان في القلعة مدفعان ولكن مداهما أقصر من المسافة التى بينهما وبين البلدة وحدث التسليم في ١٥ يناير سنة ١٨٨٥ ٠

ووقع أن أم درمان سقطت فان المهدى لم يرســل أى أمداد للمحاصرين في شرقى الخرطوم وجنوبها لأنه كان يعرف أن القوة المحاصرة تكفى للمهمة المنتدبة لها وكان كما كانت حامية الخرطوم كلاهما ينظر بعين القلق الشديد الى الشمال حيث تكون الكلمة الفاصلة ٠

وكان غوردون باشا قد أرسل الى متمه خمس بواخر بقيادة خشم الموس وعبد الحميد واد محمد لكي تنتظر مجيء الانكليز وتجيء بهم الى الخرطوم بأسرع ما يمكنها وكان غوردون ينتظر مجيئهم بغاية القلق وكان قد خاطر بكل شيء على مجيء القوة الانجليزية ولكن كل انسان كان يجهل ما تم في أمرها .

وأذن غوردون في أوائل الشهر لجملة عائلات بمبارحة الخرطوم ولم يكن الى هذا الوقت يجيز لنفسه طردهم ولذلك اضطر الى توزيع المؤونة عليهم فكان يوزع مئات الأوقيات من البسكويت والذرة على الفقراء كل يوم . وهو على هذا العمل يستحق مكافأة الله ولكنه في الوقت نفسه قضى على نفسه وعلى رجاله . فقد نفد الزاد وصار كل انســــان يبكي ويطلب الخبز . وعاد الآن الى اغراء الأهالي بالخروج من المدينة وهو لو كان قد فعل ذلك منذ شهرين أو ثلاثة لكان عنده من المؤونة ما يكفي رجاله مدة طويلة . ولكنه كان يعتمد على مجيء الجيش وكان لذلك لا يعنى بادخار المؤونة فهل كان يعتقد انه لا يمكن لجيش انجليزي أن يتأخر عن ميعاده .

وبعد ستة أيام من سقوط أم درمان سمعت عويلا في المعسكر لم أسمع مثله منذ خروجي من دارفور . وكان المهدي يمنع الناس من اظهار الحزن على الموتى والقتلى لأنهم في مذهبه يدخلون النعيم . ففهمت أنه لابد أن قد حدث شيء غير عادي حتى يخالف الناس مذهب المهدي . وكان الحراس المكلفون بحراستي يتطلعون لمعرفة سبب هذا العويل وقد تركوني لهذه الغاية . وعادوا بعد قليل يقولون ان طلائع الجيش الانجليزي التقت بالقوات المجموعة من البرابرة والجعليين والدغيم وكنانة الذين يقودهم موسى واد حلو وهزمتهم في أبو طلح (أبو كليه) وقد هلك كثيرون ولم ينج الا عدد قليل عادوا وأكثرهم به جراحات وقد فني الدغيم وكنانة تقريبا وقتل موسى واد حلو وعدد من الأمراء أيضا .



فيا للبشرى لقد كان قلبي يثب وثوبا لهذه الأخبار . وقلت لنفسي لقد جاء الرجاء بعد هذه السنوات الطويلة . وأمر المهدي والخليفة بأن يكف الناس عن العويل ولكنه استمر مع ذلك عدة ساعات وأرسلت الأوامر لنور أنجره بأن يقوم الى متمه .

وبعد يومين أو ثلاثة جاءتنا أخبار هزيمة أخرى في أبي كر وهزيمة أخرى أيضا في قبة « جوبات » وتيار قلمة على النيل قريبة من متمة .

وعقد المهدي وأمراؤه مجلسا للتشاور . فقد رأوا أن كل ما جنوه من الانتصارات السابقة قد بات في خطر حتى أن المحاصرين للخرطوم خافوا وارتدوا من الحصار . وصار القضاء على المهدي مسألة يمكن انهاؤها في بضعة أيام . فيجب عليهم أن يخاطروا بكل شيء . فأرسلت الأوامر للمحاصرين بأن يستعدوا الاستعداد التام للهجمة الأخيرة .

ثم لم لم تأت البواخر التي تحمل الجنود الانجليزية ؟ فهل كان قواد هذا الجيش يجهلون أن حياة جميع من في الخرطوم قد باتت في خطر . ولقد انتظرنا طويلا لكي نسمع صفير البواخر يؤذن بمقدم الانجليز ودوي مدافعهم فوق خنادق الدراويش ولكن انتظارنا كان عبثا . أجل كان عبثا . ولم نكن نفهم علة هذا التأخير أو معناه وكنا نتساءل هل طرأ عائق جديد ؟

وكان يوم الأحد ١٥ يناير . وهو يوم لن أنساه في حياتي . ففي مســــاء ذلك اليوم عبر المهدي وخلفاؤه في زورق الى الشط الشرقي حيث كان رجالهم مجتمعين للقتال . وكان قد عرف أن النية قد عقدت على مهاجمة الخرطوم في صباح اليوم التالي وذهب

المهدى لكى يحمس رجاله ويذكرهم بالجهاد والقتال الى الموت . وكنت أدعو الله أن يكون غوردون قد عرف هذه النية واستعد لها .

وفى هذا الوقت أمر المهدى والخلفاء أتباعهم بالا يهتفوا ولا يصيحوا حتى لا تدخل الشبهه فى قلوب رجال الحامية الذين انهكهم الجوع والكلال . وخطبهم المهدى وهم سكون ثم عادوا الى الشط الغربى بعد أن خلف الخليفة شريف الذى رجاه أن يبقى مع المجاهدين .

وكانت تلك الليلة أحفل ليالى فى قلق النفس وثورتها . فقد كنت أقول لنفسى لو أن الحامية تثبت هذه الليلة وتصد المغيرين . اذن لن أخشى شيئا على الخرطوم . أما اذا انهزمت فاننا نفقد كل شىء فى السودان . وشعرت باعياء فى الفجر وبدأ النوم ينسل الى واذا بى أسمع ضجيج المدافع والبنادق من آونة لأخرى . ثم شمل السكون مرة أخرى . ولم يكن النور قد قشع الظلام بعد حتى لم أكن أتبين الأشياء . فما معنى كل هذا ؟ ضجيج المدافع والبنادق ثم سكوت تام ؟

ثم ظهر قرص الشمس أحمر فى الأفق . فتساءلت ماذا يأتينا به هذا النهار ؟ وقعدت أنتظر وأنا فى أشد القلق وهياج النفس . ثم سمعت أصوات الابتهاج والنصر من بعيد وتركنا الحرس وجروا لكى يعرفوا سبب هذه الأصوات . وبعد دقائق عادوا الينا وأخبرونا بأن الخرطوم أخذت عنوة وصارت الآن فى أيدى الدراويش وبقى لى شك اتعلل به هل تكون هذه الأخبار كاذبة ؟!

ثم زحفت ونهضت واخذت أنظر فى المعسكر فوجدت جمعا غفيرا من الناس قد تألبوا حول مكان المهدى والخليفة ثم رأيت هؤلاء

الناس يسيرون نحوي . وكان أمامهم ثلاثة من الزنوج يدعى أحدهم « شطة » وكان سابقا أحد الحرس العبيد عند ضيف الله . وكان في يده قماش مشرب بالدم قد لف على شيء وكان وراءه جمهور من الناس يبكين . واقترب العبيد الثلاثة مني ثم وقفوا وهم يشيرون اشارات الاهانة والسباب . ثم حل « شطة » القماش وأخرج لي رأس غوردون .

فدار رأسي وشعرت كأن قلبي قد توقف . ولكني جمعت كل قواي وضبطت نفسي ونظرت الى هذا المنظر المفزع وأنا صامت . وكانت عينا غوردون الزرقاوان قد فتحتا الى النصف . أما الفم فكان في هيئته العادية . وكان شعر رأسه وعارضيه قد علاهما الشيب .

وقال « شطة » وهو ممسك بالرأس أمامي : « أليس هذا رأس عمك الكافر ؟ »

فقلت بهدوء : « وما في ذلك . جندي شجاع وقع وهو يقاتل . انه لسعيد اذ قد انتهت آلامه » .

فقال شطة : « ها . ها . لا تزال تمدح الكافر . ولكنك سترى النتيجة » .

ثم تركوني وذهبوا الى المهدي ومعهم اشارة النصر المفزعة هذه ووراءهم جمهور يبكي .

ثم عدت الى خيمتي وقد ماتت نفسي في جسمي . أجل لقد سقطت الخرطوم ومات غوردون . وهذا اذن هو نهاية حياة هذا

البطل الذى وقع وسيفه فى يده · هذا الرجل الذى لم يكن يعرف الخوف والذى كان له من الخصال ما أذاع شهرته فى العالم أجمع ·

فما هى فائدة الجيش الانجليزى الآن ؟ لقد تأخر فى متمة وكان فى تأخيره هلاك الخرطوم · لقد وصلت طلائع الانجليز الى جوبات على النيل فى ٢٠ يناير ووصلت بواخر غوردون الأربع فى ٢١ منه · فلماذا لم يرسلوا على هذه البواخر جنودا الى الخرطوم مهما كان عددهم قليلا · فلو أن الحامية رأت عددا من هؤلاء الجنود لامتلأت قلوبهم حماسة وقوة ورجاء ولاستطاعوا أن يصمدوا للعدو · وكان السكان الذين فقدوا كل ما عندهم من ثقة فى وعود غوردون تعاودهم ثقة جديدة ويحاربون الى صف الحامية لتأكدهم بأن القوة الانجليزية توشك أن تنجدهم ·

وقد جهد غوردون جهده لكى يثبت وقد أعلن أن جيشـــا انجليزيا قادم اليـــه وطبع نقودا من الورق وكان يوزع الأوسمة والرتب كل يوم بلا حساب لكى يشجع الجنود ولما أخذت الأحوال تسوء واليأس يحل كان هو يجاهد فى تحميس الجنود وترجيتهم ولكن اليأس قلب الرجاء · فلم يعودوا يروا فائدة فى هذه الأوسمة والرتب · أما نقود الورق فربما كان هناك من يشترى ورق الجنيه بقرشين آملا أملا ضعيفا فى الربح اذا جاءت المصادفات بانتصار للحكومة ·

ولم يكن أحد يصـــدق وعود غوردون الآن . ولو أن باخرة واحدة حملت بعض الجنود وجاءت بهم الى الخرطوم وأخبرتهم بأن الانجليز انتصروا لامتلأت قلوب السكان والجنود حماسة وصدقوا وعود غوردون وكان عندئذ يمكن لضابط انجليزى أن يرى الجزء الذى دمره فيضان النيل من حصون المدينة وكان فى الحال يأمر

باصلاحه · ولكن ماذا كان يمكن أن يصنعه غوردون وهو وحيد وليس معه مساعد أوربى ·

ولم يكن فى مستطاعه أن ينظر فى كل شىء كما أنه لم تكن بين يديه الوسائل التى تمكنه من التحقق من مرءوسيه هل ينفذون أوامره أم لا ؟ وكيف كان يمكن لقائد أن ينتظر من جنوده القيام بتنفيذ أوامره اذا كان غير قادر على أن يضمن لهم قوتهم ؟

وفى الليلة المشئومة ليلة ٢٥ يناير علم غوردون بأن المهديين سيهجمون على المدينة فأرسل أوامره يخبر القواد هذا الخبر · ولعله كان يشك فى صدق نيتهم فى الهجوم فى بكور اليوم التالى · وفى الوقت الذى عبر فيه المهدى الى الضفة الشرقية كان غوردون قد أمر باطلاق بعض الأسهم النارية فى الفضاء وكانت ألوانها كثيرة مختلفة وكانت الموسيقى تعزف فى الوقت نفسه والغرض من كل ذلك تحميس الجنود الذين أضناهم الجوع حتى يثوب اليهم نشاطهم وانتهت الأسهم النارية وسكتت الموسيقى ثم نامت الخرطوم وشرع العدو يزحف فى حذر وصمت · وكان رجال العدو يعرفون أماكن الضعف فى الحصون وكانوا يعرفون أن الجنود النظاميين قد وضعوا فى الأماكن القوية فى حين أن الخندق المتهدم القريب من النيل الأبيض وأيضا مصطبة الخندق لم يكن يحميها سوى الأهالى الضعاف ·

وكان هذا الجزء من الحصون فى حالة سيئة لأن بناءه لم يتم وكان كل يوم يزداد الجزء المعرض منه على النيل · واجتمع معظم الدراويش عند هذه النقطة وكانت سائر قواتهم تواجه سائر الحصون · وشرع فى الهجوم عند اشارة متفق عليها · وفر فى الحال جميع من كانوا عند النيل الأبيض بعد أن أطلقوا بضع

طلقات • وبينما كان الجنود يشتغلون فى صـــد هجوم القوات الأخرى المهاجمة كان الآن الدراويش يدخلون من جهة النيل الأبيض ويخوضون فى الماء والوحل الى ركبهم • ثم ينصبون فى الشوارع • ودهش الجنود اذ رأوا الدراويش يهاجمونهم من خلف •

ولم يقاوم الجنود عندئذ الا مقاومة ضعيفة ووضع كل منهم سلاحه فى الحال • ثم قتل المصريون أما السود فلم يقتل منهم الا عدد قليل . ولم تبلغ خسارة العدو ثمانين أو مائة رجل . ثم فتح الدراويش أبواب المدينة فخرج من تبقى من الجنود الى معسكر المهدى •

ولما دخل الدراويش من جهة النيل الأبيض تصايحوا وهم يعدون فى المدينة « للسراية • للكنيسة » لأنهم كانوا يعتقدون أنهم سيجدون هناك الأموال المذخرة كما يجدون غوردون الذى دافعهم طويلا عن المدينة وعكس عليهم أغراضهم ، وكان القادة فى هذا الهجوم رجال مكين واد النور الذى قتل بعد ذلك فى معركة توسكى وهو ينتمى الى قبيلة العراخين • وكان قائدهم السابق شفيق مكين الذى كان يدعى عبد الله واد النور وقد قتل فى حصار الخرطوم وكان رجاله الآن يرغبون فى الثأر له ، وكان عدد كبير أيضا من رجال أبو حرجة يســـتبقون نحو السراى وكانوا يرغبون فى الانتقـام لهزيمتهم فى بورى حيث هزمهم غوردون •

ولما دخلوا السراى وجدوا الخدم فى قبو السراى فقتلوهم فى الحال وكان غوردون واقفا على السلم المؤدى الى غرفة الجلوس فقال لهم عندما رآهم : « أين مولاكم المهدى ؟ » •

ولكنهم لم يكترثوا لهذا السؤال وتقدم أولهم وطعن غوردون بحربته فوقع على وجهه دون أن ينطق بكلمة • فأخذ القتلة يجرونه

على السلالم الى باب السراى وهنا أخذوا رأسه وأرسلوه الى المهدى فى أم درمان . أما الجسم فقد ترك لرحمة المتعصبين . وكانت آلاف من هذه الخلائق الوحشية تمر على الجسم ويغمس كل منهم حربته فى دمه . فلم يمض زمن حتى صار الجسم قطعة مشوهة من اللحم وقد بقيت بقع الدم مدة طويلة فى المكان الذى قتل فيه غوردون شاهدة على ارتكاب هذه الفظيعة بل كانت ترى أيضا على درجات السلم مدة عدة أسابيع ولم تغسل الا حين قرر الخليفة أن يتخذ هذه السراى مأوى لزوجاته السابقات واللاحقات .

ولما أحضر رأس غوردون للمهدى قال انه كان يود أن يحضر اليه غوردون حيا لأنه كان ينوى أن يدخله فى الاسلام ثم يقايض به الحكومة الانجليزية على عرابى باشا لأنه كان يأمل أن يساعده عرابى فى فتح مصر . واعتقادى أن المهدى كان ينافق فى تأسفه هذا على قتل غوردون لأنه لو كان يرغب حقيقة فى الابقاء على حياته لما خالف أمره أحد .

وقد فعل غوردون كل ما فى استطاعته لكى يقى حياة الأوربيين الذين كانوا فى الخرطوم فقد أذن للضابط استيورت مع بعض القناصل وعدد كبير من الأوربيين فى السفر الى دنقلة ولكن بحارة الباخرة « عباس » كانوا غير كفاة وكانوا أيضا مستائين فصدموا الباخرة فى الشلالات فوقع الضابط ستيورات ومن معه فريسة للغدر الذى قضى عليهم .

وكان غوردون يرغب فى حرب اليونان فسلمهم باخرة وتعلل فى الظاهر بأنهم يعرفون البحر وأمرهم بالتفتيش فى النيل الأبيض وذلك كى يتيح لهم الفرصة بأن يسافروا جنوبا الى أمين باشا ولكنهم أبوا ذلك وكان غوردون مهتما بسلامتهم فاقترح اقتراحا آخر

فانه أمر الناس بعدم السير في الطرق المؤدية الى النيل الأزرق بعد الساعة العاشرة ثم كلف اليونانيين بحراسة هذه الطرق وذلك لكي تتاح لهم الفرصة بالفرار على باخرة قد أرسيت قريبا • ولكن اليونان اختلفوا فيما بينهم فضاع هذا التدبير

وأنا لا أشك في أن هؤلاء اليونانيين لم يكونوا يرغبون في الفرار الى الخرطوم فان معظمهم كانوا يعيشون في بلادهم أو في مصر في فاقة شديدة وهم لم ينالوا الثروة الا في السودان ولذلك لم تطاوعهم نفوسهم على تركه •

وكان غوردون يريد أن يقي نفوس جميع الناس الا نفسه • ويمكنني الآن أن انتقد غوردون من حيث أنه لم يحفر خنادق ولم يقم تحصينات تحمي السراي ، ولكن الأرجح أن الذي منع غوردون من عمل ذلك أنه خشي أن يتهم بالاهتمام بحياته . وربما كان هذا أيضا هو السبب في عدم وضعه حراسا حول السراي •

وكان يمكنه أن يستعمل عددا من الجنود لهذا الغرض • وهل يمكن لأحد أن يشك في الفائدة التي تعود على الجميع من حماية نفسه • وكان يمكنه بمثل هذا الحرس أن يصل الى الباخرة « اسماعيلية » القريبة من السراي • وكان فرغلي ربان هذه الباخرة قد رأى العدو وهو يهجم على السراي فوقف بالباخرة ينتظر مجيء غوردون ولم يبرح الشط حتى تأكد أنه قتل فاقتلع المرساة وسار الى وسط النهر ثم أخذ يروح ويغدو أمام المدينة حتى أشار اليه الدراويش بعفو المهدي •

وكان لفرغلي زوجة وعائلة في الخرطوم فسلم بعد أن حصل على الأمان • ولكن ما كان أكثر انخداعه فانه ذهب الى بيته فوجد

ابنه (وكان في العاشرة من عمره) مقتولا ووجد زوجته قد ألقت بنفسها على ابنها وجسمها ممزق بالحراب ٠

وليس من الممكن أن يصف الانسان مبلغ الفظاعة والقسوة فى المذبحة التى تلت قتل غوردون فانه لم ينج أحد سوى الرجال والنساء من العبيد وكل امرأة عليها شيء من الملاحة من الأحرار ٠ أما غير هؤلاء الذين نجوا من القتل فلم تكن نجاتهم الا مصادفة ٠ وانتحر كثير من الناس وكان من بينهم محمد باشا حسن ناظر المالية فانه زحف الى جنب ابنته وزوجها وكان كلاهما قد قتل وقد رآه أصدقاؤه فى هذه الحال فحضوه على الفرار ولكنه أبى فحاولوا أن يأخذوه عنوة ولكنه صار يصيح ويدعو على المهدى ودراويشه فمر به بعض الدراويش فأجهزوا عليه ٠

وقتل عدد من الناس من أيدى عبيدهم السابقين وكانوا قد انضموا الى العدو وكانوا أدلاءه فاشتركوا الآن فى القتل والنهب والاغتصاب ٠

ويمكن أن يملأ الانسان مجلدا عن هذه الفظائع التى ارتكبت فى ذلك اليوم المشئوم ٠ ولكنى أشك فى مصير الذين أبقى على حياتهم هل كان أفضل عن مصير القتلى ؟ ٠

وعندما احتل الدراويش المنازل شرعوا فى البحث عن الكنوز ولم يكن يقبل عذر أو انكار ٠ وكان معظم السكان قد خبأوا أموالهم فكان كل من يشتبه فيه يعذب حتى يفشى السر أو حتى يقتنع معذبه بأنه لا يملك شيئا ، وكان السوط يستعمل باسراف فكان الناس يجلدون حتى يتنـــاثر لحمهم ، ومن ضروب التعذيب التى كانت تستعمل أن يعلق الرجل من ابهاميه الى عمود من الخشب فيترجح

هو تحته في الهواء حتى يغمى عليه . وكانوا يأتون بسلخين من القصب الهندى ويضعون كلا منهما على وجه الرجل ثم يربطون طرفيهما ثم يضرب هذان السلخان بعصا فيحدث من اهتزازهما آلام مضنية . وكانوا يعذبون النساء بهذه الكيفية أيضا . ويعذبوهن في أماكن أجسامهن الحساسة بطريقة لا يمكنني أن أصفها هنا . وحسب القـــارىء أن يعرف أن أفظع الطرق في التعذيب كانت تستعمل للحصول على الأموال .

ولم ينج من هذا التعذيب سوى النساء الصغيرات في السن والفتيات وذلك خـــوفا من أن يعترض هذا التعذيب الغاية التى ستستخدم لها هذه النساء والفتيات .

وجميع هؤلاء النســـاء والفتيات أرسلن الى المهدى يوم فتح الخرطوم فاصطفى منهن من أراد ورد سائرهن الى الخلفاء والأمراء واستمر جمع النساء والانتخاب بينهن عدة أسابيع حتى امتلأت بهن بيوت هؤلاء الأوغاد الشهوانيين بل فاضت بشباب الخرطوم الذى قضى عليهن النحس أن يقعن في أيدى الدراويش .

وفي اليوم التالى منح عفو عام لجميع الأهالى ما عدا الشايجيه الذين أهدر دمهم ، ولكن على الرغم من هذا العفــو استمر القتل وارتكاب الفظائع عدة أيام بعد سقوط الخرطوم .

وحملت الغنائم الى بيت المال ولكن بعد اختلاس أشياء كثيرة منها . ووزعت المنازل المهمة على الأمراء . ويمم المهدى والخليفة في الباخرة « اسماعيلية » الى الخرطوم ورأيا نتيجة انتصارهما الدموى. ولم يبد أحدهما أية علامة على التحسر أو الأسف، بل ذهب كل منهما الى المنزل المخصص له . وكان كل منهما يقول لأتباعه ان الله أنزل العقاب بسكان المدينة لسفههم وعدم اتباعهم ايمان المهدى .

وقضيت الأيام الأولى في اللهو واتباع الشهوات • ولما شبع المهدي وأتباعه من النساء ابتدأوا يلتفتون الى الخطر الذي يداهمهم من الخارج . فأمر الأمير عبد الرحمن واد نجومي المشهور بأن يجمع قوة كبيرة ويذهب بها الى متمه لمقاومة الانجليز ويطرد هؤلاء الكفار الذين قيل أنهم بلغوا النيل قريبا من هذه البلدة .

وفي صباح يوم الأربعاء بعد سقوط الخرطوم بيومين حوالى الساعة الحادية عشرة سمعنا اطلاق القنابل وعيارات البنادق في ناحية جزيرة توتي . ثم ظهرت باخرتان وهما « الشــلامونية » و « بردين » وكان عليهما السير تشارلس ولسون وعدد من الضباط والجنود الانجليز جاءوا لانقاذ غوردون . وكان السنجلي خشم الموس وعبد الحميد محمد اللذان كان غوردون أرسلهما لقيادة الشايجية ، على هاتين الباخرتين أيضا . وسمعوا جميعا بما حدث لغوردون ولكنهم أرادوا أن يتأكدوا من الخبر وجاءوا الى نصف الطريق بين جزيرة توتي والنيل الأبيض .

وأطلق الدراويش نيرانهم على الباخرتين من الخنادق الواقعة في الشمال الشرقي لقلعة أم درمان . ولكن الباخرتين عادتا في الحال عندما رأى رجالهما سقوط الخرطوم .

وسمعت بعد ذلك من بعض بحارة هاتين الباخرتين أنهم هم والانجليز تأثروا لسقوط الخرطوم . وعرفوا أن السودان قد بات تحت سيطرة المهديين . وكان المفهوم من الحديث الذي كان يتحدث به الجنود على البواخر أن الغرض هو انقاذ غوردون فلما تأكد الخبر عن موته عادت البواخر الى دنقله .

ثم اتفق دليل الباخرة « التلاموتية » على أن يجنح بالباخرة الى الشاطىء حتى يكسرها ثم يفر فى النيل هو والربان عبد الحميد ونجحت هذه الخطة وبلغ من شدة اصطدام الباخرة أنها عطبت حتى احتاجوا الى نقل ما فيها بسرعة الى الباخرة « بردين » وفر كلاهما وقت الاصطدام وحصلا بواسطة أصدقائهما على عفو المهدى وعادا الى الخرطوم . واستقبلهما المهدى استقبالا حسنا وامتدح صنيعهما فى كسر الباخرة . ومع ان عبد الحميد كان من الشايجية المكروهين وأحد أقارب صالح واد المك فان المهدى خلع عليه مرقعة اكراما له وكان عدد كثير من النساء قرابته قد سبين عند سقوط الخرطوم ووزعن على الأمراء فلما عفى عنه أعدن اليه .

أما الباخرة « بردين » فانها فى عودتها جنحت وارتطمت بالوحل . ولما كانت حمولتها ثقيلة فانه لم يمكن انقاذها . وكان ذلك قريبا من متمه . وكان عليها السير تشارلس ولسون فشعر عندئذ بحرج مركزه وكان الجنود الذين معه قليلين فلم يكن فى وسعه أن يعبر الى الشط الغربى ليلتحق بسائر قوته فى جوبات لأن العدو كان قد خندق بينه وبينها فى واد حبشى وكانت قوة الدراويش فى واد حبشى بعدما أصابها من الخور وانحلال العزيمة بعد هزيمة أبو كابه قد عادت اليها شجاعتها بعد سقوط الخرطوم وانتشار خبر مجيء النجومى وكان فى جوبات باخرة ثالثة تدعى « صفية » فأرسل السير تشارلس اليها ضابطا فى زورق يطلب المعونة .

وقامت « صفية » فى الحال وعلم العدو بذلك فخندق على الشاطىء وتهيأ لمجيئها فلما اقتربت صب عليها نارا حامية من البنادق والمدافع . ولكن الجنود فيها قاوموا ببسالة عازمين عزما صادقا على انجاد الباخرة « بردين » مهما كلفهم ذلك واستمر سير الباخرة حتى أصيب المرجل .

ولكن الربان أمر في الجال باصـــلاح الخلل فأخذ العماله يصلحونه والنار تنصب عليهم من العدو وقضى الليل كله فى هذا الاصلاح حتى اذا كان الصبح تمكنت « صفية » من استئناف السير ومقاتلة الدراويش . بل تمكنت من اسكات مدافعهم وقتل أميرهم حمد واد فايد وعدد آخر من صغار الأمراء .

وبلغت « صفيه » « بردين » وأنقذت السير تشارلس ورجاله وكان لهذا العمل العظيم أثر آخر فى انجاد الجنود الانجليز فى متمـــه .

وكان جيش النجومى يسير ببطء لصعوبة جمع الرجال وقد اضره أيضا خبر قتل الأمير حمد واد فايد وهزيمة الدراويش فى واد حبشى أمام باخرة واحدة . وقد قيل لى بعد ذلك عند عودتى الى مصر أن ربان الباخرة « صفيه » عند احرازها ذلك النصر كان اللورد تشارلس بريسفورد . ويقال ان النجومى عندما سمع بهذا النصر قال لرجاله أنه اذا عزم الانجليز على الدخول الى السودان فانهم بالطبع سيقاتلونهم . أما اذا اتجهوا نحو الشمال فانه لا قتال بينهم وبين رجاله بل يحتلون البلاد التى جلوا عنها . وتأخر فى سيره حتى بلغ متمه بعد جلاء الانجليز عنها وعن جوبات . ومع أنه طاردهم الى أبو كلبه فانه لم يشتبك معهم فى قتال .

وعندما جلت طلائع الانجليز تحقق المهدى أن السودان بأجمعه قد أصبح ملكه فطفح عندئذ سرورا . وأعلن هذا الخبر فى المسجد وأخذ يصف للدراويش فرار الانجليز وكيف أن النبى قد أوحى أن الله قد خرق قربهم فماتوا جميعهم عطشا .

وفي اليوم الخامس لسقوط الخرطوم رأيت ثلة من الجنود أمام خيمتي الممزقة فوضعوني على حمار وأنا في قيودي وساروا بي الى السجن العمومي . وهناك طوقوا حولي عمودا وحلقة من الحديد يبلغ وزنهما ثمانية عشر رطلا وكان هذا القيد الجديد يسمى « الحاجة فاطمة » وكان لا يقيد به الا من كانت جناياتهم خطيرة أو من يوصفون بالعناد من المسجونين .

وكنت أجهل السبب في سقوط مكانتي في عين الخليفة الى هذا الحد ، ولكن علمت بعد ذلك أن غوردون عندما عرف من خطابي أن القوة التي أرسلها المهدي الى الخرطوم غير قوية أذاع هذا الخبر بين الجنود في خطوط الدفاع . وهذا المنشور الذي نشره غوردون وقعت منه نسخة في يد حمد واد سليمان وكيل بيت المال فسلمها للمهدي والخليفة . فتأكدت لديهما عندئذ الشـــبهات في خيانتي وتدبيري السابق لكي التحق بغوردون .

ووضعوني في زاوية من الزريبة الكبيرة (أي الســـجن العمومي) ومنعوني من محادثة أي انسان بحيث اذا خالفت هذا الأمر فان العقاب هو الجلد . وكنـــا في الليل أربط أنا وجميع المسجونين في سلسلة طويلة الى شجرة وفي الصباح يفك الرباط . وكان يربط معي بعض العبيد الذين قتلوا أسيادهم وكنت أرى لبتون بك في زاوية أخرى من الزريبة وكان قد مضت عليه مدة في هذا المكان حتى ألفه . وكان قد أذن له في مخاطبة جميع من يريد باستثنائي أنا وحدي .

وفي اليوم الذي دخلت فيه السجن افرج عن صالح واد الملك وكان أخوه وابنه وجميع قرابته تقريبا قد قتلوا وأذن له أن يخرج ويبحث عله يجد أحدا منهم .

وكان طعامي سيئا للغاية فشعرت كأني قد وقعت من الرمضاء في النار . فقد كنت قبلا أشكو من الجوع الذي كان يصيبني من وقت لآخر ولكن الآن صرت لا أجد طعاما سوى الذرة الجافة آكلها كما يأكلها العبيد وكان مع ذلك مقدار ما يعطى لي قليلا جدا ورأتني وأنا في هذه الحال زوجة أحد السجانين فأخذتها الشفقة وصارت تأخذ مني الذرة وتسلقه ثم تعيده الى طريا فآكله ولكن لم يأذن لها زوجها بأن تقدم لي طعاما آخر لئلا يعرف رئيس السجانين ذلك فيبلغ الخبر للخليفة . وكنت أنام على الأرض وأضع تحت رأسي حجرا كوسادة وكان هذا يحدث لي صداعا مستمرا ولكن حدث في أحد الأيام ونحن نساق الى النهر لكي نغتسل أني وجدت في الطريق بطانة بردعة يظهر أن صاحبها ألقاها لعدم فائدتها فحملتها وخبأتها تحت ذراعي ونمت عليها تلك الليلة . كما ينام الملك على وسادة من زغب .

ولكن أحوالي أخذت في التحسن . فان رئيس السجانين الذي لم يكن يكرهني صار يأذن لي بالتحدث مع سائر المساجين . وخفف قيودي . أما « الحاجة فاطمة » وأختها فكانتا لاتزالان في مكانهما ولا يمكنني أن أقول أنهما كانتا تزيدان في رفاهيتي في تلك الأشهر المضنية التي قضيتها في السجن .

وبعد أيام حدثت حركة بين السجانين وأخبرني رئيسهم أن الخليفة سيأتي قريبا لزيارة السجن . فسألته عما يجب أن أفعله أمامه حتى أسترضيه فنصح لي بأن أجيب فورا على الأسئلة التي توضع لي وألا أشكو أي شكاية وأن أبقى منكسرا ذليلا في الزاوية التي خصصت لي . وحوالى الظهر حضر الخليفة ومعه اخوته وملازموه وصار يطوف على الزوايا ويرى بعينيه ضحايا عدالته . وبدا لي من مسالك المساجين أن رئيس السجن نصح لهم بمثل

ما نصح لى فقد كانوا هادئين فى مكانهم وقد حلت سلاسل البعض وأفرج عنهم ثم اقترب الخليفة منى وهز رأسه الى بعطف وقال : « عبد القادر . أنت طيب » .

فقلت : « أنا طيب يا سيدى » .

ثم تركنى وسار . واقترب منى يونس واد وكيم حاكم دنقله وأحد قرابة الخليفة فهز يدى وقال لى : « تشجع . لا تخش شيئا . كل شىء سيصلح قريبا » .

وابتدأت أحوالى تتحسن منذ هذا اليوم ولكن كنت اشعر بطول الوقت .

وانتشرت وافدة الجدرى فى أم درمان وكانت تحصد المئات كل يوم حتى بادت أسرات عن آخرها . واعتقادى أن الخسارة من هذا المرض كانت أكبر من أى خسارة خسرها الدراويش فى المعارك الماضية . والغريب أن العرب أصيبوا به أكثر من غيرهم ومات منه معظم السجانين . أما نحن المسجونين فلم نصب بشىء وإن كنا قد فزعنا فزعا شديدا . ولعل الله فى رحمته رأى أن فيما نقاسيه أكثر مما نتحمل .

واتيحت لى الفرص الآن للتحدث مع لبتون الذى كان يزداد سأمه كل يوم . وقد كان يبلغ به الحنق والغيظ أن يشكو أحيانا من الشكوى وبصوت عال حتى كنت أخشى عواقب فعله هذا . ولكن المعيشة التى كنا نعيشها فى السجن كانت قد أثرت فيه حتى خفت على صحته . وتمكنت بعد محادثات طويلة معه من تهدئته . وكان مع عمره الذى لم يعد الثلاثين قد شاب رأسه ولحيته فى مدة سجنه هـــذه .

وأشيع في أحد الأيام أن الخليفة مزمع المجيء الى السجن فهيأت خطبة وعنيت بانشائها وفعل لبتون مثل ذلك . وكان المرجح أنه سيخاطبني أولا .

ثم جاءت الساعة الخطرة ودخل الخليفة الى صحن السجن وبدلا من أن يطلب المسجونين واحدا بعد آخر وضع له عنجريب وقعد عليه وأحضر له المساجين وقعدوا في نصف دائرة . فأفرج عن البعض ووعد الآخرين ببحث قضاياهم ولكنه لم يلتفت الى ولا الى لبتـــون .

فنظر الى لبتون وهز رأسه فوضعت اصبعي على فمي أحذره من عمل أى شيء طائش والتفت الخليفة الى رئيس السجن وقال : « هل بقى على شيء » .

فقال السجان : « أنا في خدمتك يا مولاى » .

ثم قعد الخليفة بعد أن كان قد هم بالقيام والتفت الى وقال : « عبد القادر أنت طيب » .

فقلت : « يا مولاى . اسمح لى بالكلام أخبرك عن حالى » .

فأذن لى بالكلام فقلت : « أنا يا مولاى من قبيلة غريبة . وقد جئت أطلب حمايتك فحميتني . ومن طبع الانسان أن يخطيء ويذنب الى الله والى الناس . وأنا قد أذنبت ولكني الآن أتوب . أتوب الى الله والى الرسول . هأنذا يا مولاى في القيود والسلاسل أمامك . هأنذا عريان جوعان أفترش الأرض وأرقد هنا صابرا أنتظر قدومك لكي تعفو عنى . مولاى انى أتذلل لك وأرجو أن تفرج عنى ولكن اذا رأيت بقائى في هذه الحال التعسة فادعو الله أن يقوينى على تحملهـــا » .

وكنت قد حفظت هذه الخطبة جيدا والقيتها بفصاحة نادرة ورأيت أني بلغت بها الأثر الذى أردته في نفس الخليفة ثم التفت الى لبتون وقال : « وأنت يا يا عبد الله » .

فقال لبتون : « لا أزيد شيئا على ما قاله عبد القادر . أعف عني وافرج عني » .

فالتفت الى الخليفة وقال : « منذ مجيئك من دارفور عملت كل ما يجب أن يعمل لأجلك . ولكن قلبك بقى بعيدا عنا وأردت أن تلحق بغوردون الكافر وتحاربنا فى صفه ولقد وفرت عليك حياتك لأنك أجنبى . ولكن اذا كنت قد تبت حقيقة فأنا أعفو عنك أنت وعبد الله . يا سجان انزع عنهما القيود والسلاسل .

فحملنا السجانون وبعد استعمال الحيل تمكنوا من نزع القيود ثم أعادونا الى الخليفة الذى كان قاعدا على العنجريب ينتظرنا . ثم أمر باحضار القرآن فوضعه على فروة وطلب منا أن نقسم يمين الولاء له . فوضع كل منا يده على القرآن وأقسم بأن يخدمه بأمانة وولاء فى المستقبل . ثم نهض وأمرنا بأن نسير وراءه ونهضنا ونحن نكاد نجن من الفرح بالافراج عنا بعد هذا السجن الطويل وسرنا فى إثره .

ولما بلغنا منزله أمرنا بأن نبقى فى مكان بعيد عنه وتركنا . وبعد دقائق عاد الينا وقعد الى جانبنا وحذرنا من عصيان أوامره . ثم قال انه تسلم خطابات من قائد الجيش فى مصر يقول فيها أنه قد أسر أقارب المهدى الذين كانوا فى دنقله وأنه يعرض أن يقايض بهم على من عند المهدى من الأسرى الذين كانوا مسيحيين » .

وقال : « لقد قررنا أن نجيب بأنكم جميعا مسلمون وأنكم متحدون معنا ولا ترغبون فى أن نقايض عليكم برجال ولو من قرابة المهدى . فليفعلوا ما شاءوا بأسراهم » .

ثم أضاف الى ذلك قوله : « ولكن لعلكم تحبون العودة الى النصارى ؟ » .

فأكدنا له أنا ولبتون باننا لا نرغب فى تركه وأن مسرات الدنيا كلها لا تغرينا بمفارقته وأن بقاءنا معه يفيدنا لأنه يرشدنا الى طريق الخلاص . فجازت عليه أكاذيبنا ووعدنا بأن يقدمنا الى المهدى الذى كان قد وعد الخليفة بزيارته فى عصر ذلك اليوم فى منزله . ثم خرج وتركنا .

وجاءنا كثير من الأصدقاء يهنئوننا بالافراج عنا وكان بينهم ديمترى زيجاده ولكن لم يكن معه المقدار المعتاد من التبغ . وكان بينهم أيضا صديقى القديم الشيخ عليش فلما أخبرته بأننا سنقابل المهدى نصح لى بعض نصائح مفيدة فى هذه المقابلة .

ولما غربت الشمس جاءنا الخليفة وأمرنا بأن نتبعه فسرنا وراءه حتى دخلنا على المهدى وهو قاعد على عنجريب . وكان قد سمن سمنا فاحشا حتى ما كدت أعرفه . فركعنا أمامه وقبلنا يده عدة مرات وأكد لنا أنه يرغب فى الخير لنا وأن القيود والسلاسل تنفع الناس ، يعنى بذلك أن العقاب يمنع الناس من ارتكاب الجرائم فينفعهم لهذا السبب . ثم والى الحديث الى قرابته الذين كانوا فى أسر الانجليز وأنه رفض المقايضة بنا قائلا : « انى أحبكم أكثر مما أحب قرابتى ولهذا رفضت المقايضة » .

فاجبته مؤكدا له الأمانة والحب وقلت له : « ان كل انسان يجب أن يحبك أكثر مما يحب نفسه لأن من لا يفعل ذلك لا يمكنه أن يحب أحدا من قلبه » .

وكان الشيخ عليش قد أوصاني بأن أقول له ذلك . فلما سمع المهدى كلامي التفت الى الخليفة وقال : « اسمع ما يقول . قل ثانيا » .

فكررت العبارة على مسامعه فأخذ يدى بين يديه وقال : « لقد قلت حقا . أحبنى أكثر مما تحب نفسك » .

ثم طلب لبتون بك وأخذ يده وأمرنا كلينا بأن نقسم يمين الولاء لأننا قد حنثنا بيميننا الماضية . فأقسمنا من جديد وأمرنا الخليفة بالقيام فقبلنا يد المهدى وشكرنا له بره بنا وعدنا الى مكاننـــا .

ومضى زمن قبل أن يأتينا الخليفة . ولما عاد أذن للبتون بأن يرجع الى عائلته وكانت لاتزال فى بيت المال وبعث معه بملازم يريه الطريق وأكد له عنايته به ثم قال لى : « وأما انت فأين تريد أن تذهب ؟ هل تعرف أحداً تذهب اليه ؟ » .

فقلت : « ليس لى سوى الله وأنت . ليس لى أحد يا مولاى يعنى بى فافعل بى ما تراه خيرا لى » .

فقال الخليفة : « لقد كنت أرجو وأنتظر هذا الجواب منك . ويمكنك أن تعد من هذه الساعة واحدا من أسرتى . وسأعنى بك ولن تحتاج الى شىء . وستنتفع بملازمتى ولكن أشترط عليك شيئا واحدا وهو أن تطيع كل ما أرسله اليك من الأوامر . وواجبك

ينحصر فى أن تقعد مع الملازمين طول النهار على باب المنزل . أما فى الليل بعد ذهابى فيمكنـــك أن تذهب الى منزلك الذى سأخصصه لك ، وعندما أخرج يجب أن ترافقنى واذا ركبت فعليك أن تسير بحذائى حتى يأتى الوقت المناسب للاذن لك بالركوب الى جانبى . فهل أنت راض بهذه الشروط ؟ وهل تعد بالقيام بها ؟ » .

فاجبت : « أنا راض يا مولاى كل الرضا بهذه الشروط . وستجد فى خادما مطيعا وارجو أن أجد القوة لكى أقوم بواجباتى خير قيام » .

فقال : « الله يقويك ويبعث لك الخير » ثم نهض وقال : « نم هنا هذه الليلة فى حماية الله وسأراك غدا » .

وبقيت وحدى وشعرت أنى خرجت من سجنى فدخلت فى آخر وادركت فى الحال ما رمى اليه الخليفة فانه لم يكن فى حاجة الى خدمتى لأنه لم يكن يثق بى أقل ثقة ولم يكن يريد أن ينتفع بى فى مقاومة الحكومة المصرية أو مقاومة العالم المتمدين .

ولكنه أراد أن أكون أمام عينيه يشرف على على الدوام . ولعله أيضـــا اراد أن يعتز ويزهو بوجودى أمامه مطيعا كالعبد فيفتخر بذلك أمام قبيلته التى هى الآن أساس سلطته . والتى كانت يوما ما تحت امرتى وكذلك يفتخر بعبوديتى أمام ســـائر القبائل التى كنت أحكمها • ومع ذلك قلت لنفسى يجب أن أعنى كل العناية بألا أغضبه وألا أتيح له الفرصة للأذى . وكنت أعرف الخليفة تمام المعرفة وأدرك أن ابتساماته لا تساوى شيئا وقد قال لى هو ذلك فى احدى المرات فقد كنا نتحدث فقال : « عبد القادر : ان من يتطلع الى السيادة والسلطة يجب عليه ألا يظهر الناس على أغراضه . والا فان خصومه وأعداءه يفسدونها عليه » .

وفى صباح اليوم التالى جاءنى وطلب أخاه يعقوب وأشار عليه بأن يخرج بى ويريني مكانا ابنى فيه عشتى بحيث لا أكون بعيدا عنه . وكانت قرابة الخليفة قد أخذوا الأمكنة القريبة ولذلك لم نجد أقرب من مكان يبعد عنه نحو ٦٠٠ ياردة فأخذته لبناء عشتى .

ثم طلب الخليفة كاتب سره فارانى وثيقة موجهة لقائد الجيش الانجليزى خلاصتها أن جميع الأسرى الاوروبيين قد دخلوا فى الاسلام باختيارهم وأنهم لا يبغون الرجوع الى بلادهم وطلب منى أن أوقع هذه الوثيقة .

ثم سألنى فجأة : « ألست مسـلما ؟ أين تركت زوجاتك اذن ؟ » .

وكان هذا السؤال مربكا فقلت : « لى زوجة واحدة تركتها فى داره وقد بلغنى انها أسرت مع سائر الخدم وانهم الآن فى بيت المال » .

فقال : « وهل لك أولاد ؟ » فأجبته بالنفى فقال : « الرجل بلا ولد كالشجر بلا ثمرة وبما أنك قد صرت فى خدمتى فسأعطيك بضع زوجات حتى تعيش عيشة هنية » .

فشكرت له عنايته بى ورجوته أن يؤجل هديته الى أن أنتهى من بناء عشتى وقلت له فى ذلك ان الحريم يجب الا يعرض لنظر الأغراب . وكان أبو انجه قد أخذ جميع أمتعتى فأمر الخليفة بان يعوضنى منها باعطائى مخلفات المرحوم أوليفية بان فأرسلت الى جميعها وكانت تحتوى على جبة قديمة وعباءة عربية بالية وقرآن مكتوب باللغة الفرنسية . وأرسل الى فضل المولى يقول ان سائر

أمتعة أوليفيه بان قد فقدت منذ وفاته . وأمر الخليفة بأن ترد الى النقود التى كانت قد أخذت منى وأودعت بيت المال . وكانت تبلغ أربعين جنيها وبعض الاقراط التى جمعتها لطرافتها وهذه كلها سلمها الى حمد وأرسلها له .

وشرعت فى بناء منزلى وكنت فى مدة البناء أقيم فى منزل الخليفة ووكلت أقدم خدمى سعدالله النبوى فى بناء منزلى وكلفته بأن يجعله مؤلفا من ثلاث عشش مستقلة داخل حظيرة . ولم أكن أبرح باب الخليفة منذ الصباح الباكر حتى المساء . وكان كلما خرج راكبا أو ماشيا أسير معه عارى القدم . وكان الخليفة عندما رأى قدمى قد تلفتا من السير بلا حذاء قد أذن لى بأن ألبس نعلين وكانتا تحزان فى قدمى وتؤلماننى .

وكان الخليفة يرسل الى فآكل معه فى بعض الأوقات وكان أيضا يرسل ما يتبقى من طعامه لنا فآكل مع الملازمين الذين صرت واحدا منهم . واذا كان الليل وذهب الى فراشه توجهت أنا الى منزلى فاتسطح على العنجريب وأنا فى غاية الاعياء وأنام الى الفجر حيث أستيقظ وأذهب الى باب الخليفة فأنتظره للصلاة .

ولما علم الخليفة بأن منزلى قد تم بناؤه أرسل الى جارية وقال لى سعد الله انها جاءت متلففة . وأنها قاعدة تنتظرنى . فأمرت سعدالله بأن يشعل مصباحا ويرشدنى اليها . ففعل ووجدت المسكينة راقدة على حصير . وسألتها عن ماضى حياتها فأخبرتنى بصوت مشئوم أنها من النوبارية وكانت تنتمى الى قبيلة فى جنوبى كردوفان وأنها سبيت وأرسلت الى بيت المال فبقيت هناك الى أن أرسلها الى حمد واد سليمان . وكانت وهى تتكلم قد رفعت ما على رأسها من

الأقمشـــة المطرة التى كانت متلففة بها فبدا لى وجهها وكتفاها وصـــدرها .

وأشرت الى سعدالله بأن يقرب المصباح منها ثم رأيت عندئذ أنى فى حاجة الى أن أعبىء جميع قـــوتى لكيـــلا أرعب واقع من العنجريب فقد كان لها وجه دميم تطل منه عينان صغيرتان وكان أنفها عظيما مفرطحا تحته فم له شفتان غليظتان تكادان تبلغان أذنيها عندما تضحك . وكان رأسها يرتكز على عنق غليظ أشبه شىء بعنق الكلاب التى من سلالة « البول دوج » وكان اسم هذه المخلوقة مريم . فأمرت سعدالله بأن يأخذها بعيدا عنى ويعطيها عنجريبـــا .

فهذه اذن هى أولى هدايا الخليفة لى . وهو لم يهد الى حمارا أو فرسا أو بضعة نقود أستعين بها ولكنه أرسل لى جارية دميمة لا أرتاح الى وجودها وهى لو كانت جميلة لما قدرت على القيام بتكاليفهـــا .

ولما ذهبت فى اليوم التالى سألنى هل أرسل لى حمد واد سليمان جارية ؟ فقلت : « أجل . لقد أنفذ أوامرك على الفور » ثم وصفت له الجارية وصفا دقيقا .

فاغتاظ الخليفة أشد الغيظ وبعث فى طلب حمد واد سليمان ووبخه على عدم طاعة أوامره بل مخالفته أيضـــا أوامر المهدى . وأرسلت الى فى المساء جارية أخرى أقل دمامة من سابقتها وكان الخليفة هو الذى اختارهـــا . ولما عدت بمنزلى سلمتها لمراحم سعدالله الخادم .

واطمأن المهدى والخليفة والأمراء من ناحية الغارات الخارجية فشرع كل منهم فى بناء منزل يوافق مكانته وحاجاته . وأخذت النساء سبايا الى الخرطوم الى هذه المنازل الجديدة وأخذ أسيادهن فى التمتع بهن لا تزعجهم نظرة الغريب أو حسد الصديق .

ولم يكن الخليفة والمهدى وقرابتهما يحبون أن يعرف الناس أنهم أخذوا معظم الغنيمة لأنفسهم ، لأن هذا العمل ينافى تعاليم المهدى الذى يقول بالزهد فى ملذات الدنيا وكانت منازلهم واسعة تسع أكثر ممن فيها وذلك انتظارا للغنائم التى ستأتيهم من البلاد التى لم تفتح للآن .

وفى يوم ما مرض المهدى ولم يذهب الى المسجد للصلاة . ولم يأبه أحد لمرضه أولا لأنه كان قد أعاد على أسماع الناس عدة مرار أنه سيفتح مكة والمدينة والقدس ثم يموت بعد عمر طويل فى الكوفة . وأن النبى قد أظهره على هذه الرؤيا . ولكن مرض المهدى لم يكن وعكة خفيفة فقد استولت عليه حمى التيفوس وبعد ستة أيام من مرضه بدأ الذين حوله يقنطون من شفائه .

وكان سيدى الخليفة يهتم اهتماما كبيرا بمرض المهدى ولا يبرح داره ليل نهار . وكنت أنا أقف على الأبواب بلا غاية معينة .

وفى مساء اليوم السادس اجتمع جمهور كبير حول بيت المهدى وأمر المصلون فى المسجد بأن يصلوا ويدعوا لشفائه لأنه بات فى خطر الموت . وكانت هذه أول مرة أعلنت فيها الصفة الخطرة للمرض المصاب به المهدى أمام الناس . وفى صباح اليوم السابع . أذيع أن حالته تسوء ولم يبق شك فى أنه يموت .

وكان المرض الآن قد بلغ غايته . وكان المهدى راقدا على عنجريب وحوله الخلفاء وقرابته وحمد واد سليمان ومحمد واد بشير (أحد كبار موظفي بيت المال ووكيل بيت المهدى) وعثمان واد أحمد والسـيد المكى (وهو شيخ من شيوخ الدين فى كردوفان) وبعض من كبار أنصاره الذين سمح لهم بالدخول فى غرفة مرضه .

وكان المهدى يغيب عن وعيه من وقت لآخر ولما شعر بأن آخرته قد قربت قال للذين حوله : « ان الخليفة عبدالله هو الخليفة الصادق ، وقد عينه النبى للخلافة بعدى . فهو منى وأنا منه . وكما أطعتمونى وأنفذتم أوامرى كذلك افعلوا معه . الله يرحمنا » .

ثم جمع ما فيه من قوة وكرر عدة مرات عبارة : « لا اله الا الله محمد رسول الله » ، ووضع يديه مشبوكتين على صدره ومد ساقيه وأسلم روحه .

وقبل ان يبرد دمه أقسم أنصار المهدى يمين الولاء للخليفة عبد الله . وكان أول من بايعه سيد المكى ثم عقب ذلك الخليفتان الآخران وتبعهم جميع الموجودين ولم يكن من الممكن أن يحتفظ بوفاة المهدى سرا لا يذاع بين الجمهور ولكن أمر الجميع بالا يبكوا أو ينوحوا وطلب من الجميع مبايعة الخليفة . وكانت ستنا عائشة أم المؤمنين كبرى زوجات المهدى فى غرفة وفاته قاعدة متلففة فى احدى الزوايا فلما مات خرجت من الغرفة لكى تخبر سائر النساء بوفاة مولاها وزوجها ، وكان عليها أن تعزيهن وتمنعهن من النوح والندب . وكان معظمهن قد فرحن فى قلوبهن بوفاة المهدى الذى جلب الخراب على البلاد والذى دعاه الله الى محكمته العليا قبل أن يتمتع بثمار انتصاره .

ولكن على الرغم من الأوامر القاضـــية بمنع النوح والندب ارتفعت الأصوات في كل بيت وقيل ان المهدى مات باختياره لأنه كان في شوق شديد لرؤية الله .

وشرع بعض الموجودين فى غرفة المهدى بغسل الجثة ولفها فى قماش من الكتان وأخذ البعض فى حفر حفرة عميقة فى الغرفة التى مات فيها وبعد ساعتين وضعوا الجثة فى الحفرة وبنوا فوقها بالطوب ثم طمروا الحفرة بالتراب وصبوا عليه ماء . ولما انتهوا من ذلك رفعوا أيديهم وتلوا عليه صلاة الموتى وخرجوا من الغرفة وهدأ روع الجماهير المتكاكئة حول المنزل .

وكنا نحن الملازمين أول من دعى الى الخليفة الذى صار يسمى بعد ذلك خليفة المهدى فاقسمنا له يمين الولاء وأمرنا بان ننقل منبر المهدى الى مدخل المسجد وأن نخبر الجمهور بانه سيخطبهم الآن فلما أخبرناه باننا قد نفذنا أوامره خرج من غرفة المهدى وذهب الى المسجد واعتلى المنبر لأول مرة باعتباره حاكما للبلاد .

وكان يتفزز من الهياج وعبراته تنحدر على خديه ثم قال بصوت عال :

« يا أصدقاء المهدى . انه لا مرد لقضاء الله . لقد غادرنا المهدى الى الجنة حيث يجد ملذات النعيم . وعلينا نحن أن نتبع تعاليمه وأن نتعاون وأن نتساند كما يتساند بناء البيت . وهذا العالم فان . فلا تنحرفوا عن طريق المهدى واغتبطوا بالشـــطر الحسن الذى معكم من أنصاره وأتباعه . وأنتم أنصاره وأنا خليفته . فاقسموا الآن الى يمين الولاء » .

ولما انتهى من هذه الخطبة القصيرة شرع الحاضرون فى المبايعة وكانت صيغتها « بايعنا الله ورسوله ومهدينا وبايعناك على توحيد الله الخ ... » .

وكانت كل طائفة تبايع تخرج وتأتى أخرى وكان المجتمعون كثيرين حتى كانوا فى خطر الموت من الزحام . واستمرت المبايعة الى المســـاء . وكان الخليفة قد سكت عن البكاء وأخذت امارات الفرح ترتسم على وجهه عندما رأى هذه الجماهير المديدة تزدحم لمبايعته .

وكان قد جهده التعب فنزل عن المنبر واحتسى جرعة ماء بعد أن جفت ريقه من تعبه طول النهار . ولكن خاطر السلطة الجديدة وانه الحاكم للقطر السودانى كان يؤنسه ويشد من عزمه ولم يترك المنبر الا بعد أن الح عليه كبار أتباعه بذلك .

وقبل أن يترك المنبر طلب أمراءه وجعلهم يقسمون يمين الولاء على حدة وأمرهم بلزوم طاعته وطاعة أخيه يعقوب ونصح لهم بان يعيشوا على وفاق بعضهم مع البعض لأنهم أغراب وذلك لكى يكافحوا دسائس أهل البلاد التى نزلوا فيها ثم حضهم على لزوم تعاليم المهدى .

وكنا قد تأخرنا الى ما بعد منتصف الليل فلم أرغب فى الذهاب الى منزلى وانطرحت على الأرض حيث أنا أسمع روايات الناس عن موت المهدى واستعدادهم لطاعة الخليفة .

والآن يمكننا أن نتساءل : ماذا فعل المهدى لاحياء الدين . وما هى تعاليمه ؟

لقد دعا الى الزهد وكان يجحد الملذات الدنيوية وغرور هذا العالم . وهدم النظام الاجتماعي ونظام الموظفين وسوى بين الأغنياء والفقراء واختار الجبة المرقعة لباسا عاما لجميع الناس . وضم المذاهب الأربعة المالكي والشافعي والحنفي والحنبلي الى مذهب واحد ولم يكن اختلافها كبيرا فانه مقصور على كيفية الوضـــوء والسجود وكيفية عقد الزواج وما الى ذلك . واختار بضع آيات من القرآن سماها الراتب وكان يأمر المصلين بتلاوتها بعد صـلاة الصبح وصلاة العصر .

وقد سهل على الناس عملية الوضوء ومنعهم من الشراب وكان السودانيون لا يعقدون زواجا بدون أن يشربوا . وأنزل قيمة المهر الى عشرة ريالات وثوبين للبكر وخمسة ريالات وثوبين للثيب . ومن أعطى أكثر من ذلك كان يصادر فى أملاكه . وقصرت وليمة العرس على طبق من اللبن وآخر من البلح . وكان يقصد تيسير الزواج وكان يحتم على الآباء والأوصـــياء زواج بنـــاتهم . وهن بعد صـــغيرات .

ومنع الرقص واللعب وكل من خالف ذلك يعـــاقب بالجلد وتصفى أملاكه . وكان السباب يعاقب عليه بحساب ثمانين جلدة لـكل كلمـــة بذيئة والحبس سبعة أيام . ومنع استعمال الخمور والمريســـة وتدخين التبغ ومن خالف هذه الأوامر يعاقب بالجلد والحبس ثمانية أيام ومصادرة أملاكه . وكان السارق يعاقب بقطع يده اليمنى فاذا عاد الى السرقة قطعت اليسرى .

ولما كانت عادة الرجال فى عرب السودان ارسال شعورهم أمر المهدى بحلقها وكذلك أمر بمنع النوح على الموتى أو ندبهم ومنع الولائم التى تقام فى المآتم ومن خالف ذلك تصفى أملاكه .

ولما كان المهدى يخشى فرار جنوده لعلمه بما يقاسونه من المعيشة التى رتبها لهم ولعلمه بان مذهبه قد لا يعد صحيحا فى نظر المسلمين الآخرين منع السودانيين من الحج الى مكة ومنع المواصلات بين السودان والأقطار المحيطة به .

وكان يعاقب كل من يصرح بالشك فى صحة مذهبه ويشهد عليه اثنان بقطع يده اليمنى وساقه اليسرى . وكان يستغنى أحيانا عن شهادة الشاهدين بما يدعيه من ايحاء النبى له واثباته جناية المتهم أو براءته .

وكان أيضا يعرف ان معظم أوامره تخالف الدين فأمر لذلك بمنع الناس من دروس الفقه وشروح القرآن وقضى بان تحرق هذه الكتب أو تلقى فى ماء النيل .

هذه هى تعاليم المهدى ولم يترك حجرا الا قلبه لكى ينفذ أوامره . وكان فى الظاهر يبدو للناس أنه يحافظ كل المحافظة على لزوم تعاليمه ولكنه كان هو وخلفاؤه وقرابته اذا دخلوا منازلهم استسلموا للنهم فى الطعـــام والشراب واللهو وضروب اللذات الشهوانية المنتشرة فى السودان .

الفصل الحادي عشر

حكم الخليفة عبد الله

لم يحدث شيء ذو أهمية في دارفور منذ ان غادرتها . فان خالد دوزويك كان قد رسخ حكم المهدى في المديرية باجمعها وبعث الأمراء والجيوش لكي يقوى حكم المهدى في الأنحاء . وقد تظاهر ضابطي القديم عمر واد دارهو بالولاء للنظام الجديد ولكنه عند وفاة المهدى قام في ذهنه أن يستقل فكاد له خالد حتى أوقع به وحمل الى دارفور حيث قطع رأسه .

وكان أبو أنجه في كردوفان وكانت هذه المديرية قد خضعت كلها للمهدى ماعدا الجزء الجنوبي فيها وأرضه جبلية فاعتبر أهل هذا الجزء عبيـــدا لم يدفعوا الجـــزية وطلب منهم الهجرة الى أم درمان .

ولما لم يجيبوا هذا الطلب دعى أبو انجه الى اخضاعهم والى احتلال بلادهم بجيشه واجبارهم على تموينه وارســال عدد منهم عبيدا الى المهدى . وتمكن أبو انجه بعد أن فقد مقدارا كبيرا من الذخيرة وعددا عظيما من رجاله من القيام بجميع ما أمر به تقريبا . وكان السودان الغربى باستثناء هذا الجزء الصغير منه خاضعا لسلطة المهدى من حدود وادى النيل الى الأبيض .

أما فى السودان الشرقى فقد ثبتت سنار وكسله ودافعت كل منهما المهديين ولما علمت الحكومة المصرية بالحالة الخطرة التى بات فيهـا الجنـود فى الحاميات الشرقية أرسلت الى يوحنا ملك الحبشة تستنجد به لكى ينقذ حاميات القلايات وجبره وسنهيت وكسله وينقلهم الى مصوع . ولكن حاكم كسله صرح بان الحامية مؤلفة من أولاد البلدة فهو لذلك لا يمكنه أن يجعلهم يتركون بلدتهم الى مصوع .

وأرسل المهدى كلا من ادريس واد عبد الرحيم وحسين واد صحرا بالامداد لكى يعجلا باسقاط المدينة . وفى هذه الأثناء كان الملك يوحنا قد أنقذ حاميات سنهيت وجبره والقلابات وأرسلهم الى مصوع وصار العرب المقيمون فى المثلث بين سواكن وبربر وكسله من أتباع المهدى الخاضعين له . وكان عثمان دجنه قد انتخب واليا على هذا القسم وأرسل محمد الخير الى دنقله لكى يحتلها بعد خروج الانجليز منها .

هذه اذن هى حالة السودان عند تولى الخليفة . ومن هنا نفهم السبب الذى دعاه الى أن يحث القبائل العربية الغربية على الاتحاد لأنهم أغراب فى البلاد التى يحتلونها . فانه كان يعرف أن « أولاد البلد » من برابرة وجعاليين وسكان الجزيرة لا يستمرئون قدوم هؤلاء العرب الغربيين الذين يختلفون عنهم فى الأفكار والأخلاق الى بلادهم .

وكان أول ما عمله الخليفة أنه فصل حمد واد سليمان من منصب مدير بيت المال وعين بدلا منه ابراهيم واد عدلان وكان من عرب الكواحلة على النيل الأزرق ولكنه أمضى عدة سنوات يشتغل بالتجارة فى كردوفان وكانت له حظوة عند الخليفة .

وطلب من عدلان أن يجعل حسابا للوارد والمنصرف وأن يكون لهذا الحساب دفاتر تمكن مراجعتها في أى وقت وتعرف منها الحالة المالية . وأمره أيضـــا بأن يضع قائمة عن جميع أولئك الذين يتسلمون أى مبلغ من المال والذين يقبضون مرتبا .

وعند وفاة المهدى جاءت الأخبار بأن الغارة على سنار قد فشلت وان عبد الكريم قد صد عنها فأرسل الخليفة عبد الرحمن النجومى لكى يتولى القيادة وذلك فى سنة ١٨٨٥ فسلمت الحامية لهذا القائد القوى . وحدثت الفظائع المعتادة بعد سقوط المدينة فان عددا من أهالى سنار أرسلوا الى الخليفة وكان بينهم بنات الموظفين الجميلات فاحتفظ الخليفة بأجملهن ووزع الباقى على الأمراء .

وشرع الخليفة فى تأييد سيادته . وكان يعرف أن عبد الكريم مزاحم قوى فاستدعاه الى الحضور الى أم درمان بجميع جيوشه ثم دبر له هو والخليفة على واد حاو مكيدة بحيث سلم عبد الكريم جميع ذخيرته وجنوده وكذلك سلم الخليفة شريف جميع جنوده السود لأخيه يعقوب وأصبح كل منهما مقام الظفر لا خطر منه .

وبينما كانت هذه الأخبار تشيع فى العاصمة وصلت الاخبار بأن كسله سقطت وأن عثمان دجنه يقاتل الأحباش الذين يقودهم الرأس الوله . وقد انتصر الأحباش على عثمان دجنه واضطروه الى الالتجاء الى كسله ولكنهم اكتفوا بذلك ورجعوا الى بلادهم .

واتهم عثمان دجنه حاكم كسله السابق أحمد بك عفت بأنه فاوض الأحباش وحرضهم على مقاتلته . ولم يكن هناك أقل ما يثبت هذه التهمة ومع هذا فقد قبض على ستة موظفين فى كسله وشدت أيديهم خلف ظهورهم وضربوا بالرصاص كأنهم مجرمون .

وكان الخليفة عبد الله يعرف أن جوره على سائر الخلفاء سيثير غضب قرابة المهدى الذين كانت علاقته بهم سيئة ولكنه لم يبال بذلك . فقد عقد عزمه على أن ينفذ أغراضه ولو احتاج فى ذلك الى استعمال العنف وقد كان مع ذلك يخشى الرأى العام ويعرف أن الأهالى كانوا يحبون المهدى وأنهم يعطفون على قرابته فلم يكن يظهر بمظهر العداء لهم . بل سار فى طريق مرضاة الجمهور الى أن أهدى الى الخليفة شريف طائفة من العبيد وبعض الخيول العتيقة والبغال الفارهة ووهب أتباعه أيضا عددا من العبيد . وقد اجتهد فى أن يجعل هذه الهبات والانعامات علنية حتى يعرفها جميع الناس وقد نال وطره فان الناس حمدوا له فعله وامتدحوا سخاءه فى قصائد كانوا يتغنون بها .

وكان واضحا أمام الخليفة أن ترك البلاد البعيدة فى أيدى قرابة المهدى مما يعود بالخطر على حكمه ، ولذلك لم يتوان فى ارسال قرابته هو الى دارفور وكردوفان لكى ياوا الحكومة .

وقد طلبنى الأمير يونس الدكيم لكى أرافقه الى سنار ولكنى قبل أن أغادر أم درمان قال لى الخليفة : « انى أحثك على أن تخدمنى خدمة صادقة . فانى أنظر اليك نظرة الأب الى ابنه وقلبى يعطف عليك . والله يعد المؤمنين بالمكافأة كما أن غضبه ينزل على الخونة . ويونس يحبك ويرجو لك الخير وسيسمع لنصائحك واذا شرع فى عمل يعود عليه بالأذى فيجب أن تحذره منه وقد أخبرته بأنى أعتبرك أحد أولادى وسيستشيرك فى كل ما يعمله » .

فقلت : « سأعمل بما تأمرنى . ولكن يونس رئيسى فهو لذلك سيستبد برأيه . فأرجوك ألا تنسب الى عملا لا يكون وفق هواك وتجعلنى مسئولا عنه » .

فقال : « ان لك أن تشير ولكن ليس لك أن تعمل . فاذا كان عمله وفق مشورتك والا فهو المسئول » .

ثم تحول الحديث الى مســــائل دارفور وجهات أخرى من الســـودان .

واستمر الحديث مدة ولكني حين أوشكت أن أهم بالقيام هتف الخليفة بأحد الخصيان وهمس في أذنه كلمة . وكنت أعرف مولاى معرفة جيدة وأعرف أن اشاراته نذير شؤم .

وقال لى : « لقد أشرت عليك بأن تترك أهلك لأنهم قد جاءوا بعد سفر شاق فهم فى حاجة الى الراحة . وسيعطيك يونس خادما وهأنذا أعطيك زوجة حتى اذا مرضت وجدت من يعنى بك » ثم تبسم وقال : « وهى جميلة وليست مثل تلك التى قدمها لك حمد واد سليمان » .

ثم أشار الى المرأة التى دخلت فرفعت نقابها ونظرت اليها فاذا بها جميلة على الرغم من سمرتها .

ثم قال الخليفة : « هذه زوجتى وهى طيبة صبور . وعندى كثير من النساء ، ولذلك أنا أعتقها فيمكنك أن تأخذها » .

فارتبكت وكنت طول الوقت افكر فى طريقة ارفض بها مثل هذه الهدية . بدون أن أغضب الخليفة . فقلت : « اســـمح لى يا مولاى بالكلام » .

فقال : « لا تخش شيئا . قل ما تريد »

فقلت : « هذه المرأة كانت يا مولاى زوجتك وأنت سيدى وأنا خادمك فكيف يجوز لى أن آخذ زوجتك ؟ ثم انك تقول يا مولاى انك تنظر الى كأنى ابنك » . ثم أغضيت الطرف وقلت وأنا أنظر الى الأرض : « لا يمكنني أن أقبل هذه الهدية » .

فقال وهو يشير الى المرأة بأن تذهب : « لقد قلت حقا وأنا أوافقك » .

ثم هتف بالخصى قائلا : « يا ألماس · أحضر جبتى البيضاء » وذهب وأحضرها فسلمها لى وهو يقول : « خذ هذه الجبة التى لبستها أنا مرارا والتى باركها المهدى . وسيغبطك ألوف الناس عليها فاحرص عليها لأنها تأتيك بالبركات » .

فابتهجت بهذه الهدية وقبلت يديه وأنا مرتاح الى تخلصى من تلك المرأة التى ما كانت سوى حجر عثرة ونفقة لا أتحملها ووجدت فى الجبة بديلا طيبا منها · ثم استأذنت فى الخروج وأخذت هديتى الغالية معى .

وعين يونس يوم السفر ولكن قبل السفر طلبنى الخليفة وحثنى على الصدق فى الخدمة والأمانة أمام يونس .

وفى المساء برحنا أم درمان فى الباخرة « بردين » وفى اليوم الثالث بلغنا شاطىء النيل الأزرق وتراءت لنا سنار على بعد .

وقد اخترنا مكانا لخيامنا قطعة مستطيلة من الرمل شمالى وادى العباس لأن الأرض التى حولها منخفضة لا توافق الاقامة مدة فصل الأمطار . ولم يكن رأسى يفكر الآن بشىء سوى الفرار . ولكن

لما كان جميع الأهالي راضين عن الخليفة فاني كنت في حاجة الى أن احذر أشد الحذر في اتخاذ واحد أثق به . ولم يمض على طويل زمن في وادى العباس حتى جاءني خطاب من الخليفة يقول فيه أنه جاءته أخبار بأن زوجتي قد وصلت الى كروسكو وأنها ترتب الترتيبات اللازمة لفراري ثم حضني على أن أترك هذه الأفكار والزم الايمان . وتسلم يونس أيضا خطابا جاء فيه هذا المعنى ثم تعلل بأنه يريد أن يوقف الخليفة على الأحوال في سنار وأمرني بالسفر الى أم درمان . وعلى ذلك ذهبت تدبيراتي للفرار ضياعا ورأيت نفسي بعد أيام في حضرة مولاى الخليفة .

وبدأ الخليفة الكلام عن الخطاب الذى جاءه من بربر فأكدت له بأنه اذا كان هذا الخطاب قد وصل بالفعل فانه لم يكتب الا بغية الأذى لي والا فقد يكون هناك خطأ وبرهاني على ذلك أني لم أتزوج قط ، فليس لي زوجة تصبو الى لقائي . أما اذا جاء أحد الى أم درمان وأراد اغرائي بالهرب فاني لن أتأخر عن ابلاغ أمره للخليفة .

فأكد لي الخليفة بأنه لم يصدق هذه الاشاعة ثم سألني هل أحب البقاء معه أو مع يونس وكنت أعرف قصده من هذا السؤال فقلت اني لا أعدل بالبقاء معه شيئا . وابتهج من تملقي له ولكنه قال بصوت جدى انه يذكرني بالولاء والأمانة والا أحادث أحدا خلاف أهل داره . ثم أمرني بلزوم مكاني كما كنت سابقا على باب الدار .

وعند خروجي لم أشك في أن شبهات قد تأصلت في قلبه وأنها ابتدأت في النمو .

وكانت قوة الأبيض تحتوى في هذا الوقت على مائتين من الجنود السود وقد زاد عددهم بما انضم اليهم من جنود داره السود

أيضا . وكان كثيرون منهم يقطنون جبل ديرو وهم على عداوة دائمة مع المهدى . وكان الدراويش قد أسروا بعضا منهم واستعملوهم فى بناء أكواخهم واستعبدوهم .

واغتاظ هؤلاء الجنود من هذه المعاملة وعزموا على أن ينالوا حريتهم . وكان الأمير سيد محمود غائبا لحسن حظهم فى أم درمان وتمكن المتمردون من الاستيلاء على الترسانة . فاخذوا منها السلاح ثم اقتتلوا مع سائر الجنود وخرجوا الى جبل النوبة .

وبلغت هذه الأخبار السيد محمود فى أم درمان فسافر فى الحال الى الأبيض وتولى قيادة الجند وسار الى جبل النوبة وحاول أن يهزمهم ولكنه فشل فى ذلك وقتل هو وعدد كبير من الجند .

ولم يكن الخليفة يجهل تزايد قوة خالد (زوجال) واستقلاله فى دارفور . وكان يعرف أنه لقرابته من المهدى يعطف على الخليفة شريف فتعلل بأنه يرغب فى أن يتوسط خالد بينه وبين الخليفة شريف فى ايجاد الصلح والوفاق ودعاه لذلك الى الحضور الى أم درمان مع جميع جنوده .

ولكن عندما وصل خالد الى باره وجد نفسه فجأة محوطا باتباع أبو انجه وكان الخليفة قد أمرهم بأن يأخذوا جنود خالد ويضموهم الى جيشهم ويذهبوا جميعا الى جبل النوبة لمقاتلة المتمردين . ولم يكن بد من أن يخضع خالد بعد أن وقع فى هذا الشرك فقيد بالسلاسل وأرسل الى أم درمان ثم صودر فى أملاكه وبقى سجينا عدة أشهر ولكن عفى عنه بعد ذلك وعين بدلا منه عثمان واد آدم ابن عم الخليفة .

ونجح أبو انجه في هزيمة المتمردين فقتل جميع الزعماء وجعل معظم الجنود المتمردين عبيدا .

وعلمت من تاجر قدم الينا من كردوفان في ذلك الوقت أن صديقي يوسف أوهر ولدر قد غادر الأبيض وأنه سيصل قريبا الى أم درمان . ومع علمي بأني سأجد أكبر مشقة في لقائه فقد فرحت بأن أحد بني وطني سيكون قريبا مني . وكنت طول الوقت على باب مولاي الخليفة أنفذ أوامره . وكان يخاطبني أحيانا بلهجة الرأفة ويدعوني الى الطعام فآكل معه . وفي أحيان أخرى كان ينساني نسيانا تاما أو ينظر الى نظرة الحقد والغضب بلا مناسبة استطيع فهمها . ولكني صرت أنسب هذه الأحوال الى مزاجه الشخصي وصرت أسوم نفسي على الرضا .

وكنت لا أبدي أقل اكتراث لما يحدث في البلاد من الحوادث وذلك حتى لا يجدوا سببا في زيادة شبهات الخليفة الذي كان على الدوام يتوجس مني شرا ويسأل عن مسلكي ولكن الحقيقة أني كنت أرقب الحوادث بعين الاهتمام بمقدار ما يسمح لي مركزي وكنت أحاول أن أنقشها في ذهني حتى لا أنساها لأنه لم يكن يسمح لي بكتابة شيء . وكان الخليفة يقتر علي في مؤونة بيتي وقلما كان يأذن باعطائي بعض الارادب من الذرة أو منحي بقرة أو شاة .

وكنت أعرف ابراهيم عدلان مدة الحكومة السابقة فكان يرسل لي كل شهر مبلغا يتراوح بين العشرة والعشرين ريالا وكان بعض الموظفين والتجار يساعدونني أيضا بالمال من وقت لآخر . وعلى ذلك يمكنني أن أقول ان حالي وان لم تكن في يسر الا أني لم أشعر بالحاجة الى ضروريات المعيشة أو كنت أشعر بها قليلا من وقت لآخر فقط . وعلى كل كانت حالتي تفضل حال صديقي لبتون الذي

وعده الخليفة بمساعدته ولكنه لم يف بوعده ، وكان لبتون يتمتع بشيء من الحرية يجول أينما شاء في أم درمان ويحادث الناس ولم يكن مضطرا الى حضور الصلوات الخمس في المسجد . ولكن حياته كانت مع ذلك مملوءة بالمتاعب والأحزان . وقد رجوت عدلان أن يساعده ويعطيه شيئا من المال ولكن هذا لم يكفه . وكان لبتون يجهل التجارة ولكن الحاجة اضطرته الى أن يربح شيئا باصلاح البنادق الفاسدة . ولما كنت أعرف أنه كان مستخدما في السفن الانجليزية قديما خطر في بالي أنه ربما يعرف شيئا عن الآلات .

والتقيت به في أحد الأيام في المسجد فشكا الى سوء حاله شكاية مرة فاقترحت عليه أن أبحث له عن وظيفة في البواخر يستعين بها على العيش فطرب لمقترحي ووعدته بأني سأعمل جهدي لكي احقق له ذلك .

وبعد أيام بينما كان الخليفة في مزاج موافق ينظر الى بعين الرضا لأن أبا أنجه أرسل اليه جوادا عتيقا وبعض المال وعددا من عبيد خالد فدعيت لتناول الطعام معه وذكرت له حال البواخر وأنها يخشى عليها من التلف لأنه ليس فيها من يفهم آلاتها وكيفية اصلاح ما يفسد منها فقال لي انه لا يعرف شيئا عنها مطلقا وانه في حيرة ماذا يفعل لصيانتها فانها ضرورية . فاقترحت عليه في الحال بأنه يمكن أن نستخدم لبتون فيها لصيانتها واصلاحها وقلت له ان لبتون كان مهندسا في احدى البواخر الانجليزية . فوافقني الخليفة على اقتراحي وأمرني بالبحث عنه .

وفي اليوم التالي بحثت عن لبتون ودعوته للحضور . فحضر وأخبرته بما قاله الخليفة ولكني نصحت له بألا يعمل شيئا مفيدا للبواخر التي يملكها أعداؤنا . فأكد لي لبتون بأن معرفته بالآلات

سطحية جدا وأنها ستسوء بادارته وان الحظ السيء هو الذى سيجبره على قبول هذه الوظيفة . وخاطب الخليفة عدلان فى هذا الشأن . وفى المساء أرسل الى لبتون يقول انه قد تعين فى هذه الوظيفة براتب قدره أربعون ريالا فى الشهر وفى هذا المبلغ كفاف المعيشـــة .

وأشيع فى ذلك الوقت فى أم درمان أن الأحباش سيغيرون على القلابات . وقيل أيضا أن من يدعى الحاج على واد سالم من الكواحلة كان يقيم فى القلابات . وقد تعين أميرا على قبيلته وكان يسيح فى تخوم الحبشة فأغار على جبطة وهدم كنيستها .

وكان من يدعى صالح شنجة وهو رجل تكرورى كان يقيم قبلا فى القلابات فلما أخلاها الجنود المصريون ذهب وأقام فى الحبشة ولكن ابن عمه أحمد واد أرباب عين أميرا فى ذلك القسم .

وكان حاكم (أمهرة) فى الحبشة الرأس عدل طلب قدمن « أرباب » أن يسلم له الحاج على الذى أغار على جبطة . فرفض طلبه فجمع جيشا وأغار به على القلابات .

وكان « أرباب » قد علم بنية الراس عدل على الهجوم فجمع جيشا يبلغ ستة آلاف ووقف ينتظره خارج المدينة . ولكن هجوم الأحباش الذين كان يزيد عددهم على عدد السودانيين بعشرة أضعاف كان عنيفا فأحدقوا بالدراويش وذبحوهم وقتل « أرباب » ولم ينج الا عدد قليل جدا . وقطع الأحباش أجسام القتلى ومثلوا بهم ما عدا جسم « أرباب » فانهم استثنوه احتراما لصالح شنجه .

وكان الدراويش قد خزنوا بارودهم فى منزل ووكلوا حراسته لمصرى . فلما طالب الأحباش هذا المصرى بتسليم البارود أبى وأشعل

البارود فانفجر وقتله هو ومن حوله من الأحباش . أما القلابات نفسها فقد أحرقها الأحباش وسووها بالأرض بحيث صارت خرابا لا يعيش فيها سوى الضباع .

ولما بلغ الخليفة خبر اصطلام جيش واد أرباب ارسل خطابا الى الملك يوحنا يعرض عليه افتداء الاسرى بمبلغ يعينه هو بنفسه . ولكنه في الوقت نفسه أمر يونس بأن يقوم بجيشه الى القلابات وينتظر أوامره هناك .

وعندما غادر يونس الخرطوم بجيشه عبر الخليفة النهر الى الخرطوم وشيعه ثم عاد الى أم درمان .

وحدث أن « كلوتز » اختفى فجأة من أم درمان وكان هذا على أثر فشله في الحصول على ما يعيش به ، وظننت أنه قد فر ونجا ولكني علمت من بعض التجار الواردين من غضارف أنه وصل الى هذه البلدة وقد بلغ به الأعياء حتى مات قبل هجوم الأحباش .

الفصل الثاني عشر

بعض الحوادث الأخرى

كان الأمير كرم الله قد تولى الحكم فى بحر الغزال بعد لبتون وذهب الى شقة وأقام فيها . ولكن صديقى القديم المادبو كان يحكم هذه الجهة فاصطدم الاثنان وتنازعا السلطة .

وانتهى النزاع بالشجار وفر المادبو بعد مقاومة غير مفيدة فقبض عليه وأرسل الى أبى أنجه وكان يحقد عليه لعلة سابقة . وذلك أن المادبو أسره أحد الأيام عندما كان يقاتل فى صف سليمان زبير ، وكلفه حمل صندوق كبير من الذخيرة فلما شكا اليه أبو أنجه جلده . ولما أحضر المادبو حاول أن يدافع عن نفســـه بقوله أنه لم يقاتل المهدى وانما كان يقاتل كرم الله . ولكن ما فائدة الدفاع فى هذه الأوقات ؟ .

وعرف المادبو أن الدفاع لا فائدة فيه فاستسلم لقضاء الله وقال : « ان الله هو الذى يقتلنى . وأنا لا أسأل الرحمة وانما أطلب العدل . ولكن كبير على عبد مثلك أن يكون شريفا . وها هى ذى آثار سوطى على ظهرك لم تزل واضحة . ومهما جاءنى الموت فانه سيجدنى رجلا هادئا مطمئنا لقبوله . فأنا المادبو والقبائل تعرفنى » .

وأمر أبو انجه برده الى السجن ولكنه لم يجلده وفي اليوم التالي قتله أمام جيشه وبر المادبو بوعده فانه وقف في الساحة الفسيحة المعدة لقتله والسلاسل حول عنقه وكان يضحك في وجه الجنود الذين كانوا يركضون الخيول ويلوحون بالرماح في وجهه . ولما أمر بالركوع لكي يقتل صاح في الناس أن يشهدوا عليه كيف مات وتحمل الموت بشجاعة . وبعد لحظة انتهى كل شيء . وهكذا ختمت حياة المادبو وكان من أقدر شيوخ العرب في السودان .

ولما أحضر راسه الى أم درمان حزن عليه جنود الرزيفات الذين كانوا قد هاجروا الى أم درمان . حتى الخليفة نفسه أسف على قتله . ولكن لما كان كل شيء قد انتهى لم يكن ثم مجال لأن يلوم أكبر أمرائه على شيء فات . ولكنه أخبرني أنه لو عاش لكان فيه منفعة كبيرة .

وكان يونس قد غادر أبا حرز الى القضارف والقلابات حيث أقام وكانت سلطته واسعة . وحدث أنه طلب من الخليفة أن يأذن له في الاغارة على الحبشة ولم يكن الخليفة قد تسلم الجواب من الملك يوحنا على خطابه فاذن له . فأخذت جيوش يونس في الاغارة على القرى المتاخمة ، وكان يقودها عرابي ضيف الله فكان يقتل الرجال ويسبي النســـاء والأولاد وكانت هذه الجيوش سريعة الحركة كثيرة الاغارة حتى لقد سارت مرة عشرين ميلا في داخل البلاد تنهب وتقتل وتفتك . ولكن يونس كان في القلابات وعلاقته بالاحباش على ما يرام يتاجر معهم فيأتونه بالبن والعسل والشمع والطماطم وريش النعام والخيول والبغال والعبيد وحدث مرة أن جاءت قافلة كبيرة من الجبارتة (وهم من مسلمي الاحباش) ومن المكاده ومعهم متاجر عظيمة فلم يقو يونس على كبح أطماعه فادعى أنهم جواسيس أرسلهم الرأس عدل وقبض عليهم وأخـذ سلعهم

واستحسن الخليفة عمله حتى سماه « عفريت المشركين » و « مسمار الدين » .

وكان يونس قد أرسل اليه جميع الفتيات الجميلات اللاتى سبين فى الغارات كما انه أرسل اليه عددا من الخيول والبغال . وطمع الخليفة فى التوسع وكان أيضا مغتاظا من الملك يوحنا لأنه لم يجب على خطابه فعزم على أن يضم جيش يونس الى جيش أبى انجه ويغير بهما على الحبشة . وطلب من يونس أن يبقى بجيشه ويتخذ خطة الدفاع الى أن تاتيه أوامره .

وأرسلت الأوامر الى ابى أنجه لكى يرسل ١٥٠٠ من جنوده المسلحين ببنادق رمنجتون الى عثمان واد آدم الذى عين أميرا لكردوفان ودارفور . وطلب منه أن يحضر هو بنفسه مع سائر جيشه الى أم درمان .

وقبل هذه الحوادث بمدة قليلة كانت قبيلة الكبابيش التى تقيم بين كردوفان ودنقله قد ظهر منها شىء من العصيان . فأرسلت اليهم تجريدة نجحت فى اخضاعهم وغنمت منهم مقادير كبيرة من الماشية والعبيد . ولجأ شيخ القبيلة الشيخ صالح الى أم بدر وهى بقعة بعيدة ومعه عدد قليل من أتباعه .

وأرسل الشيخ صالح الى وادى حلفا يستنجد بالحكومة المصرية فسلمت لوكيله مائتى بندقية وأربعين صندوقا من الذخيرة ومائتى جنيه وبعض المسدسات الملبسة بالمعدن .

وكان فى أسوان فى ذلك الوقت تاجر المانى يدعى شارل نيوفلد وكان يعرف ضيف الله أجيل شقيق الياس باشا الذى فر

حديثا من السودان . وعلم منه ان في كردوفان مقادير كبيرة من الصمغ لم يستطع التجار اصدارها بالنسبة للثورة وانه يمكن بمعاونة الشيخ صالح أن تنقل الى وادى حلفا . فأغراه الطمع فى المال أن يذهب بنفسه الى الشيخ صالح . ويظهر أنه لم يجد صعوبة كبيرة فى الحصول على اذن بالسفر الى السودان بعد أن وعد بكتابة تقرير عن الحالة فى السودان . وفى أوائل ابريل ١٨٨٧ غادر وادى حلفا قاصدا الشيخ صالح .

وكان النجومى عارفا بقيام القافلة فوضع أناسا على الطرق لكى يخبروه بالطريق التى تسلكها القافلة . ومما زاد الطين بلة أن الدليل ضل فى الطريق فقاست القافلة عذابا كبيرا من العطش . ولما وصلوا الى آبار الكاب وجدوا بضعة دراويش فى انتظارهم فنشب قتال انهزم فيه رجال صالح لما كان بهم من الاعياء والعطش وأسر بعضهم وكان بين الأسرى نيوفلد . وفى بدء القتال عزم نيوفلد على ألا يبيع حياته رخيصة فانه اتخذ مكانا وراء القافلة وكانت معه خادمة حبشية . ولكن القتال لم يبلغ اليه .

وعند انتهاء القتال عرض عليه الدراويش أن يعفوا عنه اذا سلم نفسه فرضى وأخذ الى النجومى فى دنقله مع سائر الأسرى . وقتل النجومى جميع الأسرى ماعدا نيوفلد فانه حقن دمه لكى يرسله الى أم درمان .

وكنت قد سمعت أن أسيرا أوربيا سيرسل الى أم درمان . وفى أحد الأيام فى شهر مايو رأيت جمهورا يسير نحو دار الخليفة وفى وسطه رجل أوربى قد ركب جملا . وكان الشائع على ألسنة الناس أنه الباشا حاكم وادى حلفا . وكان بين المسجد وبين دار الخليفة بناء يدعى رقوبة يجلس فيه الملازمون والى هذا البناء أدخل الينا نيوفلد .

فلما رأيته صمت لأنى كنت أعرف أخلاق الخليفة وجواسيسه وتظاهرت بالمجانة. لا أكترث لما يجرى أمامى .

ولما سمع الخليفة بوصول نيوفلد بعث فى طلب الخليفتين والقاضيين طاهر المجذوب والأمير بخيت ونور انجره الذى كان قد وصل حديثا من كردوفان حيث كان يحارب مع أبى انجه . وأرسل أيضا فى طلب يعقوب أخيه . وعندما دخلوا همست فى أذن نور أنجره قائلا : « افعل جهدك لكى ينجو الرجل » .

وطلبنى الخليفة وأمرنى بأن أجلس مع المجتمعين معه . ثم أخبرنا بأن الرجل جاسوس انجليزى وطلب من الشيخ طاهر المجذوب أن يستجوبه . وطلبت أنا فى الحال أن يؤذن لى بأن أخاطبه بلغة أوروبية فأذن لى وذهبت أنا وطاهر الى الركوبة حيث كان نيوفلد .

ولما ذكر اسمى قام نيوفلد وصافحنى وهو فرح . فنبهته الى وجوب مخاطبته الشيخ طاهر الذى وكلت اليه محاكمته وأنه يجب عليه الخضوع كل الخضوع لما يقال له . وكان يجيد التكلم بالعربية وأحدث استعداده للكلام أثرا سيئا فى نفوس سامعيه فطلبوا أن يرسل الى الخليفة وكان حكمهم أنه جاسوس يجب أن يقتل . ولما صرنا جميعا فى حضرة الخليفة قال لى : « وما رأيك أنت فيه ؟ » .

فقلت : « كل ما أعرفه أنه ألمانى أى أنه ينتسب لأمة لا تهتم بمصر » .

وسلم الى الخليفة أوراقا وطلب منى قراءتها ورأيت فى عينيه أنه يحدق النظر فى لكى يعرف ضميرى .

ووجدتها تحتوى على كشف أدوية مكتوب باللغة الألمانية . وخطاب بالانجليزية الى نيوفلد فيه أخبار عن الحالة بالسودان . كذلك خطاب طويل من الجنرال « استيفنسن » ينبيء فيه بانه منحه الاذن بدخول السودان مع القافلة القادمة . وفي الوقت نفسه يطلب معرفة أخبار وافية عن الحالة عموما .

ترجمت هذا الخطاب للخليفة غير أنى تكتمت ما طلبه الجنرال من معرفة الأخبار فقلت له أن ما يطلبه هذا الرجل هو السماح له فى دخول البلاد وهو يشتغل فى التجارة كما أخبر الشيخ طاهر . وقد رأيت الخليفة فى تلك اللحظة يحــدق النظر بى ! ثم أمرنا بالانصراف انتظارا لأوامره خارج الدار .

وقد اجتمع فى ذلك الأوان عند البناء المسمى « الرقوبة » آلاف الناس بقصد رؤية الباشا الانجليزى . وما هى الا هنيهة حتى جاء بعض الضــباط الســود وأوثقوا يدى نيوفلد وأمروه بمغادرة الرقوبة . فوقفت أنا والقاضى « نور أنجره » على كومة من الأحجار نرقب ما سيحدث .

وفى تلك اللحظة التى ظنها نيوفلد آخر حياته حدق بنظره الى السماء ثم خر ساجدا دون أن يطلب اليه ذلك . فأمروه بالنهوض ومن ثم تقدم رجل يحمل أرغونا وابتدأ يعزف أنغاما مطربة فوق رأس نيوفلد . ولقد دهشت لما رأيت ان ذلك لم يربكه قط واندفعت خادمته الحبشية بدافع الاخلاص لسيدها طالبة أن تقتل معه ولكنها أعيدت الى الرقوبة فى الحال . وقد تيقنت حينئذ أنا والقاضى بأن الخليفة يداعب نيوفلد كمـا يداعب القط الفأر وان الحـكم باعدامه لم يصدر بعد فحاولت أن أشير اليه ولكنه يظهر أنه لم يتنبه الى اشارتى .

ثم عدنا بعد ذلك فى حضرة الخليفة فبادر الشيخ طاهر بقوله « هل أنتم تصرون على اعدام هذا الرجل ؟ » ثم التفت الى نور أنجره وقال له ما رأيك وأنت الذى طلبت العفو عن نيوفلد وقلت أنه شجاع ثم التفت الى وقال « ما رأيك أنت يا عبد القادر ؟ » فقلت يا مولاى ان الرجل يستحق القتل ولو كان هناك أى حاكم غيرك ما تأخر عن قتله . ولكن علو نفس مولاى الخليفة ورحمته لا شك بأنهما سيشملانه خصوصا أنه اعتنق الدين الاسلامى وان رحمة الخليفة به لا محالة ستقوم عقيدته . وقد عفا عنه القاضى أحمد من قبل كما أن الخليفة لم يكن فى عزمه فعلا أن يقتله كما ظهر لى .

وحينئذ أمر الخليفة باعادة نيوفلد الى الرقوبة بعد أن فكت اغلاله الا انه أصدر الأمر بأن يعرض على أنظار الجمهور ثم أن يسجن بعد ذلك حتى صدور أوامر أخرى ثم التفت الخليفة الى وأمرنى بألا أختلط مع نيوفلد بعد الآن . فانسحبنا جميعا ولكنى لم أعدم الفرصة لأبلغ نيوفلد بما قضاه الخليفة من أنه سيعرض على أنظار الجمهور . وبعد ذلك نفذ الأمر وعرض على الأنظار .

وفى اليوم التالى استدعانى الخليفة وأبلغنى أن النجومى يقول ان نيوفلد أغرى بواسطة الحكومة ليتصل بالشيخ صالح الكباشى ويساعده على محاربة المهديين . فأوضحت للخليفة عدم صحة هذه الرواية اذ أن أوراق نيوفلد صحيحة مستوفاة وأن الحكومة على أى الحالات لا يعقل أن تعهد اليه بعمل كهذا . وقد تبادر الى ذهنى فى أول الأمر أنه صدق قولى فى هذا الصدد . ولكنى تيقنت من الضد بما أظهره لى من الاحتقار وعدم الثقة مدة من الزمن .

وبعد أيام قليلة عقد الخليفة استعراضا كبيرا أخذ اليه نيوفلد مكبلا بالحديد وراكبا جملا • ولما التقى بالخليفة ساله عن آرائه فيما يختص بكتائبه فأجابه بأنها بالرغم من وفرة عددها لا تزال الجيوش المصرية أحسن نظاما منها وتدريبا • وعند ذلك أمر الخليفة برده الى « الرقوبة » سجينا •

ورغبة في الانتقام من السيخ صالح الذى لم يقدم ولاءه للخليفة أرسلت اليه حملة قضت على حياته وفرقت رجاله وبهذا قضى على حياة آخر شيخ مخلص للحكومة المصرية .

وفي أواخر يوليو وصل « أبو انجه » الى أم درمان مصحوبا بقوة تقدر بعشرين ألف رجل • وبعد أسابيع قليلة أرسل جزءا من هذه القوة تحت قيادة « زكى طومال » لاخضاع « أبو روف » شيخ قبيلة جهينة الذى لم يلب نداء الخليفة ويذهب الى أم درمان . فدحر زكى طومال معظم رجال تلك القبيلة وأرسل كثيرا من السبايا وأسرى الأطفال هدايا للخليفة وأحضر الباقى بعد ذلك الى أم درمان حيث أشتغلوا فى نقل الماء وعمل الحصر . وبيعت قطعانهم بأبخس الأثمان في الأسواق فبيع الثور أو الجمل الذى قيمته ٤٠ أو ٦٠ ريالا بريالين أو ثلاثة .

وتلقى أبو أنجه الأوامر لكى يوالى السير من أم درمان الى القلابات بعد تشتيت شمل قبيلة جهينة . ويتولى هناك قيادة الجيوش • فعند وصوله جمع القوات المرابطة فى المراكز الجنوبية عند أبى هرر وأخذ ينظمها ويعد العدة للأخذ بثأر (واد أرباب) من الأحباش واجتمعت تحت امرته أكبر قوة جمعت من عهد الخليفة عبد الله اذ كان مجموع ما تحت قيادته ٤٥ ألفا من حاملى الرماح و ٨٠٠ من الخيالة و ٥٠ ألف بندقية فغادر القلابات بهذه القوة

مخترقا ممر (منتك) قاصدا (رأس أوال) ولست أعلم حتى هذه اللحظة لماذا لم يهاجم الأحباش أعداءهم أثناء اختراقهم هذه الممرات الضيقة والوديان الســحيقة التى كان يتعذر عليهم فيها استعمال نيران بنادقهم فاذا لم يتمكنوا من صد أعدائهم فانهم على الأقل يستطيعون أن يلحقوا بالدراويش خسائر تذكر . وكل ما إمكننى ادراكه هو أن الأحباش ربما تأكدوا من فوزهم النهائى وعملوا على جرهم بعيدا داخل المملكة حتى يقطعوا عليهم خط رجعتهم وبذلك يبيدونهم عن آخرهم . فابتدأ القتال على سهل « دبراش » وكان تحت قيادة الرأس « عدل » الفان من المحاربين واتخذ له موقعا يهدد به جناح أبو أنجه الشــمالى ولكن أبو أنجه كان لديه من الوقت ما يسمح له بالانسحاب من التلول وأن ينظم صفوفه وهو يتقهقر . فحمل الأحباش المرة تلو الأخرى على الدراويش الا أن هؤلاء تمكنوا من صدهم بعد أن حملوهم خسائر فادحة وأخذ أبو أنجه بعد ذلك فى الهجوم حتى انتصر فى معركة حاسمة ..

وكان يتولى القيادة فى كسلا « أبو حرجه » وقد أمر باللحاق « بعثمان دجنه » ليعاونه فى القتال . وترك « أحمد واد على » نيابة عنه فى كسلا . وعرج فى طريقه على أم درمان ليرفع الى الخليفة تقريرا عن حالة القبائل العربية النازلة بشرقى السودان . وزعم أنه وصل الى أم درمان فى ساعة متأخرة من الليل الا أن الخليفة قابله مقابلة طويلة خصوصية . وقد أبلغنى أثناء خروجه أن خطابا ورد لى من أهلى .

وبعد بضــع دقائق طلبت عند الخليفة وأبلغت بأن حاكم سواكن بعث بخطاب الى « عثمان دجنه » يظن أنه من عند أهلى . وأمرنى الخليفة بفتحه فى الحال واخباره عما يحتويه . فتصفحته بسرعة وأشد ما آلمنى خبر وفاة والدتى . وقد أخبرنى اخوتى بأنها

ما كانت تطلب في آخر حياتها وهي على فراش الموت الا أن يجمع الباري بيني وبينهم .

ولما لاحظ الخليفة طول الوقت الذي استغرقته في مطالعة الخطاب سألني عن اسم من أرسله لي وما هي محتوياته فأجبته بأن اخوتي هم الذين بعثوا به الي واني ساترجمه اذ لم يكن هناك داع لكتمان أي شيء فيه فهو عبارة عن بضعة أسطر سطرها اخوة بؤساء الى أخ بعيد عنهم .

وقد أبلغتهم مقدار جزعهم على لطول غيابي عنهم وكيف أنهم على استعداد لعمل أي تضحية في سبيل خلاصي واستردادي لحريتي . ولما وصلت في الخطاب الى الجزء الخاص بوالدتي قلت للخليفة انه بسبب بعدي عنها كانت في كل أوقات مرضها تتضرع الى الباري كي تراني قبل موتها . كانت تتمنى ذلك ولكن أمنيتها لم تتحقق ففاضت روحها قبل أن تراني وفي تلك اللحظة التي نضب فيها لعابي ولم أقو على الاستمرار في الكلام . بادرني الخليفة قائلا :

« ألا تعلم والدتك بأني أرحم عليك من أي مخلوق كان ، وعلى كل حال اني لا أتصور أنها كانت على ما تذكر من الحال فعليك أن تحزن لوفاتها ولكن يجب أن تعلم أنها ماتت مسيحية ولم تعتقد في الرسول والمهدي . وعلى ذلك هي لا تلاقي رحمة ربها » .

فهاجت أعصابي عند سماع قوله هذا ولكنني لم أفوه بكلمة ثم استرجعت قواي وصرت أتلو عليه ما جاء في الخطاب عن زواج أخي هنري وان « أودلف » واخواتي البنات بخير . وطلبوا الي في آخر خطابهم أن أكتب اليهم عن الطريقة التي يمكن عملها لاسترداد

حريتي كما طلبوا الى الاسراع في الاجابة عليهم . فقال لي الخليفة أكتب الى واحد من أخويك كي يسرع في الحضــور الى هنا وأخبره بأنه سيكون موضع اجلال واحترام وسوف لا يحتاج الى شيء بالمرة ما مادام مقيما هنا . ومع ذلك سأتكلم معك في هذا الشأن مرة اخرى . وبعد ذلك أشار على بالانصراف . فانصرفت وكان رفاقي الذين علموا بوصول هذا الخطاب ينتظرونني بفارغ الصبر ليسمعوا مني ما حواه وبمجرد أن تلاقوا معي وجهـــوا لي عدة أسئلة كنت أجاوبهم عليها بكل اقتضاب .

ولما ذهب الخليفة الى راحته اتكأت على سريري « عنجريبي » فسألني خدمي عن الأخبار فكنت أطلب اليهم عدم محادثتي .

ثم أخذت أحدث نفسي قائلا : « واأسفاه عليك يا والدتي فانني أنا الذي كنت سببا في لحظاتك السيئة الأخيرة » وقد أخبرني اخوتي في خطابهم بآخر كلماتها التي كانت تفوه بها فعلمت أنها كانت تقول :

« اني على استعداد لملاقاة الخـــالق . اني على استعداد للموت . ولكني ارجو أن أرى واقبل ردولف قبل أن تفيض روحي » وكانت تقول أيضا « انني كلما تذكرت انه في قبضة أعدائه تزداد آلامي » .

آه . اني اتذكر جيدا كلماتها التي فاهت بها لما عولت على القدوم الى السودان لقد كانت تقول لي : « يا بني ان روحك المضطربة تدفعك الى المغامرة بحياتك في بــلاد بعيدة لا تعلم عنهــا شيئا . وربما يأتي الوقت الذي تنتهي فيه من كل ذلك وتقبل على حياة هادئة » فما أصدق كلماتك يا والدتي وما أعظم الشقاء الذي سببته لك .

وبعد أن فكرت فى هذا كله صرت أنوح ثم أنوح لا بالنسبة لما أنا عليه من حال سيء بل من أجل أمي العزيزة التي فاضت روحها بسببى .

وفى صباح اليوم التالى أرسل لى الخليفة وطلب منى مرة اخرى أن أترجم له الخطاب وأمرنى أن أرد فى الحال على اخوتى لأخبرهم بانى فى رغد من العيش . فنفذت ما طلبه وكتبت خطابا كله ثناء على الخليفة واعجاب بخصاله وكم أنا سعيد بجواره . ولكنى كنت أضع كل كلمات المدح والاطراء وحسن الحال داخل أقواس وبجوارها علامات استفهام . وكتبت فى ذيل الخطـــاب ما يشــير الى ان تلك الكلمات الموضوعة بين الأقواس هى عكس الحقيقة .

وفى الوقت نفســـه طلبت الى اخوتى أن يكتبوا الى الخليفة خطاب شكر على حسن معاملته لى !!! وأن يرسلوا له كيس سفر كبير ويرسلوا لى مبلغ ٢٠٠ جنيه و ١٢ ساعة اعتيادية تستحق أن تكون هدايا لأقدمها الى أمراء الخليفة الذين يسرون بها كثيرا . وطلبت نسخة القرآن مترجمة الى اللغة الألمانية . ولكيلا يجزعوا قلت لهم انى أرجو أن تسمح الظروف بملاقاتنا قريبا .

طلبت اليهم أن يرسلوا تلك الطلبات الى قنصل النمسا فى القاهرة الذى يرسلها الى حاكم سواكن وهذا يبعث بها الى عثمان دجنه ومنه تصل الى . وقد سلمت هذا الخطاب الى الخليفة فبعث به رسولا كان ذاهبا الى عثمان دجنه ليرسله الى سواكن .

وقد حزنت قبل وصول الخطاب المحزن بنحو شهر تقريبا لما أصاب صديقى « لبتون » الذى كان يشتغل فى جمرك الخرطوم

وأرغمته حالته الصحية على أن يترك عمله . وعاد بعد ذلك الى أم درمان يشكو الفاقة ولكن لحسن حظه كان قد عاد صديقه (صالح واد الحاج على) من القاهرة ومعه بعض النقود أرسلها اليه بعض أفراد أسرته من القاهرة مع صالح المذكور .

وكان واد الحاج على هذا طماعاً في ابتزاز الأموال ، حرامها وحلالها ، فقد أعطى « ليبتون » قبل ذلك مبلغ ١٠٠ ريال وأخذ منه تحويلا على أخيه بالقاهرة بمبلغ ٢٠٠ ريال قبضها بمجرد وصوله ولما عاد الى أم درمان أعطى ليبتون ٢٠٠ دولار واغتصب لنفسه باقي ما أرسله أخو « ليبتون » وهو ما يقرب من ٨٠٠ دولار وقد ساعد هذا المبلغ الضئيل « ليبتون » نوعا على فك ضيقه . وهذا مع ما كان يؤمله من أن هناك مخاطبات دائرة بشأن اطلاق حريته كان سببا في تخفيف شيء من آلامه . وكان هذا المسكين قد حضر معي ذات يوم من المسجد عقيب الصلاة الى المنزل وأخذ يستشيرني في التقاء شخص يضع عنده مبلغ الـ ٢٠٠ دولار بحيث يأخذ منه ما يريده كلما شاء اذ أنه يخشى اذا بقيت معه أن يندفع في الظهور بالبذخ والاسراف ومن ثم يفتضح أمره وتعرف صلاته بالقاهرة فيلاقي حتفه .

كنا نتحادث عن حالتنا وما نحن عليه وقد كان في تلك اللحظة منشرح الصدر أكثر من عادته رغم ما كان ينتابه من الآلام في ظهره والضعف العام في كل جسمه .

وقد تركته حوالى الظهر . وفي يوم الثلاثاء التالى أرسل لى خادمه يطلب أن أذهب اليه لأنه يشكو مرضا شديدا وأبلغني خادمه أن سيده مصاب بحمى شديدة وانه ملازم الفراش من ثلاثة أيام فوعدت الخادم بأني قادم اليه سريعا وفي المساء طلبت الى

الخليفة أن يسمح لى فى الذهاب . وفى صبيحة اليوم التالى ــ وقد حصلت على الاذن بقضاء عامة اليوم مع هذا المريض ــ ذهبت فى الحال الى منزله فوجدته فى حالة يرثى لها . وجدته يشكو الم حمى التيفوس وحالته شديدة لدرجة أنه لم يتمكن من معرفتى لما دخلت عليه فى أول الأمر وقد حدثنى بعد ذلك بالفاظ متقطعة موصيا بأن أعتنى بأخته . ثم تمتم كلاما عن والده .

الفصل الثالث عشر

حملة الأحباش

وما كان يدور بخلد أحد أن انتصارات المهديين يسكت عليها من جانب الأحباش فقد أعد الملك « جان » عدته وجمع قواته بعد أن استتب له الأمر في الداخل ببلاده . اعد العدة لغزو القلابات وبالفعل أحرزت قوات الأحباش نصرا في بادىء الأمر الا أن نصرهم انقلب هزيمة عندما أصيب الملك « جان » برصاصة قضت عليه لساعته فارتد الجيش الحبشي بغير نظام وتعقبه « زكي طومال » الذي تمكن من الاستيلاء على تاج الملك ومتاعه وأخذ جثته غنيمة .

وقامت على أثر ذلك في بلاد الأحباش ثورة داخلية بسبب تطلع كثيرين الى العرش .

وكان الايطاليون يحتلون مصوع منذ بدء عام ١٨٨٥ وعلى ذلك مكنتهم تلك الثورات الداخلية من الاستيلاء على مناطق واسعة داخل حدود الحبشة بالقرب من مصوع . وقد قوى الاستيلاء عليها مركز الدراويش في القلابات لأن الأحباش شغلوا باسترداد ما استولى عليه عدوهم الجديد .

وبينما كانت القوة المعسكرة في القلابات تحت رحمة الملك « جان » في بادىء الأمر كان « عثمان واد آدم » في حرب شديدة في غربي السودان وقد شتت شمل السلطان يوسف ودحر جيشه وجعل عساكره بدون مأوى في شرقي السودان وغربيه ، وقد حكم على أمرائه وأتباعه بأشد العقوبات وساق أتباعه من النساء والأطفال غنائم وارسلهم مخفورين الى الفاشر . وانتشر الهرج والمرج في جميع الأنحاء حتى حدود « دار تاما » .

وكان في ذلك الوقت بتلك الناحية ساب هرب من أم درمان ينتسب الى قبيلة من القبائل النازلة على ضفاف النهر ويسكن في تلك الناحية مستظلا بشجرة جميز فلقبوه من أجلها بأبو جميزة . فوصل اليه بعض من هؤلاء الرجال الذين شتت شملهم « عثمان واد آدم » وانضموا تحت لوائه فجمع شملهم وتولى قيادتهم للأخذ بثأرهم ، وبالفعل تم له النصر في أول الأمر على قوة صغيرة من قوى الدراويش كانت في ذلك الوقت قريبة منهم ، وكان لذلك الانتصار صداه فانضم اليه كثير من الدارفوريين وكونوا قوة عظيمة تحت امرته وسار بها الى الفاشر الا أن المنية عاجلته في الطريق فقضى نحبه فانقض « عثمان واد آدم » على جيشه وكان على بضعة أميال من الفاشر ، وهزم هذا الجيش شر هزيمة .

أما الخليفة فكان في هذه الأثناء يسر في نفسه غزو الديار المصرية وقد استشار من أجل ذلك كثيرا من زعمائه فحسنوا له غزو مصر لما احتوت عليه من حدائق غناء وقصور فخمة وسيدات لونهن أبيض جميلات .

وبطبيعة الحال كان آكفأ قواد الخليفة في ذلك الوقت والذي يصح أن توكل اليه قيادة الجيوش الغازية هو « ابن النجومي »

لشجاعته النادرة ولأنه عرف مصر وخباياها لما كان تاجرا بسيطا . وفضلا عن ذلك انه كان من أشد أنصار الدعوة المهدية يعمل لنشرها بكل ما أوتي من حول وقوة .

وكانت الجيوش التي تحت أمره مكونة من أبناء القبائل النازلة على ضفاف النيل الذين عرفوا مصر جيدا ولهم صلات قرابة ونسب مع القبائل القاطنة في مديريات الوجه القبلي الملاصقة .

فمن أجل هذا لما أصر الخليفة على غزو مصر لم يفكر في اسناد قيادة الجيوش الفاتحة لغير ابن النجومي ..

وكان الخليفة يحسب حسابا كبيرا لهذا الفتح ويقدر نتائجه وكان يخشى الهزيمة والخسارة ، ولذلك تدبر في الأمر وقرر أن يرسل مع ابن النجومي جيوشا من القبائل النازلة بقرب السودان التابعة له لا من القبائل التي تنتمي اليه حقيقة حفظا لهم ووقاية من الوقوع في الهزيمة فجهز جيش ابن النجومي من قبائل « الجالان » و « الدناجلا » و « النيفاريون » . وقبيلتا « الجالان » و « الدناجلا » من أتباع الخليفة الشريف . وقد كان الخليفة عبد الله ينظر اليهما دائما كما ينظر الى الأعداء .

وكان الخليفة يتمنى بكل جوارحه نجاح الحملة وما كان يخالجه شك في قدرة قائده واخلاصه وكان يمني نفسه بغزو الديار المصرية ليضيف الى ملكه بلادا جديدة الا أن المصريين انتصروا عليه وألحقوا به خسائر فادحة وردوا جيوشه منهوكة القوى الى دنقله .

وان حوادث ذلك العهد التي انتهت بهزيمة جيش الدراويش في واقعة توشكا في ٣ اغسطس سنة ١٨٨٩ وموت ابن النجومي

معروفة لا تحتاج الى اعادة ايضاح هنا . ولكن بمناسبة تكوين الحملة السابقة الذكر من رجال القبائل التي قلنا أنها في الأصل كانت معادية للخليفة وهو يوجس منها خيفة دائما أبدا أروى حادثة حدثت لقبيلة من تلك القبائل فقد حدث أن ترددت قبيلة « البتاهية » في القدوم الى أم درمان لتقديم طاعتها الى الخليفة فجهز للهجوم عليها حملة هزمتها شر هزيمة وأسرت منها ما يقرب من ٦٧ رجلا بأهلهم . وكانت هذه القبيلة مشهورة بقوة رجالها أيام ان كانت الحكومة المصرية مستولية على السودان .

وأمر الخليفة بمحاكمة هؤلاء الأسرى بتهمة « العصيان » فلما سأل قضاته عن عقوبة العصيان أجابوه بلا تردد « الموت » وبعد ذلك أمر الخليفة باعادتهم الى السجن وأخذ يعد المعدات اللازمة لتنفيذ الحكم عليهم .

وبناء على ارادته أقاموا ثلاث مشانق في ساحة السوق . وبعد صلاة الظهر دقت الطبول ايذانا بقرب ميعاد التنفيذ وجاء الخليفة متبوعا بحاشيته راكبا ولما اقترب من مكان التنفيذ نزل وجلس على سرير صغير وحاشيته من حوله ، منهم من هم ركوع ومنهم من هم وقوف ، ثم أحضروا أمامه أولئك الرجال مكتوفي الأيدي يحيط بهم رجال عبد الباقي بينما كانت النساء والأطفال تتبعهم نائحات نادبات .

وأمر الخليفة بأن يجعل النساء والأطفال في ناحية والرجال في ناحية أخرى ، وبعد ذلك جاء « أحمد الدليا » و « طاهر واد الغالي » و « حسن واد خبير » وهم الذين انتقاهم الخليفة لتنفيذ الحكم على هؤلاء التعساء وأمر ثالثهم بأن يذهب ويأمر الحراس بأن يأخذوهم الى المكان الذي نصبت فيه المشانق .

وبعد ربع ساعة قام الخليفة وتبعه جميع من كان حوله الى ساحة السوق حيث رأينا منظرا تقشعر منه الأبدان . وجدنا هؤلاء البؤساء قسموا الى ثلاث فرق قسم نفذ فيه حكم الشنق وقسم تحت التنفيذ والقسم الثالث قطعت أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى . ووقف الخليفة يشاهد هذا المنظر بنفسه . وقف يشاهد كومة من جثث الرجال . وقف يشاهد من قطعت أيديهم وأرجلهم . وقف يشـــاهد هذه الأيدى وتلك الارجل مبعثرة هنا وهناك . وقال « لعثمان واد أحمد » أحد القضاة ـ وقد كان من أعز أصدقاء الخليفة « على » وأحد أركان تلك القبيلة ـ وهو يشير الى تلك الجثث : « يمكنك الآن أن تأخذ ما بقى من افراد قبيلتك » . قال ذلك بـسكل سخرية فارتعدت فرائص الرجل ولم يقـــدر على الاجـــابة .

وعاد الخليفة بعد ذلك وأخذ « أحمد الدليا » يتمم مهمته . فترك ٢٣ جثة هامدة ملقاة على الأرض هنا وهناك . والباقى ينفذ فيهم الحكم بأفظع حال .

وقد كان هؤلاء يلاقون الموت بشجاعتهم المعهودة فيهم ولم يجزع واحد منهم بل كان معظمهم يردد كلمات تنبيء عن البسالة كأن يقول أحدهم « الموت حق » أو « لابد لكل واحد أن يموت » أو « من لم ير فى حياته شجاعا يلاقى الموت فليقدم الى هنا ليرى بعينيه » وغير ذلك مما ينبت عدم اكتراثهم لما كانوا يلاقونه .

وبعد ذلك تمت ارادة الخليفة بأن أعدموا جميعا . ولما عاد الى داره أصدر أمره بأن يترك النساء والأطفال بدون مأوى حتى يباعوا بأرخص الأثمان .

وبالرغم من تلك المناظر التى كانت تقشعر منها الابدان كنت أشعر بسرور في نفسي لما وصلني من الأخبار بأن هناك خطابات ستصل الى قريبا من اخوتى وان في الطريق صـــــندوقين لى من النقود . وفي صباح يوم بينما كنت جالسا أمام الباب وصل جمل يحمل صندوقين وطلب الجمال مقابلة الخليفة شخصيا قائلا انه جاء ومعه رسائل من عثمان دجنه وأمر الخليفة بعد أن تقابل مع الجمال بأن يرسل الصندوقين الى بيت المال وكان قد دهش فى أول الأمر لما رآهما . وامر أيضا بأن تعطى الخطابات الى كاتب سره . وضاق صدرى لطول الانتظار لأنى كنت أحب أن أعلم ما ورد لى . وكانت للخليفة لذة خاصة فى عدم ابلاغى أى شيء قبل غروب الشمس . فلما غربت ناولنى الخطابات وكانت كما لاحظت من اخوتى وهم يظهرون فيها سرورهم العظيم لما تسلموا منى خطابا وعلموا بأنى ما زلت على قيد الحياة .

وكان أحد تلك الخطابات باللغة العربية موجها الى الخليفة نفسه يشكرونه فيه على عنايته بى . والذى كتبه هو الأستاذ « واهر مند » فجعله كله آيات مدح فلما أطلع الخليفة عليها صار يترنم بذكر كاتبها وأمر بقراءة الخطاب فى المسجد عقب الصلاة ثم أمر بعد ذلك بأن يرد الصندوقان الى .

وترجمت اليه الخطابات التى وصلت الى وأبلغته ان اخوتى أرسلوا اليه كيس سفر هدية وانهم يلتمسون منه التنازل بقبول هذه الهدية الصغيرة التى لا تتناسب مع مقامه العظيم فقبلها وأمرنى باحضارها اليه فى صباح الغد . وارسل معى تابعيه ليحضرا فتح الصندوقين فتوجهنا جميعا الى بيت المال حيث فتحناهما فوجدت فيهما المائتى الجنيه التى طلبتها وكذلك الساعات وأمواسا للحلاقة

ومرايا وجرائد وترجمة القرآن باللغة الالمانية وهدية الخليفة وقد تسلمت كل هذه الاشياء ثم توجهت الى حجرتى وأخذت أعيد قراءة خطاباتى واحتفظت بالصحف التى تحوى أخبار بلادى العزيزة !!!

وكانت تلك الصحف عبارة عن أعداد جريدة Neme Freie Presse وهى بطبيعة الحال فيها الكفاية لسد رمق من لم يعرف شيئا عن أخبار بلاده منذ ست سنوات وجاءنى الاب « أوهر والدر » خفية واخذنا معا نقلب تلك الصفحات .

وفى صباح الغد قمت مبكرا وحملت الهدية وذهبت الى الخليفة فامرنى بفتحها ولما رأى ما احتوت عليه من علب المعدن اللامعة والزجاجات والأمواس والفرش أظهر اعجابه الكثير ثم ابتدأت أوضح له فائدة كل شيء على حدة . وحينئذ أرسل فى طلب القضاة الذين كانوا فى ذلك الوقت يباشرون عملهم فلما جاءوه واطلعوا على ما احتوته الحقيبة دهشوا كثيرا ولو أنى كنت على يقين من أن كثيرا منهم رأوا مثل هذه الأشياء قبل الآن .

وبعد ذلك طلب الخليفة كاتب سره وأمره بأن يكتب فى الحال خطابا لاخوتى يبين فيه المركز السامى الذى أشغله عند الخليفة وثقته التى لا حد لها فى أخيهم وان يدعوهم للحضور الى أم درمان لزيارتى وان لهم الحرية التامة فى الرجوع بعد تأدية الزيارة .

وامرنى بأن أكتب لهم مثل ذلك . وبالرغم من وثوقى بأنهم لا يجيبون هذه الدعوة كتبت اليهم بالا يجيبوها وبالا يحضروا .

وأرسلت المراسلات مع نفس الرسول الذى قدم من قبل عثمان دجنه . وأعطى الخليفه لعثمان التعليمات بان يبعث تلك الرسائل بنفس الطريقة التى سبق له أن بعث بها فيما مضى .

وكان الخليفة في هذا اليوم منشرح الصدر مسرورا . وكان سروره بسبب قدوم جميع أفراد قبيلته التعايشة الى أم درمان لأنه كان قد طلب اليهم ذلك ومهد لهم كل السبل التى تسهل عليهم القدوم . الا أنهم ظنوا أنفسهم أسياد الحرث والنسل واستولوا على كل شيء مروا به من ماشية بجميع أنواعها ونهبوا متاع الرجال وحلى النساء في طريقهم . مع أن الخليفة كما قدمت كان قد أمر بتشييد مخازن للمؤن في طول طريقهم لتسد حاجتهم . وكانت المراكب والبواخر قد أعدت لنقلهم الى أم درمان .

ولما وصـــلوا الى الضفة اليمنى لأم درمان أمرهم الخليفة بالانتظار بعد أن قسمهم الى قسمين وبعد أن أمر بأن يلبس الرجال والنساء أزياء جديدة من بيت المال . ثم أخذ يستقبلهم جماعات جماعات في أم درمان واستغرقت مدة نقلهم من الضفة اليمنى الى أم درمان يومين أو ثلاثة أيـام حتى يلفت الأنظـار ويعلم الجميع أن أسيادهم قدموا الى المدينة . وأخلى لهم الجزء الواقع بين المسجد والحصن ليكون مقرا لهم وأعطى السكان الذين تركوا ديارهم أرضا بدلا منها كما أصدر أمره لبيت المال بأن يمد يد المساعدة لتشييد مساكن جديدة لهم .

ولكي يسهل على أفراد قبيلته سبل المعيشة ـ وكانت أسعار الغلال قد أخذت في الصعود ـ أصدر أمره بمصادرة جميع الغلال المخزونة وبيعها بأرخص الأثمان لرجال التعايشة وقسم الأموال التى جمعت بين أصحاب الغلال الذين عادوا فاشتروا غلالا بأضعاف أضعاف ما باعوا . ويمكنني أن أقول ان ثمن عشرة أرادب بيعت للتعايشة صارت بعد ذلك تساوى ثمن أردبين لما أراد أصحاب الغلال شراء بدل منها .

ولما نفد ما كان مخزونا فى أم درمان أرسل الخليفة رسله الى الجزيرة ليصادروا كل ما يجدونه هناك ، ولكن تلك الأعمال التى عملها فى سبيل راحة أفراد قبيلته وما ارتكبه هؤلاء من سلب ونهب سببت كراهية أتباعه فيه .

والآن قد انتشرت المجاعة فى جميع أنحاء السودان حيث لم يسقط مطر .

ولما وقعت المجاعة وانتشرت فى بربر قبل غيرها من نواحى السودان نقصت المحصولات لدرجة أنها أصبحت لا تسد حاجة السكان ، ورحل أغلب هؤلاء الى أم درمان التى كانت مزدحمة أشد ازدحام فاشتد الخطب وارتفعت أثمان المحاصيل حتى بلغ الاردب من الحنطة ٤٠ ريالا ثم ارتفع بعد ذلك الى ٦٠ ريالا . فمات الفقراء جوعا . وكانت الأشهر الأخيرة من عام ١٨٨٩ أشهر شقاء وبؤس وتعاسة وفتكت المجاعة فيها بالناس فتكا ذريعا . وانحطت حالة القوم الصحية حتى أصبحت أجسامهم هياكل عظيمة تحوى العظام وعليها الجلود البشرية فقط .

وصار الناس يأكلون كل شىء فأكلوا جلود الحيوانات القديمة ولم يتركوا حتى الجلود المصنوعة منها سررهم فقد كانوا يقطعونها ويغلونها فى الماء ثم يأكلونها ويشربون الماء . وانتشرت السرقات وعمت الفوضى فكان كل من فى قدرته ارتكاب السرقات فعل .

وانى أذكر حادثة وقعت أمامى فقد رأيت رجلا اختطف من غيره قطعة شحم والتهمها بكل شراهة فهجم عليه صاحبها محاولا اخراجها من فمه فأحاط عنقه بيديه وخنقه ولكن اللص لم يخرج فريسته من فمه وأخيرا وقع مغمى عليه .

وقد كنت تسمع في ساحة السوق حيث يجلس النساء لبيع سلعهن نداء الاستغاثة في كل لحظة من هؤلاء الذين أخذوا على عاتقهم السلب والنهب .

وكانت الساحة الواقعة بين بيت الخليفة وبيت يعقوب تزدحم كل ليلة بالذين يصرخون مطالبين بالخبز وكان بعضهم يتبعني عند ذهابي الى منزلي محاولين اقتحامه وفي ذلك الوقت ما كنت أمتلك من القوت الا ما أسد به رمقي ورمق حاشيتي وأصدقائي الذين معي .

وفي ذات ليلة ـ وكان القمر بدرا ـ بينما كنت راجعا الى منزلي حوالي الساعة الثانية عشرة ليلا شاهدت بالقرب من بيت الأمانة « مخزن السلاح » شيئا يتحرك على الارض فتوجهت شطره لأرى ما هناك ووقفت أرقب منظرا بشعا تقشعر منه الابدان . رأيت ثلاث نساء عاريات مسدلات شعورهن الطويلة على أكتافهن يتهافتن على أكل جحش صغير يخيل لي أنهن خطفنه من أمه . وقد رأيتهن يقطعن من لحمه بأسنانهن ويأكلن منه . وكان هذا الحيوان المسكين لايزال على قيد الحياة فهجم عليهن الذين كانوا يتبعونني واختطفوا الفريسة منهن وحينئذ تركت هذا المنظر فارا الى داري .

وفي يوم آخر رأيت امرأة يظهر لي أنها كانت في يوم من الأيام جميلة ، رأيتها ملقاة على الأرض وبجانبها طفلها الذي قد لا يتجاوز من العمر عاما وهو يحاول الرضاعة ولكنه كان يحاولها من أم أصبحت للأسف جثة هامدة !! وبقي يتأوه ويتألم على ذلك الحال حتى مرت عليه امرأة أخرى فأخذته .

وفي ذات يوم مرت بداري سيدة ومعها بنتها الوحيدة وكانت هذه المرأة على ما يظهر لي من قبيلة « الجالان » تلك القبيلة التي

يمكنني ان أقول أنهـا أحسن القبائل حالا . جاءت هذه السيدة وبنتها معها على شفا حفرة من الموت تطلب مني مساعدتهما فجدت عليها بكل ما أمكنني أن أجود به وبعد ذلك عرضت علي أن تسلمني بنتها وتتركها لي رقيقة لاحميها من الموت جوعا . وكانت تتلفظ بهذا القول ودموعها تنهمر من عيونها . فطلبت اليها مغادرتي ومعها بنتها وأعطيتها كل ما كان في وسعي أن أعطيه .

ووجدت امرأة اخرى تأكل طفلها فساقوها الى مركز البوليس لتاخذ جزاء ما فعلت ولكنها ماتت بعد يومين .

وكان الناس يبيعون أولادهم ذكورا واناثا لا لغرض الحصول على أثمانهم بل لحفظ حياتهم عند من يقدر على تموينهم . وبعد أن انقضت تلك السنة استردوهم بأثمان غالية -.-

وكانت جثث الموتى في الشـــوارع لا تحصى ولا يوجد من يحماها . وأصدر الخليفة أمره مكلفا كل شخص بأن يحمل الجثث التي توجد أمام داره ليواريها بالتراب ومن لم يفعل تصـــادر أملاكــه .

وكان لذلك بعض التاثير الا أن أصحاب المنازل كانوا يزيحون ما أمام منازلهم الى قرب منازل جيرانهم تخلصـــا من العقاب فتسبب من ذلك وقوع المشاكل والمضاربات بين الناس وكنت ترى الجثث طافية في النيل آتية من البـــلاد الواقعة على ضفتيه وعددهـــا لا يحصى .

وكان جل الذين ماتوا في أم درمان من الذين وفدوا عليها من الخارج لا من ســـكانها الأصليين . اذ أن هؤلاء كانوا قد خزنوا

بما وقعت عليه أيديهم من غلال وكانت كل قبيلة تســاعد جارتها اذا احتــاجت .

وكان الحال على عكس ذلك في جهات السودان الأخرى . وكان ما أصاب قبيلة « الجالان » أشد مما أصاب أي قبيلة أخرى ولو أنها كانت احسن قبائل السودان حالا .

وأما سكان دنقله فكانوا أحسن حالا من غيرهم وكان أسوأ السكان حالا سكان القضارف والقلابات . وكان (زكي طومال) قد أصدر أوامره في أول المجاعة بأن تجمع كل الحبوب التي في جهاته على أن يتمون منها جيشه فنجم من ذلك موت الكثير جوعا .

وكثرت حوادث السلب والنهب في تلك الجهــات وأصــبح الواحد من سكانها يخشى الخروج بدون سلاح يحمي به نفسه ممن يريد السطو عليه لا ليسرقه بل ليفترسه ويأكله كما حدث ذات يوم لأحد أمراء قبيلة الحمر فقد وجدت رأسه في اليوم التالي ملقاة في طرف من أطراف المدينة . أما جسمه فلم يوجد لأنه أكل بطبيعة الحــال .

وأبيدت بسبب تلك المجاعة قبائل « الحسابيا » و « الشكرية » و « العقالان » و « الحمرة » عن آخرها وبذلك خلت بقاع واسعة في السودان من السكان .

وكان الحال في دارفور أحسن منه في القضارف والقلابات كما كانت القبائل الغربية كقبيلة « حمر » و « دار تاما » و «مزاليط» أحسن حالا من الفاشر نفسها اذ كانوا قد منعوا تصدير الحبوب اليهــا .

وقد يخيل الى أن هذه المجاعة حلت بهؤلاء القوم لينتقم بها البارىء جلت قدرته من هذا الخليفة الجبار وشيعته . وعلى أثر انتشارها جهز تجار أم درمان مراكبهم بالحبوب وذهبوا الى فاشوده فبدلوا غلالهم بأشياء أخرى كالنحاس والبلح وغيرهما وعمل مثلهم سكان جهات أخرى وصلوا بغلالهم حتى أعالى نهر السوباط .

وبعد ذلك ابتدأ فصل الامطار ونمت المزروعات ففرح الناس لازالة الخطب الا أن جيوشا من الجراد حلت بالبلاد ففتكت بالمزروعات فتكا ذريعا .

ولما كان الخليفة لا هم له الا اغداق النعم على أفراد قبيلته والسعى لتوفير راحتهم أصدر أوامره الى السكان بألا يبيعوا النزر القليل من محاصيلهم التى جمعوها بعد فتك الجراد الا لأفراد قبيلته بأرخص الأثمان . ولما كان هذا القدر لا يكفى بطبيعة الحال لسد رمقهم أصدر أوامره الى ابراهيم عدلان لكى يتوجه الى الجزيرة ليرغم الأهالى هناك على تقديم ما لديهم من الذرة بدون مقابل . الا ان عدلان لم يوافق على هذا الطلب وعارض فيه بكل اباء وشمم .

ولقد بحث الخليفة عبد الله مع أخيه يعقوب فى هذا الشأن وغيره . وكان يعقوب هذا من ألد أعداء عدلان الذى يروى عنه الناس أنه طيب القلب عالى الهمة لا يميل لاضطهاد الناس بتكليفهم ما لا طاقة لهم به على النقيض من ذلك كان يأخذ على عاتقه فى كثير من الأوقات ما يقع على غيره من المسئوليات . ولقد جمع ثروة طائلة ما كانت لتخفى على الخليفة .

وسمع الخليفة من يعقوب وأصدقائه أن نفوذ عدلان فى البلاد لا يقل عن نفوذه وقالوا انه دائما يتكلم فى المجالس ضده وضد

حكومته . وكان من اقواله للناس أن المجاعة لم تكن الا بسبب ارهاق الخليفة لهم في سبيل راحة أبناء قبيلته وقد تسبب من هذه الوشايات أن أحيل عدلان الى المحاكمة فقضت عليه بأن يقبل الموت أو الفقر ففضل الاول فساقوه مكتوف اليدين الى صدره حتى ساحة السوق . وهناك نفذوا فيه الحكم وكان رابط الجاش لدرجة أنه هو الذي وضع رأسه بنفسه في حبل المشنقة . ورفض أن يشرب الماء الذي قدم اليه طالبا الاسراع في تنفيذ الحكم . وقد سقطت جثته وهو يشير بسبابته اشارة أنه يموت مسلما موحدا الله سبحانه وتعالى . وحزن جميع السكان على قتله الا أن الخليفة سر سرورا عظيما لأنه قضى على شخص كان يوجس منه ومن نفوذه خيفة وكان غير مطيع لأوامره . وأرسل الخليفة أخاه لبسير في جنازة عدلان اشارة الى أنه لم يشنق الا تنفيذا للقانون لا حقدا عليه كما ظن النـــاس .

وولى الخليفة بدله خازنا لبيت المال المدعو « نور واد ابراهيم » الذي كان جده « تكروري » وعلى ذلك هو ليس من القبائل النازلة على ضفاف النيل ولكنه نال ثقة الخليفة ورضاه .

وأما بالنسبة لشخصي فقد تغيرت نظرات الخليفة الي ، وداخله الشك من جهتي .

ووصل رد خطابي الأخير الذي أرسلته الى أهلي غير مشتمل على شيء سوى الاغتباط لانتظام المراسلات بيني وبينهم . وكتبوا في الوقت نفسه الى الخليفة يشكرونه على عنايته وعلى الدعوة التي وجهها اليهم بطلب الحضور الى أم درمان .

واعتذر أخى الاكبر عن عدم امكانه الحضـــور بان حالته لا تساعده لأنه يشغل وظيفة كبير أمنــاء جلالة أمبراطور النمسا . واعتذر الآخر بأن وقته وهو ضابط فى الطوبجية لا يسمح له بالقيام برحلة طويلة كهذه .

ولما طلبنى الخليفة الى حضرته أمرنى بترجمة تلك الخطابات ثم قال لى : « كانت رغبتى فى أن تطلب الى واحد من اخوتك أن يحضر وبما أنهما يعتذران الآن بأعذار لا أقبلها فيتحتم عليك ألا تكتب اليهما بعد الآن ، فاذا أرسلت خطابا واحدا اليهما فان ذلك يكفى للقضاء على هدوئك وسكينتك . أفهمت ؟ فأجبته : « نعم يا مولاى . أوامرك مطاعة . وانى لا أجد داعيا للكتابة اليهما » فقال لى : « أين الانجيل الذى أرسل اليك ؟ » فاجبته : « انى مسلم يا مولاى وليس لدى انجيل بالمنزل وانما الذى أمتلكه هو ترجمة القرآن الذى رآه كاتم سرك لما فتحنا الصناديق سويا » فأمرنى بأن أحضره اليه فى صباح الغد وأشار الى بالانصراف .

وتيقنت بعد هذه المقابلة أن ثقة الخليفة بى زالت وعلمت أيضا أنه بعد هزيمة ابن النجومى أخذ يسر الى قضاته أن ثقته فى تغـــيرت .

وكنت فى هذا الوقت قد صرفت المبلغ الذى وصل الى من أهلى وجله منحته هبات الى زملائى الذين أخذوا يدسون لى الدسائس الآن لما علموا أننى أصبحت لا أملك شيئا وهم الذين قالوا للخليفة ان الكتاب الذى عندى هو الانجيل .

وفى صباح اليوم التالى توجهت اليه ومعى الكتاب وسلمته اليه وهو من ترجمة العلامة « المان » ففحصه جيدا .

وقال لى : « أنت تقول ان هذا الكتاب ترجمة القرآن وهو مكتوب بلغة الذين ليس عندهم عقيدة دينية . انهم ربما يكونون قد اخطأوا في ترجمته » فأجبته بكل هدوء وسكينة : « انه يا سيدى ترجمة حرفية والغرض منه هو أن أتمكن من فهم الكتاب المقدس الذى نزل من عند الله سبحانه وتعالى على يد الرسول باللغة العربية وان شئت أن تتأكد من صحة ترجمته الحرفية » فأجابنى قائلا : « انى أعتقد فيك الصدق ولكن الناس هم الذين قالوا ذلك القول فيحسن بك والحالة هذه أن تحرقه » ولما اظهرت له الموافقة على طلبه قال لى : « ويجب أيضا أن ترد الهدية التى بعث بها اخوتك لى لأنه لا فائدة لها عندى وليعرفوا ان الأشياء الدنيوية لا قيمة لها في نظرى » .

ثم أمر كاتم سره بأن يكتب خطابا باسمى الى أهلى يخبرهم فيه بأن لا داعى بعد الآن الى مكاتبتى . فوقعته بامضائى وارسلته مع الهدية الى بيت المال ليرسلا من هناك الى سواكن كالمعتاد .

ومن هذا اليوم أصبحت شديد الحرص . وبعد موت عدلان استدعانى الخليفة مرة أخرى بحضور ضباطه وأخذ يقول لى : « انه يعلم انى جاســـوس وتجب مراقبتى بدقة ومراقبة الذين يحضرون لزيارتى وجلهم من أعدائه . ويجب على أن أعلمه بمحل نومى فى منزلى وأن أغير خطتى التى أنا متبعها والا لحقت بعدلان » !

فأجبته قائلا بكل هدوء وسكينة : « يا مولاى لا يمكننى الدفاع عن نفسى . وأنا أجهل خصومى الذين وشوا بى ولكنى أفوض أمرى للبارىء جلت قدرته . ولقد مضت ست سنوات بل أكثر وأنا الخادم الأمين فى خدمة مولاى أواصل الليل بالنهار على بابه تحت الشمس المحرقة وتساقط المطر الغزير . وتنفيذا لأوامرك يا مولاى قطعت

صلاتي مع كل أصدقائي . وفي كل هذه المدة التي أنا فيها في خدمة سيدى لم ارتكب جـــرما . فأخبرني يا مولاى عن الذنب الذى ارتكبته . ان طاعتى لك طول هذه المدة لم تكن عن خوف وانما كانت عن محبة واخلاص . وليس يمكنني أن أفعل أكثر من ذلك . وانى لرحمة ربى وعفو مولاى منتظر » .

فقال للملازمين ما رايكم فى اقواله هذه ؟ فاجابوه بأنهم لم يلاحظوا شيئا يشين سمعتى .

وقد علمت بعد ذلك من هم هؤلاء الذين أوجدونى فى ذلك المركز الحرج . ثم قال لى أنت مسامح هذه المرة وعليك أن تحاذر فى المستقبل . ثم مد لى يده لأقبلها وأمرنى بالانصراف .

وفى اليوم الثانى طلبنى وحدثنى بكل لطف طالبا منى ان احذر أعدائى وأن أجتهد بقدر المستطاع حتى لا يكون لى أعداء وأعلمنى بأن المهدية تتبع قواعد الاسلام فاذا ما شهد ضدى فى أى دعوى شاهدان وجبت ادانتى حتى ولو كان الشاهدان كاذبين وفى هذه الحالة يصبح العفو عنى غير مستطاع فكيف يحلو لى العيش والحالة هذه وحياتى أصبحت بارادة شخصين يريدان الايقاع بى . ولكنى على كل حال شكرته على نصيحته الغالية وقلت له يا مولاى انى أعمل دائما بقدر استطاعتى لارضائكم حتى أكون دائما محل ثقتكم .

ولما عدت الى منزلى وقد انتصف الليل كنت فى أشد حالات التعب راغبا فى الراحة فقابلنى خادمى سعدالله وأبلغنى أن تابعا من أتباع الخليفة جاء حالا ومعه سيدة مقنعة أرسلها لى وهى بدارى الآن . فسررت عند سماعى ذلك لا لشىء سوى أنى تيقنت من رضاء الخليفة وتحققت أن قد زال كل شىء من نفسه . ثم ذهبت مع

سعدالله الى المنزل فوجدت تحت القناع سيدة مصرية ولدت بالخرطوم لا بأس بجمالهـــا فبعد أن تبادلنا التحيات بادرتني بسرد تاريخ حياتها مدعية انها ابنة ضابط مصرى وقد علمت بعد ذلك أنها ابنة جندى وقع قتيلا فى حرب الشلك وان زوجها الأول قتل فى الحملة التى أرسلت للاستيلاء على الخرطوم وان أمها حبشية لا تزال على قيد الحياة . ثم قالت أنها كانت احدى نساء أبو انجه العديدات وان الخليفة اختارها الآن لتكون زوجـــة لى خلفا لذلك البطل العظيم . وقالت لى انه سبق للاحباش أن أسروها وكان زكي طومال هو الذى اطلق سراحها . وقالت أخيرا أن لديها معلومات قيمة عن المعارك التى نشبت فى عهد أبو انجه .

وحكاية هذه السيدة هى أن الخليفة كان قد أصدر أوامره باحضار أرامل أبو انجه الى أم درمان فلما حضرن أخذ يوزعهن على أتباعه ، وقالت لى انها لمغتبطة جدا لوقوعها مع شخص من أبناء جلدتها فأجبتها فى الحال بانى أوربى وان ما حصل من تغيير لونى انما كان بسبب ما أنا عليه من الحال واضطررت الى أن أن أقول لها انها ستكون موضع عنايتى .

ولما كنت فى أشد الحالات والتعب طلبت اليها أن تتبع الخادم سعدالله الذى سيمهد لها كل سبل الراحة . وقلت فى نفسى ان الخليفة بدلا من أن يأمر خازن بيت المال بأن يمدنى بالمساعدة لقضـــاء حاجياتى الضرورية بعث لى بتلك الزوجة التى تزيد فى شقائى وتعبى .

وفى اليوم التالى سألنى الخليفة عما اذا كنت قد أعجبت بهديته وهل أنا راغب فيها . فاجبته بأنى سعيد لأنى شـــعرته برضـــاء مولاى عنى واننى أتمنى ان يجعلنى الله سبحانه وتعالى مشمولا دائما برعايته .

ولما عدت الى منزلى قبل صلاة الظهر وجدته مزدحما بالنساء اللاتى دخلنه بالقوة كما ابلغنى سعد الله مدعيات أنهن اقارب فاطمة البيضاء كما كانوا يسمون السيدة التى بعث بها الى الخليفة ووجدت ضمنهن امراة مسنة قالت لى انها والدة فاطمة وانها مسرورة لأن ابنتها أصبحت لى ورجتنى أن أحسن رعايتها • فأخبرتها بأن بنتها ستكون دائما موضع عنايتى وستعيش فى منتهى الهناء والسرور واعتذرت لهن بكثرة أشغالى ثم انسحبت بعد أن طلبت الى سعد الله أن يحسن وفادتهن على حسب عادات البلاد وأن يخرجهن بعد ذلك ولو أدى الأمر الى استدعاء من يساعده •

ومضت بضعة أيام ثم سأل الخليفة عن فاطمة مرة أخرى • وبما أنى كنت أعلم جيدا أنه يريد دائما أن أعيش عيشة الوحدة ولا أخالط أحدا أخبرته بأنى لا أرى مانعا من أن تعيش معى غير أن لها عدة أقارب يترددون عليها طول اليوم وعلى ذلك قد تضطرنى الظروف الى مخالطتهم وهذا أمر يأباه مولاى وتأباه نفسى ولذلك فانى سآمرها بأن تخضع لأوامرى وتمتنع عن الاتصال بأهلها ومعارفها بقدر الامكان ، فاذا لم تخضع فانى أفضل تسليمها لأقاربها ، فارتاح الخليفة لهذا الاقتراح ارتياحا تاما الا أنه منذ طرد سعد الله الزوار فى أول مرة لم يعد أحد يقدم الى دارنا • ومخافة أن يسىء الخليفة الظن فى قصدى توانيت قليلا فى تنفيذ ما قررته •

وبعد مدة أرسلت فاطمة البيضاء الى أمها وكلفتها بالانتظار هناك حتى أبعث اليها • وعرف سعد الله دار أمها فبعد مدة أرسلت لها ولأمها ملابس ونقودا ورسالة أخبرتها فيها بأنها أصبحت طليقة غير خاضعة لأوامرى •

وأخبرت الخليفة بذلك قائلا له ان أمثال هؤلاء القوم الغرباء عنه وعنى لا يجوز أن يكون لى صلة بهم وانى دائما أبدا على استعداد تام لاطاعة أوامره .

وبعد مضى سنة تقريبا جاءتنى الأم تستأذننى فى زواج بنتها من أحد أقاربها فوافقت على ذلك بسرور تام وقد تركت فاطمة البيضاء فى أم درمان سعيدة بين أولادها .

الفصل الرابع عشر

تشتت وتفــرق

قد عين حاكما لدنقلة عدوى خـالد الذى كان مسـجونا منذ بضعة أشهر وقد حل محل يونس الا انه لم يتقض شهران على هذا التعيين حتى ذهب ضحية الدسائس التى كان يدسها له اثنان من ابناء عم الخليفة كانا قد ذهبا لمراقبة حركاته وافعاله . وقد استدعاه الخليفة ثانية الى أم درمان ووضعه مرة ثانية فى الاغلال . فهذا العمل كان من شأنه أن زاد هياج اقارب المهدى وانصاره وعقب ذلك اتفاق الخليفة محمد شريف واثنين من أولاد المهدى لم يبلغا العشرين من عمرهما مع كثيرين من الاقارب على أن يعملوا جميعا للقبض على ناصية الحكم وكبح جماح الخليفة عبد الله . وفعلا أخذوا فى اعداد الخطة اللازمة سرا فى أم درمان وبدأوا كذلك يستميلون الاصدقاء وأبناء القبائل وأرسلوا كتبهم الى « الدناجلة » القاطنين بالجزيرة يدعونهم للحضور الى أم درمان للانضمام اليهم . ولكن حدث أن أحد الأمراء الجعليين الذى كان قد اقسم بألا يبوح لأحد بشيء الا لأخيـــه وأعز صديق عنده خدع القوم وخانهم وذهب يطلع الخليفة على الأمر معتبرا اياه أقرب الأصـــدقاء . فلما وقف الخليفة عبد الله على سر هذه المؤامرة أخذ يعد المعدات لاحباطها الا أن جواسيس الأشراف عندما عرفوا أن مؤامرتهم انكشفت وعرفوا ما يدبره لهم الخليفة اجتمعوا

في جزء من المدينة واقع في شـمالي بيت الخليفة واسـتعدوا للمعركة ٠

وأما أنا نفسي فقد كنت مشتاقا لرؤية هذه المعركة فما أخشاه وحياتي كانت كل يوم في خطر ٠ وان أمام ناظري حادثة عدلان الذي كان الصديق الحميم للخليفة فقد شنقه ومثل به وقد تأكدت أن عبد الله ما كان يهتم البتة بأرواح أعز أصدقائه وأحبهم اليه وأن هذه الحرب الداخلة لابد أنهـا ستضعف أعدائي « الخليفه وأنصاره » وربما كان لي من وراء ذلك الاضطراب المنتظر حدوثه أمل في أن أسترد حريتي ويصبح في مقدوري أن أستعمل نفوذي في جيش الحكومة الذي ظهرت فيه نزعة الاستياء بسبب المعاملة التي كان يلقـاها ٠

وقد كان من المستحيل على الانسان في مثل تلك الظروف أن يرسم لنفسه خطة واضحة وكل ما كنت أرغبه هو أن تقوم المعركة وأن يكون لي من ورائها أكبر قسط من الفائدة الشخصية ٠

بعد ذلك ابتدأ الفريقان بتبادل الطلقات النارية الا أن ذلك لم يكن الا ايذانا ببدء المعركة الحربية بين الطرفين ٠

وقد كان الفريقان في حالة لا تسر ، فكانت الأسلحة من النوع الرديء ٠ ولم يمض غير وقت قصير حتى انتهت تلك المعركة وقدرت الخسارة بخمسة قتلى ٠

بعد ذلك عرض الخليفة طلب الصلح وأن يعين الاشراف شروطهم وقد دارت المفاوضات طول اليوم بين الفريقين وفعلا عادت سيرتها في اليوم التالي ٠ ومن سوء حظي أن الطرفين وصلا الى حلول مرضية

اتفقا عليها ووافق الخليفة وحلف وتعهد بتنفيذها بعد أن عفا عن كل المتهمين ٠

وقد منح الخليفة محمد الشريف مركزا ساميـــا وأن يحضر جلسات مجلس الخليفة كأحد أقطابه وقد قرر منح كثيرين من أقارب المهدى اعانات من بيت المال ٠

وعلى ذلك سلمت الجنود أسلحتها الى الخليفة وبذلك تم توقيع الصـــلح ٠

وفى يوم الجمعة التالى حضر أمام الخليفة قواد الجيش ونالوا منه المكافآت التى كان قد أعدها وفى ظهر ذلك اليوم نفسه اجتمع الخليفة الشريف وأولاد المهدى وعبد الله نفسه ٠

وبذلك وطدت الآن أركان الصلح بين الفريقين وأصدرت الأوامر الى رجال المدفعية والمشاة بأن يعودوا الى مراكزهم الأصلية غير ان الملازمين والجهادية كلفوا بالبقاء حتى يتم تسليم السلاح جميعه ٠

وفى يوم أحد بعد الظهر ارسلت خادما الى الأب « أوهرو الدر » لأسأل عنه فوجد بابه مقفلا وقد حاولت الاستفسار عنه من جيرانه الاغريق فلم أتمكن من الاستدلال على مكانه ولا مكان أفراد بعثته ٠

وقد خيل الى فى الحال أنه فى أثناء الاضطراب ربما يكون قد تمكن بمعرفة مخلصين له من اللياذ بالفرار ٠

وقبيل صلاة المغرب حضر رئيس الذين اعتنقوا الدين الاسلامى بدون رغبتهم والسورى « جورج استامبول » وطلبا أن يؤذن لهما بمقابلة الخليفة حالا لأمر مهم ولكن الخليفة ، وكان فى تلك اللحظة

مشغولا أمرهما بالانتظار فى المسجد حتى يأذن لهما وبعد تاديه الصلاة طلبهما اليه وسألهما عن مرغوبهما فقالا له : ان يوسف التسيس ومن معه من النساء هربوا جميعا ففى الحال طلب « نور الجرباوى » خازن بيت المال ومحمد وهبه حكمدار البوليس وطلب اليهما أن يعملا ما فى وسعهما للقبض على الذين هربوا واحضارهم الى هنا أحياء أو أمواتا ٠

وكان من حسن حظ هؤلاء اليونانيين ان الخليفة كان مشغولا بأشياء مهمة ولولاها لكان وجه كل قواه للقبض عليهم والتمثيل بهم ٠

وعلى ذلك لم يتمكن الجرباوى ووهبه الا من الحصول على ثلاثة جمال للحاق بـ « أوهرولدر » الذى كان يعلم جيدا ان هروبه متوقف على السرعة ٠

وقد تمنيت من صميم قلبى أن يفوز هو ومن معه بالهرب فقد تعذبوا كثيرا ولو أنى حزنت فى الوقت نفسه حزنا شديدا لأنه كان الشخص الوحيد الذى يعرف لغتى الأصلية التى كنت أحن الى التحدث بها أحيانا معه ٠

وفى اليوم التالى استدعانى الخليفة وقابلنى بوجه مكفهر قائلا : « هو من أبناء جلدته وبطبيعة الحال انك كنت تعرف جيدا عزمه على الهروب فلماذا لم تبلغنى حتى كنت أعمل الاحتياطات اللازمة ؟ » فأجبته : « عفوا يا مولاى كيف كان فى استطاعتى ان أعلم عن هربه شيئا وأنا منذ قيام الحركة الأخيرة لم أنتقل من مركزى بالليل ولا بالنهار كما تعلم يا سيدى » فأجابنى بكل حدة : « لا شك فى أن قنصلكم هو الذى دبر لهم طريقة الهرب » ٠

وكان من بين الخطابات التى وردت أخيرا واحد منها جاء الى الخليفة باللغة العربية من القنصل العام لدولة النمسا والمجر المسيو « فون روستى » يشكره فيه على حسن معاملته للبعثة الكاثوليكية ويطلب اليه أن يسمح لهم بمغادرة السودان والعودة الى أوطانهم حيث انهم من رعايا الحكومة النمساوية وان لجلالة الامبراطور عناية خاصة بهم ومنذ هذا اليوم اعتقد أن أعضاء هذه البعثة من أبناء جلدتى وهو متيقن الآن بأن أمر هربهم دبر بمعرفة القنصل المشار اليه ٠

وهنا قلت للخليفة : « ربما يكون للقبائل النازلة على الحدود يد فى تدبير هربهم لغنيمة وعدوا بنيلها فحضروا الى أم درمان وانتهزوا فرصة الثورة التى قامت ومهدوا السبيل » لاوهر والدر » ومن معه للهرب ٠ وقد اقتنع الخليفة بهذا الرأى ٠ وبعد أن طلب الى أن أكون دائما مخلصا أمرنى بالانصراف ٠

وبالرغم من الوعود التى قطعها الخليفة على نفسه للاشراف بالا يعكر صفو الود والاتفاق الذى تم بين الفريقين بلامبرر ألقى القبض على ثلاثة عشر من زعمائهم بينهم أعمام المهدى نفسه وأرسلهم بمركب الى فاشوده حيث يوجد زكى طومال الامير المحلف الأمين للخليفة والذى كان قد ذهب الى هناك لاخماد ثورة « الشلك » ٠

ولما وصلوا الى فاشوده وضعهم زكى فى زريبة وتركهم بدون طعام الا القدر اليسير ثمانية أيام ٠ ولما جاءته التعليمات السرية لاعدامهم ضربا بعصى تقطع من أشجار الشوك نفذ ذلك الأمر بحضور رجال جيشه بعد أن عراهم من ملابسهم ٠

بعد ذلك عاد زكى طومال الى أم درمان ومعه غنائم كثيرة اذ أحضر معه آلافا من الرقيق من النساء وقطعانا من الماشية باعها

بمبالغ عظيمة حصل عليها بالفعل • وقد شكا كثير من الناس زكي الى الخليفة من شدة ظلمه وطغيانه وكان بعض الناس يقولون للخليفة اذا اكتسب قلوب عدد كبير من أتباعه يمكن أن يستقل ويشق عصا الطاعة •

غير أن ما قدمه زكي اليه ولأخيه من الهدايا الثمينة من رقيق ومال وماشية حفظ له مركزه عندهما •

ولما كان زكي طومال بأم درمان قام الخليفة بعدة مناورات عسكرية تولى قيادتها بنفسه غير أن جهله بالحركات العسكرية وعدم النظام السائد بين الثلاثين الف عسكري جعل هذه المناورات تفشل فشلا تاما ، ولكن اللوم وقع على رأسي حيث كنت قائما بوظيفة أركان حرب ولما رأى ما وقع فيه من الارتباك قرر بأن هذا العمل كان مقصوداً مني لأني عدلت في تنفيذ أوامره • وأخيرا صرف الجنود وبعث بزكي طومال الى القلابات وطلب الى كعادته أن أنفذ أوامره كما هي وأهدى الى جاريتين صغيرتين علامة الرضاء •

والآن وقد سمع الخليفة شريف بما حدث من قتل أقاربه أعلن استياءه الشديد وسخطه على الخليفة جزاء ما ارتكب ، وبذلك تمكن الخليفة عبد الله من ايجاد سبيل الى محاكمته فسرعان ما اتهمه بأنه خارج على القانون غير مطيع للأوامر وكون المحكمة لتحاكمه بتهمة عدم الطاعة •

وبالفعل قرر القضاة ادانة الخليفة شريف وأصدروا الأوامر بالقبض عليه •

وفي اليوم التالي ذهب الضباط لتنفيذ هذا الأمر في منزله الواقع بين منزل عبد الله وقبة المهدي وهناك أبلغوه الأمر ونصحوا

اليه بأن يطيع أوامرهم ولا يظهر أى مقاومة • وفي الحال أصبح تحت تصرف الضباط الذين كان يرأسهم عرابى ضيف الله ولما طلب اليهم أن يسمحوا له بلبس حذائه رفضوا ثم ساقوه بكل عنف وشدة لدرجة أنه وقع على الأرض مرتين • ثم وصلوا الى السجن وهناك وضعوا فيه القيود الحديدية ومنعوا أيا كان من الاتصال به وجعلوا الارض العارية مقعدا له والسماء غطاء •

وقد أرسلوا أبناء المهدى الى جدهم « أحمد شوقى » وأمروه بأن يبقيهم عنده محبوسين لا يتصل بهم أحد ـ وقد كان جدهم يطيع الخليفة طاعة عمياء خوفا على ثروة طائلة اقتناها من أن يصادروها منه ـ فنفذ الأوامر الصادرة اليه كما صدرت •

وقد مرت بى بعد ذلك ساعات دقيقة للغاية فقد أرسل يونس رجلا من دنقله الى الخليفة ومعه معلومات مهمة من الحكومة المصرية • وقد قابله الخليفة بنفسه بحضور جميع القضاة وقد داخلنى الشك فى أن ما يدور عليه الحديث هو بخصوصى ، وقد حاولت استطلاع حقيقة الأمر من أحـــد القضـــاة وكان صـــديقى الا أنه أجابنى بالا اجعل للأمر أهمية عظمى • وبعد الصلاة اجتمع القضاة والرسول بالخليفة مرة ثانية ولم تمض غير برهة حتى رأينا الرسول قد كبلت يداه بالحديد وأرسل الى السجن ولقد اندهشنا عندما رأينا ذلك المنظر •

وفى اليوم التالى لما ذهبت الى منزلى لبرهة قصـــيرة طلبنى الخليفة الى حضرته فتوجهت حيث كان مجتمعا ببعض القضاة وبناء على أمره أخذت مكانى بينهم ثم ابتدأ يقول وقد وجه نظره الى قضاته : « ولطالما نصحته بأن يكون مخلصا لى وانى دائما أعامله معاملة الأب لابنه وما كنت أصدق ما يصل الى من الوشايات بخصوصه ولطالما عفوت عنه » • أخذ يقول كل ذلك عنى لقضاته ثم التفت الى قائلا :

ان المثل العربي يقول : « لا يوجد الدخان اذا لم توجد النار » وأنت يحوم حولك دخان كثير .

وقد قال الرسول أمس أنك جاسوس الحكومة وأن مرتبك يدفع شهريا الى مندوبك في القاهرة حيث يرسله اليك هنا . وهو يوقن بانه رأى توقيعك في ديوان الحكومة هناك . وأنت الذى مهدت الى يوسف القسيس الهرب وقد قال أيضا أنك تعمل لتسهيل الاستيلاء على أم درمان بواسطة الانجليز وانك ستشعل النار في مخزن البارود الموجود بقرب منزلك حينما يبدأون بالزحف . فماذا تقول دفاعا عن نفسك .. ؟ فأجبته :

« مولاى ! ان الله لا يظلم أحدا وأنت رجل الحق والعدل وانى اقول بانى لم أكن قط جاسوسا ولا صلة لى بالمرة مع الحكومة المصرية وانى لم أستلم قط نقودا هنا . وان ضباطك لعلى يقين من أننى فى أشد حالات البؤس والشقاء وان احترامى الشديد لشخصك هو الذى يمنعنى من أن أطلب اليك مساعدتى . وبما أنه روى لمولاى بانه اطلع على امضائى هناك فانى أتهمه بالكذب وأنا موقن بانه لايعرف لغة أجنبية واذا أردت ياسيدى أن أكتب على قطعة ورق عدة امضاءات ثم نعرضها عليه ليستخلص منها امضائى التى يقول عليها بانه رآها هناك بالقاهرة لفعلت . وهنا يتضح لك جليا ان كان حقيقة يعرف اللغات الأجنبية أو لا يعرفها وأنت تعرف يا مولاى ان يوسف القسيس هرب في وقت ما كان فى استطاعتى الاتصال به . ولو كان لى اتصال بهؤلاء الذين يمهدون الهرب فلم لا أمهده لنفسى . ومن السهل جدا على الانجليز أن يعلموا أن منزلى بجوار مخزن البارود لأن الرجل الذى جاءنى بالخطابات التى بعث بها الى اخوانى رأى منزلى فلربما يكون هو الذى حدثهم بذلك .

ومن الجائز أن اقاربي الذين قطعت كل صـــلاتي بهم بناء على أمر مولاى يسألون عني وعن مرتبي في دواوين الحكومة المصرية ظنا منهم أن السودان لا يزال جزءا من مصر أو يسألون التجار الذين يفدون منه الى القطر المصري وبطبيعة الحال يعلم هؤلاء التجار جيدا موضع منزلي بالنسبة لمخزن البـــارود • واني لموقن بأن الحكومة المصرية لا تفكر مطلقـــا في الكر عليـك وأنت هذا الخليفة القوى البطش • واذا سلمنا جدلا بأن الحـكومة تفكر في هذا الغزو فمن أين جاءني التاكيد بانني سأبقى في مركزي وأتمكن من تنفيذ الخطة التي يقول عنها ؟ هذا فضلا عن أني كما تعلم يا مولاى كنت الخادم ولا زلت الأمين المخلص واني أتمنى بأن أكون دائما في طليعة جيوشك الغازية لنصرتك على أعدائك •

« اني يا سيدي بعد كل هذا الايضاح الذى أوضحته لا أعتمد الا على أنك لا تظلم أحدا » •

ثم قلت : « وهل يحق لك أن تضحي بمخلص أمين لك من أجل وشاية « دنقلاوي » ! فبادرني بقوله من أين علمت بأنه « دنقلاوي » ؟ فقلت له منذ مدة رأيت هذا الرجل ببابك مع عبد الرحمن واد النجومي الشاهد ، ونظرا لسخافته والحاحه طردته بالقوة فهو يريد لنفسه الآن الانتقام فانت يا مولاى وقد منحك الله العدل والانصاف ستحكم لي بطبيعة الحال بالبراءة » •

فقال لي : « ما طلبتك هنا للمحاكمة ولا شككت لحظـــة في اخلاصك ولو كان الأمر فيه شيء يشينك ما كنت أمرت بسجنه واني لعلى يقين من أن أعداءك كثيرون وهم يحـــاولون دائما الايقاع بك لأنهم يغارون من وجودك بقربي • ولكن يجب عليك أن تحاذر وأعتقد دائما أبدا في المثل القائل : « لا يوجد الدخان الا حيث توجد النار » •

وبعد ذلك أمرني بالانصراف ومن ثم انصرف الجميع ٠

ولقد سالت احـــد أصـدقائي عما قاله الخليفة بعد خروجي فأخبرني بأن الخليفة اعتبر الرجل كذابا ولكن لا يخلو الحال من أن يكون في دعواه بعض أشياء حقيقية وقد قال لي أيضا لا بد أن يكون لك أعداء بالقاهرة وهذا الرأي سـبق أن طرأ لي ٠ ولكن ما الحيلة وما العمل وأنا أرى أن خصومي يوقعون بي كل يوم ويجعلون مركزي من أحرج المراكز فصرت أفكر دائما في هذه المواقف وصرت أفكر أيضا في علاقاتي مع الخليفة وكيف أنها ستتأثر بهذه الوشـــايات بطبيعة الحال ٠

وان ضيقتي من أنه أصبح بعد كل هذا يتحين لي فرصة للانتقام لأني على ما أعتقد أصبحت في نظره العدو اللدود في ثوب الصديق الحميم ، ولكن على كل حال أحمد الله ومن يعش ير ٠

وقد قابلت في اليوم التالي وأنا عائد الى المنزل بعد تأدية الصلاة « القـــرباوي » وهو الذي خلف « عدلان » في بيت المال ٠ فحادثني بكل لطف قائلا لي ـ بعد أن قلت له أنك تزورنا نادرا ـ لقد جئت لأقلقك بطلبي اليك بأن تخلي منزلك اليوم ٠ وسأعطيك بدلا منه في جنوب شرقي المسجد حيث يستقبل زوار الخليفة وهو ولو انه يقل عن مساحة منزلك الا أنه بقرب المسجد ويصـــلح لرجل عابد مثلك ٠

فقلت له اني أوافق على ذلك بكل سرور ولكن أرجوك أن تقول لي بصفة خاصة من الذي أرسلك : الخليفة أم يعقوب ؟ فأجابني وهو يضحك قائلا : « آه ٠ هذا سر ٠ ولكن من حديثك أمس مع الخليفة يمكنك أن تعلم حقيقة السبب وهو إن مولانا الخليفة يريد أن يجعلك

في مكان قريب منه حتى تكون تحت رقابته مباشرة حيث ستكون على بعد ٢٠٠ خطوة منه » .

ثم قال لى اذن متى أحضر لاستلام منزلك فقلت له سأنتهى من النقل في مساء هذا اليوم ولربما كان نقل مؤونة حصانى وبغلى هى التى تستغرق منى وقتا أطول . وهل المنزل الذى سأذهب اليه غير مسكون فاجابنى : « نعم بطبيعة الحال » وقد أصدرت الأوامر بأن ينظف وتعمل الاصلاحات اللازمة له . ولكن يحسن بك أن تبتدىء في مغادرة هذا المنزل حالا وآمل أن تكون سعيداً فى منزلك الجديد أكثر مما أنت عليه من السعادة هنا .

ولقد وضح لى الآن جليـــا أن ثقــة الخليفة بى قد تزعزعت وأصبح لا يثق بى لأن أكون بجوار مخزن البارود . وعلى ذلك حزمت أمتعتى وأمرت الخدم بنقله الى المنزل الجديد فتأثــر الخدم واخذوا يطلبون الى المولى أن يوقع كل اللعنات على الخليفة حيث لنترك منزلنا الذى أصلحناه وغرسنا فيه الأشجار وحفرنا فيه الآبار . ولكنى على كل حال غادرت المنزل مؤملا فيما قاله القرباوى من انى ســـأكون بمنزلى الجديد أسعد حالا منى فى المنزل الذى أنا فيه .

وقد أصبحت حالى بعد ذلك مضطربة وأصبح مركزى مزعزعا .

ولقد تقابلت اتفاقا مع تاجر من دارفور جاب الديار المصرية والبلاد السورية وعرف كثيرا من أجناس البشر المختلفة وقد عرف لأول وهلة أنى نمساوى الأصل وأخذ يحدثنى ـ وعلم بأنى أسـير من مدة طويلة ولا صلة لى بأى مخلوق ـ عن الأحــوال فى القطر المصرى وأعطانى بعض الجرائد المصرية القديمة . وتحتوى احدى تلك الصحف على أخبار من النمسا . ولما توجهت الى المنزل وابتدأت

اقلب صفحاتها علمت أول ما علمت أن ولى عهدنا الأمير رودلف قد توفى • ولا يمكنك ايها القارىء أن تتصور مقدار الحزن الذى حل بى • فقد خدمت معه فى الجيش وقد كان بودى أن أرجع الى وطنى وأبلغه بعد طول الأسر ان اشرف ساعات قضيتها فى حياتى هى تلك الساعات التى كنت فيها تحت امرته وأعظم شرف لى أن أنتمى الى الفــرقة الامبراطورية • ولقد فكرت طويلا فيما عساه أن يكون قد أصاب امبراطورنا العظيم بفقد ولده •

فقد حلت بى الأحزان فى هذا الوسط المزعج الذى أنا موجود بينه وقد كان زملائى وهم لا يدرون أسباب حزنى يطلبون الا أظهر أسفى لا بالنسبة لتركى منزلى الأول حيث أن الخليفة أصدر أمره الى جواسيسه بأن يراقبونى جيدا فابتدأت أظهر عدم اهتمامى بأى شىء مطلقــا •

وقبل ذلك بمدة وجيزة كان المصريون قد استولوا على طوكر وهم لا محالة زاحفون ، ومن أجل ذلك استدعى الخليفة « أبو جرجه » وولى بدله قيادة الجيوش واحدا من أقاربه اسمه « مسعود » وقد أرسل « أبو جرجه » بباخرتين الى الأقاليم الاستوائية ليلحق بعمر صالح الذى كان قد ذهب الى الرجاف ليقيم هناك مركزا لجيوش الدراويش لصد حملة « ستانلى » و « أمين باشا » •

وبعد مضى أيام قليلة لسفر هذه البواخر مرض الخليفة بالحمى التيفوسية ، وكان عموم سكان أم درمان يستطلعون أخبار هذا المرض أولا فأولا •

وأصبح جميع سكان أم درمان يرقبون أخبار مرض الخليفة بفارغ الصبر وكانوا يتوقعون أن موت الخليفة يغير نظام كل شىء • وبطبيعــة الحــال اذا مات فســـيخلفه الخليفة « على واد الحلو »

حسب ما تقتضيه القوانين المهدية وكان هذا يترقب وفاته بكل سرور وقد أظهر أتباعه الرغبة الشديدة في الاستيلاء على الحكم ، بعد ذلك ابتدأت حالته الصحية تتحسن وقد خيل الى أن الله سبحانه وتعالى لم يهيىء بعد لهؤلاء القوم النجاة فيقضى على حياة هذا الطاغية ٠

خرج الخليفة بعد ثلاثة أسـابيع من مرضه لأول مرة فقابله رجال قبيلته بالتجلة والتعظيم والغبطة والسرور بينما أظهر له بقية السكان سرورا مصطنعا وعلى ذلك لم يعرف شعور الناس نحوه حق المعرفة ٠

وحيث كان يقطن بين النهرين في الجزيرة قبائل « الجالان » و « الدناجالا » وغيرهما من الاعراب الذين يعرف الخليفة عنهم أنهم ألد أعدائه فكان دائما يراقبهم عن كثب ويدعهم عزلا من السـلاح مصادرا كل ممتلكاتهم وكان ينتخب من بينهم آنا بعد آخر عددا يرسله لتعزيز حامية دارفور والقلابات والرجاف ٠

وكان يعتقد دائما أن الخليفة على واتباعه يحقدون عليه ولو أنهم كانوا يظهرون له غير ما يخفون الا أنه ما كان يتوقع قط أن يعلنوا العداء كما أعلنه من قبل الاشراف ٠

والآن وقد أصبحت اقطن على بعد خطوات منه أخذ يسأل عنى كثيرا زملائى ويطلب اليهم ابلاغه هل أنا مسرور من مكانى الجديد أو لا ٠ وكان يترقب بفارغ الصبر وقوع هفوة منى ولكن من حسن الحظ كان الملازمون يعطفون على وبينى وبينهم صـداقة وكانـوا يسرون لى بين آن وآخر أن الخليفة أصبح شديد الحقد على ٠ ويجب أن أكون شديد الحذر ٠

وفى ذات يوم من شهر ديسمبر سنة ١٨٩٢ لما حصلت على اجازة قصيرة لأستريح فيها من عناء العمل طلبنى أحد الملازمين الى الخليفة وبعد أن ذهبت وجدته ينتظرنى فى حجرة الاستقبال محاطا بقضاته • ولقد صدقت ما قيل لى من أول وهلة حيث لم يرد تحيتى وأمرنى بأن آخذ مكانى بين قضاته •

وقال لى بكل حدة هذا الشىء وانظـــر الى ما يحتويه • فقمت واستلمت الشىء المشار اليه ثم جلست فاذا به قطعة مستديرة من النحاس على شكل علبة صغيرة قطرها يقرب من أربعة سنتيمترات مغلفة بقطعة من المعدن متينة كقبضة « المسدس » فحاولت فتح هذا الشىء وبعد ان تمكنت وجدته يحتوى على قطعتين من الورق •

وبطبيعة الحال كنت فى هذه اللحظة فى أشد حالات الاستغراب وقلت فى نفسى لعله خطاب من أهلى أو من الحكومة المصرية استحضره الرســـول •

ولما مسكت قطعتى الورق حاولت قراءة ما تحتويانه فوجـدت مكتوبا فيهما باللغات الألمانية والفرنسية والانجليزية والروســـية ما يأتى :

« هذا العصفور نشأ وتربى بضيعتى فى « اسكانيا » فى مقاطعة « فوريدا » بجنوب الروسيا فمن يمسكه أو يقتله فالمرجو منه أن يكتب لى ويخبرنى عن مكانه » •

فرفعت رأسى بعد تلاوة هذا الخطـــاب فقال الخليفة ما هو المدون بهذه الأوراق فأجبته قائلا : يا سيدى لابــد وأن تكون هذه القطعة كانت معلقة فى رقبة عصفور قتل وان صاحبه الذى يسكن فى أوروبا يطلب الى من يقتله أو يمسكه أن يكتب اليه ويخبره عن المكان الذى مسك فيه أو قتل •

فقال لى لقد قلت صدقا فحقيقة قتل هذا العصفور بالعرب من دنقله ووجـدت هذه القطعة برقبته ، وقد أخذه مـن قتله الى الأمير يونس الذى عجز كاتبه الخاص عن تفسير ما هو مدون به . وبعد ذلك بعثوا به الى فخبرنى بترجمة ما هو مكتوب فيه .

فترجمت الجملة كلمة كلمة كما أراد الخليفة وبينت له موضع البقعة التى جاء منها هذا العصفور وكذلك المسافة التى قطعها ـ فقال الخليفة هذه خرافات يضيع بها الذين لا عقيدة لهم أوقاتهم ، فبعيد على محمدى أن يجهد نفسه فى خرافات كهذه .

بعد ذلك أمرنى بأن أسلم العلبة الى سكرتيره وأمرنى بالانصراف غير أنى تصفحت الورقة مرة ثانية بكل سرعة وعلقت منها كلمات « اسكانيا ـ نوفا ـ فوريدا بجنوب الروسيا » وأخذت أكرر تلك الكلمات حتى علقت بذاكرتى . وقد كان الملازمون فى انتظـــارى خارج الباب وهم فى غاية الشوق الى سماع أخبارى ولما راونى خارجا وعلى وجهى علامات السرور فرحوا لفرحى .

وقد صرت أكرر وأنا فى طريقى الى منزلى تلك الكلمات ونذرت اذا منحنى الله سبحانه وتعالى حريتى لابد من أن اذهب الى هذا الرجل وأبلغه ما طلب وماذا حدث للعصفور . والآن عاد محمود أحمد ـ وهو الذى حل محل عثمان واد آدم لما توفى ـ الى أم درمان بجيوشه البالغة خمسة آلاف بدوى ولم يترك بها غير ما يكفى لحفظ النظام وعسكر بهذه الجيوش عند عين يونس فى جنوبى المدينة .

وقد أمر الخليفة باستعراض جميع الجيوش النازلة فى أم درمان وبطبيعة الحال ستكون نتيجة هذا الاستعراض كنتيجة سابقة وقد كنت أركان الحرب وكل هفوة تقع على مسؤوليتها .

بعد ذلك أمر محمود أحمد بالعودة الى الفاشر بعـــد أن جدد عساكره يمين الاخلاص للخليفة . وقد وجه الخليفة نظره الآن الى

الجهات الاستوائية فبعث بباخرتين أخريين بهما ٣٠٠ رجل تحت امرة قريبه عرابي ضيف الله . أسلمها الى الرجاف ولدى عرابي الأوامر بالقبض على « أبو حرجه » وأن يكبله بالحديد . وقد ظهر جليا أن هذا الأخير لم يرسل الى الرجاف الا خدعة .

وجاء بعد ذلك دور زكي طومال فحقد عليه يعقوب فأمروه أن يعود حالا الى أم درمان حيث زجوه في السجن ووضعوا على جسمه أكبر كمية ممكنة من الحديد تعذيبا له . بعد ذلك وضعوه في مغارة وقطعوا صلاته بكل الناس ولم يسمحوا له حتى بالخبز الضروري لغذائه فمات بعد ٢٠ يوما جوعا وعطشا .

وقد حل الآن بدله في قيادة الجيوش أحمد واد علي فاصدر له الخليفة الأوامر بغزو القبائل النازلة بين كسلا والبحر الأحمر وكانت خاضعة للايطاليين ولكنه تلقى أوامر بألا يغزو جيوشا محصنة في حصون . ولما توجه على رأس جيشه في نوفمبر سنة ١٨٩٣ من القضارف لحق بالقوة المعسكرة في كسلا وهناك توجه الى « أجردات » فواجه القوات الطليانية وكانت قليلة العدد الا أنها متحصنة ، وبالرغم مما أمره به الخليفة هاجمها لقلتها في نظره فهزم شر هزيمة وقتل هو نفسه وقتل قائدان من قواده .

وفي أثناء هذه اللحظات الدقيقة واذا بباخرتين تقدان من الرجاف تحملان كميات هائلة من العاج وآلافا من الأسرى وبعد ذلك بقليل وصلت أخبار غير سارة من دارفور وقد روى محمود أحمد أن المسيحيين دخلوا مناطق بحر الغزال وقد اتحدوا مع القبائل النازلة في هذه الجهات وقد وصلوا بالفعل الى حضرة النحاس . وقد وقعت تلك الأخبار على الخليفة كالصاعقة .

ولما كانت مصر تحكم السودان جند المصريون من أهالى أقليم بحر الغزال الكثير ، منهم من قبل برغبته ومنهم من اجبر على الدخول فى سلك العسكرية · ولما كانت مناطق بحر الغزال أعلى بكثير من غيرها من مناطق السودان ومزروعاتها كثيرة ، وماؤها وفير · ولما كانت القبائل الساكنة فى تلك الجهة متفرقة الكلمة · سهل كل ذلك على أى أجنبى يريد الاستيلاء عليها ، وهذا هو ما قد حصل · وكان فى نظر الخليفة أن من يستولى على هذه المناطق فقد استولى على مفتاح السودان بأجمعه · ومما زاد الطين بلة أن العبيد يكرهون العرب كراهة لا مزيد عليها ·

وقد أمر الخليفة فى الحال محمود أحمد بأن يجند من جنوبى دارفور ويزحف جنوبا الى بحر الغزال ليكسح الأجانب الذين دخلوا هذا الاقليـم ·

وقد استدعانى الخليفة ذات يوم وسلمنى بعض أوراق مكتوبة بالفرنسية وطلب الى ترجمتها وهى تحتوى على خطابين من اللفتننانت دى كنيل الى مساعديه يشملان أوامر أصدرها اليهم · وسلمنى أيضا نص معاهدة موقع عليها من مندوب حكومة الكنغو الحرة والسلطان حامد واد موسى تاريخها ٤ أغسطس سنة ١٨٩٤ والشاهدان فيها « سلطان ريميو » و « سلطان تيجا » وهما موقعان بالافرنجية · فترجمت هذه الأوراق بكل سرعة شفويا للخليفة · ولقد أراد أن يظهر لى عدم اكترائه فقال : « لم أطلب اليك ترجمة هذه الأوراق ـ لأن فى الأمر شيئا خطيرا ـ كلا فقد أصدرت أمرى الى محمود أحمد ليطرد هؤلاء النصارى الذين اخترقوا الحدود ولكن هناك أمر يهمنى أن أصرح لك به وهو بما أننا نعتبرك كواحد من عائلتنا فانى أود أن أشعرك بحقيقة هذا الحال وعلى ذلك قررت أن أزوجك واحدة من بنات أعمامى · فماذا ترى ؟ » ·

وبطبيعه الحال لم تدهشني هذه المنحة فقد عودني الخليفة أمثالها من قبل وتيقنت من حقيقة ما يقصده فهو يريد أن يبعث لي بمن تكون رقيبة على أحوالي بمنزلي . هو يريد أن يعلم حقيقة أسراري . يريد أن يعرف اذا كانت هناك صلات بيني وبين أي مخلوق آخر . فقلت له يا مولاي انني أدعو لك بالنصر على كل أعدائك . ان هذا الذي تريد ان توليني اياه باقتراني بابنة عمك شرف عظيم . وانى اقول لك يا مولاي ان ابنة عمك هذا لم تكن من بيت الملك فقط بل هي من سلالة النبي عليه أفضل الصلاة والسلام . وعلى ذلك يجب أن تكون موضع كل عناية ومشمولة بكل رعاية ولما كان من سوء الحظ أني مصاب بداء الحماقة ، والحماقة أعيت من يداويها وقد لا يمكنني أن أحكم عواطفي عند حدوث أي حادث ولا تخفى نتيجة هذا بين الزوج وزوجته وقد يؤدي هذا الى نفور قد يحصل لا سمح الله بيني وبين مولاي فأرجو معذرتي اذا رجوت سيدي أن يترك هذا الرأي .

فقال لي : الآن وقد عشت بين ظهرانينا عشرة أعوام خبرناك فيها وعرفنا خصـــالك وعاداتك فلم أســـمع عنك الا كل طيب وكل ما يخيل لي من أمرك هذا أنك لا تود تغيير العادة التي ورثتها من قبيلتك الأصلية بأنك لاتريد الا زوجة واحدة (والخليفة يقصد من كلامه هذا أنه باعتباري مسيحيا فلا أتزوج الا واحدة ولذلك أرفض أن أتزوج بابنة عمه) فقلت له : لا يا مولاي فاني لا أتبع عادة بلادي مطلقا وان كنت أتبعها فلماذا تزوجت بثلاث نساء قبل الآن . فأجابني فهمت على كل حال فانت ترفض زواج ابنة عمي !! فقلت له : كلا يا سيدي فانا لا أرفض ولكني أريد قبل الاقدام على أي شيء أن أوضح لك حقيقة أخلاقي . وبذلك أضمن العواقب . وبطبيعة الحال أنه لما يشرفني الانتساب الى قبيلتكم . الا اني أود قبل كل شيء أن تكون مولاي على علم تام والآن وقد تيقن أن محاولاتي هذه كلها علامة الرفض أمرني بالانصراف .

وقد وضعت نفسى بعدم القبول هذا فى مركز حـــرج للغاية وهذا مما جعلنى أزيد فى جهدى لتدبير أمر الهرب ٠

وقبل هذه الحادثة ببضعة أشهر كنت قد كلفت تاجرا سودانيا بالذهاب الى القاهرة ومقابلة القنصل النمساوى ليطلب اليه أن يعمل غاية جهده على تمكينى من الهرب ولكن متى تتحقق هذه الآمال ٠ ؟

الفصل الخامس عشر

ملاحظات متنوعة

سأحدث القراء الآن عن شخص الخليفة وعاداته وأخلاقه فأقول هو السيد عبد الله ابن السيد محمد ينتمى الى قبيلة التعايشة من أولاد أم سار من أسرة الجبارات • وقد اتصل بالمهدى وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره وكان فى ذلك الوقت قوى البنية الا أن الشواغل قد أنهكت قواه الآن فأصبحت تراه كهلا اشتعل رأسه شيبا ولو أنه لم يتجاوز ٤٩ عاما • أصبح سريع الانفعال • ولما تنتابه تلك الحال يصبح من غير المتيسر على أعز عزيز لديه الدنو منه ومحادثته حتى ولا أحد اخوته •

وكان يعتقد دائما أن الصدق والأمانة لا وجود لهما مطلقا عند أى مخلوق وكل ما يظهره الانسان من ملق ومداهنة انما هو لقضاء الحاجات والمآرب دون سواها •

وكان بطبعه محبا للملق والمداهنة لذلك كنت ترى القوم يكيلون له الملق جزافا حتى أن أحدهم لا يجسر أن يذكر اسمه دون أن يقرنه بصفات الحكم والقوة والعدل والشجاعة والكرم والصدق • وكان من جهته يقابل ذلك الرياء بسرور وارتياح تام ويا شقاء من كان يمس كرامته •

ولكي يكون لدى القـــارىء فكرة عامة عن طباع هذا الرجل اسرد الحكاية الآتية :

كان من بين قضاته قاض اسمه « اسماعيل عبد القادر » تعلم جيدا في القاهرة ونال حظوه كبرى عند المهدى لأنه كتب تاريخا قيما عنه يشمل جميع انتصاراته وتاريخ حياته • ولما مات المهدى أمر الخليفة ، اسماعيل هذا ، أن يتمم عمله ويكتب عن الانتصارات ويكيل الفاظ الملق والمداهنة للخليفة • فقال اسماعيل عبد القادر ضمن أقواله مقارنا الحالة في السودان بها في مصر فشبه الخليفة بالخديو اسماعيل باشا وشبه نفسه باسماعيل باشـــا المفتش ولما وصل هذا القول الى مسامع الخليفة أمر القضاة في الحال ليجتمعوا لمحاكمة اسماعيل على هذا القول الذى اعتبره الخليفة ذما في شخصه وقال : « كيف والمهدى خليفة النبى وأنا خليفته يشبهنى هذا الرجل بالخديو الذى هو من أصل تركى • كيف أشـــبه بهذا الرجل وأنا خليفة المهدى والمهدى خليفة النبى الذى هو أعظم مخلوق ظهر على ظهر الأرض وطلب الى القضاة أن يحاكموه فقضوا بادانته وكبل بالأغلال وارسل الى الرجاف • وقال الخليفة ما الذى دعاه الى التشبيه بين مصر والسودان فاذا كان يود أن يشبه نفسه بباشا مصرى فأنا خليفة النبى لا أقبل على نفسى مطلقا أن أشبه بتركى •

ولم يقف به غروره عند هذا الحد بل أصدر أوامره في الحال بأن تجمع كل النسخ مؤلف هذا القاضى وتحرق وبالفعل تم ذلك الا نسخة واحدة كما بلغنى احتفظ بها سكرتير الخليفة ولو وجدت هذه النسخة الآن وترجمت الى اللغات الافرنجية لظهر الشىء الكثير مما كانت عليه الحركة المهدية منذ نشأتها •

وكان هذا الخليفة مغرورا جدا بقوة جيوشه معتقدا أنه في وسعه أن يعمل كل شىء ويغزو أى بلاد وكانت أخلاقه خليطا من

اللين ولتسدة وما كان يسير الا اذا أحدث آلاما لآخرين كمصادرته أموالهم أو تعذيبهم • وكانت تلك خصاله حتى أيام حياة المهدى نفسه فعبد الله نفسه هو الذى سبب مذبحة الخرطوم التى قتل فيها النساء والأطفال بلا شفقة ولا رحمة •

ولما ارسل عثمان واد آدم الى ام درمان أختى سلطان دارفور البرنسيسة مريم عيسى وبخيته منحهما الخليفة حريتهما ولكنه حجز غيرهما من أقاربهما النساء واخذ لنفسه كثيرا منهن وأعطى توابعه أخريات • ولما علم بأن هناك من أهل دارفور من يقطن أم درمان ويريد مساعدة البرنسيستين قبض عليهما واعطاهما لاثنين من أمرائه هما حبيب وخليل وكانا على أهبة السفر الى الرجاف • وقد حاولت أم بخيته وهى ضريرة أن تتبع بنتها فرفض طلبها ومنعت بأمر الخليفة بالقوة من متابعة بنتها حتى أنها ماتت بعد أيام قليلة وقلبها يتحرق على بنتها • ورمت بخيته بنفسها فى النهر والباخرة لم تقلع من مكانها ولما نجوها من مخالب الموت ماتت من التعب والبؤس بعد قليل •

وكان أحمد غراب مصرى الجنس مولودا بالخرطوم ولكنه قبل حملة هكس باشا سافر فى تجارة تاركا وراءه زوجته وهى سودانية وبنته وقد عاد ليراهما الا أنه فى يوم عودته وقبل أن يرى أسرته أحضر أمام الخليفة فاوضح الأسباب التى حملته على الرجوع مظهرا رغبته فى الدخول فى خدمة الخليفة فقال له انى أقبل ذلك بكل سرور فلتذهب فى الحال الى الرجاف • وجاهد فى سبيل الله • وعبثا حاول هذا المسكين أن يقنع الخليفة فى أن يستأذنه السماح له برؤية أولاده فأمر الخليفة حرسه فى الحال بأن يأخذوه الى المركب المسافر على أن يراقبوه جيدا •

والخليفة عبد الله هذا هو الذى سبب هلاك آلاف الناس . وهو الذى كان يعذب الآدميين بأن يقطع أيديهم وأرجلهم تعذيبا . ولم ننس له حادثة قتله وشنقه أفراد قبيلة « البتاهين » فى ساحة السوق . ولقد ذكرت كثيرا أن أصدقاءه كانوا أشد خوفا من أعدائه على حياتهم منه . وهل هناك دليل يثبت فظاعة هذا الرجل أقوى من حادثة سفكه دماء الأشراف بعد أن اتفق معهم وعقد التحالف المعروف .

وكان كل من يدخل عنده يقف مكتوف اليدين مسبلا عينيه الى الأرض ينتظر أمره بالجلوس . وكان هو يجلس دائما على عنجريب مفروش بحصير عليه فرو فاذا أمر أحدا بالجلوس فانما يكون جلوسه على الأرض مقعيا كما يقعى عند الصلاة لا يتحرك حتى يؤذن له بالانصراف وكان لا يسمح لأى مخلوق بأن يشخص ببصره نحوه وقد حدث مرة أن سوريا اسمه محمد سعيد جمعه سوء الحظ ـ وهو بعين واحدة لا يرى بالأخرى ـ بالخليفة بالمسجد فلاحظ الخليفة أن عين هذا السورى ترمقه فدعانى وأمرنى بان أبلغه أن الخليفة لا يحب أن يراه مرة أخرى يرمق اليه .

وكانت حالته فى منزله على عكس ما هو عليه من طباع اذ كان لين العريكة يطيع أمر ابنه حتى أنه فى ذات يوم لما قال الولد لأبيه أنه أتم دروسه سرعان ما أمر المعلمين بالانصراف . وقد زوج ابنه عثمان هذا بابنة عمه بنت يعقوب ولم يتجاوز من العمر سبعة عشر عاما . وأقام له أفراحا لم يسبق لها مثيل فقد مدت موائد الطعام ثمانية أيام حتى تمكن كل فرد من سكان أم درمان من ان يأكل . كما أنه زين المنزل المبنى بالطوب الأحمر والموجود تجاه بيت يعقوب بافخر الرياش لكى يكون محل سكن ولده .

وبعد ذلك بقليل زوج ابنه هذا باثنتين من أقاربه وقدم له جوارى اختارهن هو بنفسه لابنه . وكان يحرم على ابنه الاتصال

بالغير كما كان يصرح دائما بانه لا يسمح له ان تجمعه صلة نسب مع أي قبيلة اخرى ٠

ولما رأى أن لابنه علاقات مع الآخرين سرعان ما جعله يسكن في منزل داخل السور بجوار منزله ليشدد عليه الرقابة ٠

وقد زوج بنته لابن المهدى « محمد » وكان محمد هذا غير راغب في هذا الزواج لأنه لا يحب ابنة الخليفة مطلقا ٠ وكان يرغب فى الزواج بقريبة له ٠ الا أن الخليفة عبد الله وهو صاحب الحول والقوة وولى أمره والرقيب عليه ارغمه على ألا يتزوج بمن يريد فتزوج بابنة الخليفة مرغما وعاشا عيشة مرة ٠

وكان للخليفة ما يقرب من ٤٠٠ امرأة ٠ وبحكم الشرع كان من بينهن أربع زوجات شرعيات والباقيات كن من بنات القبائل التى ارغمت على اتباع المهدى أى بمعنى آخر أسيرات وكان كلما أحب واحدة وأراد الاقتران بها اقترانا شرعيا طلق واحدة من زوجاته الشرعيات ليستبدل بها من يريد ٠ وقد جمع فى زوجاته بين البيض والسود وقد قسمهن الى أقسام بعضها مكون من ١٥ والبعض من ٢٠ يرأس كلا من هذه الأقسام رئيسة وكل قسمين أو ثلاثة أقسام منها تحت اشراف سيدة الأحرار المحظيات عند الخليفة وكان يمنحهن حبا وتلودا وهبات أخرى تمكنهن من قضاء حاجاتهن ويعطيهن أيضا الملابس بنسبة جمال وأخلاق ومركز كل منهن عنده ٠ وتتكون تلك الملابس عادة من نسيج قطنى يصنع فى البلاد السودانية ملون الحواشى أو من حرير لامع وشيلان صوف مستوردة من مصر وكان هو نفسه الذى يباشر توزيع هذه الأشياء عليهن وفى بعض الأحيان يوزعها اغاه الخاص ٠

ولما كانت المجوهرات الفضية قد حرمها المهدى كن يتزين عادة بالخرز والصدف وكن يضفرن شعورهن • الا أنه فى الأيام الأخيرة لبست زوجات العظماء حليا من ذهب وفضة ولبست زوجة الخليفة الأصلية أكثر ما يتصوره انسان من حلى •

وكان يشرف على حالة نسائه الصحية نسوة مخصوصات لا يتأخرن عن اخطاره بكل ما يحدث من الاصابات •

ولما كان يريد اختيار واحدة منهن ليجتمع بها كان يستعرضهن جميعا ويختار منهن من يشاء • وكان لا يختلط بنسائه الا اغواته ولا يحرسهن الا الملازمون السود وقلما كان يسمح لواحدة منهن أن تتصل بأى كائن كان من أهلها أو أقاربها وقد تمضى السنة دون أن ترى الواحدة أى فرد من عائلتها •

وكان اسم زوجته الأولى « ستارة » وهى من قبيلته شاركته السراء والضراء • وهى أم أولاده عثمان وخديجة • ومع أنها أصبحت زوجة الخليفة الآن الا أنها كانت تحافظ مظاهرها وعاداتها الأصلية فكانت تعمل بنفسها أو تحت اشرافها طعامهم البسيط المكون من العصيدة وبعض الفراخ • ولما أراد الخليفة أن يترقى فى معيشته واطلع على أنواع الطعام المصرى وأصناف المأكولات التركية وأراد ادخالها فى مطبخه تسبب عن ذلك شقاق بينه وبين زوجته كان سيقضى حتما الى فراقهما لولا تداخل يعقوب وبعض أفراد أسرته •

وكان عنده اغا رئيس يسمى « عبد القيوم » وكان هذا هو المشرف على تمدين بيت الخليفة ويتناول من بيت المال المصاريف اللازمة ويتولى صرفها • كما كان تحت يديه الهدايا التى كان يمنحها الخليفة لمن يشاء يساعده فى أداء هذه المهام رهط من الكتبة

والمساعدين تحت امرته كلهم أغوات حيث أن الخليفة كما قدمت ما كان يسمح لغير الاغوات بالدنو من منزله ٠

وأما لباس الخليفة فكان عبارة عن الجبة البيضاء وعلى رأسه عمامة من حرير وعلى كتفه حرام ٠ وكان يلبس فى رجليه فى أول الأمر صندلا الا أنه غير ذلك بعد قليل واستبدل به لبس « بلغة » صفراء ٠ وكان دائما يحمل فى يده اليسرى عندما يسـير سيفا وفى يده اليمنى حربة يتوكأ عليها كأنها عصا ٠ ويتبعه فى سيره ١٢ صبيا خدما خصوصيين له ٠ جاءهم من الأحباش الذين أسرهم أبـو انجه وزكى طومال ٠ وكان واجبهم أن يكونوا دائما على مقربة منه ليكونوا رسله عندما يرى أى شىء ٠ ولما يبلغ الواحد منهم السابعة عشرة من عمره يترك خدمة الخليفة الخصوصية ويندمج فى حرس الخليفـة النظامى ٠ ويحل محله آخر من الصبيان ٠

وكان الخليفة يعتقد أنه باستخدام صغار السن يكون دائما فى مأمن من اذاعة أسراره وبطبيعة الحال لا يخطئه واحد مطلقا فى رأيه هذا ٠

وأما فى داخل منزله فكان بطبيعة الحال يحل الاغوات محل هؤلاء الأولاد اذ كما قدمت ما كان يسمح لغيرهم بدخول داره ٠

عرضت على الخليفة منذ ثلاث سنوات فكرة من جانب مشيريه الحربيين فارتاح اليها وعزم على تنفيذها ٠ وتتلخص هذه الفكرة فى ضم أفراد من حرس الخليفة الى صفوف الضباط فى الجيش العام ٠ ولم يكد يعلن موافقته على ذلك الرأى حتى اختار بنفسه عددا من المجاهدين البارزين فى جيش محمد أحمد وزكى طومال ٠

ثم يقف الخليفه عند هذا بل أصدر أمره لأمراء القبائل الغربية حتى يحضروا المئات من الجنود الجدد ليدمجوهم تحت ألوية ضباطه ولكن تلك الأوامر لم تلق الطاعة الاجتماعية من ناحية الأمراء • وفي كل خطوة من خطواته التنظيمية الأخيرة كان معنيا باضطهاد الدناقليين والمصريين واخراجهم من دائرة حرسه لأنه لم يكن يثق بهم ولم يمل اليهـــم •

جد الخليفة في سبيل ذلك الانشـــاء الحربي حتى تمكن من تكوين قوة تتراوح بين أحد عشر الفـــا واثنى عشر ألفا من الجند ونظم لذلك العدد الكبير أراضي تشبه القطائع سكنها أولئك الجنود مع نسائهم وهي على مقربة من مساكن الخليفة ودور أبنه وفي حدود السور الحربي الجديد •

وقسمت هذه القوة الجديدة الى ثلاث كتائب يقودها على التتابع ابنه عثمان وأخوه هارون أبـو محمـــد (الذى لا تزيد سـنه على الثامنة عشرة) وابن عمه ابراهيم خليل • أما الثالث فلم تطل مدة قيادته لكتيبته حيث حل محله رجل حربي حبشي اسمه رابح كان في حاشية الخليفة في بيته الخاص • وانه لما يجب ذكره أن عثمان كان يوضـــع احترام صفوف الجيش بقسميه الأعلى والأدنى فلقبه الجنود بممثل الخليفة • وتنقسم كل كتيبة الى أجزاء منتظمة يحتوى كل منها على مائة جندى يرأسهم ضابط ويلقب برأس المائة ولذلك فالضباط مساعدون مدربون •

اذا عدنا لأنواع الجنود وجدنا الســـود منهـم مندمجين في الأقسام المتفرعة من الكتائب وهم في ذلك ليسوا من الجنس العربي الحر ولكنهم تحت رقابة الأمراء الذين يصدرون أوامرهم المطاعة لكل من الفريقين على حدة لأن السود لا يخضعون للنظـــم العســكرية كما يخضع العرب •

وانا لا نغالى فى التقدير اذا قلنا ان جميع أولئك الجنود مسلحون ببنادق رمنجتون ولكننا نظهر أمام الحقيقة أكثر دقة وصدقا اذا قلنا ان البنادق المذكورة محفوظة فى المخازن لا فى أيدى الجنود حيث لا تسمح ادارة الجيش العليا باخراج البنادق من مكانها الا فى أعياد خاصة فى كل عام . أما فيما يختص بمرتب الجندى فانه لا يتجاوز نصف ريال درويشى شهريا مضافا اليه ثمن (⅛) أردب من الذرة فى كل أسبوعين . وفى الحق لا يظفر الجندى بأكثر من تلك الذرة . أما نصف الريال فيكاد يكون مرتبا اسميا .

يجىء بعد ذلك ذكر مرتب كل من رأس المائة والأمير وكل من المرتبين عال بطبيعة الحال اذا قسناه الى مرتب الجندى . هذا الى أن كلا منهما (رأس المائة والأمير) يظفر بمتع متتالية من النساء والعبيد الخاضعين لنفوذ الخليفة .

اذا أنعمنا النظر فى مهمة الجنود والحرس وجدناها محصورة فى حماية شخص الخليفة واذن فأولئك جميعا مضطرون لمرافقته فى جولاته الحربية على أن يحميه حرسه الخاص أيام استعراض الجيش العام . ومن العجب أن يسير ذلك الحرس فى ركاب الخليفة الى أى مكان سار وفى أية بقعة نزل مما يدل على رغبته الشديدة فى الاحتفاظ بحياته . ولما كان أمر الحرس كذلك اضطر الخليفة أن يقيم له ميدانا خاصا فسيحا أمام منزله ليكون لاصقا به مدى حياته .

يذكر القراء أننا أشرنا فى السطور السالفة الى كراهية الخليفة للمصريين واتساع دائرة الكراهية الى حد أنه يمقت سماع انغامهم ومع ذلك كان يستصحب فى رحلاته أفرادا ليسمعوه الانغام المصرية وغير المصرية الا أنه لم يقلع عن فكرة الكراهية فبدلا من سير اثنين من المصريين للنفخ فى البوق وتوقيع النغم كان يرافقه اثنان

من السود . وكان الخليفة يلقب رأس المائة بكلمة « قبطان » ولقب الأمير عنده « بكباشي » أما القائد « أميرالاى » .

لا ينسى المتكلم عن الخليفة أن يقول : ان عبد الله كان فى أكثر الاحايين يفتش ويراقب جنوده ليلا حتى يثق من بقاء كل رجل من رجاله الحربيين فى المكان الذى عينه له وقد كان أكبر هم الخليفة موجها الى مركز طليعة الجيش . وازاء هذا التدقيق الشديد وتلك اليد القاسية كان رءوس المائة والأمراء يدعون المرض فى كثير من الليالى فيذهبون سرا الى بيوتهم وفى نفوسهم غصص وآلام فيفرجون عنها باظهار استيائهم لذويهم .

تشتمل أعمال الخليفة العامة على ترديد الصلوات الخمس يوميا فى الجامع الكبير فعندما يبدو السحر يؤدى الخليفة صلاة الفجر وبعد ذلك يقرأ المحتشدون بعض الآيــات القرآنيــة فى حضرة المهدى ويستغرق ترديد القــرآن وبعض الصلوات الخاصــة مدة تقرب من ساعة .

وبعد ذلك يعود الخليفة الى مخدعه الخاص ولكنه فى بعض الأحايين يخالف ذلك الترتيب فى المسجد ليتحقق بنفســه مبلغ اذعان سكان أم درمان لأوامره الدينية الخاصة بحضور الصلوات الخمس حضورا منتظما . أما صلاة الظهر فيقوم بها الخليفة حوالى الساعة الثانية مساء وبعد ســاعتين أخريين يؤدى صلاة العصر التى يذكر فيها المصلون بعد تأديتها بعض أقوال دينية ولا تكاد تغرب الشمس حتى يؤدى الخليفة صلاة المغرب ثم ينتهى بعد ثلاث ساعات الى الصلاة الخامسة وهى صلاة العشــاء . وفى كل من الصلوات الخمس يصلى الخليفة فى محرابه القائم أمام صفوف المصلين . وذلك المحراب بناء جميل رباعى الشكل مكون من أعمدة رفيعــة مخروطة الشكل يعلو كلا منها طبقة حديدية صلبة ولا ريب فى أن الخليفة

يستطيع ان يشاهد كل ما يحيط بمحـــرابه وهو فى حـالة هادئة ومكان امين ·

هذا هو المحراب الذى يجلس وراءه مباشرة ابن الخليفـــة فالقضاة فاشـــخاص قلائل يختـــارهم الخليفة من أخصـــائه · أما الجنود الذين يحرسونه فيجلسون على جانبى المحراب ويظل الجنود السود فى الجوانب التى تحيط بالمسجد ملازمين سورا ضخما يفصل بين المسجد والميدان · والى جانب الضباط أماكن مخصصة للأمراء وأغلب رجال القبائل الغربية .وقد عينت لأولئك الجهة اليمنى · أما الناحية اليسرى فيجلس فيها بعض الاتباع وقليلون من العرب المنتمين الى الخليفة (على واد حلو) ثم أنصار الجمليين والدنقليين · ووراء أولئك جميعا يجلس المصلون من المسلمين فى صفوف تتراوح بين عشرة واثنى عشر حتى اذا ما بدأ الخليفة تلاوة صـــلاته رددها المصلون ·

وعلى أية حال فان المصلين لايقلون عن بضعة آلاف · وبما أن الخليفة محـــدود الدائرة من موقفه بالمصلين فان الأمراء الظاهرين وبعض ذوى النفوذ من رجال القبائل مضطرون الى معاونة الخليفة فى تأدية الصلاة · ولئن كان فى صدر الخليفة غل أو حقد على شخص من الأشخاص فانه لا يتردد فى الاقتصاص منـــه والزامه بحضور الصلوات الخمس فى المسجد بحيث يراقبه هو وغيره (من المغضوب عليهم من الخليفة) بواسطة أشخاص معينين لهذا الغرض ·

السبب أن الخليفة ـ فى كل هذه التحرجات وذلك التقييد الدينى ـ مدفوع بعامل صيانة الدين ولكنه لا يرمى الى ذلك فحسب بل يبغى الى جانب ذلك الاحتفاظ بســيادته ونفوذه على أتبـاعه جميعا · وانه لواجب علينا فى هذا الصدد أن نقول بأن الكثيرين من المصلين يسكنون فى جهات بعيدة عن المسجد الكبير فمن الشـاق

عليهم أن يذهبوا من منازلهم الى المسجد ويعودوا اليه خمس مرات يوميا وكل ما يستطيعون عمله هو ان يجتمع بعض الناس فى منازل أصدقائهم وهذا ما يمقته الخليفة مقتا شديدا لأنه يخشى ما يسمونه « حياة الجماعة » وقد كان الخليفة عبد الله على اعتقاد ثابت فى أن هذه الاجتماعات المذكورة البعيدة عن رقابته لابد أن تنتهى الى المسامرات والتكلم فى شئون الجماعات ومثل ذلك الكلام يصل الى بحث أعمال وشئون الخليفة فهذا ينقدها باللوم والتجريح وذلك يرضى عنها خائفا وآخر يمتدحها فلا عجب أن نرى من الخليفة جهدا شديدا مبذولا فى سبيل تأييد فكرة اجتماع المسلمين تحت رقابته هو وحرسه الخاص .

نرى من الأقوال السابقة الخاصة باقامة الفرائض الدينية أن الخليفة عبد الله أول من يصلى بالناس فى المسجد الكبير ولكننا لا ننسى أن كل انسان معرض للمرض الذى يحول دون قيامه بما تعود تأديته يوميا واذن فالخليفه عرضه لذلك المرض أو لأى عذر طارىء يمنعه من السير خمس مرات يوميا الى المسجد الكبير وبالفعل تغيب عبد الله فى بعض الأيام عن القيام بعمله الدينى الكبير فكان يخلفه فى الامامة أحد القضاة أو ضابط من قبيلة تكرورى على أن يكون ذلك الضابط مشهورا بين الناس بصلاحه وتقواه • وعلى أى حال لا يسمح مطلقا للامام الذى يقوم بعمل الخليفة أن يقف فى المحراب بل يكون فى قيادته الدينية قائما فى أول صف مجاور لذلك المحراب المعظم • ومع أن القانون الدينى يحتم على الخليفة (على واد هلو) أن يمثل الخليفة عبد الله فى تأدية الفرائض الدينية أثناء غيابه (عبد الله) فان (على وادهلو) لم يكن يمثله فى أغلب الأحيان •

كان الخليفة عبد الله فى حياته اليومية يتلقى بين صلاة العصر وصلاة المغرب عدة تقارير ويستمع الأنباء الخاصة بشئون الأمة ويطلع على الخطابات الواردة له ويقابل القضاة والأمراء الذين سمح لهم

الخليفة قبل يوم المقابلة بالتحدث معه والى جانب أولئك كان يسمح الخليفة في ذلك الميعاد من كل يوم بمقابلة الأشخاص الاخصاء الذين يرغب التحدث اليهم .

أما مراسلاته البريدية الخاصة فمحدودة وسائرة في سبيل طبيعية وهو يحتفظ لذلك بما يتراوح بين ستين وثمانين جملا لحمل البريد العام على أن يتولى رقابته أشخاص مخصوصون بصفة عمال بريد . ولا يذهبن تصور القارىء الى أن أولئك محصورو العمل في بلد الخليفة وانما هم موزعون في جميع أنحـــاء امبراطوريته حيث يتلقون أوامره وتعليماته فينفذونها عاجلا .

ومما يذكر في هذا الصدد ان ابراهيـم عدلان اقترح عليـه انشاء محطات خاصة للبريد على طول الخطوط الرئيسية المعروفة .

ولكن الخليفة رفض قبول هذا الاقتراح بشيء من الضجر بعد أن قال لابراهيم بأنه عنى قبل كل شيء بالأوامر الشفوية التي يلقيها (الخليفة) على الاخصاء من رجال البريد الذين لم يتأخروا مطلقا في تنفيذ أوامره باخلاص وامانة علاوة على أن الخليفة كان يتلقى من أولئك المقربين اليه تقارير وافية عن أعمال الحكام التابعين له .

لم يقتصر أمر البريد الخاص على الخليفة بل تعداه الى الأمراء كل في منطقته حيث كان للأمير رجـال مخصوصون وعدد معين من الجمال لحمـل البريد مع تعليمـات خاصـة لاولئـك المتجهين الى أم درمان . ومهما يكن الأمر فلم تكن هناك طريقة للمراسلات البريدية العامة أي للمراسلات بين الأشــخاص من عامة الشعب السوداني ولكن على رغم ذلك كان الحمالون يحملون رسائل من بلد الى آخر بطريقة سرية .

لم يكن الخليفة في جميع أيـــام زعامتـه واثقا بغريب عن دائرته فدعاه ذلك الى التشـديد على الرجـال المحيطين به حتى انه لم تكن تصدر رسالة من أحدهم الى الخارج الا بعد أن تمر على كاتب سر الخليفة . ومما يذكر عن الخليفة عبد الله أنه كان يجهل القراءة والكتابة فحدا به ذلك الى الشك في كثير من الكتابات الواردة من الخارج الى الأمراء القريبين منه وتبعا لذلك كان يصدر أوامره المشددة بمرور الرسائل على سكرتيريه الخصوصيين ، ومن أهم أولئك في نظره اثنان هما قاسم ومدثر اللذان كانا مضطرين دائما لشرح محتويات الخطابات لسيدهما الخليفة على أن الخطابات الواردة لمركز الخلافة ذاته لا يرد عليهـا السكرتيرون من ذواتهم بل يتلقون اوامر الخليفة في كل ما يكتبونه . ولم يكن جهـل الخليفة القراءةوالكتابة مانعا له من الوصول لبغيته بواسطة المفتشين الذين يراقبون تلك الردود البريدية .

أما هذان السكرتيران فقد عاشا مع الخليفة حياة تعسة مملوءة بالأوامر التي تنم عن ريبة عبد الله فيهما وقد كان ذلك الرجلان على ثقة تامة من أن الخليفة لن يغتفر لهما أصغر هفوة والويل كل الويل لأحدهما أو لاثنيهما في حـالة اذاعة سر مـن أسرار الخليفـة حتى لو كانت تلك الاذاعة غير مقصـودة بسـوء نية من جانب السكرتيرين ، ولم يكن الخليفة يقصر في حالة من تلك الحالات عن معاملة ذينك الرجلين بما عامل به الأحمدي وأشقاءه الأربعة الذين نفذ فيهم حكم الاعدام بعد أن اتهموا باتصالهم بالاشراف .

اذا خلا الخليفة الى نفسه ونزع الى شيء من الراحة أو التحدث للناس فانه لم يكن يرتاح لشيء أكثر من التحدث مع القضاة الذين لم يكونوا – في أغلب الأحيان – غير آلات صماء في يديه بحيث لم يكونوا يترددون في اصدار أقسى الأحكام الاستبدادية ضد من يمقتهم الخليفة أو يرتاب فيهم . فانك كنت ترى أولئك القضـاة

يجلسون أمام الخليفه فى وقت راحته فى شكل نصف دائرة على الأرض العاريه من كل فراش • ولم يكن يتجاسر احـــد أولئك على رفع راسه أمام الخليفه فاذا جلسوا أرهفوا آذانهم وصمتوا انتظارا لاوامر الخليفة المطاعة • وقد كانت الأوامر المذكورة فى أغلـب الأحيان تلقى بصوت خافت هادىء • والعجيب فى الأمـر أنهـم لم يكونوا بحال من الأحوال يستطيعون رفع أصواتهـم وبطبيعة الحال لم يتوقع شخص معارضـــة أو اقتراحا من جانب أى قاضى وسواء أكان الخليفة مصيبا فى رأيه أم غير مصيب فان القاضى ملزم بالاذعان للأمر والتأمين على ما سمع •

الى جانب أولئك القضاة كان الخليفة فى كثير من الاحايين يجتمع بالامراء وبعض الأشخاص ذوى النفوذ الموثوق فيهم عنده • وكان الخليفة على وجه عام يقف على شئون الرعية وأحوال البلاد بواسطة أولئك الأشخاص القريبين ، ومما يذكر عن عبد الله أنه كان ماهرا فى بث الفتنة بين أولئك المقربين منه حتى لا تتم الصـــلة بينهم وحتى يصـــل كل منهم الى اذاعة ما عنده اذاعة دقيقة لمولاه الخليفة •

وكانت مناقشات الخليفة ومباحثاته عقب صلاة العشاء كل يوم ، وتلك المباحثات الخاصة مع يعقوب وبعض أقربائه الاقربين ، وكانت تستغرق مباحثاتهم فى كثير من الأحيان بضع ساعات • وفى أيام خاصة تظل الى ما بعد منتصف الليل • وعلى وجه عام كانت الاجتماعات العائلية البحتة خاصة بالبحث فى أنجع الطرق للتخلص من الأشخاص غير المرغوب فى وجودهم أمام الخليفة بصفة خاصة وأمام ابنه وبعض أقربائه بصفة عامة • وانه لمما يجدر بنا ذكره ان أولئك الأشـــخاص كانوا لا يتطلعون — فى ذلك الحقـد على المكروهين — الى مصالح عامة بل الى ما قد ينجم عنه ضعف لقواهم أو التقليل من أثرهم البارز فى الدولة •

كان الخليفة فى كثير من الأحيان يقوم برحلات صغيرة داخل المدينة او فى الجهات المجاورة على أنه فى أيام خاصة من الشهر كان يقوم ببعض زيارات لاخصائه فى أم درمان • وليس هناك ما يدعو الى بذل جهد من الشعب خارج أو داخل المنازل لتعرف ميعاد مرور الخليفة فان الأصوات المرتفعه من الحشم ودق الطبول والنفخ فى الأبواق أمام ركب الخليفة ، كل ذلك كاف لأن يسمع الناس ذلك الصوت الخاص على بعد مئات من الأمتـار فيهرع السكان لتقديم التحية لولاهم الكبير •

كان الى جوار بيت الخليفة مكان فسيح للحرس ودار مسقوفة بقش يظل فيها الخيل بعد أن ينظفها الحرس فاذا ما قال الخليفة انه يعتزم الجولان فى المدينة أسرع حراسه الى خيولهم وأسرجوها • فاذا ظهر الخليفة فى رحبة داره الخارجية خرج الضباط والحرس الخاص من كل النواحى المحيطة وأسرعوا لحماية سـيدهم وكان النظام المتبع فى تلك الرحلة أن يتقدم الضباط وحرس الخليفة ثم يتبعهم عبد الله ممتطيا جواده الخاص ، وحوله من النواحى الأربع دائرة من الحرس الموثوق فى اخلاصهم له وانك لتكاد تظن الناس الخارجين من منازلهم لمشاهدة الخليفة مجموعات متتالية من الكتائب الحربية • أما الجنود فكل فصيلة تسـير على انفراد مكونة من اثنى عشر متجاورين • ووراء أولئك جميعا يسـير الموكب اللاحق والمؤلف من الأمراء والاخصـاء على ظهور الخيل ثم آخرون من الأقرباء •

نضيف الى ذلك أن رجلا عربيا مسلما اسمه « أبو دخيبة » كان يجاور الخليفة الى يساره وكل ما كان لهذا الرجل من شرف هو أن يرفع الخليفة الى جواده الخاص ثم يظل ملازما له اثناء نزوله من الجواد • هذا الى أن الذى كان يشغل الناحية اليمنى من الخليفة

أثناء سير موكبه هو كبير الخصيان ورئيس فرقة العبيد في حاشيه الخليفة .

كان أمام الخليفة مباشرة في كل رحله من رحلاته ستة من النافخين في الأبواق ايذانا بمرور الركب العظيم . أما السائرون وراء جواد الخليفة مباشرة فهم الضاربون على طبول خفيفة ترمى الى تحسين صوت البوق في أذنى الخليفة الذى كان شـديد الميل لسماع الأنغام . ومن اختصاص الأخيرين (الضاربين على الطبول) اصـدار اشـارات معروفة في المدينة لسير الركب أو وقوفه تبعا لأوامر ورغبات الخليفة . فاذا ما انتهينا من أولئك جـاء صف الحشم الخصوصى الذى كان يحمل افراده محافظ جلدية فيها أوراق دينية وعالمية (خاصة بشئون الدولة) .

وبعد أن ننتهى من صف القارعين على الطبول قرعا خفيفـا نصل الى صفوف خصيان الخليفة وصغار خدمه وبين أولئك من يحمل آنية كبيرة فيها ماء للوضوء ويحمـل غيره سـجادة فاخرة لصلاة عبد الله ويسير الآخرون حاملين الرماح . وفي بعض الأحايين يتقدم الموكب أو يخلفه ركب موسيقى مكون من خمسين سـودانيا تتكون آلاتهـم الموسيقية من مستخرجات قرون الوعـول وتغطى الجلود طبولهم المصنوعة من تجاويف جذوع الأشجار الضخمة . وانه لمن الميسور لك أن تميز أنغام أولئك السودانيين بما فيها من تنافر قبيح وبما اشتهرت به من ابتعاد عن كل توقيع مطرب .

تعود الخليفة القيام برحلاته بعد صلاة الظهر على أن يرجع الى داره قبل الغروب وفي أثنـاء كل من الرحلات المذكورة يبذل الضباط أقصى مجهوداتهم لاظهار شجاعتهم وفروسيتهم أمام مولاهم الخليفة . فمن أمثلة تلك الشجاعة تقدم أربعة من الضباط متجاورين

الى ناحية الخليفة بحيث يرمون رماحهم المدببة في الهواء ويسمزون من صـــهوات جيادهم الى البقعة الممتدة أمام الخليفة ليحيوه واقفين فاذا ما انتهوا من ذلك اسرعوا لركوب جيادهم وعادوا الى الصف الذى كانوا فيه دون اخلال بنظام الموكب ·

كان الخليفه في السنوات الاولى من حكمه يحضر الى سباحة الاستعراض العســكرية كل يوم جمعه حيث تجرى حفـــله عرض الجنود على اختلاف درجاتهم ولكنه اكتفى في سنى حكمه الاخيره باستعراض الجيش اربع مرات في السنة هى على التعاقب يوم ذكرى الميلاد النبوى ويوم المعراج واول ايام عيد الفطر ثم يـوم عيـد الأضحى · وكان مما يذكر عن عنـاية الخليفـة عبد الله بحفلة عيد الاضحى أنه كان يجمع فرق جميع البلاد المجاورة مع جنـود دارفور والعضارف للقيام بالاستعراض العام وسط دق الطبول والنفخ فى الأبواق · أما الصلاة في ذلك اليوم فكانت تقدم منه ومن جنوده الى الله الرحمن فى ساحة الاستعراض حيث يصلى عبد الله اماما بالجند وهو واقف فى غرفة مدببة الحواجز ـ كأنما هو فى محراب المسجد الكبير ـ وفى ذلك الحين يحيط به خارج غرفته كثير من ضباطه الاخصاء وبعض أعيان السودان المتمتعين بثقة الخليفة وحبه · اما بقية الضباط والجند وعامة الجمهور فيوزعون أنفسهم فى صفوف متلاصقة فاذا ما تمت الصلاة صـــعد عبد الله الى منبر خشبى لالقـاء خطبة يستظهرها بعد أن يقرأهـا له من كتبها من السكرتيرين · وفى نهاية الحفلة يطلق بعض الضباط رصـــاص بنادقهم سبع مرات ايذانا بانتهاء الاحتفال المقدس · وعقب ذلك يتقدم واحد منهم لذبح خراف الضحية لارسالها الى السوق العام بواسطة الجنود وتوزيعها صـــدقة على الفقراء · ولكننـا لا ننسى ذكر ما كانت عليه شئون الدولة من الفقر والاضطراب بحيث لم يكن يتسنى ذبح العدد الكافى من الخراف لتقديمها للفقراء فكان ذلك داعيا الى استعاضة الفقراء عن لحم الخراف بقصاع الثريد ·

اعتاد الخليفة تخصيص اليوم الأول من أيام العيد الأضحى لذلك الاستعراض المصحوب بتأدية فريضة الشكر المقدسة للعزة الالهية ازاء ما أسبغته على السودان من خير طول العام • ولم تكن تجرى فى ذلك اليوم أية معاملة رسمية • أما المقابلات «التشريفات» فكانت فى الأيام الثلاثة التالية لليـــوم الأول حيث يسير الى دار خلافة عبد الله قبل مشرق الشمس فى كل يوم من الأيام الثلاثة أمراء أم درمان والجهات المجاورة حاملين راياتهم ومن خلفهم أتباعهم المتفائلون خيرا بالعيد فاذا جمع كل أمير أتباعه سار بهم الى الناحية المعدة له فى ساحة الاحتفال (وهى عبارة عن أرض رملية تتخللها أحجار صغيرة) ومن تلك الجهة كانوا يسيرون الى دار عبد الله الا اذا بدت الرغبة من الخليفة فى التوجه الى دار الاستعراض • حتى لا يتعب الأمراء وأتباعهم وصفوف الجند • وفى كل حال من تلك الأحوال يعيد الجنود السير الى حيث الخليفة لتقديم التحية للمهنئين بالعيد وهم فى سيرهم هذا يولون وجههم شطر المشرق •

أما يعقوب ابن الخليفة وصاحب أكبر مكانة فى السودان بعد أبيه فكان يحمل العلم الرئيسى وهو عبارة عن قطعة كبيرة منتظمة الشكل من القماش الأسود توضع مباشرة أمام الحاجز المذهب القوائم الذى اعتاد الخليفة الجلوس فيه فى ساحة الاستعراض • على أن الخط المستقيم الواصل بين العلم والحاجز يبلغ امتداده أربعمائة قدم • وبعد أن يتركز لواء يعقوب يضع الأمراء المختلفون على جانبيه راياتهم المميزة لقبائلهم وقد يكون أكبر بيرق ظاهـــر بعـــد لواء يعقوب بيرق الخليفة على وادحلو الذى يرتكز فى البقعة الشمالية من الميدان ممتازا بلونه الأخضر وبقيام بعض الوية على جانبيه • هذا الى أن الناحيتين اليسرى واليمنى من مركز الجيش معـــدتان لطوائف خاصـــة ففى الأولى يتوزع راكبـــو الخيول والجمال وفى الثانية يقف ضاربو النار الذين يتكونون من بعض المجاهدين وأتباع

بعض الأمراء . على أن الخليفة لا يسمح مطلقا لضاربي النار أولئك بحمل بنادقهم الا في هذه الأيام الثلاثة من السنة .

لا تكاد الشمس تغرب في كل يوم من الأيام المذكورة المقدسة عند المسلمين حتى يخرج الخليفة عبد الله من تلك الغرفة المدببة القوائم فيركب جواده يحيط به ضباطه وحرسه الخاص . وفي هذه الأثناء يسـير الجيش بصفوفه الكاملة أمام الخليفة حيث يوزع الجبب والعمائم على المرضى عنهم من رجاله .

كان المتبع أن يمتطي الخليفة صهوة جواده في ذلك الميدان ولكنه في بعض الأوقات كان ينزع الى ركوب جمل خاص مزخرفة حمائله . وقد تخطى هذا التقليد مرة واحدة ـ على ما أذكر ـ في سني حكمه فركب عربة أسرها السودانيون في الخرطوم من حاكم عام سابق وبقيت بعد ذلك ملكا للمسلمين ومحفوظة في بيت المال . وبما أن ركوب هذه العربة كان أمرا شاذا غريبا فلنذكر طريقة مرور الخليفة بالناس وهو فيها فنقول : انها خرجت من بيت المال فكانت أعجوبة لناظريها من الدراويش وكان يجرها جوادان وتسير بخطى متئدة جدا . والداعي لذلك خوف الخليفة من انقلاب العربة في حالة عدو الجوادين وليس ذلك غريبا على من لم يعتد غير ركوب الخيل والجمال . ومهما يكن الأمر فان الخليفة لم يرتح الى فكرة ركوب العربة فارجعت الى بيت المال واستمر على عادته المألوفة في المواكب والرحلات وهي الخروج على ظهر الجواد مباشرة من المسجد الكبير الى الطريق القريبة حيث راية يعقوب السوداء فاذا ما وصل اليها تأمل فيها واظهر احترامه لمقامهـا . وبعد الانتهاء من تقديم التحية للراية اليعقوبية يولي عبد الله وجهه شطر الحاجز المدبب القوائم حيث يجد الى جانبه مكانا مسقفا مصنوعا من سيقان الأشجار المتراصة بعضهـا الى بعض المغطاة بحصائر النخيل فاذا ما انتهى

الى ذلك المكان نزل عن جواده واستند الى عنجريب حيث يحيط به القضاة والمقربون اليه .» .

اقتضت التقاليد الدينية في السودان أيام الأعياد الكبرى خروج الخليفة من داره الى الناحية الغربية من المدينة حتى يصل الى ثكنات جنوده ومن الأمور المقررة في مقابلات العيد وقوف الجنود حاملين دروعا مغطاة من الطرازين الأوربي والآسيوى وعلى رؤوسهم خوذات ثقيلة وأغطية قطنية غريبة الشــكل من مختلف الألوان واعظم ما يميز هذه الأغطية لفائف مخصوصة شبيهة بالعمائم .

أما الخيول فمسرجة بأقمشة مبطنة وقد يكون هنــاك شبه بين تلك الأغطية المبطنة وبين ما كان يضعه الفرسان على خيولهم وقت المبارزة في العصور القديمة . ولا نكون مغالين اذا قلنا أن المتفرج يوم استعراض الجند على خيولهم يظن أنه في حفلة من حفلات القرون الوسطى أو ما قبلها .

عندما تنتهى « التشريفات » بنهاية اليوم الثالث من أيام العيد يعود الجنود مع ضباطهم الى ثكناتهم في البلاد المجاورة .

★★★

سأعرض على القراء الآن صــورة موجزة للرأى والأغراض السياسية التي كان ينزع اليها الخليفة عبد الله . فأكرر ما قلته أكثر من مرة بأن المهدى عنــدما أعلن نفسه هاديا للمسلمين فى السودان منح حق الخلافة بعده الى ثلاثة أشخاص فى السودان هم عبد الله وعلى وادحلو ومحمد شريف على أن يخلفه بعد موته أولهم ثم يعقب الاثنان الآخران عبد الله بعد موته فى حالة بقائهما على قيد الحياة بعده .

نفذ القضاء في المهدى فتولى الخلافة بعد موته أول الثلاثة عبد الله ولكن الخليفة الجديد (عبد الله) لم يفتأ ـ من اللحظة التي ولى فيها الحكم ـ يدس للاثنين الآخرين باذلا جهده في تقوية نفوذه واعلاء كلمته وجعـل الخلافة وراثيـة في أسرته فلم يرض ذلك المورين من طبقة الاشراف الذين عدوا أنفسهم أكبر السودانيين قدرا وذلك راجع الى صلتهـم بالمهدى • ومع ذلك قدموا التحية لعبد الله خوفا من السقوط الذى يصيبهم من جراء اشهار العداء للخليفة • الا أن عبد الله كان واقفا على حقيقة نيات منافسيه فضم الى حاشيته الكثير من قبائل السودانيين التابعين قليلا لعلى وادهلو ومحمد شريف حتى يعينوه باخـلاص له على مصادمة منازعيه فى الخلافة •

ليس بدعا أن يشاهد السياسى كل ذلك الجزع من جانب عبد الله فانه غريب عن أم درمان ولم يكن فى حياته سـوى رجل غامض الأسرار من قبيلة غربية واذن هو غريب جدا عن البـلاد الداخلية وكان ـ بذكائه وبما يصل اليه من تقارير أتباعه ـ على ثقة انه لن يستطيع الاستناد الى تأييد الجعليين والدنقليين وسكان الجزيرة وغيرهم من قبائل وادى النيل واذن اضطر لارسال مندوبين سريين الى القبائل الغربية فى الناحية الغربية ليغريهم بالحج الى قبر المهدى والمهاجرة الى وادى النيل •

سعى مندوبو عبد الله ورسله فى الجهات المجاورة لأم درمان سعيا حثيثا فى سبيل الوصول الى اغراء الناس بالمهاجرة الى قبر المهدى والبقاء فى الأرض التى تقل جثمانه فدعوا الناس الى التمتع بخيرات الأرض الجديدة التى ينزحون ليها ذاكرين لهم بأنهم عبيد الله المختارون وأنه من مصلحة أولئك المدعوين أن يذهبوا لامتلاك الأرض الجديدة التى يتمتع سكانها الأصليون بثروة كبرى من مال

وماشية وعبيد ، وقد ذهب المندوبون فى اغرائهم سكان الجهات المجاورة الى حد أن وعدوهم بامتلاك كل ما فى الأرض الجديدة .

اثر أولئك المندوبون بدعوتهم الحماسية تأثيرا منتجـــا فى نفوس السذج فرحل الكثيرون من أفراد القبائل المختلفة الى أم درمان وكانوا فى ذلك مدفوعين برغبة خالصة فى التمتع بالغنى الذى سمعوا عنه . الا أن عدد القادمين لم يكن كافيا لتعمير وانشاء أم درمان فعمد الخليفة عبد الله الى اصدار الأوامر لاميرى دارفور وكردوفان حتى ينفذا أوامره بالقوة وتبعا لذلك تدفق سيل المهاجرين سواء أكانوا طائعين أم مرغمين وانتهى الأمر الى نقص عـددهم بعـد أن سمعوا الشىء الكثير عن الشدة التى يقاســيها من سبقوهم الى أم درمان .

كانت النتيجة المنطقية لذلك احاطة الخليفة بالجمع الغفير من قبائل الرحل الغربيين عنه وعن أتباعه على أن أولئك المهاجرين الجدد لم يألوا جهدا فى اقصاء أصحاب الحق الأصليين واعداد أنفسهم لأن يكونوا الأسياد المسموعة أوامرهم .

لم يمر زمن على أولئك المهاجرين لأم درمان حتى امتلأت بهم وظائف الحكومة الرئيسية وكان أصحاب القسم الأكبر من هذه الغنيمة رجال التعايشى . وانك لتكاد ترى جميع الأمراء السابقين فى جهة مجهولة بحيث لم تسمع لأحدهم كلمة بعد ذلك وقد تستثنى من ذلك الحكم الأمير عثمان دجنة . ويرجع ذلك الى أن قبائل العرب الشرقية التى يحكمها عثمان يتكلم أفرادها بلهجة لا يعرفها عرب القبائل الغربية . وعلاوة على ذلك أصبح الكثيرون من أفراد تلك القبائل خاضعين للنفوذين المصرى والايطالى وليس من ســـببه الى اتصال القلائل الباقين بعثمان دجنة سوى كونه واحدا منهم .

وعلى أية حال فان قبيلة التعايشى تمكنت من الحصول على السلطان والنفوذ الكاملين في جميع الجهات التى يضرب رجالهم بأرجلهم فى أرضها • ولم يكن لهم غرض سوى ملء جيوبهم بالايراد الضئيل التى يحصل عليه السودان الفقير •

مما يذكر عن أوامر الخليفة عبد الله قبل عام ١٨٩٥ انه أعطى تعليماته لأميرى دنقلة وبربر باضعاف نفوذ وقوة رجال مديريتيهما الى أقصى حدود الضعف فدعا ذلك الى تجريد السكان من أسلحتهم النارية وجمع ما لديهم من معدات القتال بحيث ينعص مقدار الموجود من تلك الأسلحة الى حد لا يخشى معه اى خطر •

لم يكتف الخليفة بذلك بل أصدر أمرا جديدا بالتشديد فى معاملة رجال نوشكر وطوكر فاغرى المأمورين فى تشديدهم بحيث قتلوا كثيرين من الجعليين والدناقلة ورحلوا اخـــرين الى دارفور والقلابات رغبة فى استئصالهم نهائيا فى تينك الناحيتين • واذن استطاع الخليفة اتقاء شر سكان تلك النواحى وضمن التغلب على أية قوة معارضة هناك •

تنطبق مثل هذه المعاملة على سكان الجزيرة الذين أقصوا بأمر الخليفة الى جهات نائية من السودان أو الذين اضطروا الى الحضور لأم درمان هم وأفراد أسرهم حيث قاســـوا الأمرين من الاضطهاد والفاقة • ومما زاد فى أثقال كواهلهم صدور الأمر بتسليم مايزيد عن نصف محصول أراضيهم الزراعية التى كانت موزعة على عرب القبائل الغربية وما زال الخليفة مستمرا فى التضييق على أولئك حتى توصل عام ١٨٩٠ الى تفريق الأراضى على أقربائه وأصـحاب الحظوة عنده • وقد بلغ الضيق بأصحاب الأرض الأصليين حدا التزموا عنده حراثة الأرض وتفليحها لأسيادهم الجدد الذين وزعوا على أراضيهم كل ما يملكون من خدم وعبيد وماشية •

نجم عن ذلك التعسف اهمال أرض الجزيرة القابلة للانتاج الوافر فبعد ان كانت أوفر أرض السودان غلة وأكثرها سكانا تضاءل هذان الخيران وكان ذلك التضاؤل مصحوبا بهرج ومرج سادا جميع المناطق التى كان الخليفة مضطرا فيهـــا الى الانحياز لناحية الأهالى الذين عوملوا معاملة سيئة ونزل بهم العسف وحاق بهم الطغيان الى حد لا يكاد يصدقه العقل •

اكرر الآن ما قلته سابقا عن تفضيل افراد القبائل المنتمية الى الخليفة عبد الله عن جميع القبائل الأخرى فى جميع الأحوال والظروف فانهم لا يتمتعون بأسمى الوظائف الحكومية والمراتب الشعبية فحسب بل يتمتعون بما هو أسمى من ذلك ماديا فان القسم الأكبر من الأمـــوال والغنائم التى ترد الى بيت المال من مديريات دارفور والقلابات والرجاف يصل الى أيدى أولئك الافراد ولا يجد من يحاسبهم عليه • ومن غريب أمر أولئك الطامعين أنهم ـ رغبة فى ملء جيوبهم بأكبر قيمة من المال ـ دعوا الخليفة الى فرض ضريبة خاصة على الخيول غير مبال بالشكوى العـــامة من جانب السكان الأصليين فلا ريب اذن فى حصول فرقته على نصيب الأسد من الغنيمة •

اشتهر الخليفة عبد الله أيام حكمه بتوسيع نفوذه بواسطة الدسائس وبث الفتن فلا يكاد يتصل به زعماء قبائل غريبة عنه حتى ينشر الفتنة بينهم ليقوى جانبه ويضعفهم ومن أمثلة ذلك أنه عند هزيمة وموت النجومى (الذى كان تابعا للخليفة الشريف الذى سحب منه عبد الله كل نفوذ على غيره من الأمراء) وضـــم عبد الله فلول الجيش المهزوم تحت قيادة الأمير يونس وبدلا من رجال الجيش المقتولين عين عبد الله افرادا من الجعليين وزجـــال أم درمان حتى يكون واثقا من حصوله على نفوذ جديد •

وقد وضع الخليفة أولئك في بادئ الأمر تحت امرة مواطنهم بدوى واد العريق ولكن بدلا من ارسالهم الى دنقلة بعث بهم عبد الله الى القضارف ومما يذكر عن ســوء نية الخليفة عبد الله نحوهم أن عذرا قهريا منعهم عن الرحيل الى القضارف فى الميعاد المعين فاسرع (عبد الله) الى اتهامهم بالعصيان ثم أصدر أمره بنفي بدوى وستة من أمرائه الى الرجاف واحلال ستة آخرين بدلا منه تحت امرة حامد واد على ابن عم الخليفة .

خلق الانسان وفي طبيعته البشريه نزوع الى طلب الوقايه من القوى ورغبته في التمتع بسند الاقوى فليس بدعا ان نرى حركه جديدة في صفوف اتباع الأمراء لان اكثرهم فضلوا السير تحت لواء الخليفة مباشرة أو تحت أسرة أخيه يعقوب حتى ان اشياع على وادحلو أنفسهم اسرعوا الى تنفيذ هذه الرغبه ويجمل بى فى هذا الصدد أن أذكر شيئا عن سعى حامد واد جار النبى الذى كان عاملا رئيسا فى هدم التعايشين . كان حامد هذا منتميا لقبيلة حسابات التى يرأسها على وادحلو وبما أن حامدا هذا كان على بينة مما يجرى وراغبا فى تنفيذ فكرة الاستناد الى ذراع الأقوى لم يال جهدا فى بث فكرة انضواء أتباعه تحت لواء يعقوب ولكنه (حامد) كان فى الوقت نفســـه قصير النظر غير مبال بما يجرى ازاء تصريحاته فأفضى برغبته الى أقرباء على وادحلو ولم يكتف بذلك بل تجاوزها الى التصريح فى اجتماع عام بأن الذىسيخلف الخليفة عبد الله بعد موته هو أخوه يعقوب أو ابنه الخليفة عثمان . فاذا ما استقر الأمر بين يدى يعقوب أو انتهت السطوة الى عثمان تلاشى نفوذ على وادحلو وأصبح رجلا عاديا لا شأن له .

عندما سمع الواقفون هذه التصريحات العلنية اجابه بعضهم بأن المهدى أوصى الخليفة عبد الله قبل موته (المهدى) بأن يخلفه

في الخلافة على وادهلو فقال له حامد بأن الأحـــوال تغيرت وأن عبد الله من القوة بحيث لا يبالى بوصيه المهدى الذى سيفه ٠

لم يكد حامد يذكر اقواله هذه حتى أسرع بعض المتشـــائين بالنميمة الى تبليغ الحادث الى علي وادهلو فاتهم الامير حامدا بتهمه التحريض وبث الفتنه وعندما قدم حامد الى القاضي وسمع الاخير شهادة الشهود لم يبق مجال للشك فى صحه ما ادلى به محبرو على فانتهى الحادث الى تأثيم حامد بتهمة الزندقه لأنه شك في قدسيه أوامر المهدى وتعاليمه ومع أنه كان من المتوقع جدا أن يتدخل الخليفة عبد الله لنصرة حامد وتبرئة ساحته لم يستطع الخليفة اظهار تدخله علنا فان ذلك التدخل دليل قاطع على جلاء رغبة عبد الله فى حرمان علي وادهلو من الخلافة بعده واثبات جديد لصحة ما قاله حامد ومع ذلك لم تكن الحقيقة خافية على الشعب السوداني عموما وسكان ام درمان خصوصا ٠

قضى الأمر وصدر حكم القضاة باعدام حامد ورغم كون عبد الله بذل أقصى ما فى وسعه لحمل على وادهلو على ارجاء ميعاد التنفيذ فان ذلك لم يخفف من غلواء علي وشدة حنقه وقد عرف واد هلو أن تنفيذ الحكم فى حامد انتقام مباشر من الخليفة عبد الله ٠ واذن ظفر علي واد هلو بتحقيق رغبته فنفذ حكم الاعدام فى حامد جار النبي علنا فى ميدان السوق الكبير بعد أن الصقت به تهمة الزندقة والتحريض على الثورة ٠

لا ريب فى ان ذلك التنفيذ مؤلم جـدا للخليفة ولأخيـــه يعقوب وبما أن خروج الخليفة علنا على الحكم دليـــل على رفضـــه الأحـــكام التي ضـــد الزنادقة كان من المنتظر أن يحرض الخليفة

اتباعه سرا على اظهار سخطهم من ذلك الحكم القاسي وهذا وقع فعلا فقد وصلت الأوامر من يعقوب الى رجال جميع القبائل الخاضعة له وصدرت الاوامر من الخليفة الى اتباعه المقربين بان يظهروا جميعهم سخطهم العام وامتعاضهم من تنفيذ الحكم وسبيل اظهار ذلك الشعور هو الامتناع عن حضور التنفيذ .

كان الخليفة في اى نزاع قائم بينه وبين خصومه يعتمد أولا وأخيرا على جنوده فان أولئك كافون جدا لارغام أية قوة معارضة له في الداخل مهما كان شأنها سواء أكانت هذه القوة في ام درمان ذاتها ام في أية ناحية أخرى من الجهات المجاورة . واذن فهو السيد المتسلط صاحب القوة التي لا تنازع في داخل السودان . أما اذا خرج الامر عن الدائرة الداخلية فهو عاجز عن صد جميع الغارات التي تبدو طلائعها من الخارج فان قواد جيشــــه ليسوا من القوة والدربة بحيث يستطيعون مهاجمة قوة خارجية هجوما يكفل لهم النصر على أعدائهم ، كما أن رجال جيشه ليسوا من الولاء والوفاء . في آخر سني حكمه ــ بما كان يعتقده الخليفة في أول أيامه ، ويرجع ذلك الى انطفاء جذوة الحماسة الشديدة الأولى وهم الى جانب ذلك على قليل من الثقة أو الايمان بالقضية التي يحاربون من أجلها ، وأخطر من هذا وذلك تسرب الشك الى رؤوس المحاربين في قدرة الخليفة وأتبـــاعه على مناوأة أية قوة خارجية ترمي الى احتلال الســــودان .

يرغب القراء بطبيعة الحال بعد أن اطلعوا على الكثير من تصرفات الخليفة الدينية والسياسية أن يقفوا على ما لديه من القوى الحربية ولئن كان من العسير ذكر تقدير دقيق عن رجال الحرب السودانيين ومعداتهم فلا مانع من نشر بيان تقريبي عن الموجود لدى أولئك المحاربين .

قبيل وأثناء عام ١٨٩٥ تنقسم النواحي السودانيه التي يشرف الخليفة الى أربعة أقسام رئيســية هي على التتابع ام درمان رجاف والسودان الغربي والسودان الشرقي وسنذكر فيما يلي المحاربين ومقدار معداتهم في كل من الأقسام المذكورة •

القسم الأول : يتولى أمرة الجيش فيها (أم درمان) اميران عثمان شيخ الدين ويعقوب ، أما أولهما فيتكون جيشه من أحد ألف جندي من المشاة في أيديهم احدى عشرة الف بندقية ولكل نية ماسورة ملساء ويتالف جيش الثاني (يعقوب) من أربعة آلاف المشاة وثلاثة آلاف وخمسمائة فارس وخمسة واربعين ألف من في الحــراب والرماح هذا الى ان مخزن هذا الأمير يحتوى على مدفعا وأربعة آلاف بندقية • كما توجــد في مخازن جيش درمان ست آلاف بندقية •

القسم الثاني : أمير جيش الرجاف هو عرابي واد دفلة الذي مر بأمره أربعة آلاف وخمسمائة من حملة الحراب والف وثمانمائة المشـــاة وتوجد في مخزن ثلاثة مدافع وألف وثمانمائة بندقيه ساء الماسورة •

القسم الثالث : ينقسم (السـودان الغــربي) الى الفاشر لابيض وشاكا وبربر وأبي حمد وللجهات الثلاث الأولى أمير واحد مه محمود (يعينه اثنان من اتباعه) تحت امرته ستة آلاف من ساة مثالا وثلاثمائة وخمسون فارسا والفان وخمسمائة من حملة اريق والرماح وفي مخزنه أربعة مدافع وست آلاف بندقيــة الناحية الرابعة (بربر) فتحت امرة زكي عثمان الذي يقود ا وستمائة من المشاة وخمسمائة فارس والفا وثلاثمائة من حملة ماح وفي مخزنه ستة مدافع وألف وستمائة بندقية وبذلك تنتهي

الى الناحية الخامسة (أبو حمد) التى يقود جنودها الامير نور عنو وتحت ارشاد هذا الرئيس أربعمـائة من المشـــاة ومائة فارس وسبعمائة من حاملى الرماح · وفى مخزنه أربعة مدافع وأربعمائة بندقيـــة ·

القسم الرابع : ينقسم (السودان الشرقى) الى احتارلها والقضـــارف والفاشر واســوبرى والقلابات ودنقلة وســواردا . وسنذكر محتوياتها تباعا تحت حروف أولية .

(أ) ينضوى جنود أضارايا تحت لواء الأمير عثمان دجنة الذى يقود أربعمائة وخمسين من المشاة وثلاثمائة وخمسين من الفرسان وألفا من حملة الرماح وفى مخزنه أربعمائة وخمسون بندقية من طراز الماسورة الواحدة الملساء ·

(ب) أمير جيش القضارف هو أحمد فضيل الذى يصدر اوامره الى أربعة آلاف وخمسمائة من المشاة وستمائة فارس وألف من حاملى المزاريق والحراب وفى مخازنه أربعة مدافع وأربعة آلاف وخمسمائة بندقية ·

(ج) يتولى امرة الفاشر ــ الى جانب امارة القضـــارف ــ أحمد فضيل السابق ذكره ويتكون جيش هذا الأمير من ألف جندى من المشاة ومائتى فارس وخمسمائة من حاملى الحراب وفى مخزنه ألف بندقية ·

(د) القائم بادارة شئون اسوبرى العسكرية هو الأمير حامد واد على وتحت ارشاده تسعمائة من المشاة ·

(هـ) الامير فى جيش القلابات هو عين نور (وهو أقل أمراء جنود السودان شأنا) الذى يأتمر بأمره خمسون من المشاة ومائتان من حملة الرماح والحراب • هذا الى أن البنادق التى فى مخزنه خمسون بندقية لا غير •

(و) يقود جيش دنقلة الأمير يونس الدغيم ، ولهذا الامير ألفان وأربعمائة من المشاة وخمسمائة فارس وخمسة آلاف من حامل الرماح وفي مخزنه ثمانية مدافع وألفان وأربعمائة بندقية •

(ز) آخر الأمراء السبعة للقسم الرابع هو سسورادا وأمير الجيش هناك زعيم ســـودانى اسمه حموده تحت قيادته مائتـان وخمسون من المشاة ومائة فارس والف من حملة الرماح وفي مخزن الأمير مائتان وخمسون بندقية . وباحصاء ما تقدم احصاء عاما نجد الأقسام الأربعة متفرعة الى خمسة عشر معسكرا حربيا فيها اثنا عشر أميرا ومجموع الجنود المشاة في دوائر نفوذ الخليفة المذكورة آنفا اربعة وثلاثون ألفا وثلاثمائة وخمسون ومجموع الفرسان ستة آلاف وستمائة وعدد حامل الرماح أربعة وستون ألفا والموجود من المدافع في المخازن خمسة وسبعون وعدد البنادق ألف وثلاثمائة وستون .

هذا هو مجموع ما فى البيـان ولكن في الحقيقة لا نجد من البنادق المذكورة أكثر من اثنتين وعشرين ألف بندقية صالحة للحرب (والبنادق المذكورة من طراز رمنجتن) أما الباقى فعبارة عن بنادق من ذات الماسورة أو الماسورتين وغير ذلك من النماذج القديمة غير المنتجة • ومهما يكن أمر الأسلحة النارية المذكورة فقد أصدر الأمراء أوامرهم بقطع أجزاء مختلفة الطول من أنابيب (مواسير) رمنجتن والغرض الرئيسى من ذلك تخفيف ثقل البندقية ولم يبال الجنود بما قد يلحق بالبنادق من الضرر فى حالة ذلك القطع غير المنتظم •

ذكرنا في البيان السابق أن مجموع حاملي الحراب والرماح أربعة وستون ألفا ، وانه لمن الواجب علينا بعد ذلك أن نقول ان ربع أولئك ـ على أقل تقدير ـ طاعنون في السن أو صغيرو الأسنان أي أنهم في كلتا الحالتين غير صالحين لنزول المعركة نزولا يضمن لهم الفوز .

اما المدافع الخمسة والسبعون فتشتمل على ستة من طراز كروب ذات الفوهة الواسعة القطر (ولكن لا توجد جبخانة كافيه للمدافع الستة السالفة الذكر) ثم ثمانية مدافع من أنواع ونماذج مختلفة ويتبقى بعد ذلك واحد وستون مدفعا نحاسية مختلفة الأشكال والأحجام على انها تعبأ جميعا بواسطة الفوهة ومن المعروف عن ذخيرة المدافع الأخيرة أنها تصنع في أم درمان بصفة خاصة وهذه (الذخيرة) من صنف رخيص غير فعال بحيث لا يبعد مدى طلقة المدفع عن ستمائة او سبعمائة ياردة .

لنتأمل الآن قليلا في حدود نفوذ الخليفة وبعد ذلك نرى أن سلطان الدراويش امتد في السنوات القليلة الماضية (قبل عام ١٨٩٥) من وادي حلفا الى الجنوب الشرقي حيث أبو حمد ثم سار شرقا الى سواكن وما جاورها (بما في ذلك طوكر وضور بركه) واتجه بعد ذلك جنوبا (بما في ذلك كسلا والقلابات والانحدارات الجنوبية الشرقية لبني شانقول وجبال جوبي) ثم مال من تلك الناحية الى الجنوب الغربي مقابل النيل الأبيض (بما في ذلك فاشودة وبوهر والرجاف) .

امتدت ذلك النفوذ الدرويشي من الغرب في تجاه جنوبي غربي داخل الصحراء الليبية الجنوبيه (بما في ذلك سليمة مديريات دنقلة وكردوفان ودارفور الى حدود واداي ثم سار جنوبا

مخترقا بحر العرب ومارا بدار رنجا (بما في ذلك دار فرتيت وبحر الغزال وقسم من منطقة خط الاستواء .

بعد أن انهزم النجومي اضطر اتباع المهدى الى الجلاء عن القسم الشمالى من مديرية دنقلة وأصبح مركز طليعة جيشهم الآن (عام ١٨٩٧) فى ناحية سواردا التى تبعد ثلاثة أيام - سيرا على الأقدام - عن دنقلة وانه ليجمل بنا أن نذكر خبر التجريدة التى تمكنت عام ١٨٩٦ من اخراج الدراويش من مديرية دنقلة وتأسيس حكومة ذات نفوذ مصرى ممتد جنوبا لغاية مروى .

انتصر المصريون فى طوكر وهندوب فساعد ذلك القبائل الداخلية على استرجاع ما كان لها من مناطق فى الجهات المجاورة مباشرة لسواكن وطوكر ، كما انتهى لاستيلاء على كسلا الى امتلاك الايطاليين جميع الأقسام الواقعة شرقى كسلا . وازاء هذا وذاك أصبح نهر عطبرة حد الخليفة الشرقى فى أواخر القرن التاسع عشر .

حدث تغيير ظاهر فى مراكز الجنود فانتقلت القوة الرئيسية التى كانت معسكرة فى القلابات تحت امرة أحمد فضيل الى جهة القضارف ولم تبق فى ثكنة القلابات سوى قوة ضئيلة . وقد انتهز رؤساء مناطق بنى شانقول وطور الغورى ثم كثيرون من مشايخ الجهات الغربية هذه الفرصة فأعلنوا استقلال مناطقهم وسرت العدوى الى الناحية الغربية القاصية ، فبعد أن اعتاد رجال قبائل مسالت وتاما وبنى حسين وجمر دفع الضرائب ثاروا على حكومة المهدى ، وأخيرا أعلنوا استقلالهم واشتركوا عقب ذلك فى محالفة دفاعية هجومية مع يوسف سلطان واداى ، فاعتزم الخليفة عبد الله ارسال مندوبين لاحضار أولئك العصاة واجبارهم على تقديم الطاعة والولاء له ، ولكنه عدل عن ذلك بعدما ظهر النفوذ الأوربى الجديد

فى بحر الغزال ووقف بخاتم موسى أحمد قواد عبد الله فى دائرة نفوذه دون تمكن من التقدم •

اكتفى عبد الله باصدار تعليماته الى خاتم ـ بعد أفول نجم الدراويش ـ بعدم التقدم الى الجنوب قبل وصول مدد جديد له من أم درمان •

الفصل السادس عشر

ملاحظـات متنوعة

اشرت فى الفصل السابق اشارة عامة الى موقف الخليفـة عبد الله من القضاء والقضاة والآن أفصل قليلا ما أجملته فأقول : ان القضاة هناك آلات صماء فى يدى سيدهم الماكر النبيه فلم يكن الخليفة يسمح لهم بالفصل فى القضايا الكبرى وكل ما يمكنهم من بحثه هو ما يختص بالمنازعات العائلية وقضايا الارث وتوزيع الأملاك وما شابه ذلك ، وعلى أية حال فهم فى جميع أحكامهم الكبرى فى القضايا المهمة كانوا ملزمين بالرجوع الى الخليفة قبل اصـــدار الحكم النهائى ولا حاجة بنا الى القول بأن الخليفة كان فى كل ما يدلى به من آراء الى أولئك القضاة لا ينظر الى شىء خلاف مصالحه الشخصية وأهوائه وأغراضه ، ولكنه فى الوقت نفسه كان يجتهد ــ بما أوتيه من حذق ودهاء ــ من الظهور أمام الشعب بمظهر المدافع عن الحق والراغب فى اتباع نصوص القانون ، واذن فالقضاة أمام مهمة شاقة جدا فهم من ناحية مضطرون الى ارضاء أهواء الخليفة وتنفيذ أوامره التى لا تتفق ــ فى غالب الأحيان ــ مع العدالة فى شىء ومن الناحية الأخرى مضطرون الى صوغ أحكامهم فى قوالب قانونية تبعث الشعب على الاعتقاد فى تمسك الخليفة بالحق ومهما يكن الأمر فان تسعين فى المائة من أحكام أولئك القضاة لم تنطبق حتى على أبسط مبادىء العدالة . أما الدين فى السودان حسبما

ارشدني الاختبار الى استنتاجه ـ فيتمشى على المبدأ القائل « الغاية تبرر الواسطة » ومما أذكره في مدة اقامتي أن الدوائر الدينية كانت بين آن وآخر تصـدر اعلانات ورسـائل صغيرة تحض فيها المسلمين على التقيد بأوامر الدين وتأدية الواجبات الدينية ـ وفي مقدمتها الصلاة ـ على الوجه الأتم ثم الابتعاد عن جميع الملذات العالميـة والتوجه الى عالم الخير الأعلى ولم تكن الأوامر الدينيـة المذكورة مقصورة على السودان بل تعدته الى جميع نواحي أفريقيا وبلاد العرب وبورنو ودار فلاته ومكة والمدينة ٠

اعتبر الخليفة شخصه قدوة للمسلمين عموما في السودان حكان ـ ما دام في صحته الكاملة ـ يشهد الصلوات الخمس يوميا ليظهر أمام الناس متمسكا بآداب الدين مع أنه في الواقع كان أبعد المسلمين عن التمسك بأوامر الدين ، ففي جميع السنوات التي كنت فيها على اتصال وثيق جدا بالخليفة لم أشاهده على الاطلاق يصلي الى ربه في داره الخاصة ، ولم أسمعه يكرر ـ ولو بصوت خافت ـ بعض التعاليم الدينية التي يعرفها المسلمون جميعا سواء أكانوا ممن يقرأون ويكتبون أم من الجاهلين ٠

لم يكن ادعاء عبد الله التقـوى من الاحـكام بحيث يصـدقه البعيدون لأنه رغم ظهوره بالتقى كان لا يتردد في اصـدار أمره بالغاء حفلة دينية وعدم تأدية فرض مذكور اذا كان في تادية الفرض ما يحول دون تحقيق غرض أو طمع من أطماعه الشخصية ، وهنا نعود فنقول ان الخليفة كان يتذرع في مثل هذه التعديات بالقضاة حتى يجيء الالغاء من الجانب القانوني ، وفي ذلك الموقف الحرج لا يتردد القضاة في اعلان أن ذلك الالغاء لازم في سبيل الاحتفاظ بالدين في حالة خاصة فاذا ما صدرت تلك الفتوى ارتاح الخليفة واطمأن ، الا أن القضاة في بعض الاحايين يقفون من أطماع الخليفة أمام حالات لا يستطيعون معها بحال من الأحوال أن يصدروا أمر

الالغاءواذن فيضطرون الى التمويه فيدعون بأن الالهام الدينى أمرهم بالقيام بهذا العمل الشاذ لحكمة قد تغيب عن أذهان البشر ٠

اعتاد الخليفة عبد الله مخاطبة أتباعه من منصة المنبر فى المسجد الكبير ولكن بما ان عبد الله يجهل الفقه الدينى الاسلامى ويعرف الشىء القليل من قواعد الدين وأصوله فان مدى خطبه الدينية محدودة ، وبمعنى آخر لا يتعدى تلاوة جمل كتبها له أحد سكرتيريه ٠

ألغى عبد الله الحج الى مكة واستعوض عنها بدعوة المسلمين الى الحج لقبر المهدى ممثل النبى الكبير وأنا على الرغم من مشاهدة كراهيـــة السودانيين لهذه البـــدعة الجديدة تراهم مضطرين الى الخضوع لأمر عبد الله ومازال أولئك السودانيون على نظامهم الجديد حتى أصبحوا الآن (عام ١٨٩٧) ساعين من غير قصد الى تحقيق رغبة عبد الله راغبين فى الحج دائما الى قبر المهدى وقد ذهب بهم حبهم فى التقليــد الجديد الى حـد أنهم يسخرون ممن لا يوافقهم فى طريقة الحج هذه ٠ وانه لمن النزاهة والعدل أن نقول بأن السودانيين فى تشبثهم هذا لا يعبرون عن عقيدة ثابتة بل يرمون الى تحقيق رغبة مولاهم عبد الله ٠

أما فيما يختص بالتعليم والأوامر الدينية فمن الحق أن نقول انها فى حيز العدم من الوجهة العلمية الواقعية ، وكل ما فى الأمر أن بعض الأولاد والبنات يتلقون معا آيات قرآنية وبعض جمل من الحديث المقدس لدى المسلمين ويكون ذلك الالقاء بواسطة شيوخ دينيين فى معاهد صغيرة مجاورة للمسجد ، ولئن قلنا ان الشيوخ يلقون الآيات على أولئك الصغار فانا لا ننسى بأن نذكر الى جانب ذلك أن الذى يحفظ من الآيات قسما صغيرا والمتبع فى زمن الخليفة عبد الله أن يرسل عدد قليل من أولئك الأولاد الى بيت المال بعد

اتمام دراستهم الأولية فى المساجد فاذا ما ساروا الى ذلك البيت أصبحوا تلاميذ تحت التمرين لموظفى الحكومة الاقدمين وهنـاك يتعلمون مقدارا محدودا من المراسلات الكتابية العامة ٠

نتدرج الآن الى التجارة فى السودان فنقول بأن ذلك العهد الذى كان زاهرا والذى امتدت فيه الطرق التجارية فى السودان قد اضمحل فأصبحت الطرق ـ التى كانت تجتازها القوافل الكثيرة العدد ـ شبيهة بالصحراء المقفرة حيث محت الرمال المكومة معالمها أو حلت بقايا جذور النبات فى بعض نواحيها ٠ وفى صدد ما نذكره يحسن بنا أن نضع بيانا للطرق التجارية الرئيسية الأربع ٠

أولا ـ الطريق الاربعينيـة من دارفور الى أسـيوط أو من كردوفان عن طريق بيوضة الصحراوية الى دنقلة ووادى حلفا ٠

ثانيا ـ الطريق من الخرطوم الى أسوان من ناحية بربر الى كروسكو عن طريق أبى حمد ٠

ثالثا ـ الطريق من الخرطـوم الى سـواكن من ناحية بربر أو كسـلا ٠

رابعا ـ الطريق من القلابات للقضارف فكسـلا فمصوع ٠ الطريق الحالية (عام ١٨٩٧) التى تجتازها جمال القوافل فمن بربر الى أسوان وسواكن ٠

بعد أن تم الاستيلاء على الخرطوم جلب التجار السودانيون الى أسوان مقادير كبرى من الحلى الذهبية والفضية وما زال التجار فى عملية النهب والتصدير الى جهات خارجة من السودان حتى اضطر الخليفة الى اصدار أوامره المشددة للتجار بعدم حمل ذهب

أو فضة معهم الى مصر مهما كان يعوزهم الانفاق وكل ما سمح به الخليفة لأولئك التجار الخارجين عن السودان هو مقدار من المال يعينه بيت المال حتى لا تضيع حل الشعب السوداني وكنوزه في سبيل انفاق غير مشروع في نظر الخليفة • ولم يكتف عبد الله بتحديد مقدار ما يأخذه التجار معهم بأمر بيت المال بل جعل العمله التي يحملونها من الطراز القديم على أن تحدد قيمتها في جواز سفر التـاجر •

أدت القيود والتشديدات التي أجراها الخليفة عبد الله مع التجار الى تضـاؤل شـأن التجارة بين السودانيين ولكن ذلك لم يستمر طويلا فانتعشت التجارة ونهضت بعد كسادها فعادت الى السودان حياته بتبادل أصناف تجارته الرئيسية كالصمغ وريش النعام والتمر الهندى وأوراق نبات السـنامكي وما شاكل ذلك ، وقد كانت العـادة المتبعـة في هذا التبـادل التجاري جمع هذه الأصناف في بيت المال الى جانب ما فيه من العاج المخزون على أن تقدم جميعها للبيع في سوق المزاد العلني تبعا للسعر المحلي ولكن بما أن الأصناف المذكورة تستورد من جهات السودان الغربيـة التي أصابت أهلها الحروب الداخلية والفاقة والأمراض فمن المعقول فهمه أن مقدار المستورد يقل بقلة عدد السكان المنتجين •

لا شك في أن الصمغ السوداني احتكار لسكانه ، وهذا الصنف يختلف في أثمانه باختـلاف أنواعه المتعددة وانما نذكر ذلك لنذل به على فائـدته في المبـادلة علما بأن التبـادل التجاري بين مصر والسودان لا يتم بالمال بل بالبضائع والذى نعرفه عن المصريين أنهم يقدمون بدل ما يأخذونه من السودان بضـائع جـاهزة من مانشستر لأن الحاجة اليها في السودان كبيرة جدا •

في حال التعامل بالنقد في السودان يشترى بيت المال أى صنف تجارى بعشرين ريالا من العملة الجديدة مثلا فيبيعه للشارى

السوداني بثلاثين ريالا حتى يبقى المكسب فى بيت المال وعندما تتم المبايعة بين الطرفين الرسمى والشعبى فى السودان يسمح رجال الخليفة لأولئك التجار السودانيين بالسفر الى مصر لبيع تجارتهم وقبل سفرهم توضع بضائعهم فى موازين الشحن لتقدير ثقلها بالضبط وفرض ضريبة خاصة عليها بعد ذلك هى فى الغالب ريال على ما زنته قنطار ؛ فاذا رغب التاجر شحن تجارته الى سواكن او اسوان اضطر الى دفع ريال آخر على كل مائة رطل ولكن الريال فى هذه الدفعة يكون من العملة الجديدة ، واذن قد أصبحت الضريبة الاضافية سدس الثمن الأصلى ٠

يرد العاج الى السودان من أقاليم خط الاستواء بكميات كبرى مرة واحدة كل عام وفى الغالب تمر تجارته بسواكن وبما أن المناطق المذكورة خارجة أو تخرج تباعا عن دوائر نفوذ المهدى فقد كان من الظاهر جدا لدى عبد الله أن الكميات المذكورة تتناقص فى السنوات التى تعقبه ٠

أما ناب الفيل فلم تكن الدوائر الحكومية لتظفر به كثيرا لأن الوارد منه قليل يجلبه بيت المال من مناطق دارفور الجنوبية ومن الحق أن نقول بأن الدراويش ما لم يعودوا الى احتلال بحر الغزال بالقوة مرة أخرى ـ لا يستطيعون الاحتفاظ بتجارة العاج احتفاظا يضمن لهم مقدارا مذكورا من الثراء ٠

لا يستطيع السودان جلب البضائع من مصر الا عن طريقين هما أسوان وسواكن ، وقد كانت الحكومة السودانية فيما سبق تجلب مقدارا من تجارتها القادمة من مصر أو ما جاورها عن طريق سواكن الى كسلا أو من كسلا الى مصوع ، ولكن حال دون استعمال ذينك الطريقين احتلال السودان الشرقى بواسطة الايطاليين فليست البضائع المستوردة سوى أصناف من قيمة مالية طفيفة

وتتكون فى غالبيتها من مواد خاصة بجلابيب النساء وجبب الرجال ومهما يكن الأمر فان ذلك شيء غير جوهرى لدى سكان السودان الذين اعتادوا التعلق بكل ما له رونق خارجى زاه وما فيه التزاويق الكثيرة بغض النظر عن تناسب ذلك مع الذوق السليم وبدون اهتمام بالقماش المتين • وفى الحق يكاد يكون من العسير جدا او من المستحيل وجود مشترين من طبقة عالية أو متوسطة فى نواحى السودان •

بين الأصناف المستوردة الى السودان الروائح العطرية من جميع الأصناف كزيت خشب الصندل والقرنفل والحبوب ذوات الرائحة الطيبة والسبب فى استيراد ذلك النوع التجارى بكثرة هو استحسان السودانيات اياه ولئن كنا أشرنا أخيرا الى عدم رواج البضائع الغالية القيمة بين اهل السودان فان ذلك لا يمنعنا من القول أن السكر والأرز والأنواع المادية من الحلوى والفواكه المجففة تجد جميعها شارين بين أكثر السودانيات ثراء وقد يجمل بنا أن نذكر فى صدد التجارة أوامر الحكومة المصرية سابقا بمنع الحديد والقصدير والنحاس بنوعيه الأصفر والأحمر من دخول السودان حتى أصبح عسيرا على الأوربى فى عام ١٨٩٧ أن يحصل على مقص أو موسى لحلق الذقن وقد كان من جراء هذا المنع ارتفاع أسعار أوانى الطبخ النحاسية الى حد كبير من الغلاء لأنه علاوة على منع التصدير استولت الثكنات العسكرية على النحاس القديم القابل للتصليح فاستخدمته فى صنع الخراطيش للبنادق • واذن اضطر السودانيون المعوزون الى الاستعاضة عن الأوانى النحاسية بأوان خزفية فى تحضير الطعام •

كان مفروضا على صاحب كل تجارة واردة للسودان أن يدفع ضريبة عبارة عن عشر قيمة الوارد وقد ألزمت الحكومة أصحاب التجارة المستوردة بدفع الضريبة اما نقدا واما بضاعة مبادلة وقد

كانت الضريبة تؤخذ أكثر من مرة على طول طريق القافلة • فاذا ما وصلت التجارة الى أم درمان أخذت الى بيت المال ووضع عليها ختم الحكومة ومن ذلك الوقت تجبى الحكومة عشرا جديدا • واذن وقف التجار أمام ضرائب ثقيلة متعددة كما التزموا تقديم ما يشبه الرشوة الى رؤساء أماكن الحكومة السودانية التجارية فى المحطات المختلفة أى أن التاجر كان يدفع من جديد ما يقرب من نصف ثمن البضاعة الذى دفعه أولا للبائع • وهم ازاء ذلك مجبورون على رفع قيم البضائع وعلى الرغم من ذلك كله تجد مكاسبهم فى النهاية قليلة بالنسبة لغيرهم من التجار فى مختلف الجهات المجاورة للسودان •

ان كثيرين من التجار الأغنياء فى السودان نزحوا الى مصر وغرضهم الأول ليس جلب التجارة منها أو بيع تجارة لها ولكنهم رموا قبل كل اعتبار آخر الى التخلص من جو السودان بضعة شهور يكونون فيها بعيدين عن سلطان الخليفة الشديد فان كل الذين قاسوا الأمرين من ظلم هذا الحاكم لم يجدوا وسيلة للحصول على جواز يهربون به من السودان سوى التجارة فلم يكن مسموحا للحكومة السودانية أن تعترض أى راغب فى بيع أو جلب تجارة للخارج أو منه •

كان الكثيرون من التجار مقيدين بأسرهم وزوجاتهم وبنيهم ولا يخالجنى أى شك أو ريبة فى أنهم لو كانوا خالصين من تلك القيود لما رجعوا مطلقا الى السودان ولفضلوا العيش فى مكان هادىء كمصر — خارج وطنهم الأصلى — عن البقاء تحت نير العسف الشديد والاستبداد المطلق فى السودان •

لئن أصيبت التجارة بكساد عظيم فى السودان فثم تجارة لقيت الرواج الكبير والتأييد الكلى من جانب المهدى والخليفة

عبد الله ، وأعنى بذلك تجارة الرقيق وبما أن تصدير العبيد الى مصر لبيعهم أصبح أمرا محظورا ومعاقبا عليه فالخليفة بطبيعة الحال معنى بتوسع تلك التجارة فى جميع المديريات والنواحى الداخلية فى دائرة نفوذه • ولم يغب عن خاطر الخليفة بعد منع تصدير العبيد ـ أن يحول دون استئثار مشيريه بالأمر على حسابه•

كان من المستحيل بطبيعة الحال ـ رغم صدور الأوامر المشددة من حكومة مصر بمنع تصدير الرقيق ـ أن يحول الخليفة عبد الله دون تجارة الرقيق فى مصر وبلاد العرب ولكن القوافل التى كانت فيما مضى تقل المقادير الوافرة من عبيد السودان قد وقفت وقوفا يكاد يكون كليـا •

كان فى الســنوات التى بين ١٨٩٠ و ١٨٩٧ يرسل العدد الكبير من عبيد الحبشة بواسطة أبى النجا ومن فاشودة بواسطة زكى طومال ومثل ذينك المقدارين كان يرسله عثمان واد آدم من دارفور وجبال النوبة وكان أولئك المرسلون الى السودان يباعون علنا فى سوق المزاد العلنى على أن تودع أثمانهم فى بيت المال أو فى خزانة الخليفة الخاصة • ويمثل الشدة والقسوة التى كان يعامل أولئك الرقيق أثنـاء شرائهم كانوا يعاملون وقت تسـفيرهم الى الجهات •

عرف الجميع عن أبى النجا أنه استولى فى بلاد الحبشة على الآلاف من المسيحيين لبيعهم فى سوق الرقيق فى السودان وكان أغلب أولئك من النســاء والأولاد وقد بلغت القســوة بأبى النجا ورجاله مبلغا دعتهم لسوق أولئك بالسياط أثناء مسيرهــم على الأقدام من بلاد الحبشــة الى أم درمان فاذا ما عرفنـا أنهم كانوا يؤخذون قهرا من عائلاتهم ويحرمون من الطعام الكافى لسد رمقهم فى هذه المسافة الطويلة ويسيرون على أقدامهم العارية عرفنا أنهم

كانوا اشبه بقطيع من الاغنام فليس بدعا أن يعرف القراء أن العدد الاكبر من اولئك العبيد كانوا يهلكون جوعا أو مرضا قبل الوصول الى أم درمان وأن الباقين منهم ـ أثناء وصــول أبى النجا بهم الى أم درمان ـ كانوا فى حالة سيئة ضعيفة يتعذر معها وجود الشارين وازاء ذلك كان الخليفة فى كثير من الأحيان يتبرع بعدد من أولئك العبيد لبعض أخصائه •

بعد أن هزمت قبيلة الشلوك سعى زكى طومال فى الاستفادة من ضعف رجالها ونسائها فحمل العدد الكثير من صنادل ـ كانت معـدة لنقـل رجاله الحربيين ـ ونقلهم الى سـيدى عبد الله فى أم درمان • وقد سمعنا فى تلك الأثناء الشىء الكثير عن اختناق المئات من جراء ازدحام الصنادل البحرية بهم فاذا ما وفق الباقون للحياة أخذ الخليفة بعض صغار السن منهم لضمهم الى حرمـه الخاص بصفة احتياطى ، أما النساء فكن يبعن مع الأولاد فى سوق المزاد العلنى الذى كان يستغرق عادة بضعة أيام فى أم درمان •

كان أولئك المنكودو الحظ يجلسـون فى غالب الأحيان عراة خاوى البطون أمام ببت المال فاذا ما قدر لبعضهم أن يسدوا رمقهم أعطاهم عمال الخليفة أعوادا قليلة من الذرة دون تسوية ، فكان من الطبيعى أن يصاب المئات منهم بالمرض مما يعرضهم الى عدم عناية اسيادهم الشارين بهم وقت العرض •

فى كثير من الأحيان كان يبلغ الضجر والتعب بعشرات أولئك التعساء حدا يفضلون معه القاء أجسامهم فى ماء النيل حتى يريحوا أجسامهم العارية وبطونهم الخاوية من عذاب لا يعرفون مداه ، فكانوا يموتون هناك وبما أنه لم يوجد من يعنى باخراج جثثهم فان النتيجة المنطقيـة هى اكتسـاح الجثث بقوة التيار الى الشـاطىء • فاذا

ما ظهرت جثه الفيت خارج الشـاطيء مما يدعو الى نشر رائحة كريهة فى الجهات المجاورة ٠

هذا فيما يختص بالقريبين من شاطيء النيل أما الذين كتب عليهم الشقاء الأكبر فكانوا يدفعون فى الصحراء ٠ حيث لا ماء ولا زرع ٠ على طول الطريق بين دارفور وأم درمان وقد كان أولئك البائسون تحت امرة رجال غلاظ القلوب يدفعونهم الى أم درمان نهارا وليلا دون المن عليهم بشيء ولو قليلا جدا ٠ من الراحة ٠ وقد أكون عاجزا الآن عن وصف ما يرتكبه أولئك الرجال المتوحشون المفترسون أثناء سيرهم بالنساء الى سوق العبيد فى أم درمان ٠

كان من عادة أولئك المتوحشين الهمج أن يقطعوا آذان من يعجز من الأولاد أو الرجال أو النساء عن السير الى أم درمان ٠ بمناسبة ما نزل بهم من الكلال ٠ ليقدموا الآذان المقطوعة للخليفة علامة على مقدار من ماتوا من سباياهم وسط الطريق وقد أخبرنى احد أصدقائى أنه شاهد فى مرة من المرات احدى النساء مقطوعه الأذنين ولكنها لم تكن قد فارقت الحياة بعد ، فدب دبيب الشفقة فى قلبه فأحضرها الى الفاشر وبعد أيام من الله عليها بالشفاء فى حين أن أذنيها قدمتا الى الخليفة دليلا على موتها ٠

وقف تيار القوافل المملوءة بالعبيد الى أم درمان لأن القسم الأكبر من الأجزاء الموردة للعبيد ٠ كدارفور ٠ قد هجرها ساكنوها وفى أحيان أخرى كان يقدم رجال القبائل ٠ كقبيلتى تاما ومسالت٠ فروض الخضوع الى الخليفة ليعفيها من خطر الأسر ٠ ومع ذلك استمر لغاية عام ١٨٩٥، ورود الكثيرين من الرقيق الأسود من الرجاف الا أن بعد المسافة بينهما وبين أم درمان كان يحول دون وصول الكثيرين أحياء الى بيت المال ٠

اضطر الخليفة عام ١٨٩٦ ـ حيال نقص أو انعدام المأسورين من الرقيق الأسود في القلابات وكردوفان ودارفور ـ الى اصدار أوامره للأمراء التابعين له ببيع ما يصل الى ايديهم من العبيد لزعماء القبائل المتجولين بحيث يضطر كل من أولئك الزعماء الى كتابة ورقة يذكر فيها اسم العبد ومقدار ما دفعه الأمير ثمنا له . وقد كان يسمح لهم الخليفة باعادة بيع من اشتروهم من العبيد بالطريقة ذاتها .

لا ريب في أن بيع الرقيق في أم درمان ذاتها يجرى يوميا ولكن من المحرم رسميا الآن (١٨٩٧) بيع رقيق الجهات والقوافل والسبب في السماح ببيع النوع الأول هو اعتبارهم ملك الخليفة وعطكرا له على أن جميعهم أو أغلبهم كانوا يعتبرون ضمن الجنود . واذا سلمنا بأن شخصا خارج أم درمان جلب معه سرا أحد العبيد السذج فقد كان من الميسور أن يبيعه بيعا اسميا لبيت المال على أن يورده الى صفوف الجند مقابل قيمة مالية لمن جلب العبيد وذلك في حالة تمتع الرقيق بالصحة أما اذا كان الأخير غير لائق للخدمة فيبقى في دائرة نفوذ سيده على أن يعمل في أراضيه الخاصة .

أما فيما يختص ببيع النساء والأولاد فأمر مسموح به في أية ناحية من نواحي السودان بشرط أن يمضي على ورقة البيع اثنان من الشهود ، ويحسن أن يكون أحد الاثنين قاضيا ، وفي تلك الورقة يقر الاثنان بأن المرأة التي بيعت حق مكتسب للسيد السوداني الذي اشترى والسبب في تنفيذ ذلك العمل والسماح به هو أن كثيرا من العبيد كانوا يهربون من بيوت ساداتهم فيمسكهم آخرون ويبيعونهم لغير ساداتهم الأولين مما أدى الى انتشار فكرة سرقة العبيد في أم درمان وكان أولئك العبيد في كثير من الأحيان يؤخذون بواسطة أشخاص ظاهرين لضمهم الى منازلهم

أو كان يغريهم أولئك بترك الحقول والأراضي التي يعملون فيها وبعد ذلك كانوا يقيدون بالسلاسل لترحيلهم الى جهات نائية حيث يتم بيعهم بأثمان بخسة جدا ٠

تنص الشريعة الاسلامية على عدم الاعتراف بشهادة العبيد الذين تتم المساومة على بيعهم في سوق الرقيق فكان أولئك البائسون واقفين على حقيقة حالتهم المزرية فاذا علمنا بأن بعضهم عوملوا من أسيادهم معاملة حسنة فان ذلك لم يكن ليرضى الرقيق على وجه عام ٠

أنشأ الخليفة في أم درمان ذاتها في ساحة فسيحة على مسافة قريبة من الجنوب الشرقي لبيت المال بيتا عاديا مبنيا بالطوب وتعرف الساحة المحيطة بهذا البيت بسوق الرقيق وقد كنت في كثير من الأحيان أدعى بأني أرغب في شراء أو استبدال بعض الرقيق وبهذه الحجة وحدها كان يسمح لي الخليفة بالتوجه الى سوق الرقيق فسنحت لي بذلك فرص متعددة للوقوف بنفسي على كيفية اجراء عملية المساومة ٠

في تلك السوق كان يقف الاختصاصيون بتلك التجارة لبيع ما لديهم من سلع بشرية بحيث يقف حول سور البيت الطيني عدد كبير من النساء والأولاد ويجلس البعض الآخر ، فهناك ترى العاجز والعارية والمزخرفة والمسرورة ، وبطبيعة الحال أسعد المذكورات حظا هن المحظيات اللاتي يبعن بثمن طيب ، وبما أن تجارة الرقيق أمر جائز ومشروع جدا في السودان فمن حق الباعة والشارين أن يفحصوا رقيقهم فحصا دقيقا من هامة الرأس الى باطن القدم بدون أقل تقيد كما لو كان هذا الرقيق من طبقة الحيوانات الدنيئة ٠

فكان الشارى يفتح فم المرأة ليرى أسنانها وأضراسها ثم يأمر البائع برفع ما عليها من غطاء فى النصف الأعلى من جسمها ليفحصها الفحص الدقيق ويعنى فى ذلك عناية خاصة بتفحص ذراعيها وبعد ذلك يطلب الشارى من المبيعة أن تمشى الى الأمام أو الخلف بضع خطوات ليتعرف كيفية مشيها ثم تلقى بعض أسئلة من الشارين على النساء والأولاد للوقوف على مقدار ما يعلمونه ويعلمنه من اللغة العربية وفى الحق يظل كل من أفراد الرقيق خاضعا لرحمة الشارى كل ما يلقيه عليه من أسئلته ٠

ذكرنا قبلا أن بين الرقيق نسوة يسمين بالمحظيات فنعود الى القول بأن أثمانهن تختلف اختلافا كبيرا ، وهذا لا يمنع دخولهن فى دائرة الأسئلة العامة الموجهة للرقيق فان ذلك أمر عادى جدا ولم يكن يخطر فى بال واحدة منهن أن تعترض على طريقة البيع المذكور رغم ما فيها من شدة فى كثير من الأحيان ٠ وكل ما فى الأمر أن بعض النساء أو البنات يشعرن بأنهن لدى أسيادهن فى كثير من الأحيان أفضل مركزا من الرقيق ، وبعبارة أخرى يجدن أنفسهن خادمات ، وقد يذهب بالواحدة حظها السعيد الى درجة تشعر معها أن مركزها لدى سيدها كمركز أفراد الأسرة التى تخدمها بعد أن كانت فى حالة سيئة عند سيدها الأول الذى كان يعاملها معاملة وحشية قاسية ٠ وبعد أن ينتهى الشارى من استقصاءاته يتساوم مع البائع فيسأله عن ثمنها ثم يردف هذا السؤال بالاستفسار عن امرأة أحسن من التى أمامه ليبيعها له ، وقد كان الشارى فى كثير من الأحايين يشكو للبائع عدم تمتع المبيعة له بجمال كاف وعدم ظهور مخايل الحسن على جسدها بوجه عام ، كما كان يشكو أحيانا من جهلها اللغة العربية جهلا تاما الى غير ذلك من الشكوى التى لم يكن يقصد منها سوى تخفيض ثمن السلعة الآدمية التى تباع له بينما نرى البائع من الناحية الأخرى باذلا أقصى ما فى وسعه لاظهار محاسن

تلك المرأة المنكودة الحظ والاطناب فى جمال أخلاقها مما لا داعى الى تفصيله فى هذا المقام ·

هناك نقائص فى المرأة أو البنت أو الولد تضطر البائع الى تخفيض الثمن وفى مقـدمة النقائص المذكورة الشطيط والسرقـة والكذب ومهما يكن أمر البيع فالذى نعرفه أنه عند الانتهـــاء من المساومة والوصول الى اتفاق يخرج البائع ورقة يوقع عليها هو والشارى الذى يدفع الثمن فى الساعة التى أصبح فيها سيدا للسـلع البشرية التى اشتراها وكان الدفع دائما بالعملة المحلية السـودانية (عملة الريالات الجديدة) ويمكن على وجـه الاجمال تقدير الثمن بما يأتى :

كان ثمن العبـد الشـامل الكبير السن يتراوح بين خمسين وثمانين ريالا وثمن المرأة المتوسطة العمر بين ثمانين ومائة وعشرين ريالا ، أما البنت ما بين الثامنة والحادية عشرة من عمرها فكان يقدر ثمنها تبعا لمنظرها وهو على وجه عام بين مائة وعشرة ريالات ومائة وستين ريالا · ويجدر بنا أن نشير الى أن الأثمان الأخيرة ذاتها تختلف باختلاف سعر السوق أو باختلاف الطلب لفئة خاصة من الرقيـق ·

لا توجد من الوجهة العملية صناعات خاصة فى السودان ومع استثناء المواد التى ذكرتها فى الصحائف السابقة لا تجد بضائع مصدرة من السودان ·

كان فيما مضى (قبل عام ١٨١٧) يرسل العمل المزركش بالذهب أو الفضة الى مصر ولكن بعد أن قل ورود ذينك المعدنين النفيسين ـ بتضاؤل الأيدى العاملة من الرقيق ـ وبعد أن أصدر المهدى أوامره المشددة ضد لبس الجواهر والحلى نقص أو وقف

التصدير للنواحي المجاورة عامة ولمصر خاصة . ومع ذلك لدى السودانيين تجارة رابحة في الحراب الطويلة والقصيرة والحدايد المستعملة لسروج الخيول والحمير والمدى القصيرة التي توضع على الإذرع . هذا الى ما اكتسبه السودانيون من بيع الآلات الزراعية . ولم يكتف السودانيون بذلك بل شتركوا في عمل السروج الخشبية للخيول والجمال والبغال وصنع (العنجريب) والصناديق الخشبية لشحن الملابس ثم اعداد الابواب والشبابيك والغرف البسيطة .

كان السودانيون في السنين السابقة لانقضاء القرن التاسع عشر يعملون عملا جديا في بناء المراكب ولكن حال دون الاستمرار في ذلك العمل المنتج تدخل الخليفة ومصادرتا جميع المراكب الموجودة في النيل ومع ذلك نهضت هذه الصناعة . يلا عام ١٨٩٦ بعد أن أذن الخليفة بتسيير المراكب . ومهما يكن ا مر فان الرغبة في بناء السفن قد ضعفت ضعفا كبيرا بعد أن فرض بيت المال الضرائب الثقيلة على كل مركب جديد .

من الصناعات التي عنى بها السودانيون عم الأحذية الصفراء والحمراء والسروج المختلفة الانواع والاحجبة الجلدية لصغار الأولاد والبنات وأعمال السيوف وقرابات المدى أ الكرابيج فتصنع بمقادير وافرة جدا من جلد فرس البحر .

علينا ألا ننسى زراعة القطن وتجارته في السنين الأخيرة في القرن التاسع عشر في الس‍ودان . فقد كان مصرحا لكل امرأة أو بنت أن تغزل لحسابها الخاص والى جانب هذا العمل الخاص وجدت في كل قرية اما‌ً صغيرة للغازلات اللاتي يقمن بمختلف أنواع النسيج . أما أرض ، جزيرة ففيها ناسجات وناسجون لأنواع مختلفة من الملابس القطنية الأثواب والدمور والجنجس التي يبلغ

طول كل قطعة جزئية منها عشر ياردات فاذا ما تم نسج الأقمشة المذكورة جلبها أصحاب المحال الصغيرة الى الأسواق بكميات كبيرة على أن يشتريها أفراد الطبقة العامية من رجال ونساء • ولا شك في أن أعلى نوع من الغزل ينسج في مديرية بربر ففي تلك الناحية تنسج النساء أغطية وجلاليب من الحرير الملون ويغزلن قطعا حريرية تستعمل كعمائم للأغنياء وبعض الأحزمة التي يلفها لابسو العمائم الأغنياء فوق كساواتهم الحريرية والقطنية ، وفي هذا الصدد نذكر الشيلان الحريرية التي تروج في مختلف الأنحاء رواجا عظيما •

تقوم مديرية دنقله بمقدار كبير من نسيج القطن ولكن هذه الدائرة مشهورة شهرة خاصة بصنع أغطية المراكب وانه لواجب علينا في صدد تقرير الحق أن نشهد لرجال كردوفان بمتانة نسيجهم بغض النظر عن بعد ما يصنعونه عن الجمال في المنظر •

الى جانب غزل القطن تجد النساء والبنات عملا آخر رابحا هو ضفر الحصر من جميع الأشكال والحجوم من أوراق شجر الدوم التي تباع بكثرة في جميع نواحي السودان ولا مشاحة في أن أمتن نوع من هذه الحصر هو الذي يضفر من الخيوط الضيقة من الأوراق المذكورة ومن قش الشعير والقطع الجلدية الرفيعة • ولا تستعمل الحصر المذكورة في فرش الغرف فحسب بل تحت أطباق الأكل أيضا بحيث تكون الحصيرة في السودان غطاء للمائدة بدلا من أغطية القماش المستعملة في الغرب •

وقد تبلغ جودة عمل الحصر حدا ترسل معه مقادير كبيرة الى مصر كتحف وطرائف للأوروبيين الذين يقصدون القطر المصري في شهور الشتاء •

ان نساء دارفور على مهارة خاصة فى صنع الحصر المذكورة التى توضع بين ثناياها بعض الخرزات الزجاجية مما يؤدى الى اكتسابها رونقا جميلا جدا ٠

★★★

اجتهدت فى الصحائف السابقة أن أصور للقارىء حياة الخليفة العامة وشئون السودان فى عهده ولكن ذلك التصوير لا يأخذ شكله الدقيق بدون الاشارة الى حالة السودانيين الخلقية فأقول ان المهدى سعى جهده فى ترك التعاليم والعوائد الدينية الرئيسية وانشاء نظم دينية جديدة فبث أوامره فى صفوف الشعب ودعا ذلك بطبيعة الحال الى افساد الأخلاق لأن الناس اضطروا فى الظاهر الى مجاراة المهدى بينما هم فى الواقع متمسكون بتعاليم الدين الأصلية ، وفى هذا الاختلاف بين ما يعتقده المرء وما يدعى أمام الخليفة لاحترامه اغراء على الكذب ، وهذا الاغراء الجزئى ينتهى الى شر خلقى مستطير ٠ وعلينا ان نذكر بأن الناس خافوا بطش الخليفة من ناحية وتمسكوا بمصالحهم وشهواتهم من الناحية الأخرى فدعا ذلك الى فساد خلقى عظيم لا أستطيع وصفه للقراء ٠ ومهما يكن الأمر فقد كان أغلب سكان السودان غير مرتاحين الى الحالة العامة فى السودان عامة وفى أم درمان ـ حيث يقيم عبد الله ـ خاصة لأنهم أشفقوا على حرياتهم الشخصية من تعسف رجال الخليفة عبد الله ففضلوا حينذاك الانصراف الى أهوائهم وملذاتهم والاسراف فيها بقدر ما تسمح لهم أجسامهم ٠

نستطرد الآن الى نقطة حيوية مهمة وهى عدم وجود حياة اجتماعية أو تبادل بين النفوس ، فكان الحل الوحيد الذى أجمع عليه السودانيون أمرهم هو الاغراق فى بحار الشهوات والميل الى حب النساء حبا بهيميا لا ينتهى عند حد ففكر حينئذ كل سودانى فى

الحصول على أقصى عدد من النساء كزوجات له الى جانب محظياته وسراريه فكان الخليفة - من هذه الناحية - مشجعا لرعاياه على السير في طريق اللذة المفسدة ، ومن دلائل ذلك التشجيع أنه أمر بتخفيض مصاريف الزواج الرسمية تخفيضا ظاهرا ، فبعد أن كان صداق البنت عشرة ريالات أصبح خمسة وصار صداق الأرملة أقل من ذلك ومعه لباس عادي ورداءان وبعض روائح عطرية •

اذا رغب السوداني في الاقتران ببنت وجب على والدهـا أو ولى أمرها أن يعلن مصادقته وفي العادة لا يحول دون هذا القبول سوى مانع قوى جدا • وعلى أية حال فالآباء وأولياء الأمور مسئولون دائما عن زواج بناتهم أو من يتولون رعايتهم بحيث يصبحن زوجات متى بلغن عمرا مناسبا •

ذكرنا قبلا اغراق السوداني في لذته واذن فلا عجب أن نرى بأن حصول السوداني على أربع زوجات -وهو اقصى ما صرح به القرآن من عدد للزوج - أمر عادى جدا حتى أن السوداني في ذلك الحين عد الحصول على الزوجة حصولا على متاع بسيط • هذا الى أن السودانيات كن يرغبن رغبة شديدة في هذا الزواج ، اما للحصول على بعض ملابس وكمية صغيرة من المال • واما للرغبة في نظام جديد من الحياة لم يكن يعرفنه في منازل آبائهن وأولياء أمورهن وفي الوقت ذاتـه كن على علم بأنهن - تبعا لنصوص الشريعـة - يستطعن الانفصال عن أزواجهن بدون عناء كبير •

في حالة الطلاق تستبقى السودانية صداقها الا في حالة واحدة هي كراهيتها لزوجها فيتحتم اذ ذاك رد الصداق الى الزوج وقد عرفت في بعض الأحيان أن الزوج كان يترك المهر لزوجتـه المطلقة بمحض اختياره ، واني أقرر عن ثقة واطلاع أن من السودانيين من يتزوج في بحر عشر سنوات بأربعين أو خمسين سودانية (مع

مراعاة أن هناك طلاقا مستمرا فى حياة مثل ذلك السودانى) كما أن من النساء من تزوجت فى هذه الفترة الخمسة عشر أو العشرين زوجا على أن قانون الزواج الاسلامى ينص على انقضاء فترة بين الطلاق والزواج الجديد لا تقل عن ثلاثة شهور • أما فيما يختص بالمحظيات فيبيح القانون السودانى الدينى تمتع السودانى بأى عدد يزيد منهن ، ولا ريب فى أن اباحة التمتع بالمحظيات أدت الى انتشار الفساد الخلقى مع انتشار الأمراض السارية الخطرة •

قلنا ان المحظيات السودانيات خطر على الأخلاق وجالبـات للأمراض الخبيثة ، ولنفصل ذلك نقول أنهن لا يعشن جميعا فى المنزل الذى يعيش فيه سيدهن ما لم يكن لذلك السيد أولاد من احداهن فانها (المحظية) تضطر للبقاء فى منزل قانيها ولا يجوز مطلقا بيعها لآخر ، ولكنهن فى أغلب الأحيان يعن لأسيادهن على أن يبقين فى حوزاتهم فترات قصيرة جـدا على أن يبعن بعـد ذلك لغيرهم بأرباح جديدة ولا ريب فى أن هذا الانتقال المستمر من بيت الى آخر يعرض الأخلاق والصحة لخطر جسيم والى جانب ذلك تذبل زهرة شباب المحظية وتضيع معالم جمالها ، فاذا أضفنا الى ذلك أن المحظية تباع لسيدها فى أول مرة وهى فى سن صغيرة عرفنا ما تقاسيه من الآلام الحقيقية التى لا تخفف منها لذة بهيمية غير منتجـة •

من المعروف عن تجار الرقيق فى السودان أنهم فى سبيل الحصول على مكسب نقدى لا يبالون بما يصيب النساء والبنات من ضعف فى القوة وفساد فى الخلق وتعرض لأخبث الأمراض فكانوا يشترون البنات الصغيرات ويسمحون لهن بالحرية المطلقة فى اختيار المنزل الذى تعيش فيه البنت والحياة التى تحياها ولم يقف الفساد عند حد أولئك التجار بل تعداه الى الشارين أنفسهم

ففي كثير من الأحيان كانوا يسمحون للتجار ببيع محظياتهن لغيرهم على أن يتعاطى أولئك الاسياد مقدارا معينا من الربح الجديد .

لا ريب في أن شر ما ينتج من فساد خلقي تجده في دوائر الضباط السودانيين وجنودهم حيث يغري أولئك الحربيون الكثيرات من النساء والبنات للعيش معهم في تكناتهم بصفتهن زوجات لهم فاذا ما دخلن التكنات وأصبحن كالسلع يتبادلهن جميع الضباط بلا استثناء وبحرية مطلقة ولم يكن الخليفة عبد الله ضد هذه الفكرة الأخيرة ، بل على النقيض من ذلك كان يشجعها اعتقادا منه أن انهماك الضباط في اللذة وتماديهم في ارضاء شهواتهم يجعل مكانا للخليفة في نفوس ضباطه فوق كل مكانة ، وبذلك يضمن ولاء رجال الحرب له ورغبتهم في عدم ترك سيادته عليهم .

لا حاجة بنا الى القول بان السماح بتلك الاباحة المنكرة قد أدى الى انتشار أخبث الأمراض بين جميع طبقات الأمة سواء في ذلك الأحرار والرقيق الرجال والنساء . فاذا ذكرنا حرارة السودان وأثرها السيىء في أي مرض سارى خبيث استطعنا ادراك الانحطاط الخلقي الذي هوى اليه السودان في ذلك العهد . وعلينا الا ننسى أن السودان كان محروما من جميع الأدوية التي تعالج تلك الأمراض مما أدى الى تعريض الصحة على وجه عام لخطر عظيم .

وجد في السودان في أوائل حكم الخليفة عبد الله قوم أمعنوا في ضروب الفساد وأطلقوا العنان لشهواتهم فعاقبهم الخليفة في مبدأ الأمر بنفيهم وتشريدهم الى الرجاف ، ولكنه عدل عن ذلك بعد قليل من الزمن وانتهى الى حل حاسم في نظره وهو ظهور سهولة كبرى - في معاملة شعب بعيد عن الأخلاق القويمة - في استعمال التعسف والشدة وصعوبة الجور مع شعب متمسك بأهداب الأخلاق القويمة وتبعا لذلك كان الخليفة عبد الله في آن واحد

يكره ويخشى الجعليين الذين سكنوا على شاطىء النيل بين حجر العسل وبربر لأن أولئك كانوا العرب الوحيدين فى السودان الذين مقتوا الفساد والرذائل الخبيثة واحتفظوا بالأسر الفاضلة البعيدة عن الشهوات الشائنة . كما اعتاد أولئك الجعليون النظر الى الأخلاق بصفتها حجر الزاوية فى بناء الحياة القومية والركن الأساسى فى تأسيس صحة قوية .

كان تشديد المهدى على نسائه (زوجاته) بالغا أقصى حد ولم يقف أمر صيانتهن عند حد الخوف من المهدى فى حياته بل تعداه الى الاحتفاظ بالشرف بعد مماته فكان محرما عليهن وهن أرامله (بعد وفاته) أن يسرن سيرة المحظيات وأن يعشن عيشة الفجور وقد ساعد عبد الله على ذلك فبلغ احترامه لذكرى المهدى حدا دفعه الى انشاء بيوت خاصة للأرامل المذكورات حيث تحيط بالمنازل أسوار مرتفعة على مقربة من ضريح المهدى وقد عين عبد الله على ذلك عددا من الخصيان لمراقبة الأرامل المذكورات آنفا .

شدد الخليفة على زوجات ومحظيات سلفه المهدى بعدم الزواج وسن قانونا حرم به عليهن أى زواج جديد ، فكان ذلك ضد رغبتهن ولم يكتف بذلك بل حرم البنات (وأغلبهن من بنات موظفى حكومة السابقين) من طلب الزواج بعد أن بقين فى منزله اعدادا لاقترانه بهن فى المستقبل . ومما يذكر عن عسف الخليفة عبد الله فى معاملتهن أنه لم يكن يسمح بمقابلة رجل اياهن حتى ولو كان من ذوى قرباهن ، وكل ما من به عليهن هو السماح لقريباتهن من النسوة بزيارتهن مرة واحدة فى السنة . ومع كل ذلك التقييد لم يكن يفسح عليهن فى العيش فكان يقدم لهن ما يكفيهن بالجهد من القوت واللباس فلا عجب اذا عرفنا أنهن كن يتطلعن دائما الى التحرير من ربق عبودية الخليفة .

أدرك عبد الله أن عسفه وجوره يؤديان بلا نزاع الى زيادة الحاقدين عليه والساعين الى الفتك به فكان تبعا لذلك كثير الخوف على حياته فطرد بعنف وقساوة جميع السكان النازلين في منازل صغيرة مجاورة لبيته وأحل محلهم حرسه الخاص الذي استمر في تنميته يوما بعد يوم • وبعد ذلك بنى سورا ضخما حول مسكنه والمساكن الصغيرة المجاورة وجمع اليها كل أقربائه على أنه عاد بعد ذلك فاظهر ريبة وخالجه الشك في بعض أقربائه فآثر ابقاءهم خارج مسكنه المسور ولعدم الظهور دفعة واحدة بهذا الشك جعلهم الى جانب منازل الحرس الخاص ورغم ذلك لم يكن الساكنون في دائرة الخليفة على وفاق وفي ارتياح تام لأن أوامر عبد الله كانت شديدة على حرسه الخاص مما أدى الى تبرمهم واستيائهم الشديد كما أنهم تذمروا من مرتباتهم الضئيلة وشكوا لرؤسائهم مرارا من تضييق الخليفة على حريتهم الشخصية وكان عدد المحيطين بالخليفة بضعة آلاف ينتمى أغلبهم الى العرب الخلص ولم يكن مسموحا لهم على الاطلاق الاقتراب من ذويهم كما أن الخليفة حرمهم من ترك مساكنهم ولم يكن يصفح عن هفواتهم الصغيرة فكان ينزل بهم العقاب الصارم •

عنى عبد الله عناية خاصة بحياته وكان شديد الرغبة في الاحتفاظ بها من عبث الحاقدين عليه فكان لا يخرج في النهار أو الليل والا وفي معيته أفراد معينون من حرسه الخاص واثنان وثلاثة من خدمه الأمناء له ، وفيما عدا ذلك لم يكن يرافقه أي شخص آخر ـ حتى أقرب أقربائه ـ ولم يكن يسمح الخليفة لأحد ـ خلاف الحرس والخدم ـ بمرافقته •

كان من المقرر أن كل من يسمح الخليفة بمقابلته اياه يتجرد من سلاحه (الذى يحمله السودانى دائما) ثم يفتشه أحد رجال الحرس قبل دخوله الى غرف الاستقبال الرسمية ، فكان ذلك العمل

من جانب الخليفة دليلا على سوء ظنه في رعيته فاذا أضفنا الى ذلك كراهية الشعب له استطعنا بسهولة ادراك ما كان يتحدث به الناس عن ظلم الخليفة وتعسفه وعن مخاوفه الشديدة .

على الرغم من هذه الشدة النادرة وتلك القسوة المؤلمة لم يوفق الخليفة فى اكتساب جانب أية قبيلة حتى أن افراد قبيلته الخاصة فروا منه ، وهذه بطبيعة الحال نتيجة منطقية معقولة .

عند انتقال افراد قبيلة عبد الله الى أم درمان بعد القـــاء مقاليد الخلافة اليه ـ مضوا فى الاعتداء على أصحاب الأرض فأخذوا غلالهم واغتصبوا نساءهم ونكلوا بأولادهم فاشتد الكرب اشتدادا اضطر الخليفة لاصدار أوامره بعدم خروج التعايشى من أم درمان الا باذن خاص ولكن أوامره تجوهلت ثم دب دبيب العصيان فى قلوب السكان حتى انتشرت فكرة التمرد انتشارا لم يكن معروفا من قبـل .

أما فيما يختص بأخلاق أولئك العرب فحميدة فى ذاتها ولكنهم فى الوقت نفسه بالغوا فى الكبرياء والاعجاب بأنفسهم فحسب ، وذلك راجع الى صلتهم وقرابتهم بالخليفة فكانوا يدعون دائما أنهم أسياد البلاد وأصحاب الشأن الأعلى فيها الشيء الذى سوأ صلتهم بالخليفة .

وقد انتهى بهم ذلك التعسف الى وضـع أياديهم على خيرات الأرض وغلالها وماشيتها وخيولها فكان هذا الاستئثار مدعاة الحسد فى القبائل الغربية السودانية حيث الأفراد الذين لم ينظروا الى التعايشى ورجاله نظره ود .

كل ذلك الاضطراب سبب من أهم الأسباب فى حذر الخليفة وخوفه مما يجرى حوله ، ولكنى لا أعتقد أنه على علم دقيق بمقدار كراهة الشعب اياه وحقده عليه وعلى أية حال فقد كان هم الخليفة

متجها الى ارضاء أمراء القبائل بارسال الهدايا المالية والعبيد سرا اليهم فى أوقات الليل من الأيام المختلفة • أما الأمراء فلم يكونوا يترددون فى قبول الهدايا المذكورة وهم على ثقة من أنها جمعت ظلما وعدوانا • وقد يكون من دواعى الاشفاق على الخليفة أنه لم يكن متمتعا بولاء الأمراء الحقيقى رغم ما يبعثه اليهم من الهدايا •

من أعجب ما يروى عن الخليفة عبد الله أنه لم يفارق أم درمان الى الضواحى مرة واحدة فى أكثر من عشر سنين ، لأنه كان يخشى ترك تلك العاصمة التى استجمع فيها كل ما لديه من قوة وذخيرة ووضع تحت رقابته فيها جميع الذين خاف شرهم بعد أن اضطرهم الى القيام بالصلوات الخمس يوميا فى حضوره وسماع خطبه الدينية •

صرح الخليفة بأن أم درمان هى مدينة المهدى المقدسة وقد يكون غريبا على القراء أن يسمعوا عن أم درمان قبل عام ١٨٩٠ بأنها كانت مدينة صغيرة ضئيلة الشأن يسكنها بعض قطاع الطرق وكل ما لها من شأن أنها واقعة تجاه الخرطوم • غريب عليهم أن يسمعوا ذلك فى الوقت الذى علت فيه كلمة هذه الجهة وأصبحت أضخم وأعظم شأنا من الخرطوم وقد سبقه اليها المهدى • فبعد أن كانت الأرض حقيرة غير منتظمة مدت اليها الأشجار الوارفة الظلال وأسس الجامع الكبير وبيوت الخليفة عبد الله والخليفتين محمد شريف وعلى واد حلو • أما عبد الله فقد وضع يده على جميع الأراضى الواقعة جنوبى المسجد ، وأما القسم الشمالى فاقتسمه الخليفتان محمد شريف وعلى واد حلو •

مما يذكر عن المهدى فى حياته أنه صرح علنا فى المسجد الكبير بأن أم درمان محلة وقتية لأن رؤيا النبى التى ظهرت له فى احدى الليالى أمرته بنقل الخلافة الى الشام بعد التغلب على مصر وبلاد

العرب ولكن موته المبكر قد شتت جميع مشاريعه وقضى على آماله وآمال أتباعه ·

بعد أن نقلت العاصمة الى أم درمان تم تنظيمها وتخطيطها وقد بلغ طولها السطحي من الشمال الى الجنوب ما يقرب من ستة أميال انجليزية وقد أصبحت نهاية الحد الجنوبي مقابل الطرف الغربي للخرطوم ·

اتجهت الرغبة من بادىء الأمر الى المسكن على مقربة من شاطىء النيل أملا في تسهيل الحصول على الماء الكافي ، فنجم عن تلك الرغبة ازدياد في ناحية وقلة في الناحية الأخرى فلم يبق مكان خال واحد في مسافة ثلاثة أميال عرضا مع خلو أميال ممتدة طولا ·

انشئت في بادىء الأمر في تلك الناحية آلاف من الأكواخ المصنوعة من القش فلم يكن ظاهرا منها سوى المسجد الكبير الذي أحاط به حائط من الطين طوله أربعمائة وستون ياردة وعرضه ثلاثمائة وخمسون ياردة ولكن ذلك لم يرق في عيني الخليفة فاستعاض عنه ببناء من الطوب المحروق الذي تم تبييضه بعد ذلك بمعرفة بنائين من العرب · وبعد ذلك أقام الخليفة لنفسه ولأخيه وأقربائه بيوتا من الطين ثم حذا الأمراء حذوهم وتبعهم في ذلك أغنياء أم درمان ·

ذكرت في فصل سابق وصفا لضريح المهدي ولكنني لم أذكر أني شاهدت ـ قبل مغادرتي الأخيرة لأم درمان ـ ضياع لون القشرة البيضاء التي على الضريح ولا بأس من العودة الى التفصيل فأقول بأن فوق قبة الضريح ثلاث كرات نحاسية فارغة الواحدة فوق الأخرى ويربط هذه الثلاث رمح مقوس في آخره حلية رئيسية تزين الضريح · ومن أغرب ما سمعته من السودانيين أن الخليفة

وضع هذا الرمح حول الكرات الثلاث ليعلن استعداده لمحاربة الطبيعة اذا حدث ما يحول دون تحقيق رغباته ٠

كان عبد الله فى كثير من الأحيان يقضى ساعات من النهار منفردا داخل ذلك الضريح (مزار المهدى) والمعروف أن غرضه الأساسى من ذلك هو تلقى الوحى الخاص منه ولكن قلت عنايته بهذه الزيارات الدينية بعد أن قتل الكثيرين من اقرباء المهدى وزعماء أتباعه ، وبطبيعة الحال كان من العسير بل من المريب أن ينقطع عبد الله هذا الانقطاع الفجائى فاضطر الى انتحال المعاذير وتبعا لذلك أوعز الى رجال حرسه الخاص أن يذيعوا بين الناس أن السبب الحقيقى لانقطاع عبد الله عن زيارة سيده المهدى هو خوفه من البقاء بمفرده داخل الضريح ، وقد كان منتظرا أن يرد بعضهم على ذلك بأن يستصحب الخليفة معه من يذهب عنه الفزع ولكن عبد الله لم يعجز عن الرد فكان يقول انه من غير المرغوب فيه أو من الأمور غير المسموح بها بقاء أى شخص خلاف الخليفة داخل ضريح المهدى ٠

هذا ما كان يعتذر به عبد الله الى الشعب السودانى فى حين أنه (عبد الله) خالف وصايا سيده المهدى لا بالقول فحسب بل بالفعل أيضـــا ٠

كان من المتبع فتح جميع الأبواب المؤدية الى الضريح يوم الجمعة للسماح للشعب بالحج الى ضريح المهدى ، وبما أن القانون الدينى كان يحتم على كل رجل من أتباع المهدى أن يردد صلوات الترحم على جثمان المهدى وروحه ، فقد كان من الميسور على المشاهد أن يرى الآلاف من الناس متفقين فى الغرض ومختلفين فى طريقة تلاوة الصلوات والأدعية ، ولم يكن قصدهم محصـــورا فى الصلاة للمهدى ولكنه تعداه الى طلب الحماية والرحمة من الله الرحمن

بشفاء الشهيد (؟) الذى قد رقد فى قبره الأخير ، ولكنى فى الحقيقة كثير الريبة فى أن الصلوات المذكورة خارجة للترحم فانى أقرر - وفى قولى على ما أعتقد كثير من الحق ان لم يكن الصدق كله - أن أغلب الصلوات الصادرة من قلوب أولئك المتحمسين الى مقام العرش الالهى تتطلب من الله انقاذ الشعب السودانى من ظلم وعسف عبد الله المستبد الذى خلف ساكن الضريح الطيب فى نظر السودانيين .

يقع بيت الخليفة الرئيسى فى الناحية الجنوبية من الضريح وعلى اتصال بالمسجد الكبير ويحيط بهذا البناء الرئيسى حائط ضخم مبنى بالطوب الأحمر ومقسمة نواحيه الى مبان صغيرة متلاصقة وبطبيعة الحال أقرب المبانى الى المسجد هى التى يسكنها هو وأفراد بيته المقربون ، وفى الناحية الشرقية من مسكنه بيوت زوجاته ولمساكن الخصيان ومخازنه الخاصة . ومما يسترعى الأنظار فى الجهة الشرقية من مسكنه المركزية للمسجد الكبير قيام باب خشبى ضخم (لا توجد أبواب فى داخل المسجد من النواحى الثلاث الأخرى) يجتازه المسموح لهم بالوصول الى غرف الخليفة الخاصة ومكان الاستقبال الرسمى .

اذا ما رغب انسان فى اجتياز الممر الرئيسى كان عليه أن يمر بما يشبه الدهليز ومن ثم يسير الى ردهة صغيرة فيها غرفتان لا يوجد على جانب أيتهما ما يمنع من ظهور الناس للخليفة الذى يستقبل الناس فى هذه البقعة . يوجد فى الجهة الجنوبية من غرفة الاستقبال باب خاص يقفل بين تلك الغرفة وبين غرفة المخدع ولا يسمح لأحد باجتيازها سوى الشبان من حرس الخليفة .

. اما المساكن التى سبقت الاشارة اليها فمكونة على شكل قاعات متصلة بين كل واحدة والأخرى رواق صغير . وقد تمكن

الخليفة من انشاء دور ثان على سقف مجموعـة من تلك المساكن ووضـــع فى ذلك الدور المبنى على الطراز الجديد (عام ١٨٩٥) منافذ يتمكن الناظر من احداها من مشاهدة منظر عام واضح لأم درمان •

امتازت غرف استقبال الخليفة بالبساطة الكلية والبعد عن الزخرفة وكل ما فى الغرف من زينة هو أعمدة العنجريب الممتدة فى كل غرفة وعلى الواحد منها حصيرة من أوراق النخيل أما غرف الخليفة فمزخرفة بكل ما يستطيع الحصول عليه من زينة وتزويق فى السودان • ففى كل الغرف الداخلية أسرة نحاسية وحديدية تعلوها ناموسيات (للوقاية من الناموس الذى يعد نكبة السودان وبلاءه) كما أن أراضى الغرف مفروشة بالسجاجيد وفوق المراتب النظيفة اغطية حريرية ووسائد موشاة أطرافها بالحرير الخالص وفوق الأبواب والنوافذ ستائر من الألوان والأنسجة ولا ريب فى أن ذلك أقصى ما يطمع اليه الخليفة من زخرف وأبهة فى السودان أما الأروقة فممتلئة بالحصر المصنوعة من أوراق شـــجر الدوم ثم بمقاعد العنجريب • فاذا قارنا ذلك بما كان عليه الخليفة عبد الله فى أول سنى حياته الرسمية وجدنا أنه شديد الميل الى الزخرفة ما استطاع الى ذلك سبيلا •

تكلمنا كثيرا عن بيت الخليفة ومساكن رجاله والمقربين اليه والآن نذكر شـيئا موجزا عن بيت ابنــه عثمان فنقول انه يقع فى الناحية الشرقية من تلك المساكن ويكاد يكون هذا البيت مفروشا بالفراش والأثاث الموجود فى منزل أبيه ولا نغالى اذا قلنا أنه أفخم وأكثر نزوعا الى الثروة من مسكن أبيه • فقد يمتاز هذا البيت عن بيت الخليفة بالنجفات النحاسية المدلاة من سقوف الغرف والتى أحضرها عثمان خصيصا من الخرطوم • هذا الى أن بيت عثمان واقع وسط حديقة كبيرة يمتد اليها طمى النيل ويشتغل فيها يوميا مئات

من الرقيق الأسود وقد عنى أولئك عناية فائقة بعرض الحديقة فى أحسن وأجمل منظر لسيدهم عثمان الذى كان طول حياته مولعا بكل ما هو جميل • ومن الغريب فى أمر أولئك العبيد أنهم كانوا واجتهدوا فى ذلك راضين مختارين رغم التعب الذى لاقوه ورغم القوت الذى لم يكن يكفيهم فى عملهم الشاق

صرف الخليفة عبد الله وابنه عثمان أغلب أوقاتهما فى البناء وتجديد نظم ما أقاماه قبلا وقد بذلا أقصى ما يستطيعان من جهد فى سبيل البقاء فى حياتهما على الأرض متمتعين باقصى ما تنزع اليه نفساهما من بهجة وسرور •

وقد حذا يعقوب أخو الخليفة حذوهما فلم يكن غريبا والحالة هذه أن يتدفق يوميا مئات من العمال (وأغلبهم من الرقيق) الى بيتى الخليفة وابنه حاملين الحجارة والطوب وكل ما يتعلق بالبناء• أما بيت الخليفة على واد حلو فصغير من ناحيـة وبعيد عن معالم الزينة والزخرف من ناحية أخرى •

كان لعبد الله ـ الى جانب بيت الخلافة الرئيسى ـ بعض منازل فى الناحيتين الشمالية والجنوبية من أم درمان ولكن المنازل الأخيرة مبنية بناء بسيطا عاديا لا شىء من الزخرفة فيه والغرض من بنائها هو استعمالها كأماكن استراحة له وللمقربين اليه عندما يرسل بعثات من جنوده الى الجهات المجاورة لأم درمان أو عندما يخرج لاستعراض الجنود القادمين حديثا الى أم درمان ، ولم يكن يستطيع (عبد الله) البقـاء فى منزل من المنـازل المذكورة أكثر من يوم أو يومين فى المرة التى يخرج فيها •

بنى عبد الله خلاف المنازل المذكورة منزلا على مقربة من نهر النيل مجاورا لحصن الحكومة القديم بعد أن ردم الخنادق التى

كانت متاخمة للحصن المذكور · وقد كان يذهب الى هذا المنزل عندما تشرع السفن البخارية فى مغادرة أم درمان الى الرجاف وغرضه الرئيسى من ذلك الوقوف بنفسه على كيفية سير السفينة ومقدار سرعتها ·

الى جوار بيت الامانات (الترسانة) المكون من بناء ضخم حجرى جمعت فيه المدافع والبنادق والذخيرة وكل ما يختص بالحرب والى جوارها (فى البناء نفسه) خمس عربات كانت ملك الحكام السابقين والبعثة الكاثوليكية وقد عنى عبد الله عناية فائقة بحراسة ذلك البيت فوزع على مسافات قصيرة حراسا خصوصيين (ديدبانات) وأعد لكل واحد كشكا صغيرا ومهمة أولئك هى منع جميع الخارجين عن هيئة الجيش من الدنو الى الترسانة ·

وجد فى الناحية الشمالية للترسانة مباشرة بناء لحفظ رايات الأمراء المقيمين فى أم درمان والى جانب ذلك البناء محل نصف دائرى (يبلغ ارتفاعه نحو عشرين قدما ويصعد اليه الصاعدون بسلالم مدرجة) لحفظ أبواق وطبول الخليفة الحربية · فاذا ما سرنا الى الناحية الشرقية قليلا وجدنا مخزن الخراطيش والأسلحة الصغيرة ·

ذكرنا فى الفصول السابقة شيئا عن بيت المال فنقول الآن انه يقع فى شمال أم درمان على مقربة من نهر النيل ويمتاز هذا البناء بضخامته وانقسامه الى أجزاء بارزة تكاد تكون أروقة متساوية الحجوم وفى تلك الأروقة تجمع البضائع الواردة لأم درمان من جميع نواحى السودان ومن مصر كما ان فيه (بيت المال) مكانا لخزن الحبوب وآخر لجمع الرقيق · ويقع على مسافة قريبة جنوبى بيت المال بناء واسع لبيع الرقيق يسمى (سوق النبيذ) وقد أنشأ عبد الله فى جوار البناء الأخير بيتا سماه (بيت المال الحربى)

بعد أن استقرت خلافة عبد الله وسلفه المهدى فى أم درمان تم تنظيم المدينة وهى على العموم قائمة فوق أرض مستوية ولكنا نجد فى بعض النواحى هنا وهناك تلالا صغيرة تعترض ذلك المستوى . أما تربة أم درمان فمجموعة طبقات صلبة حمراء تكاد تكون حجرية فى مجموعها وتتخللها فى أجزاء متفرقة أراض رملية . ومما يذكر عن تعسف عبد الله أنه ـ فى سبيل راحته والتمتع بما يرضى شخصه ـ أنشأ الطرق والشوارع الجديدة وهذا العمل حميد فى حد ذاته الا أن الخليفة فى سبيل هذا البناء قد هدم بيوتا كثيرة ولم يدفع لأصحابها المنكودى الحظ قرشا واحدا ، فدل بذلك على أنه يرمى من وراء تنظيمه الحميد فى ذاته الى منفعة خاصة هى لذة النظر الى شوارع نظيفة بغض النظر عما يصيب الناس من هدم منازلهم دون تعويض .

علا شأن أم درمان ونقص قدر الخرطوم فى زمن خلافة عبد الله فاصبحت الخرطوم عبارة عن أنقاض وخرائب ولم يبق فيها من المبانى الظاهرة سوى المرفأ وقد ظلت المواصلات بين أم درمان والخرطوم بواسطة الرسائل التلغرافية التى أحسن استعمالها موظفو ادارة التلغراف فى الحكومة السابقة .

أبقى عبد الله قسما كبيرا من السور المحيط ببيت المال والمؤدى اليه (لم يكمل هذا البناء فى زمن عبد الله) وعلى طول هذا البناء امتدت حوانيت لبيع المواد التجارية المختلفة والى جوارها حوانيت منفصلة وأماكن صغيرة مستقلة للحلاقين والنجارين والقصابين والخياطين ومن شابههم . هذا الى أن عبد الله عنى بنظام المحتسبين الذين كانوا مسئولين عن حفظ النظام فى المدينة . وانه لما يفزعنى أن أذكر المشانق وآلات الاعدام التى كانت موزعة فى جميع نواحى أم درمان فقد كانت أكبر دليل على حالة المدينة وموقف السودانيين من حكومتهم .

كان سكان أم درمان موزعين فى مساكنهم تبعا لقبائلهم فكان العرب التابعون للقبائل الغربية يسكنون غالبا فى المحلات الجنوبية أما القسم الشمالى فكان مخصصا لسكان وادى النيل ورغم وجود المحتسبين والمحافظين الرسميين على نظام المدينة كان مفروضا على كل قبيلة أن تعين من بين رجالها من يقومون بحفظ الأمن والسلام فى القبيلة ذاتها على أن يبلغ أولئك عن أى اضطراب أو خلل فى القبيلة الى رجال الحفظ المعينين من قبل الحكومة .

اذا استثنينا الشوارع المنتظمة التى أنشأها وخططها الخليفة عبد الله ارضاء لراحته ومزاجه فحسب وجدنا المدينة عبارة عن منحدرات وعطفات مملوءة بقاذورات وبطبيعة الحال أجد شخصى عاجزا عن وصف الأضرار الصحية المنبعثة من تلك القاذورات الكريهة الرائحة فى الأماكن الوبائية التى تجمعت فيها كل أوساخ أم درمان • ويكفينى القول بأن جثث الخيول الميتة ترمى فى تلك النواحى وأن الجمال والحمير والماعز تزحم الطرق الضيقة وتملأها بأوساخها وقاذوراتها وكل ما يعمله الخليفة هو أن يصدر أوامره قبل أيام أعياد مخصوصة فى كل سنة باكتساح هذه الأوساخ وتنظيف الطرق الضيقة فلا يتعدى التنظيف حد القاء الجيف المتنتة فى زوايا الحارات ، فاذا ما جاء فصل الشتاء الممطر حمل الهواء (المشبع بالروائح الكريهة المنبعثة من تلك الأوساخ والجيف) بعض أمراض وبائية تعمل على قتل المئات من السكان المساكين •

كانت المدافن قبل عهد الخليفة عبد الله قائمة وسط المدينة ولكن تبرم الأحياء وتذمرهم من الروائح التى أصيب بها السكان من ذلك النظام اضطر عبد الله الى انشاء مكان فسيح خاص واعداده لدفن الموتى وقد وقع اختياره على الصحراء الواقعة شمال مكان استعراض الجنود •

سهل على القارىء أن يتصور انتشار الأمراض فى السودان بعد أن عرف الشىء غير القليل عن الروائح الكريهة وأوساخ البهائم فى جميع نواحى أم درمان تقريبا الا أن ذلك الانتشار لا يمنعنا من تخصيص الأمراض الخطيرة السائدة هناك ، فنقول ان الحمى والدوسنطاريا هما شر ما يبلى به ساكنو أم درمان ولا تكاد تنقطع حمى التيفوس الوبائية بين نوفمبر ومارس من كل عام ٠

نتكلم الآن قليلا عن مياه أم درمان فنقول : ان الآبار المفيدة والينابيع المعدة لجلب المياه الصحية أنشئت قبيل عام ١٨٩٥ وتلك العيون الصحية أقيمت فى الناحية الشمالية من المسجد الكبير ٠ أما الآبار المحفورة فى نواحى أم درمان الجنوبية فماؤها أجاج فى غالب الأوقات ٠ وهى فى مجموعها تختلف فى العمق بين ثلاثين وتسعين قدما ، وقد تم حفرها بواسطة المسجونين تحت رقابة الحراس الغليظى القلوب ٠ ومما يذكر فى صدد السجن والحراس أن المرء فى أم درمان يسمع كثيرا من المارة قولهم (لقد أخذوا صاحبنا الى السعير) ومعنى السعير عندهم هو السجن الذى يلاقى فيه المغضوب عليه عذابا شديدا ٠ ان مجرد لفظ هذه الكلمة (السعير) يولد الاضطراب والفزع فى نفوس جميع سامعيها ٠ أما السجن فقائم فى الناحية الجنوبية الشرقية من أم درمان على مقربة من نهر النيل وهو مسيج بحائط ضخم وللسير الى السجن يمر الانسان بردهة خارجية فسيحة يحرسها نهارا وليلا جنود من السودانيين المخيفين فاذا ما عبر المرء تلك الردهة وصل الى ساحة داخلية مكونة من غرف طينية صغيرة لاقامة المسجونين المنكودى الحظ الذين اعتادوا ـ وهم فى السلاسل والاصفاد الثقيلة ـ قضاء سحابة اليوم فى ظل ذلك البناء وهم فى سكون وجمود كاملين لايتخللهما من الأصوات سوى رنين السلاسل والأوامر القاسية الصادرة من الحراس الغلاظ القلوب وصراخ وتأوهات بعض المسجونين المضطهدين من جراء ما ينزل على أجسامهم من سياط

الجلد والتـأديب والويل كل الويل لمن تعرض لسخط الخليفة ومخالفة أمره فأمثال أولئك يرسفون في أثقل الأغلال بعد أن يحتم عليهم مراقب السجن البقاء في أصغر الغرف والامتناع عن الاختلاط بباقي المسجونين ٠

وفي الغالب كانوا يأخذون من الطعام ما يكفي لبقائهم أحياء أي أن أمر مراقب السجن كان صادرا ببقائهم دائما في حالة الجوع الشديد التي لا تعرضهم للموت مقابل الكمية القلية التي يتناولونها للغذاء ، أما المسجونون العاديون فلا يتناولون مقدارا منظما من الطعام ومن المسموح لهم جلب الطعام من منازلهـم وقد حدث في كثير من الأحيان أن الحراس السـلابين النهمين التهموا الجزء الاكبر من الطعام الوارد من منزل أحد المسجونين قبل ايصاله الى غرفـة المسجون، وفي أحيان أخرى كان اولئك المسجونون التعساء يحرمون من كل ما يرد اليهم من بيوتهم الخاصة عند حلول الليل ٠

كان السجانون يقودون المسجونين كقطيع من الغنم الى غرفهم الحجرية التي كانت خالية من النوافذ خلوا كليـا ، وبالتالي كانت محـرومة من الشمس والهواء النقي ولم يكن أولئـك السجانون القسـاة يسمعون تضرعـات أو توسـلات من المسجونين فكانوا يسوقونهم ليلا الى الغرف الحجرية شـذر مذر ، وفي الحقيقة كان أولئك المنكوبون يساقون الى قبور لا فرق بينها وبين قبور الموتى سوى أن النازلين فيها أحيـاء أشقياء يجور قويهم على ضعيفهم رغم كونهم في المصاب سواء ٠ وقد كان الحراس في كثير من الأحيان يذهبون في الصباح المبكر الى تلك الغرف السوداء المظلمة فيجدون بعض المسجونين التعساء قد ماتوا مختنقين لعدم وجود ذرة من الهواء في غرفهم المغلقة من جميع نواحيها ولعدم تمتعهم بالغذاء الكافي من الناحية الأخرى ٠ وانه لمن المفزع حقا أن يشاهد المرء عشرات من أولئك الموتى في أجسام الأحياء خارجين من كهوفهم الى

فضاء السجن كل صـباح بعد أن قضـوا ليلتهم منهوكي القوى غير قادرين على النوم فى ذلك الوسط المخيف المضر بالصحة ٠

اذا ما بزغ نور الصباح خرجوا من غرفهم الصغيرة وهـم أقرب الى الموت منهم الى الحياة ـ واستظلوا بظل حيطان السجن وقضـوا بقية النهار فى السعى على راحة أجسامهم من ألم الليلة السابقة وعمدوا الى اكتساب قوة جديدة يستطيع بها كل مسجون مواجهة ما ينتظره فى يومه من أتعاب وآلام ٠

من المعقول جدا أن كلا من أولئك الأحياء التعساء كان يفضل الموت على تلك الحياة الشاقة المؤلمة ولكن الواقع خلاف ذلك فقد سعى كل الى البقاء فى الحياة مهما قاسى من ألم وضنك وقد كانت دعواتهم الى الله محصورة فى انقاذهم من الشدة التى انتابتهم ومع أن السجن كان مزدحما ومعرضـا المسجونين للاختنـاق ومع أن المسجونين كانوا يلاقون من العسف أهوالا ومصائب وآلاما مبرحة ـ مع ذلك لم أسمع مدة اقامتى فى السودان أن واحدا من المسجونين سعى الى الانتحار ٠

وأذكر الآن تشارلس نيوفلد الذى قضى بضع سنوات فى ذلك السجن السودانى معرضا للمرض والعسف والاضطهاد فقـد كان من المتوقع موت هذا الرجل بين آن وآخر ولكنه بقى على قيد الحياة بواسطة المساعدات التى وصلت اليه بواسطة خادمه الأسود الأمين الذى أحضره معه من مصر ، والى جانب تلك المسـاعدة كان الأوربيون المقيمون فى أم درمان يقدمون ما يستطيعون من عون الى هذا المسجون الأوربى البائس ٠

فضل تشارلس البقاء على قيد الحياة رغم كونه كان راسفا تحت سلاسل ثقيلة حول رقبته وقدميه ومما نذكره عنه أنه رفض

فى ليلة من الليالى البقاء فى غرفة حجرية وصفها بأنها « آخر مرحلة مؤدية الى نـار الجحيم » فجوزى على تعنته هذا بالجلد بسـياط السودان المؤججة ومع ذلك تحمل آلام الجلد بصبر مدهش فلم يشك لحظة واحدة حتى اضطر الجلادان الى سؤاله فى دهشة وذهول « ما الذى يدعوك الى عدم التذمر وما الذى يمنعك عن طلب العفو ؟ » فأجابهما نيوفلله بجرأة غريبة (وقلب حديد) نالت احترام واعجاب السجانين (هذا التذمر وذلك الطلب الذى يذل يصدران من الآخرين أما أنا فلن أذل نفسى بشىء من ذلك) ٠

بعد أن قضى هذا البائس ثلاث سنوات فى السجن خففت السلاسل التى كان يرسف فيها ثم نقل الى الخرطوم ولم يبق من الأغلال الا ما كان حول الساقين ٠ وعندما وصل الى سجن الخرطوم أمر بتكرير وتنقيـة ملح البارود المعد لعمل البـارود وكان ذلك التكرير تحت مراقبة واد حامدين الله وفى ذلك الحين تحسنت حالته كثيرا وقد كان يمنح مكافآت شهرية ضئيلة مقابل هذا العمل فكانت تلك المكافأة مساعدة له فى الحصول على حاجاته الضرورية للحيـاة ٠

كان محل تكرير ملح البارود مجاورا لبناء الكنيسة التابعة للارسالية الدينية فى الخرطوم فساعد ذلك التوفيق زميلنا تشارلس على النجـاة من مخالب الضنك والتعب حيث كان مسموحـا له (نيوفلله) بعد الانتهاء من عمل النهار الشاق المؤلم أن يقضى ليلة فى حدائق كنيسة الارسالية ٠ وليس من شك فى أن أفكاره حينئذ كانت متجهة الى أسرته فى انجلترا ولا ريب فى أنه كان فيما بينه وبين نفسه يلعن ذلك اليوم الأسود الذى اغراه هواه فيه بترك مصر الى السودان حيث وقع فى قبضة الخليفة عبد الله ٠

كان من العسير جدا على هذا الرجل أن يذوق الموت ويلقى حتفه دون اثم ارتكبه وقد يكون من توفيق هذا الرجل فى وقت قريب أن يجتمع باصدقائه وأقربائه الذين تاقوا الى رؤيته حرا طليقا من الأسر المفزع ولئن كان من اليسير وجود العدد الكبير من الأصدقاء (الذين يريدون مساعدة تشارلس) فى أوربا فان الحقيقة هى أن تخلص هذا الأسير البائس من يد الخليفة العاتى لا يتم الا بعون الله وحده .

ان قلبى ليتوجع وليكاد يتمزق حزنا وألما كلما شرعت فى كتابة شىء عما يقاسيه المسجونون فى سجن (سبيه) أم درمان ورغم ذلك سأذكر شيئا عن الرجل البائس الشيخ خليل الذى أرسل من مصر ومعه رسائل خاصة الى الخليفة عبد الله فيها بيان عن عدد أسماء الأسرى الذين سلموا فى واقعة توشكى والذين عوملوا معاملة حسنة لم يكن الخليفة يجهلها كما أنه لم يجهل قرب الافراج عنهم وقد ورد فى احدى الرسائل المذكورة طلب من أولى الأمر الحربيين فى مصر تسليم سيف ومداليات الجنرال غوردون للشيخ خليل لأن أصحاب الشأن فى مصر لم يشكوا فى أن الأشياء المذكورة موجودة عند عبد الله .

كان يرافق خليلا هذا شخص مصرى اسمه بشارة فبعد أن اطلع سكرتير الخليفة الخاص على الرسائل وقرأها لعبد الله أمر الأخير بعودة بشارة لمصر دون اجابة على الرسائل أما خليل البائس (وهو مصرى المولد) فقد قيدت يداه ورجلاه بالسلاسل الثقيلة بعد أن اتهمه الخليفة بتهمة الجاسوسية .

أسيئت معاملة خليل الى أقصى حدود الاساءة وحرم من الغذاء الكافى فأصبح هزيل الجسم الى حد لم يستطع معه القيام من الأرض وقد بالغ معذبوه فى اهانته حتى أنهم لم يسمحوا له بماء

للشرب وأخيرا نفذ قضاء الله وحكم الموت الهادىء فى خليل فتلقاه بسرور وهو على ثقة من أن موته أعظم منقذ له من آلامه المبرحة .

نتكلم الآن عن بائس آخر اسمه صالح وهو تاجر يهودى من تونس فقد جاء هذا البائس الى كسلا باذن من أبى حرجه فلم يكد يصل اليها (كسلا) حتى صدر أمر الخليفة باعتقاله وترحيله الى أم درمان حيث ظل معذبا فى السعير (السجن) لغاية كتابة هذه السطور (عام ١٨٩٧) وهو عبارة عن هيكل عظمى لا أمل له فى الحياة الا بمساعدة زملائه ورجال فرقته الذين اضطروا الى اعتناق الدين الاسلامى للتمكن من ايصال كميات قليـلة من الطعام الى صالح هذا .

بين المسجونين اثنان من العرب العبابده اتهما بحمل رسائل الى الأوربيين فى أم درمان فاعتقلا وماتا فى السجن بعد أن هلكا جوعا فليس بدعا أن يضطرب الأوربيون المقيمون فى أم درمان ازاء سوء معاملة الخليفة معهم من ناحية غير مباشرة ولكن من حسن الحظ اتضح أن الرسائل واردة الى رجل قبطى من أقربائه فى مصر .

كان عبد الله كثير الميل الى الوشايات وتصديقها ومما نرويه فى هذا الصدد أن عسكر أبا كلام شيخ قبيلة جمعه الكبيرة كان مشهورا بصداقته للخليفة عبد الله ولأبيه من قبل ولكن تلك الصداقة لم تجده شيئا عندما وصل الى أذنى الخليفة أن عسكرا هذا تكلم بشدة ضـد الحالة فى السودان ، ففى ذلك الحين أمر عبد الله بالقاء عسكر فى السجن راسفا فى الاغلال الثقيلة تأديبا له وزجرا لغيره . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل نفى الى الرجاف وحملت زوجته « التى كانت مشهورة بجمالها الرائع » من بين ذراعى زوجها « أثناء تودبعه قبل نفيه » الى دار عبد الله لتكون واحدة من حريمه .

سبق فى الفصـــول السابقــة ذكر الشيء الكثير عن الأمير السودانى الشهير زكى طومال ، وهنا نقول : انه عندما صدرت أوامر الخليفة باعتقال هذا الأمير عومل معاملة سيئة جدا تدل على الغلظة القاسية والانتقام الشنيع فقد بنيت له غرفــة من الطين شبيهة بالقبر وأغلق بابها على من فيها ولم يســمح له بشيء من الطعام على الاطلاق وكل ما من به الخليفة هو مقدار صغير من الماء سلم له من كوة صغيرة فى الغرفة الحجرية وقد تمكن زكى طومال الشجاع من البقاء ثلاثة وعشرين يوما حيا بواسطة الماء الا أن الجوع أنهكه لدرجة الموت ، ومع ذلك لم يشك طومال لحظة واحدة ولم يطلب عفوا من عبد الله رغم بقائه فى ذلك القبر الشنيع • فقد كان زكى طومال من ناحيته شديد الاباء بعيدا عن التذلل ، ومن الناحية الأخرى كان واثقا من عبث السعى الى هذا العفو من رجل اشتهر بانتقامه المريــع وقســاوة قلبه وقد ظل على تلك الحال الى اليوم الرابــع والعشرين من سجنــه حتى حمله الموت الى مقره الأخير ليرتاح من قساوة معذبيه فى السجن وانتقام عبد الله فى الخارج •

فى فجر اليوم الرابع والعشرين سمع بعض الحراس الغلاظ القلوب زفرات الموت من غرفة زكى طومال وعندما سكن الصوت وتحقق أولئك الطغاة من موت الأمير أسرعوا لزف البشرى الى سيدهم عبد الله ، فأمر الأخير بحمل جثة الأمير (زكى طومال) الى الناحية القريبة من أم درمان وهنــاك دفن على كومة من الخرق البالية وظهره مقابل مكة (دفن زكى على هذه الصورة يرمى الى تحقيره بابعاد وجهه عن القبلة) فان الخليفة عبد الله لم يكتف بتعذيب غريمه طومال فى الحياة بل أراد مواصلة التعذيب والانتقام منه فى موته بابعاده عن مكة ليحرمه من السلم والراحة فى العالم الثانى •

كان عبد الله شديد الخطر على الجميع حتى أنه لم يتأخر عن الشك فى القاضى أحمد الذى يعد أقرب الملتصقين به اتهمه

بخيانته فأمر الحراس بالقائه فى الغرفة التى القوا فيها زكى طومال من قبل وبعد يومين من سجن أحمد هذا دخل اليه فى غرفته قاضيان بأمر من الخليفة وهناك سالا زميلهما البائس احمد عن المكان الذى خبأ فيه أمواله فاجابهما أحمد بجرأة « أخبرا سيدكما عبد الله الخليفة أنى زهدت الدنيا ولا أعرف مكانا أجد فيه الذهب أو الفضة » .

تحايل القاضيان كثيرا على زميلهما السابق وسعيا جهدهما فى الوصول الى معرفة المكان الذى يوجد فيه ماله وعندما فشلا عادا أدراجهما مطأطئى الرأسين الى الخليفة ، وقد كان ذلك الأمر كله قبل مغادرتى أم درمان ببضعة أيام . وقد تأكدت عقب رجوعى الى مصر أن القاضى أحمد توفى بعد أيام فى سجنه على الصورة التى توفى بها زكى طومال .

ان المرء يستطيع ملء مجلد كامل بفظائع وقسوة الخليفة ضد المسجونين فى السمير (السجن) ولكن من العبث اتعاب القارىء بذكر فظائع وحشية ارتكبت بأمر هذا الظالم المستبد الغليظ القلب عبد الله .

الفصل السابع عشر

وســـائل النجــاة

كنت أرمى من وراء بقائى الى جانب الخليفة عبد الله والتصاقى به الى غرض مزدوج الفائدة فقد رغبت فى تعرف طباعه من ناحية ومن تعرف أحوال السودان من الناحية الأخرى بطريقة تكاد تكون رسمية ، أما الخليفة عبد الله نفسه فكان بتقريبه اياى يقصد شيئين متقاربين ويرمى الى فائدتين ، فقد كان على ثقة من أنى الموظف المصرى الأجنبى الوحيد الملم بشئون السودان الماما كليا دقيقا وأنى جئت البلاد السودانية ودرستها وأصبحت على معرفة كاملة باغة التخاطب الداخلية وسأذكر الغرض الثانى بعد قليل .

كان عبد الله على جهل فاضح بالشئون السياسية وقد ذهب به فكره الى أن خروجى من السودان خطر داهم عليه هو شخصيا لأنى اذا وفقت الى النجاة فمعنى ذلك أنى أتمكن بسرعة من اغراء الحكومة المصرية أو أى حكومة أجنبية عن السودان الى دخول تلك البلاد واسقاط نفوذ عبد الله ، وفى ذلك الحين أتمكن من ايجاد صلة متينة ورابطة وثيقة بين الحكومة الجديدة وبين أفراد وزعماء القبائل الذين يكرهون حكم عبد الله أشد كراهة واذن ينتهى الامر الى انشاء حكومة نظامية فى السودان .

قلت ان غرض عبد الله الأول من بقائى هو الماس بشئون السودان أما الغرض الثانى فيرجع الى نزعة نفسية فقد رغب عبد الله فى ارضاء كبريائه باستخدام الرجل الذى كان فيما مضى حاكم اقليم دارفور بأكمله وحاكم قبيلته ، ففى استخدام الرجل الذى تمتع فيما مضى بهذه السلطة يعد عظمة لعبد الله فى عيون السودانيين خصوصا اذا بقى الرجل المذكور (مؤلف الكتاب) كأسير بين يدى الخليفة ، ومن المدهش أن عبد الله لم يتأخر لحظة واحدة عن الظهور بهذه العظمة الكاذبة فكان بين آن وآخر يقول لرجاله القبائل الغربية « انظروا هذا الرجل الذى كان فيما مضى سيدنا وحاكم قبيلتنا والذى قاسينا الآلام تحت حكمه الجائر · انظروا اليه اليوم تجدوه خادمى وسامع أوامرى والملتزم تنفيذ ما أشير به اليه فى أية لحظة · انظروا الى الرجل الذى انغمس فى بحر الشهوات وكان منقادا وراء تيار المعاصى تجدوه اليوم لا يسأم جبهته القذرة وسائرا حافى القدمين فلا ريب اذن فى أن الله رءوف رحيم » ·

كان عبد الله كثير الحذر والخوف منى ، ولم يمن كثيرا بغيرى من الأسرى الأوربيين الذين عاشوا عيشة بسيطة قوامها الاتجار فى المواد المختلفة فى حى قريب من ميدان سوق أم درمان حيث بنوا غرفا خاصة لتجارتهم ظلوا فيها آمنين لا يعكر صفوهم أى تدخل من الأهالى ·

كان الأب أوهر والدر نساجا يعيش هو وأهله مما يكسبه من نسيج القطن وعاش الأب روزينولى وبيوروجنتو (وكلاهما من طائفة الارسالية الدينية المسيحية) بياعين للساعات فى الدائرة المركزية للسوق ، وقد عاشت السيدات الأوربيات الى جانب أولئك الأوربيين حتى نجون معهم وقت تدبير الهرب مع استثناء الأخت تريزه جريجولتى ·

ينبقى بعد ذلك جوسبت حويزى احد الكتاب الاجانب ثم طائفة أخرى من اليونانيين والسوريين والمسيحين والاقباط ويبلغ مجموع أولئك خمسة وأربعين رجالا ونسـاء تزوجوا وتزوجن من مسيحيين ولدوا فى السودان أو مصريين ومصريات ٠

تسمى المنطقة الداخلية لاولئك المسيحيين المسلمانية (تطلق على المتناسلين من غير المسلمين بوجه عام وقد أطلقها أتباع المهدى عربيا مماثلا لاسم الخليفة عبد الله ، ومهما يكن الأمر فلم يكن على كل من لم يدينوا بالاسلام) وقد اشـتغل اولئك بأمورهـم وانتخبوا من بينهم أميرا ائتمروا بارشاداته وأوامره وقد كان ذلك الرئيس المسيحى مسئولا لدى الخليفة عن كل ما يجرى فى دائرته وعن كل شخص غير مسلم فى أم درمان واسـم الأمير الحالى (فى عام ١٨٩٦) نيكولا وهو رجل يونانى يطلق عليه السودانيون اسما عربيا مماثلا لاسم الخليفة عبد الله ، ومهما يكن الأمر فلم يكن مسموحا لأى شخص من أولئك المسيحيين بمغادرة أم درمان وقد كان مفروضا عليهم أن يضمن الواحد منهم الآخر ومن نتائج ذلك أنه عندما سافر الأب روزينولى صدرت الأوامر بالقاء زميله وضامنه بيبو فى السعير (السجن) وقد زادت المراقبة واشتد الاضطهاد على أولئك المنكوبين بعد فرار الأب أوهر والدر ٠ فقد أنشأ الخليفة خصيصا مكانا حصينا لحجزهم فيه من الناحية الشمالية الشرقية من المسجد الكبير حيث كان مفروضا عليهم أن يحضروا الصلوات الخمس يوميـا وقد كان الخليفة عبد الله داهية فى ذلك الأمر فانه أمر بان يذهب الشخص من أولئك (غير المسلمين عامة والأوربيين بصفة خاصة) مرة فى اليوم للمسجد ، وعين للاحصاء مراقبا يقدم بعد نهاية الصلوات الخمس يوميا تقريرا الى عبد الله يتمكن بواسطته من معرفة المتغيب واذ ذاك يرتاح ضميره لأنه يثق من بقاء جميع أولئك المحجوزين فى ناحيتهم الجديدة ٠

كانت مساكنهم الصغيرة متلاصقة وتبعا لذلك كان من اليسير جدا اتصال الواحد بالآخر مما خفف عنهم آلام الوحشة والاضطهاد أما أطفال أولئك الأشخاص وأولادهم الصغار فكانوا ملزمين بالبقاء فى التكايا السودانية حيث يتعلمون القرآن ٠

وقد وصفت فيما مضى كيفية سكنى وما أحاط به فى الحياة السودانية وبقى على أن أضيف لما تقدم انه كان مسموحا لى ان أتكلم مع قلائل من الحرس الخاص الذين كانوا ـ مثلى ـ اما تحت الرقابة واما ـ وهذا خلافى طبعا ـ كجواسيس للخليفة يراقبون الأجانب ويكتبون التقارير الوافية عن أقوالهم وحركاتهم ثم يرفعونها كل مساء الى دار الخليفة أما دخول المدينة (أم درمان) فكان غير مسموح به الا فى النادر هذا الى أنى منعت منعا كليا من زيارة المنازل أو زيارة الناس لبيتى الصغير ٠

ومما أرويه عن ميول الخليفة الشخصية أنه كان مولعا جدا بالساعات الصغيرة وساعات الحائط على اختلاف حجومها ، وقد وضع على الخليفة ـ فيما وضع من مهمات ـ مهمة تنظيف الساعات الكبيرة واصلاح ثلاث ساعات للجيب يتناوب حملها وقد تمكنت بواسطة هذه المهمة من زيارة ساعاتى أرمنى يدعى أرتين بدعوى أن ساعة من ساعات الحائط فى دار الخليفة تحتاج الى الاصلاح ٠

كان بيت الخليفة عبد الله قائما على مقربة من ميدان سوق أم درمان حيث كنت أتقابل بين حين وآخر مع أفراد مخصوصين كنت أرغب رغبة صادقة فى مقابلتهم والتحدث معهم ٠ أما فيما يختص بموقفى مع أرتين بائع الساعات فلم أكن أثق فيه على الاطلاق ، وكل ما دعانى الى التوجه اليه فى أوقات مختلفة هو نزوعى الى الالتقاء بالأشخاص المعينين ، ولئن اضطررت الى الكلام معهم فلم يكن أرتين يسمع ما يدور بيننا من حديث ٠

كان أغلب وقتى مقضيا فى الفسحة الكبرى المواجهة لدار الخليفة حيث يتلى القرآن ولم يكن مسموحا على الاطلاق كتابة أى شيء لأن عبد الله كان يرى من العار أن أعمل شيئا أن أتعلم جديدا لم يكن هو يعرف عنه قليلا ولا كثيرا • ورغم ما أبداه عبد الله من حذر وريبة كان يضطر الى دعوتى لاصطحابه فى المسجد الكبير أو فى بعض الرحلات الداخلية الخاصة ، وكانت وظيفتى معه شبيهة بوظيفة مستشار حاكم الدولة • وازاء أتعابى هذه كلها لم آكن ممن يتناولون مرتبا من الدولة فكنت تبعا لذلك على خفض من العيش فكان طعامى عاديا جدا يتكون غالبا من العصيدة والبقول الحقيرة وفى يوم أو يومين من الاسبوع كنت أتناول قطعة صغيرة من اللحم بعد شرائها خصيصا من السوق •

تأكد عبد الله من رغبتى فى الحرية وتطلعى الى الفرار من قيد الأسر ورغم ما بذلته لتحويله عن ذلك الفكر لم أستطع نفى ما فى مخيلته من شكوك وريب وفى الوقت نفسه كان يخشانى ويتملقنى، فقد وهب لى الكثير من العبيد وعرض على الزواج من بنات أسرته واجتهد فى تقديم هدايا كثيرة لى ليحول بينى وبين الفرار بطرق لطيفة ، ولكنى أصررت على الرفض اباه فزاد ذلك من مخاوفه وشكوكه وتأكد أنى أتطلع لأول فرصة أتمكن فيها من مغادرة أم درمان الى الخارج وفى ذلك العمل خطر عظيم عليه خاصة وعلى بلاده عامة .

بعد سقوط الخرطوم سعى أفراد أسرتى فى أوربا جهدهم للوصول الى معرفة أخبارى الوثيقة ولكنهم تأكدوا أن الظهور بهذا المظهر خطر داهم على ازاء عسف الخليفة وشكوكه •

لم يدخر فون جسلر (قنصل النمسا والمجر فى القطر المصرى) جهدا فى استقصاء أخبارى ، وقد وجد هذا الشخص الكبير المقام تعضيدا ظاهرا من جانب الضباط الملحقين بالجيش المصرى

وغيرهم من الموظفين • ومما أذكره عن أولئك الأخيرين أنهم كانوا الواسطة في وصول الأخبار الى أفراد أسرتي عن طريق حاكم سواكن عام ١٨٨٨ فاني شخصيا لم أكن أستطيع ايصالها الى الضباط لأني ـ كما قلت في الصفحات السابقة ـ كنت محروما من الاختلاط بأي شخص أجنبي والتزاور مع أي موظف رسمي •

مما تقدم يقف القاريء على مقدار فزع الخليفة وسوء ظنه وقد زاد ذلك الريب وصول خطاب من الهرفون روستي (الذي خلف الهر فون جسلر في القنصلية النمساوية في القطر المصري) الى الخليفة يطلب منه فيه التصريح بقبول قسيس يعظ الرعايا النمسويين المقيمين في السودان • وأظن أن أكبر ما أثر في الخليفة وحول وجهته ضدي هو ورود خطاب من القنصل النمساوي يستعلم فيه عن الحالة في السودان • ومن المدهش أن الخليفة عبد الله استطاع كظم غيظه فطلب مني كتابة بيان عن الموقف الأخير في أم درمان خاصة والسودان عامة • وبطبيعة الحال لم يبال الخليفة بخطاب الهر فون روستي وكل ما عني به هو اتهامي بالخيانة من ناحية والكذب من الناحية الأخرى لأني كنت أخبرته قبلا أن جميع الرعايا الأوربيين في السودان من الايطاليين مع استثناء الأب أوهر والهر النمساوي فقد جاء طلب القنصل النمساوي مخطئا ومكذبا لبياني • ومن الحق لم أرم من وراء ادعائي أن الأجانب في أم درمان جميعهم غير نمساويين الا الى شيء واحد هو الخوف مما قد يحيق بهم من سوء عبد الله في حالة غضبه على شخصي ، فقد يخيل اليه في اليوم الذي يريد فيه الاقتصاص مني أن يهلك جميع الأوربيين لانتمائهم الى الجنسية التي أنتمي اليها في حين أني كنت أسعى جهدي لحملهم على النجاة •

كان الخطاب الوارد من الهر روستي ضربة قاضية على جميع تدبيراتي التي قمت بها لصالح اخواني • ومع ذلك سعيت الى اقناع

الخليفة بأن الغرض من كتاب روستى هو ضم جميع الأوربيين المقيمين فى السودان تحت الشعار النمسوى ، ولكنى عبثا حاولت اقناعه فقد عمد الى مواجهتى بعد أن كان مكتوما من قبل ثم اتهمنى بالكذب الصريح ومحاولة غشه .

وضع أفراد أسرتى مقدارا من المال تحت تصرف قنصل النمسا الجنرال ليستعمله وقت الحاجة لمساعدتى وقد تمكنوا من ايصال مقادير مالية مختلفة لى بواسطة العرب وذلك بعد التسهيلات الشديدة التى تفضل بها على كثيرون من الضباط الملحقين بالجيش المصرى مع سعادة الماجور ونجت مدير الادارة الحربية ولا أنسى فى هذا الصدد أن أقول للقراء بأنى فى كثير من الأحيان كنت أستلم مقادير أقل من المذكورة فى الرسائل التى سلمها الى أولئك العرب ولكنى كنت مضطرا الى تقرير حصولى على المبالغ كاملة ومهما يكن الأمر فقد كنت شاكرا لمن أرسلوا لى المال بمقدار شكرى لمن أوصلوه الى يدى لأن الأخيرين ساعدونا مساعدة كبرى فى حمل رسائل وتقارير سرية الى أفراد أسرتى دون وصول الجواسيس اليها .

كنت شديد الحيطة فى صرف المبالغ فقد اجتهدت فى الظهور بمظهر البائس الذى لا يجد ما ينفقه حتى لا تتطرق الريبة الى نفوس العسس وحتى لا يقف الخليفة على حقيقة أولئك الأعراب الذين تفضلوا بمساعدتى ، وتبعا لذلك عشت أبسط عيشة ودفعت ما وفرته لأصدقائى المعوزين .

وثق أصدقائى المقيمون فى القاهرة ـ بعد أن حرمنى الخليفة من أى اتصال بالخارج ـ أنه من المستحيل عليهم العمل على انقاذى ، ولذلك فكروا مليا فى الطريقة التى أتمكن بها عند سنوح الفرصة من الفرار والنجاة من عسف عبد الله . وفى الحق كنت عارفا من اللحظة الأولى التى وقعت فيها فى الأسر أن نجاتى لا تتم

الا بواسطة الفرار فى الفرصة المناسبة ، وعلى الرغم من قضاء اثنتى عشرة سنة فى عذاب وتحت نير الاضطهاد لم يذهب الأمل لحظة واحدة من خاطرى فقد كنت على ثقة من الفوز بامنيتى فى النهاية بعد صبرى العجيب ٠

قضيت السنين ولم يعلم انسان حقيقة ما فى نفسى وما اعتزمت تنفيذه ، ولكنى ذكرت عرضا عرض لابراهيم عدلان وقد وعدنى الأخير وعدا صادقا بأنه سيبذل أقصى ما فى وسعه لانقاذى ٠

ولكن من سوء الحظ قد وقع غضب الخليفة على ابراهيم عدلان هذا بعد أيام من وعده الشريف فنفى من أم درمان ، وخسرت أنا بذلك النفى صديقا مخلصا وحاميا شجاعا نبيلا ٠

عندما مات ابراهيم عدلان أفضيت بسرى الى شخصين أثق ثقة كلية فى أمانتهما وقدرتهما على كتمان السر ، ورغم كونى على ثقة ــ بالنسبة الى ميلهما لى من ناحية والى كراهيتهما الشديدة للخليفة من الناحية الأخرى ــ من رغبتهما الشديدة فى تخليصى من قبضة عبد الله لم أوفق فى سعيى ، ولم تصل مفاوضتى معهما الى نتيجة ، ولم يكن ذلك لقلة وجود المال الكافى لانقاذى واستعماله فى هربى وانما يرجع الى خوف ذينك الشخصين من افتضاح أمرهما وظهور اسميهما بعد فرارى وبما أنهما صاحبا عائلتين فى السودان فلم يكونا يرتابان فى أن العمل الوحيد الذى يعمله الخليفة اقتصاصا منهما هو نفيهما ثم حمل زوجة كل منهما الى دار حرم عبد الله ثم تشريد أولاد كل من الرجلين ، وهذا بلا ريب قصاص فظيع وعقاب لا تحتمله النفس ٠

فى الوقت نفسه لم يكن أفراد أسرتى ساكتين بل كانوا يدبرون كل الوسائل الممكنة لانقاذى ودعاهم حبهم اياى الى بذل كل

ما يستطيعون من عون وتعضيد وبما أنهم كانوا على جهل كلى بما يجرى فى السودان وعاجزين عجزا مطلقا عن مد أيدى المساعدة من فينا الى فى أم درمان لم تكن أمامهم وسيلة سوى دفع قيم مالية تستخدم لحسابى عند قنصل النمسا فى مصر وقد كانت تصدر الى الأخير تعليمات من وزير خارجية النمسا باستعمال الاموال المذكورة على أحسن صورة ممكنة لانقاذى وانه لمن الواجب على أن أذكر بالثناء البارون هدلر فون اجبرج (سفير النمسا المفوض فى احدى دول أوربا الآن عام ١٨٩٥ ـ والذى كان فيما مضى قنصلا للنمسا فى مصر) فقد سعى جهده لانقاذى فى الفرصة الملائمة وبطبيعة الحال لم يكن من الحكمة التوصل لمساعدتى بواسطة أى شخص فأمر الهرب خطير يستدعى الاستناد الى الوثوق منهم ثقة تامة ولذلك عمد القنصل النمساوى الى اختيار افراد مؤتمنين يسعون لى من جانب موظفى الحكومة ، فانتدب القنصل لهذا الغرض الكولونل شيفر بك وبعد مدة غير كبيرة استعان بالماجور ونجت الذى أظهر فى ظروف كثيرة عطفا كبيرا ولا ريب فى أنى مدين بحريتى لكل من الماجور ونجت والبارون هولر فبدونهما لم يكن ميسورا الحصول على أشخاص أمناء من العرب يوصلون الى المقادير المختلفة من المال ، وسأظل طول حياتى شاكرا لذينك الرجلين الكبيرين جهودهما المتواصلة فى سبيل نجاح مسعاهما وتسهيل أمر الفرار على شخصى العاجز أمام الخليفة الشديد السطوة • ومع أن الجميع فشلوا فى مساعيهم وبدا منهم لمساعدتى ما أدخل الريبة فى قلب الخليفة وفى قلوب جواسيسه المنتشرين حوله فانى لا ازال أذكر تلك المهارة الفائقة التى بدت من جانب الرجلين الفاضلين الأخيرين حتى أن عبد الله لم يدر فى خلده حولهما أى شك •

فى الأيام الأولى من شهر فبراير عام ١٨٩٢ وصل الى أم درمان من مصر الشيخ بكار أبو زيبة رئيس فرقة جمال دنقله وقد كان هذا الرجل من العرب العبابدة فلم تكد تطأ قدماه أرض السودان

حتى أحضر أمام الخليفة وهناك قال لمولاه انه فر من مصر وقدم عن طريق أسوان طالبا عفو الخليفة والسماح له بالاقامة فى بربر وقد سهل له مهمته هذه جملة خطابات توصية الى زكى عثمان أمير بربر ، ولم يكد هذا الرجل يمر فى ساحة المسجد الكبير ويلتقى بى حتى أسر لى فى أذنى « أنى أتيت لمساعدتك فاجتهد فى مقابلتى » فأجبته « ان المقابلة تكون غدا بعد صلاة المغرب فى هذا المسجد » وبعد النهاية من جوابى اختفى عن نظرى وعلى الرغم من وثوقى فى النجاة وارتياح ضميرى الى أنى سانجو يوما من ذلك الاسر فانى لم أكن شـــديد الايمان بذلك القول الاخير لأنى اختبرت أقوال السـودانيين والعرب فوجدتها فى غالبيتها وعودا كاذبة وأقوالا لا ترمى لغير تبرير موقف قائلها وقت وقوفه أمامى وتبعا لذلك قضيت اليوم التالى كما أقضى كل يوم عادى فلم أفكر فى المقابلة أو نتيجتها لأنى لم أكن آمل تحقيقها وفى حين حدوثها لم يكن يذهب بالى أن نجاتى ستتحقق بعدها مباشرة .

بعد الانتهاء من صلاة المغرب فى اليوم التـالى مر بكار فى طريقه الى الخارج بباب المسجد الذى تقابلنا فيه اليوم السابق . فتبعته بحذر شديد ثم دخلنا معا الى القسم المحجوب عن الأنظار فى بناء المسجد ، وعندما غابت عنا عيون الناس وبعدت عن مجلسنا آذان السامعين سلمنى بكار صندوقا من الصفيح يبدو من رائحته أنه يحتوى على كميـة من البن وقد قال لى صـاحبى العربى « لهذا الصندوق قاع مزدوج فافتحه واقرأ الأوراق الموجودة فى آخر القاع الثانى وسأقابلك هنا غدا فى الباب نفسه » .

أخفيت الصندوق تحت عبـاءتى ثم رجعت الى مكان وكان مقدرا لى أن أتناول العشاء فى تلك الليلة مع الخليفة فارتجف قلبى عندما سمعت تلك الدعوة لأنى كنت أحمل صندوقا كبير الحجم الى حد ما بحيث يمكن ظهوره تحت ملابسى بكيفية بارزة ومن سوء

الترتيب أنى وضعت أمام الذى كان يحدق فى طول وقت العشاء ولكن من حسن حظى ـ الى جانب ذلك ـ أن الخليفة كان شديد التعب طول يومه فدار كلامه حول مواضيع عامة ، وهذا كله لا يمنع استمرار ريبتــه وعدم تردده فى انزال العقاب الصــارم بى وقت سنوح الفرصة • الا أنى لم أتردد فى كل مرة أقابله فيها فى اظهار ولائى واخلاصى له وبطبيعة الحال كررت ذلك فى ليلة العشاء ومن الغريب أنى استطعت بعد اخذ قطع صغيرة من اللحم وكمية من الذرة المسلوقة ادعاء المرض فأذن لى الخليفة بالانصراف الى حيث اقضى ليلتى كل يوم • فأسرعت الى المنزل وهناك أشعلت المصباح الزيتى الصغير وفتحت الصندوق بمديتى فوجدت ورقة صغيرة كتب عليها بالفرنسية الكلمات الآتية :

« بكار واد ابو زبيبة رجل مخلص أمين »   الامضاء

(الكولونيل شيفر)

جعلنا (أنا وأحمد) نتساءل عما أصاب الرجال المرسلين لانقاذنا وأغلب ما اتجه اليه ظن كل منا هو أن الدراويش قابلوهم فقبضوا عليهم بعد أن شكوا فى أمرهم وارتابوا • ومهما يكن الأمر فقد وصــــلنا الى حيث كنا ممتلئين مخاوف وآلاما مبرحة وعندما فارقت أحمد عند ساحة الاستعراض طلبت منه أن يخبرنى فى المساء عما يحدث وفى الوقت نفسه أكدت له أنى مستعد لمحاولة الفرار فى أية لحظة •

لم يكد يبدو السحر حتى وصلت الى كوخى الذى تركته منذ ساعات قليلة وأظن انه من الخير أن أترك للقارىء تصور شعورى وحالتى بدلا من السعى الى وصفها فهذا الوصف مما لا أستطيعه ومن حسن الحظ أنى وصلت قبــل قدوم أحد الضباط (واسمه عبد الكريم) برسالة من الخليفة يسألنى فيها عن سبب تغيبى عن

صلاة الفجر فأجبته بأنى كنت مريضا وفى الحق كانت ملامحى كافية لاغراء الضابط بوقوعى فى قبضة المرض الموجع ·

عبثا انتظرت الأخبار من أحمد فى ذلك المساء ولم اعلم منه الا بعد يومين عن العرب الذين كانوا معينين لانقاذى ، فقد رأى أولئك أنه من العسير جدا تخليصى من الأسر ومن المجازفة الخطيرة التقدم لانقاذى فعمدوا الى الرجوع من حيث أتوا وعدم الوفاء بوعدهم · واذن عجزنا عن تنفيذ خطتنا وقد حمدنا الله حمدا عظيما ازاء منه علينا بالرجوع الى أماكننا دون مراقبة أحد ودون وقوف الخليفة وجواسيسه على سر تغيبنا فى الساعات القلائل المذكورة سالفا ·

بعد أن رجعت سالما لمكانى فى أم درمان كتبت الى صديقى فى مصر شارحا لهم كل ما وقع لى فلم يقنطا واستمرا فى تدبير وسائل المساعدة وهنا اتجهت أنظارهما الى الأب أوهر والدر الذى عندما كان فى مسينا زار أفراد أسرتى وأخذ منهم أقراصا من الأثير تقوى الانسان على احتمال السفرالطويل وتطرد النوم من المرء · وقد جهز الأقراص المذكورة أوتو كارشيارى وبعد اعدادها وصلت لى كاملة آمنة وقد وضعت تلك الأقراص فى زجاجة صغيرة تمكنت من دفنها بعناية تحت التراب فى بقعة لا يعرفها أحد غيرى ·

أصبحت واثقا الثقة كلها فى عبد الرحمن واد هرون الذى أرسلته الى مصر برسالة الى البارون هدلر ليعين له (عبد الرحمن) الوسائل التى يراها نافعة ومثمرة فى طريق فرارى · وقد تم للمرة الثانية اتفاق بين السفارة النمساوية فى مصر وبين هذا التاجر — وقد تدخل فى هذا الاتفاق الماجور ونجت وملحم بك شقير ونعوم أفندى شقير — على أن يأخذ عبد الرحمن الف جنيه تعطى المكافأة (١٠٠٠ جنيه) لعبد الرحمن فى حالة واحدة هى وصولى الى القطر المصرى سالما ، وقد سلمت السفارة النمساوية هذا الرجل مائتى جنيه لاعداد الأشياء اللازمة قبل الشروع فى الفرار ·

فى ذلك الوقت عين الماجور ونجت حاكما لسواكن وقد خشى غنم نجاح عبد الرحمن فاجرى اتفاقا شبيها بالسالف مع رجل عربى اسمه الشيخ كرار ، وكان المتفق عليه معه السعى الى الفرار بى عن طريق طوكر أو كسلا ٠

فى يوم من الأيام سلمنى تاجر فى أم درمان (قدم ذلك التاجر من سواكن) ورقة كتب عليها ما يأتى :

« مرسل الكيم الشيخ كرار الذى سيسلمك بعض ابر الخياطة كدليل على أن الذى يكلمك هو الشيخ ، وتأكد أنه رجل أمين وشجاع فثق فيه ثقة تامة وتقبل أصدق التحيات من ونجت »

الامضاء : (أوهر والدر)

عرفت بعد ذلك بقليل من أحد أقرباء عبد الرحمن واد هرون أن الأخير وصل الى بربر من مصر وأنه بدأ يجرى المعدات اللازمة لفرارى ولكنه اعتزم ـ فى سبيل ابعاد الريب والشكوك عنى ـ عدم العودة الى أم درمان فكان هذا القرار من جانبه سبب كدر لى ٠

بدأ اليوم الأول من شهر يناير عام ١٨٩٥ بعد أن قضيت سنوات شدة واضطهاد الى جانب عبد الله المستبد الظالم ، فهل يمر ذلك العام كما مر اسلافه ؟ وهل نأمل فى خير جديد نحصل عليه فى عامنا الجديد ؟

على أية حال كنت فى مستهل ذلك العام شديد الثقة وقد جال بخاطرى هاتف دينى بقــرب الافــراج عنى من ذلك الأسر فكان قلبى يحدثنى بأن أصدقائى المخلصين الكثيرين فى الخارج سيوفقون لا محالة الى انقــاذى وانهــم سيكسرون أغلال الأسر ويمكنوننى بفضلهم وكرمهم من مشاهدة أفراد أسرتى مرة أخرى على الأقل قبل

موتى وأنى سأنعم بالعودة الى الوطن ومشاهدة رفاق الصبا وأماكن سرورى القديم ٠

فى ليلة من الليالى النصف الأولى من شهر يناير عام ١٨٩٥ مر بى فى الشارع شخص لم تقع عليه عيناى من قبل وقد أشار لى هذا الرجل اشـارة فهمت منها أنه يقصـد سيرى حيث يسير فخشيت أن يكون جاسوسا فاظهرت له علامة التـذمر والاستياء فأجابنى بعد ذلك « انى الرجل الذى يحمل الأبر الصغيرة » فلم أكد أسمع ذلك حتى عمنى البشر والسرور فقدت الرجل الى زاوية مظلمة صغيرة مجاورة لكوخى وهنـاك رجـوته أن يسرع فى شرح مهمته لى ٠ فبدأ بتقديم ثلاث ابر صغيرة وورقة صغيرة ثم قال لى بعد ذلك « ان الفرار مستحيل فى الوقت الحالى » ٠ وأضاف الى ذلك قوله « قد أتيت بعد أن اعتزمت عزما أكيدا حملك معى الى كسلا ولكن الفرار الى تلك الناحية أصبح فى الوقت الحالى عسيرا بعد انشاء محطات حربية فى كل من الفاشر واسوبرى وخور رجب والعطبرة المتصلة بعضها ببعض اتصالا مباشرا الى كسلا » وزاد على ذلك قوله بأن أحد جماله قد مات وأنه خسر كثيرا من ماله بالنظر الى كساد الشئون التجارية واذن ليست لديه وسائل كافية لانقاذى فى الوقت الحالى وتبعا لذلك طلب منى أن أعطيه خطابا للماجور ونجت أسأله فيه تسليمه (الرجل المذكور) مقدارا جديدا من المال وقد وعدنى هذا الشخص وعدا أكيدا بأنه سيرجـع الى فى بحر شهرين ٠

أما أنا شخصيا فقد وثقت أن الرجل لن يسمح بتعريض حياته للخطر فى سبيل انقاذى وبما أنه أخبرنى بعزمه الأكيد على السفر وعدم تمكنه من التأخير طلبت منه بالحاح أن يقابلنى فى المسجد الكبير مساء اليوم التالى ٠ وعندئذ افترقنا فرجعت الى مكانى العادى عند باب الخليفة ٠

أما الورقة التي سلمها الى الرجل من سواكن فتحتوى على توصية ومدح فيه (الرجل) من الآب اوهر والدر وقد اجبت على هذه الورقة اجابة مختصرة شرحت فيها كل ما وقع لى وعندما تقابلنا فى الليلة التالية سلمت شيخنا هذا خطابى فاسرع فى ضمه الى جيبه أملا منه أن فيه ما يضمن له الحصول على مقدار جديد من المال حسب طلبه • وفى الحق كنت شديد الفزع كثير القنوط وعلى هذه الحالة عدت الى منزلى حيث مررت فجاة بمحمد ابن عم صديقى عبد الرحمن • وكأنما قدرت الاتفاقات أن يسير الى جانبى فى تلك اللحظة حيث همس فى أذنى « نحن على استعداد » وأضاف الى ذلك « اشترينا الجمال وأحضرنا المرشدين فى الطريق والوقت المعد لنجاتك هو الربع الأخير من القمر فى الشهر القادم • فكن مستعدا » ولم يضف الى ذلك شيئا • وقد شعرت هذه المرة شعورا صادقا بانه من الواجب الابتعاد عن اليأس الذى يتخلل الأمل فى فترات مختلفة •

. . .

قبل أن ينتهى شهر يناير من عام ١٨٩٥ وصل الى أم درمان حسين واد محمود مزودا بتعليمات وتوصيات البارون هيدلر والماجور ونجت ، وقد أخبرنى هذا الرجل العربى الجديد أنه على اهبة الاستعداد لحملى على الفرار وقد رجانى حسين هذا أن أكتب لأصحاب الشأن فى مصر بحقيقة ما عمله (حسين) وان يحمل ما أكتبه الى مصر أحد أشقاء حسين أثناء رحلته للقطر المصرى • وبما أنى كنت مقيدا باتفاقى مع عبد الرحمن اضطررت الى الانتظار للوقوف على ما يعمله لعله يوفق الى النجاح ، ففى حالة فشل مساعيه (عبد الرحمن عولت على الاستناد الى حسين هذا • وحتى لا أصدم الأخير ــ بدلا من تقديم الشكر له على الأقل ــ أخبرته بأنى فى الوقت الحالى أرى صحتى غير قادرة على موالاة رحلة كبيرة وانى سأخبره بعزمى النهائى فى آخر شهر فبراير • وفى الوقت نفسه أعطيته خطابا لأصدقائى فى مصر ذكرت لهم عامة والهيدلر خاصة

بأنى عولت على الفرار مع عبد الرحمن متمنيا فى سعيى هذا توفيقا تاما •وفى حالة فشل ـ وقد دعوت الله الرحمن أن يحول دون هذا الفشل ـ لا أجد غير (حسين) وسيلة لفرارى • وانى لا اكتم القارىء حقيقة ما دار فى نفسى بعد أن كثر عارفو سرى والواقفون على رغبتى فقد خشيت أن يفتضح السر عند الخليفة واذ ذاك تنزل على صواعق عسفه وغضبه فانى لم أكن أتردد لحظة واحدة فى الثقة بأن الخليفة فى حالة ريبة جزئية وشك بسيط فى مسعاى سيقدمنى الى أشق صنوف الموت بعد أن يلقينى فى السعيز (السجن) وبطبيعة الحال كان عبد الله يتلمس أى طرف للفتك بى لأنه كان فيما بينه وبين نفسه يخافنى كثيرا •

أخبرنى محمد يوم الأحد ١٧ فبراير سنة ١٨٩٥ فى كلماته القليلة أن الجمال المعدة للفرار ستصل فى اليوم التالى على أن تستريح من تعبها يومين وفى ليل ٢٠ فبراير نتمم مشروعنا الخطير وزاد على ذلك أنه فى مساء الثلاثاء ١٩ فبراير سيشير الى اشارة أفهم منها أن كل شىء قد انتهى على أحسن صورة وادركت أنا سنقوم بالرحلة الطويلة الشاقة التى تحتاج الى صبر طويل وعزم ثابت •

ظللت أنتظر بأمل وخوف فالأمل يدفعنى اليه ما قضيته من أعوام طوال فى عيش مرير قد ينتهى بعد يومين الى حرية مطلقة وأما الخوف فمما قد يعترضنا فى سبيلنا ، وعلى أية حال كنت شديد الشوق الى مساء الثلاثاء حتى جاء ذلك الليل والتقيت بمحمد على باب المسجد الكبير حيث همس فى أذنى بسرعة داعيا الى الاستعداد للسفر ثم افترقنا على أن نتقابل الليلة القادمة •

انى أعترف للقراء أنى قضيت القسم الاكبر من تلك الليلة فى حالة اضطراب شديد ، فكنت بين آن وآخر أقول « هل يفشل ذلك

التدبير كسابقه ؟ » وما زلت اردد القول « هل يعترض سبيلنا حادث غير منظور يقضي على كل ما لدى من آمال ؟ » وازاء ذلك الاضطراب الفكرى لم استطع النوم لحظة واحدة حتى بدأ الفجر فمن شدة التعب أغرقت في النوم العميق ساعتين او ثلاث ساعات تمنيت بعدها أن أكون في نشاط يمكنني من الابتداء في رحلتي الخطيرة ٠

حان صبح اليوم التالي الذي كان معدا لعملنا الخطير . فبدأت في تنفيذ المشروع بالحيلة الوحيدة المعقولة وهي ادعاء المرض فوقفت لدى باب الخليفة وهناك ظهرت بمظهر الضعيف المريض وطلبت من رئيس ضباط حرس عبد الله السماح لي بالتغيب عن صلاة الفجر في يومنا هذا بعد أن أخبرت هذا الضابط المذكور أني تناولت مقدارا من الشاى والتمر الهندي لتخفيف ما بي من ألم على أن أبقى هادئا في منزلي في اليوم التالي ٠ وقد حمدت الله لأني تمكنت من الحصول على الاذن بالتغيب عن الصلاة وزيادة على ذلك وعد عبد الكريم بأنه سيعتذر عني لدى الخليفة في حالة سؤال الأخير عن تغيبي ، ولم أكن في شك من أن الخليفة عندما لا يراني في صلاة الفجر سيسأل عني بطريقة ماكرة يريد بواسطتها الوقوف على حقيقة عملي والتثبت من وجودي في المنزل الا انه سيدعي طلب الاستفسار عن صحتي بارسال من يراني من قبله ، واذن فالمسألة خطيرة ومهما يكن الأمر فلم تكن أمامي أية وسيلة خلاف هذه كالاعتذار عن الامتناع عن صلاة الفجر ٠

قبل غروب شمس ذلك اليوم جمعت خدمي وبعد أن أقسم أولئك على الاحتفاظ بالسر وعلى عدم ذكر ما أقوله لهم لأى شخص آخر أخبرتهم أن شقيق الرجل الذي أحضر لي رسائل ونقودا مالية وساعات صغيرة من أقربائي منذ سبع سنوات قد وصل أخيرا بأشياء أخرى جديدة وبما أنه وصل بدون علم الخليفة فقد اضطررت الى عدم افشاء سر مجيئه الأخير حتى لا تحوم حوله أية شبهة بدون

وجه حق وعلاوة على الكلمات السابقة قلت لخدمى انى اعتزمت زيارة الرجل المذكور فى تلك الليـلة لأنى اعتزمت الافضاء اليـه بأقوال يذكرها لاقربائى بعد عودته الى مصر ومقابلة قنصل النمسا فى القطر المصرى ، وللاسراع فى تنفيذ الرغبة وابتعاد الرجل عن عيون الرقباء فضلت الافضاء اليه بما عندى فى أقرب ساعة ممكنة من الليل . وبطبيعة الحال صـدق الخدم أقوالى لأنهم اعتادوا فى السنوات الطويلة التى قضوها معى سماع الأقوال والأنباء الصادقة منى ، وعلاوة على ذلك طمع أولئك الخدم فى الحصول على أشياء من الطرائف التى أحضرها الرجل معه من الخارج . واذن اضطروا الى الاحتفاظ بما سمعوه وعدم اذاعة سر ذلك الرجل .

فى سبيل تنفيـذ مشروعى الخطير طلبت من خادمى الأمين (أحمد) مقابلتى فى صباح اليوم التالى فى الطرف الشمالى من أم درمان على مقربة من ميدان فير على أن تكون بغلتى مع هذا الخادم فى الوقت المحدد . وزدت على ذلك أن نصحت له بعدم الاضطراب أو القلق فى حالة تأخيرى عن الميعاد لأن العمل الذى رغبت فى انجازه يقتضى بطبيعة الحال وقتا كبيرا وعلى أية حال الححت عليه (أحمد) بعدم مغادرة مكان المقابلة حتى أسلمه المال الذى آخذه من الرجل العربى الذى ـ حضر من الخارج وبعد أن يستلمه أحمد يوصله الى منزلى ويأخذ مكافأة على ذلك .

أما الخدم الآخرون فقد شددت عليهم فى الاحتفاظ بالسر والتزام الصمت الكلى لئلا يصيبنى خطر جسيم من جراء افتضاح الأمر المكتوم .

افهمت كلا من خدامى على حدة أنه فى حالة استفســار أحد الضباط عنى من أيهم (الخادم) يكون جوابه على الضابط بأنى قضيت ليلة شاقة جدا اضطررت ازاءها الى مغادرة فراشي (المؤلف)

ليلا فى صحبة خادمى أحمد لسماع نصيحة طبية من شخص لا يعرف أحد مقره • ولكن الذى يعرفــه جميعنا (الخدم) هو ذهابه الى شخص خبير بالمرض وملم بوصف الأدواء الناجعة •

رغبت بعد كل ذلك التضليل أن أسبك حيلتى وأحسن تمثيل روايتى الخيالية فأفهمت خدمى بأنى « مضطر للحصول على مقدار كبير من المال فى صــباح اليــوم التالى فلا حاجة بى الى قسم كبير مما معى لذلك أرى أن أحسن وأفضل مكان يفرق فيه ما معى هو أيدى خدمى الأمناء » وحققت القول بالفعل فنفحت كلا منهم بعض ريالات ، وكل ما رميت اليه من تضليلى هو تأجيل الميعاد الذى يذاع فيه خبر فرارى ، فقد كنت على ثقة من أن سر تغيبى سيعرف لا محالة سواء أذكر خدمى حقيقة عملى أم لم يذكروها ولكنى الى جانب ذلك عرفت أن تكتم أولئك الخدم سيؤخر انتشار الخبر بضع ساعات تساعدنى فى الابتعاد مسافة جديدة عن المكان الذى فررت منه • أما الخدم الذين أكثرت لهم الوعود فعلى انتظار المال الجديد الذى يوزع عليهم بسخاء !!

ادعيت واختلقت من الأقوال كل ما يستطيع العقل التحايل به على أمثال أولئك الخدم السودانين ولكنى وجدت ــ الى جانب ما قلته ورتبته ــ الحاجة ماسة الى حساب تدخل الخليفة واستفساره عنى ، فادركت أن الخليفة سيسأل عنى فيلقى من خدمى اجابة تدعو الى الريبة والشك وحينئذ يأمر الخليفة أحد الخدم للبحث عن احمد وهذا البحث يستغرق زمنا بطبيعة الحال ، فاذا ما وصلوا اليه ذكر أحمد للخليفة حكاية الشخص المنتظر قدومه لتسليم ما هو خاص بى (المؤلف) وتلك العملية الجديدة تستغرق وقتا آخر يعقبــه فشـــل الباحثين ، وعندئذ فحسب ينقب عنى العسس والجنود والضباط بعد أن أكون فى الواقع اكتسبت الوقت المساعد للفرار •

بعد أن أدركت ذلك عدت الى افهام خدمي بما ينطقون به عند الخليفة في فترات مختلفة •

بعد أن أديت صلاة العصر عدت الى منزلي فجمعت خدمي مرة أخرى وشددت عليهم بالاحتفاظ بالسر المهم ثم وعدتهم الوعــود الكثيرة بما سأقدمه لهم من هدايا وأموال وبعد ذلك خرجت من عتبة البيت الذي سكنته أكثر من عشر سنين وقبل خروجي توسلت الى الله تعالى أن يحفظني في رحلتي الشاقة وأن يحميني من حياة الأسر والعبودية •

الفصل الثامن عشر

فـرارى

بعد ثلاث ساعات من غروب الشمس ادينا فريضة صلاة العشاء مع الخليفة فى المسجد الكبير وبعد ذلك عاد (عبد الله) الى مخدعه فى بيته الخاص ثم مرت ساعة لم يحدث فيها أى تدخل من أى جانب فى سير الأمور سيرها العادى وفى نهاية تلك الساعة ذهب سيدى ومولاى الخليفة عبد الله الى فراشه ولم أكد أتق من ابتعاد الخليفة عن حركاتى حتى حملت الفروة النظيفة التى تعودت استعمالها فى الصلوات الخمس يوميا ثم ارتديت معطفا صوفيـا لوقايتى من البرد ثم سرت فى طريق المسجد الى الناحية الشمالية من أم درمان • ولكنى سمعت صوتا خفيفا فخشيت وقوف من يعوق فرارى الا أنى تبينت الصوت بعد ذلك فعرفت أنه صادر من محمد الذى عينته الظروف الحسنة واسطة لفرارى •

عند ذلك الصوت وقفت فوجدت الى جانب محمد الهادىء الصامت حمارا معدا لركوبى فامتطيت الدابة وأسرعت فى مسيرى الخطير فى ذلك الليـل البهيم • ومن أحسن ما أذكره من دلائـل توفيقى فى هربى الأخير أن الريح الباردة الشمالية اشتدت الى حد اضطر معه كل الآدميين الى الانزواء فى بيوتهم الصغيرة اتقاء خطر البرودة القارصـة •

سرنا فى طريقنا (أنا ومحمد) فلم نصادف من الناس أحداً حتى وصلنا الى الطرف الأخير من أم درمان وفى قسم من ذلك الطرف وجدنا بيتا صغيرا مخربا قائما على زاوية من الطريق الشمالية ومن تلك الدار الصغيرة خرج رجل عربى ومن وراته جمل معد للسفر فلم تكد تقع عينا الرجل على حتى بادرنى بقوله « سيعينك ذلك الجمل فى رحلتك وسأرشدك فى الطريق الى مصر » ٠

قال لى محمد بعد ذلك : « اسم هذا الدليل زكى بلال وسيسير معك أولا الى الجمال المعدة لاجتياز الصحراء بالراكبين فى بقعة خاصة فأسرع تلق النجاة وانى شخصيا أتمنى لك سفرا سعيدا وأسأل لك من الله الوقاية والأمن » ذكر زكى بضع كلمات للجمل دعته (الجمل) الى البروك على الأرض فامتطى زكى صهوته ودعانى الى الجلوس على جزء من السرج وراءه مباشرة لعدم وجود جملين فى تلك اللحظة وبعد ساعة من رحلتنا وصلنا الى بقعة اختبأ فيها بعض الجمال تحت الأشجار الصغيرة وعلى أية حال كان كل شىء على استعداد تام وكنت أنا شخصيا خاضعا لأى أمر يصدر لى من زكى مرشدى فى تلك السبيل الخطيرة واذن سمعت كلامه عندما أشار على بركوب جمل خاص ٠

قلت لزكى قبل متابعة رحلتنا « هل أعطاك محمد الدواء » فأجابنى (زكى) لم أستلم شيئا ٠ وأى دواء تعنى ؟ فأجبته بأن الدواء الذى أعنيه هو ما يسمونه أقراص الأثير التى تمكن المسافر من مطاردة النوم وتمنحه قوة على مواصلة السفر الطويل الشاق ٠

ضحك زكى بعد ذلك وقال لى « النوم !! النوم لا تفكر فى هذا الموضوع فان النوم لا يجد الى عينى سبيلا وان الله من فوقنا رحيم قدير يمكننا من مطاردة النوم دون الاستعانة بدواء انسانى » ٠

لم أجد جوابا على ذلك سوى قولى « لقد أصبت أيها الصديق الصواب واني مشترك معك في الدعاء الى الله بمد العون الأعلى » ٠

واصلنا السير في طريق شمالية وقد كان من الممكن أن تسرع بنا الجمال في طريقنا الا أن أمرين حالا دون ذلك هما شدة ما في الليل من حلوكة وبرودة من ناحية وانتشار أعشاب الحلفا وشجر الميموسا في طريقنا من الناحية الأخرى ٠ وعلى أية حال لم يقف بنا جملانا طول الليل وظللنا ندعو الله أن يمن علينا بالسلامة حتى أشرق نور الصباح البهيج فوجدنا أننا (أنا وزكى) عند أول وادى بشره حيث يجد المسافر واديا ممتدا الى ما لا يقل عرضه عن ثلاثة أميال ٠ وتلك الناحية مزروعة ببذور الدخنة من فصل الشتاء حيث يجد افراد قبيلة الجعليين الساكنون على شاطىء النيل ريا كافيا من مطر السماء ٠

انضم الينا بعد أن غادرنا طرف أم درمان الشرقى قائد آخر صغير السن اسمه حامد بن حسين واذن وصلت الى وادى بشره فتمكنت في ضوء الصباح من مشاهدة زكى بلال فاذا به شاب صغير السن مسترسل اللحيـة والى جواره حامد بن حسين وهو شاب في مقتبل العمر ٠ عندما وقفت الجمال الثلاثة صباحا سألت الرجلين قائلا « من أية قبيلة أنتما ؟ » ٠

فأجابا متضامنين « نحن من جبال جيليف أيها السيد ولتكن واثقا أن ارادة الله وحدها هى التى تساعدنا على ارتياحك الينا » ٠

طال الحديث بيننا نحن الثلاثة بعد أن اطمأننت الى ذينك الرفيقين وانتهز أكبر المرشدين سنا ما لقيه فى من صراحة وبساطة

فقال لى « الى أى مدى بعدنا عن أعدائنا وبعد كم من الزمن نصل الى الجهة التى يضل فيها أعداؤنا عن الوصول الينا ؟ » .

اجبته على الفور « سيبحث عنى رجال الخليفة بعد الانتهاء من صلاة الفجر ولكن ثق أنهم سيبدءون أولا بالشك فى فرارى يعقب ذلك البحث عن الجمال التى يركبها الجنود للبحث عنى وكل ذلك يستلزم وقتا فثق أن لدينا ما لا يقل عن أربع عشرة ساعة » .

فرد على حامد قائلا « ليس هذا بالشىء الكثير جدا ، ولكن اذا ساعدنا الله وقوى جمالنا فى مسيرها فان لدينا اذ ذاك أملا قويا فى قطع شوط بعيد أمين » .

اضطررت عندئذ الى القاء السؤال الآتى على حامد « هل لا تعرف قوة جمالنا على السير وهل لم تختبرها قبلا ؟ » فوجلت عندما أجابنى قائلا « انى فى الحق لا أعرف عن تلك الجمال الثلاثة شيئا لاننا اشتريناها على عجل فى الوقت الذى سمعنا فيه خبر رغبتك فى الفرار ، ولكن الذى نثق منه هو أن الذى اشترينا منهم الجمال قوم مشهورون بأمانتهم من ناحية وبمتانة جمالهم من الناحية الأخرى » .

ومهما يكن من شىء فقد تابعنا فرارنا بأسرع ما نستطيع وقد عدونا بالجمال عدوا لا نتصور فى الارض سرعة لحيوان كتلك التى قامت بها جمالنا الأمينة ، على أنا فى الحق أشفقنا على تلك المخلوقات غير الناطقة لما انتابها من شدة وتعب ومما خفف الأمر انبساط الأرض وسهولة تربتها رغم ما تخللها من آكوام وحفر وبعض التلال الحجرية الصغيرة ويمكننى التصريح دون مبالغة أنا والينا العدو دون وقوف الى ظهر يومنا ذاك حيث نادانى مرشدى فجأة قائلا :

« قف حالا !! ولنبرك جمالنا فى تلك اللحظة ولكن سريعين فى عملنا هنا » .

خضعت للأمر فوقفنا وبركت الجمال . الا انى دهشت جدا وتولانى الفزع لوقوف الجمال فى حين أنى أشاهد الجمال وجوادين فى مسافة بعيدة ولم أكن أشك فى أن الأعداء قادمون للانقضاض على وعلى المرشدين اللذين معى . فاعددت مسدسى « من طراز منجتون » للدفاع عن نفسى وعمن معى وقت الهجوم وعند ذلك قلت لمن معى « اذا كنا الآن مكشوفين أمام عيون أعدائنا فلنسر فى متابعة الهرب بهدوء ونظام لأن بروك جمالنا ووقوفنا متجاورين بما يبعث الشكوك والريب الى أولئك الجنود الذين يتعقبوننا واذن ففى أية طريق هم سائرون ؟ » .

أجابنى حامد بن حسين « انك على حق فى كل ما تقول أما الطريق التى يسيرون فيها فهى الشمالية الغربية » .

تيقظنا بعد ذلك من غفلتنا وغيرنا طريق سيرنا فجعلناها الشمالية الشرقية وكنا مطمئنين كثيرا وواثقين بأنا سرنا غير منظورين من أولئك المراقبين . ولكنا فزعنا جدا عندما شاهدنا على بعد ألفى متر تقريبا أحد الجنود التابعين للخليفة مسرعا امتطاء جواده ومتجها الى ناحيتنا .

قلت لحامد بعد ذلك « أخبرك يا حامد بأنى سأسير جنبا مع زكى فهل تستطيع ايقاف ذلك الرجل القادم الينا واجابته عما يلقى من أسئلة ؟ وعلى أية حال فاطلب منك أن تمنعه » .

لم يكد يصل حامد الينا حتى قال بصوت مرتفع « أشكر فضله شكرا جزيلا على نجاتك فان الرجل الذى كان يتعقبنا صديق

خاص لى اسمه الشيخ موضال وقد كان سائرا فى طريقه الى دنقلة ليحضر كميات من البلح الى أم درمان وقد استفسر منى الرجـــل عن سبب مرافقتى للرجل المصرى الابيض صاحب العينين الشبيهتين بعينى الصقر » •

عندما انتهى حامد من كلامه أجبتــه (المؤلف) على الفور « ماذا كان جوابك على سؤال ذلك الشيخ ؟ » •

فقال حامد بأنه طلب من ذلك الشيخ بصفته صديقا مخلصا له أن يحتفظ بالسر واعطاه في سبيل ذلك عشرين ريالا من عملة ماريه تريزه ، ثم أردف ذلك بقوله لى « نحن العرب ميالون كثيرا الى اقتناء المال فلم يكد يحصل منى صديقى على ذلك المبلغ حتى اقسم لى قسما غليظا بأنه لن يفشى سرنا بحال من الأحوال وأنه سيمسك لسانه عن الكلام فى حالة التقاء متعقبينــا به » أما فى ما يختص برفاق صاحبى الشيخ فمن الغباوة بدرجة لا يميزون معها بين الأبيض والأسود ولا يعرفون الفرق بين العربى السودانى والأوربى الأبيض ما دام المطلوب تمييزهم مقنعى الوجوه • هذا الى أن الوقوف مع أولئك مكن زكى ومكننى (المؤلف) من قطع مسافة بعيدة عن الأنظار •

عندما غربت الشمس تجاوزنا تلال هوبيجى ثم نزلنــا عن جمالنا للاستراحة فى الخلاء وبقينا هنــاك نحوا من ســاعة وتلك الناحية التى عسكرنا فيها تبعد مسير يوم غربى شاطىء النيل ولم نكن فى راحتنا الصغيرة نرمى الى راحة أجسامنا بل كنا أولا وأخيرا نقصد استراحة جمالنا صاحبة الفضل فى حملنا الى حيث نتمتع بالحرية • وأظن أنه لم يكن ميسورا لنا الاستمرار فى العدو بعد أن واليناه احدى وعشرين ساعة دون انقطاع منذ غادرنا طرف

أم درمان الشمالى . ولم نأكل طول يومنا وكل ما تمكنا من تغذية أجسامنا به هو قليل من الماء لكل من الثلاثة العاديين .

فى تلك الساعة التى ارتحنا فيها وأرحنا جمالنا كنا شديدى التعب ولكنا على الرغم من ذلك أكلنا بلذة وشهية مفتوحة مقدارا من العيش القفار وكمية من البلح .

بعد أن أكلنا قال لى مرشدى حامد « لنقدم الأكل لجمالنا وبعد ذلك نوالى السير السريع أما أنت فاظنك فى أشد حالات التعب » .

أجبته بسرعة « لست أشعر بشيء من ذلك التعب الذى تعبته لأنا فى أوربا نعد الوقت من ذهب فاذا كنت فى صغرى تعلمت ذلك فانى أزيد عليه فى حالتى هذه بأن الوقت حياة كاملة فلنسرع بجد فى عملنا » .

تولانا الجزع عندما رفض كل من الجمال الثلاثة تناول شىء من الأكل ، لأنا قدرنا فى الحال أن الجمال لن تستطيع السير وأن المانع لها من الأكل هو شدة ما انتابها من تعب الاجهاد فى العدو وعلى أية حال عمدنا فى تلك اللحظة بعد أخذ مشورة حامد الى ايقاد نار قليلة الكمية فوق مقدار كبير من الخشب المحروق وصببنا على الخشب والنار جزءا من الراتينج .

بعد الانتهاء من تلك العملية وضع حامد الخشب والنار فوق قطعة خشبية مستطيلة ومر بها حول الجمال ذاكرا بعض كلمات لم أفهم منها شيئا .

تساءلت عندئذ بشيء من الدهشة ماذا تصنع يا حامد فاجابني « اني اخشى جدا أن يكون فقهاء وقضاة الخليفة عبد الله قد رقوا جمالنا بما يعرقل سيرنا وينجح مقاصد الخليفة ، وهذا الخوف يدفعني الى استعمال الترياق العربي الذي يفسد سم الحامدين » .

أما ذلك القول فلم يجد مكانا في خاطرى بالطبع وكل ما أجبت به عليه هو « أني أخشى أن تكون الجمال من الفئة الثانية في السوق ، وأخشى الى جانب ذلك أن تكون قد تعبت وينبغي أن يترك قسط آخر من الراحة لها عسى أن تتقوى وتنهض بعد ذلك » .

انتظرنا نصف ساعة في مكاننا ظنا بان الجمال ستأكل بعد ذلك ، ولكنها امتنعت عن تناول اى طعام فخشينا ضياع الوقت وتمكن أعدائنا من الوصول الينا فاضطررنا الى اعداد جمالنا للركوب وبالفعل قمنا على ظهور جمالنا لمواصلة العدو . أما الجمال فامتنعت عن الجرى وكل ما سمحت لنا به هو سير عادى جدا فالتزمنا مطاوعة الجمال في رغبتها في سيرنا البطيء هذا حتى وجدنا أنفسنا وقت شروق الشمس عند الأرض المرتفعة شمال غربي متمه .

شعرنا عندئذ بضعف الجمال وتضاؤل قوتها فولد ذلك في نفوسنا جزعا مستمرا وأصبح من المؤكد لدينا أن الجمال لن تستطيع الوصول الى المكان الذى نريد الانتهاء اليه . ــ وهذا المكان هو الواقع على مسير يوم شمالى بربر في طرف الصحراء ــ حيث اقتضى الاتفاق السابق تغيير الجمال .

عندما أقبل الظهر أرحنا جمالنا في ظل شجرة باسقة واتفقنا على السير الى ناحية جبليف ــ الواقعة على مسير ما يقرب من يوم في الطريق الشمالية الغربية ــ حيث أظل مختبئا في التلال غير

المسكونة وغير المطروقة حتى يتمكن مرشداى زكى وحامد من احضا
جمال صالحة لاتمام الرحلة .

عند غروب الشمس كانت الجمال صالحة للسير السريع بعد
أن ارتاحت قسطا وافرا من الزمن فركبنا الجمال ذاتها ووصلنا فجر
اليوم التالى الى سفح جبل جيف حيث لا ساكن من بنى آدم عل
الاطلاق .

شكرنا لله فضله عندما بلغنا تلك البقعة ثم نزلنا عن جمالنا
وسقناها أمامنا فى رحلة شاقة سرنا فيها على الأقدام ما يقرب من
ثلاث ساعات فى وادى لا تتخلله غير الصخور المرعبة المنظر .

ينتسب مرشداى زكى بن بلال وحامد بن حسين الى قبيلة
كبابيش ، فجبل جيليف معروف لديهما حيث ولدا الى جواره فهما
اذن على معرفة تامة بكل ممر فى ذلك الجبل فاستحسن رفيقاى
فى تلك البقعة خلع السروج عن الجمال ووضعها على صخرة بجانبنا .

قال لى حامد بن حسين عندما بلغ ثلاثتنا هذه الصخرة « لقد
وصلنا الى وطننا ولا ريب فى أن الوطن يحمى ابنه الذى يلوذ به
فاطمئن أيها الضيف وكن واثقا أنه لن يصيبك اى اذى ما دمت فى
أرضنا . فاسترح هادئا ولازم تلك البقعة حيث لا يشاهدك متعقب
أو مراقب خارجى . وها هى على بعد أقل من مائة متر عين الماء
الشهيرة المتفجرة بين الصخور فسأذهب اليها بالجمال لأسقيها منها
وسيحضر لك زكى قربة صغيرة مملوءة من ماء تلك العين وفوق ذلك
سأخفى الجمال فى مكان أمين بحيث لن يستطيع الجن ذاته الوصول
الينا والى جمالنا واذن فلتنتظر هنا حتى انتهى من التفكير فيما
سنتبعه بعد ذلك » .

بقيت وحدى ولا أكتم القارىء حقيقة اضطرابى ووجلى فى ذلك القفر الموحش وعلى أية حال استسلمت الى المقادير ودعوت الله أن ينقذنى ففكرت فى السير السريع الى الحدود المصرية وأخذت أفكر وتتساورنى الهواجس من كل ناحية وبقيت على تلك الحال ساعتين كاملتين جاء بعد انتهائهما صديقى زكى بن بلال حاملا قربة الماء على كتفه ولم يكد يصل الى فى وحشتى حتى نادانى قائلا :

« ذق طعم ماء وطنى العزيز نقيا خالصا هنيئا للشاربين ولتثق أيها الضيف العزيز أن وطنى الذى حملك سالما سيودعك سالما حتى تصل الى الأرض الأمينة حرا ، وتأكد أن كل شىء سيجرى فى أحسن صورة بعون الله ولطفه وأن النهاية ستبدد جميع ما حاق بك من آلام ومصائب لا فى تلك الرحلة فحسب بل فى السنوات الماضية الطوال التى قضيتها أسيرا فى أم درمان » ·

شربت مقدارا قليلا من الماء فوجدته شهيا جدا مصداقا لقول زكى الذى أعجبنى منه حبه الشديد لوطنه رغم ما هو الوطن فيه من فقر ووحشة على النازحين اليه ·

قلت لزكى « انى واثق من الفوز ولكننى أخشى التأخير » فأجابنى على الفور « معلهشى » كل شىء بارادة الله وعسى أن يبعث الله لنا الخير فى هذا التأخير واذن فلننتظر حامد بن حسين صابرين واثقين فى لطف الله ·

وصل الينا حامد بعد مرور بضع دقائق على ظهر اليوم المذكور وبعد مجيئه تناولنا نحن الثلاثة حامد وزكى وأنا طعامنا البسيط العادى المكون من الخبز والتمر وبينما نتناول طعامنا استصوب زكى ركوب جمله والوصول الى الأصدقاء الواقفين على سر نجاتى

على أن تستغرق تلك الرحلة يومين متواليين يتمكن زكي بواسطتها من الحصول على جمال جدد ·

قال لي زكي قبل رحيله سأركب الجمل بشارن لأنه أقوى الجمال الثلاثة ، ولم يصب بعد بالكلال الذي يحول دون مواصلة الرحلة الجديدة · وها نحن في مساء السبت فسأواصل رحلتي طول الليل وسحابة يوم الأحد حتى اذا أحياني الله الى صباح يوم الاثنين وصلت الى البقعة التي اتفقت مع أصدقائي على الالتقاء فيها · وقد اضطر الى البقاء هناك يوما أو يومين في حالة عدم وجود جمال مستعدة لمواصلة الفرار وعلى أية حال ـ ما لم يعقني مانع قهري جدا ـ سأرجع الى مكاني هذا ـ الذي أنا فيه الآن ـ يوم الخميس أو يوم الجمعة على أكثر تقدير ·

أجبت صاحبي زكي بن بلال قائلا أرى الخير في تأجيل المواعيد المذكورة وتأكد أنا في انتظارك هنا لغاية يوم السبت ، أما اذا وصلت الينا قبل ذلك فلا مانع وعلينا أن نضاعف الشكر لله في تلك الحال ولكن الشيء الوحيد الذي نرغب دائما في أن تذكره هو أن مصيرنا بين يديك بعد اذن الله فلا تمهل في شيء على الاطلاق ، وأطلب اليك الى جانب ذلك أن تكون حذرا أشد الحذر في احضار الجمال بحيث تنتقي أجودها وأقدرها على مواصلة السير حتى لا يصيبنا في المرة الجديدة ما أصابنا في سابقتها ·

وضع زكي يده في يدي بعد سماع أقوالي وودعني قائلا « ثق في حظنا الحسن ثم اعتمد على نيتي الحسنة واخلاصي الشديد » ·

فأجبته شاكرا وقلت له « الله وحده قادر على أن يحميك ويرجعك الينا عاجلا فى سلم وعافية » • وضع زكى بعدئذ قليلا من التمر فى قطعة من القماش ليأكل وقت جوعه أثناء رحلته الصغيرة ثم حمل سرج الجمل على ظهره ثم وصف له حامد المكان الذى اخبتأ فيه الجمل يتسارن الذى استعان به صاحبنا زكى فى سيره وقبل عدوه شدد علينا فى أن تضلل أفكار الناس ـ اذا وجد اناس فى... ذلك القفر ـ عنه وما هى الا دقائق حتى اختفى زكى عن انظارنا • ثم عمدنا بعد ذلك الى ابعاد الأحجار الصغيرة عن الأرض التى قررنا قضاء ليلتنا نائمين عليها حامد وأنا وقد وفقنا فى عملنا هذا توفيقا عظيما » •

بقينا حامد وأنا صامتين فترة طويلة شغل فيها كل منا بالنظر الى الطبيعة والتفكير فيما راق له أن يفكر فيه وبينما أجول ببصرى فى ذلك القفر الواسع قال لى حامد « عندى اقتراح أود عرضه عليك ويتلخص ذلك الاقتراح فى أن لى قريبا اسمه ابراهيم باشا له النفوذ الكلى على منطقتنا الجبلية هذه بصفته شيخها ولهذا الشيخ منزل فى سفح التل على مسافة أربع ساعات من مكاننا الذى نحن فيه الآن ، ولئن كنا الى الآن محجوبين عن أنظار الآدميين فمن الخير أن نعلم شيخنا ابراهيم بوجودنا حتى يكون على بينة ويدلى الينا بما يراه ملائما لنا فى عزلتنا هذه ، وسأذكر له موقفنا بالضبط بدون ذكر اسمك ، وهو مضطر أدبيا على الأقل ـ بما لى عليه من حق النسب ـ أن يؤوينى ويجد لى ولك مكانا أمينا وينصح لنا بالمغادرة فى الوقت المناسب وذلك فى حالة تمكن دارس الأثر ومتعقبه من اقتفاء خطواتنا عند سفح التل ـ وهذا بعيد جدا ـ فاذا وفقت على رأيى فانى أسير اليه فى جنح الليل حتى أراه وأنا فى أمن من عيون المراقبين ، وبعد مقابلته أرجع اليك قبل صباح اليوم التالى » لا أكتم القارىء حقيقة ما جال فى خاطرى من سرور يداخله شىء من الخوف وعلى أية حال أجبته بالموافقة قائلا له «ان المشروع حسن ويحسن

بك ان تحمل معك عشرين ريال تقدمهـــا هدية لصــاحب المنزل ولا أزيدك توصية فى الامتناع عن ذكر ذلك لأحد كائنا من كان » ٠

تركنى حامد عند غروب الشمس فبقيت وحدى هدفا للأفكار المتضـــاربة والهواجس المختلفة فتذكرت افراد أسرتى وأصدقائى العـديدين « فى أوربا ومصر » وذكرت بصفة خاصــة أصدقائى العرب والسودانيين الذين لم يحل اختلافهم فى الجنسية والدين دون اعترافى لهم بالشكر الخاص وتقديرى ما قاموا به فى سبيل راحتى ونجــاتى وانى لن أنسى جهاد اولئك الأصـــدقاء الذين لم يرهبهم رجوعهم بعد نجاتى الى حيث يقاضيهم أعدائى ويحاسبونهم حسابا عسيرا ٠ تذكرت فى عزلتى القصـيرة هذه أعز من لى فى الدنيا وأقصد بهن شقيقاتى وأصدقائى المقربين وكنت أسأل الله فى كل لحظة أن يمن على بنعمة العودة الى وطنى العزيز ومازلت على حالتى هذه حتى غلب على النوم فألقيت بجسمى الضعيف على الأرض المتربة ولم أستيقظ من نومى اللذيذ ـ رغم خشونة الأرض التى نمت عليها ـ الا قبل الفجر وبعد قليل من صحوى سمعت صوت قدمين فتأكدت أن مرشدى حامد هو القادم وبالفعل وصل حامد وقال لى « تسير الأمور فى أحسن أحوالها فان نسـيبى الشـيخ ابراهيم يرحب بضيفه الذى لا يعرفه ويسأل له الوقاية وعون الله فلتتذرع أيها الصديق بالصبر لأن هذا كل ما تملكه الآن ولعله خير ما يملك الانسان فى محنته » ٠

جلس حامد بعد عودته من منزل الشيخ ابراهيم على حجرين كبيرين قاتمى اللون بحيث أصبح من العسير ايجاد فارق فى اللون بين بشرته والصخر الذى يحمله ٠ أما غرض حامد الأساسى من جلسته هذه فهو مراقبة الناس بطريقة تبعد أنظارهم عنه ٠

بقى حامد فى مكانـه هذا وأما أنا فجلست على الأرض الى جواره مستظلا بشجرة ممتدة الفروع تصادف وجودها بين الصخور

السوداء ولم يكن لنا حديث في تلك الفترة سوى ماضي وحاضر البلاد الصحراوية التي ظللتنا وقد سعى حامد جهده في شرح حالة وطنه الذي كان يذكره بالاعجاب ويعطف عليه عطف المخلص للأرض التي ولد فيها ·

بعد ان مر وقت الظهر بساعات قلائل سمعت من الخلف وقع اقدام فادرت وجهي الى ناحية الصوت فرأيت على بعد مائة وخمسين ياردة رجلا يتسلق المنحدر المقابل لمكان جلوسنا عاملا على وضع فروة مستطيلة في يده على جزء من ذلك المنحدر وفي الوقت نفسه شاهدته وهو يضع عمامته على رأسه وقد أدركت في الحال ـ بعد التيقن من الجهة التي كان قادما منها ـ أنه يقصد الوصول الينا من ناحية وأنه رآنا من الناحية الاخرى ·

كنت في حالة اضطراب فبادرني حامد بقوله « مهما يكن الأمر فان القادم أحد أبناء وطني فقد سمعت صوته ووقع نظري على سحنته وعلى أية حال فاني افضل التقدم اليه والتكلم معه فهل توافق على رأيي هذا ؟ » فأجبته « لا ريب في أني معضدك في كل ما تراه ملائما لنا في تلك الحال فأسرع لمقابلته واذا اقتضى الحال تقديم شيء من المال لا تتأخر عن ذلك » ·

ترك رفيقي حامد مقعده الصخري وسار الى الرجل بخطى سريعة متلاحقة ثم وصل الى قمة التل واختفى عن بصري ولم تمر بعد ذلك بضع دقائق حتى شاهدتهما كليهما (حامد والرجل الآخر) قادمين الى مكاني بثغرين باسمين وقبل أن يصل حامد الي قال بأعلى صوته وهو في حالة بشر واغتباط « انا موافقان سعيدا الحظ فالرجل واحد من أنسبائي الأقربين لأن والدته ابنة خالة والدتي » ·

أقبل الرجل نحوى وقدم يده للسلام على فصافحته مغتبطا ثم قال لى عندما جلس على الحجر المجاور لمكانى « السلام عليكم أيها الصديق ولتكن واثقا أنك لن تصاب بأذى من ناحيتى » .

أعطيت هذا الصديق السودانى الجديد كمية من البلح وطلبت منه فى رفق وأدب أن يتذوق هذا الطعام البسيط الذى أعاننا على الجوع فى رحلتنا الشاقة ثم سألته بعد ذلك عن اسمه فأجابنى قائلا « يدعونى الناس على واد فيض وأظن أنه من الوفاء لك ان أخبرك الحق » .

أسرعت بعد ذلك فى استيضاح الحقيقة فأجابنى بمنتهى الصراحة « لم أكن متجها الى الخير فى تصرفى معك ولولا الالتقاء بقريبى لكان الشر لاحقا بك لا محالة وتفصيل ذلك انى غيرت الأرض التى كانت ترعى فيها ماشيتى فوصلت منذ أيام قلائل الى سفح التلال التى تراها الآن منحدرة الى الجنوب وبعد ذلك اتجهت الى الشقوق القائمة بين الصخور عسانى أجد ماء وفيرا نقيا أشرب منه كما ترتوى منه جمالى وبقية ماشيتى لأن الماء الذى كان لدينا قبل ذلك غير كاف لمن يعيش الأسابيع والشهور مع عدد قليل من الماشية . ولم أكد أصل الى تلك الشقوق حتى شاهدت آثار خطوات جمل فتعقبت الأثر وبعد مسافة مئات من الياردات وجدت آثار قدمى رجل أبيض مبتدئة من مكان بعيد عن الأنظار فتحققت أن رجلا غريبا دخل تلك الأرض واختبأ بين صخورها رغبة فى الفرار دون شعور المراقبين بمروره فعدت أدراجى مصمما على العودة ليلا ومعى بعض رفاقى لنسهل عليك رحلتك الباقية بالانقضاض عليك واراحتك من الدنيا وما فيها من تعب ومشقة فالحمد لله الذى حال دون اتمام عملى الاجرامى حيث أرسل الى ابن خالتى ــ حامد الذى ألهمنى الأمر كله فى وضح النهار وأكرر الشكر لله لأنى لقيته فى

الصباح فلو أن ذلك كان ليلا لما عرفت حامدا ولانتهى الأمر شر انتهاء » .

انصت حامد لكل ما قاله ابن خالته باهتمام وسكون وبعد الانتهاء قال حامد « سأخبرك يا علي واد فيض قصة صغيرة فانصت ! كان والدي منذ سنوات طويلة وقت أن كنت شابا صغير السن وأيام حكم الأتراك لهذه الجبال ـ شيخ المنطقة التي نحن فيها وكان المحتكمون اليه من الرعايا كثيري العدد . وفي ليلة من ليالي ذلك العهد وصل الى بيت أبي رجل هارب طلب منه الأمان وقد كان هذا الرجل مطاردا من جنود الحكومة لأنه اتهم باللصوصية والاعتداء على حياة بعض التجار فتمكنت الحكومة من أسر زوجاته ، أما هو فوجد عضدا قويا ونصيرا أمينا حيث أظله أبي واحتفظ بالسر . .

مرت بعد ذلك الحادث سنوات انتقل في خلالها والدي الى منطقة بربر فتمكن بعد دفع المال وتقديم ضمانات متنوعة من اصدار العفو عن هذا الرجل المطارد الذي لم يستطع متهموه ايجاد جريمة معينة يحاكم بمقتضى ارتكابها ولم يكتف والدي بذلك بل ذهب الى الجهات المختصة وقدم نفسه كفالة عن زوجات ذلك الرجل وبذلك حصل على أمر ثان باطلاق سراح زوجاته بعد أن قاسين في السجن الكثير من الآلام والأتعاب وبعد كل ذلك يسرني أن أخبرك بأن الرجل المذكور اسمه فيض » .

بينما يتابع حامد أقواله قاطعه علي واد فيض قائلا « وأضيف الى أقوالك بأن الرجل المذكور هو أبي الذي ولدني ورباني » ثم تغيرت ملامح وجهه واستمر في قوله « ولدت في زمن متأخر وسمعت هذه القصة يا حامد من والدتي العزيزة قبل موتها وازاء ذكر تلك الوالدة الطيبة أطلب من الله الرحمة لها . وبعد وفاة

والدتي قال لي شقيقي الأكبر ان خير ما أعمله في الحياة هو القيام بالجميل نحو ابن الرجل الذى أدى جميلا لوالدى واذن فأنا مدين لك بالشكر يا حامد حتى أوفى ما على أبى نحو أبيك فثق أني حاميك وحامي من معك بغض النظر عما تقومان به من خير او شر لأني اذكر شيئا واحدا هو أني مدين لك بالجميل فاتبعني حتى أرشدك الى أحسن مكان امين تختبىء فيه مع صديقك الأبيض » .

رجعنا بعد ذلك جنوبا الى ناحية التلول مسافة لا تقل عن الفي ياردة ثم انتهينا الى بقعة شبيهة بالكهف تتخللها ألواح صخرية تحجب من وراءهـا عن الأنظار ولا ريب أن البقعة المذكورة كافية لاختفاء اثنين بالغين من ضخامة الجسم ما بلغا . .

أخذ علي واد فيض يسدى الينا نصائحه وتعليماته بعد ذلك فقال « عندما يجن المساء احضرا أمتعتكما الى هذا المكان بالرغم من عدم وجود ما يدعو الى الخوف فى أية ناحية مجاورة لأن التلول التى امامنا بعيدة عن أقدام الآدميين الا أن الحذر الشديد يدعوكما عندما يجن الليل أن تختارا بقعة آمنة هادئة ملساء لتقضيا ليلتكما عليها بعيدين حتى عن رقابة الجن وقد تدعوني أمانتي الشديدة لكما الى القول بأن من المستحيل أن تكونا واثقين الثقة كلها فى أن بعض الأنظار لم تقع عليكما وأن بعض الناس ما اعتزموا ما كنت معتزما تنفيذه قبل ملاقاة حامد وأعنى بذلك انتهاز فرصـة ظلام الليل للانقضاض عليكما » .

بعد أن انتهى علي من قوله الصادر عن اخلاص شديد قال « لقد أطلـت في حديثي وقضيت وقتـا طويلا بعيدا عن مكاني فساضطر الى العودة لتسقط الأخبار واستماع ما قد يدور حولكما من نبأ على أن أعود اليكما غدا فى ساعة من ساعات الليل المظلمة

وستعرفاننى بصوت خفيف يشبه الصفير فالى الوداع حتى ألقاكما فى خير غدا » .

اصغينا الى نصيحة على واد فيض فاخترنا مكانا للنوم وفى فجر اليوم التالى قبل شروق الشمس عدنا الى كهفنا ثم صعد حامد ابن حسين قبل الظهر الى قمة أحد التلول لمراقبة الناس وكان عمله هذا شبيها بالضابط الذى يقف فى أعلى القلعة لمشاهدة طلائع العدو . ظل حامد ساعات فى مكانه هذا ولم يأت الى المغارة الا عندما أحس بالجوع الشديد وقد قدر لنا أن ينتهى ما معنا من خبز فى ذلك اليوم فلم يبق فى جرابنا سوى مقدار من البلح .

بعد أن غربت الشمس بساعتين سمعنا صوتا خفيفا أشبه بالصفير فتأكدنا ان صاحب الصوت هو على واد فيض وقد تحقق ظننا لحسن الحظ حيث وفى صاحبنا بوعده ووصل الينا فى الميعاد المضروب من قبل . ولم يكن على وفيا فى وعده فحسب بل كريما أيضا حيث أحضر لنا فى عزلتنا هذه كمية كبيرة من اللبن فى قربة من جلد الغزال (اعتاد العرب السودانيون دبغ جلود الغزلان الصغيرة واعدادها أوانى للبن) والى جانب ذلك مقدار من الخبز المصنوع من الذرة .

قال لنا على عندما وصل الينا وبعد أن سلم علينا « قلت لزوجتى انى خارج لمقابلة ركب الحجيج السائر الى أم درمان لزيارة قبر المهدى ولى الرغبة فى اظهار شىء من الكرم العربى لأولئك المسافرين فى رحلتهم الشاقة وفى الحق لم يمنعنى عن ذكر الحقيقة لها الا خوفى من انتشار الخبر لأن امرأتى ثرثارة » .

ابتسمت فى وجه على وقلت له « يظهر أن الأمر واحد فى جميع البلاد فان الكثيرين من الرجال فى بلادنا الأوربية يشكون

من نقل الحديث بواسطة زوجاتهم » فارتاح كل من حامد وعلي الى قولي هذا وبعد الانتهاء قال علي « جبت الوادى الضيق وسرت الى مجالس الكثيرين من العشائر ليلة الامس وصبح اليوم فلم أسمع ما يخيفكم فكلا واشربا مرتاحين مسرورين لانى على ثقة تامة فى حظكما الحسن » ٠

قبل أكل الخبز الشبيه بالكعك وشرب اللبن قدمنا الشكر الجم لعلي ازاء هديته الثمينة ثم طلبت منه بعد ذلك أن يرجع الى بيته حتى لا يثير الريب والشكوك في نفوس أبناء عسيرته بعد تغيبه الطويل عنهم ، ثم أسررت الى حامد أن يمنح عليا خمسة ريالات قبل رجوعه الى بيته ٠

عندما استاذن صاحبنا علي في الانصراف قلت له « نود أن نراك دائما ايهـــا المخلص الوفى ولكن الخير فى أن ترتاح فى بيتك وأن تبتعد عما يثير اى شك لأن ذهابك وايابك يثيران الريبة بين رجال قبيلتك وقد تترك خطواتك أثرا بـارزا على الرمال يستطيع بواسطته متعقبونا أن يهتدوا الى مكان اختبائنا هذا ، ولا نطلب منك العودة الا فى حالة سماع أخبار غير سارة تستدعى هروبنا الى مكان جديد ، واذن فالوداع من أخ يشكر لك جزيلا ما قدمته له من ولاء واخلاص » ٠

سار حامد بن حسين بعد ذلك مع صديقـــه علي واد فيض بضع دقائق وبعد رجوعه قال لى « رفض علي قبول الريالات الخمسة رفضا باتا ولم أستطع التغلب عليه واقناعه بقبول الهدية البسيطة الا بعد أن أكدت له بأن رفض المبلغ يكدر خاطرك ــ المؤلف ــ » ٠

بعد أن سافر علي الى بيته وعاد حـامد الى الكهف قضـــينا (حامد وأنا) فترة صغيرة فى الكلام ثم سرنا الى مكان النوم الهادىء

حيث قضينا ليلتنا الى صباح اليوم التالى دون أن يعكر صفو النائم قلق أو اضطراب ، وعند اشراق الشمس عدت الى الكهف وسار حامد الى قمة التل لمراقبة الناس كما عمل فى اليوم السالف ، ومما أذكره عن ذلك اليوم انه مر ساكنا دون وقوع اى حادث مزعج ولكنى أذكر الى جانب ذلك أنه كان طويلا علينا حتى خيل لنا أن ساعاته أطول من الساعات اليومية العادية · فكانت كل ساعة من ساعاته يوما كاملا حيث مرت الأفكار المتعاقبة وأخذت أذكر سنى الأسر وحوادث العسف والاضطهاد وفى الحق كنت صبورا جدا على ذلك المضض وســـواء أصبرت أم لم أصبر فلم يكن أمامى ما يعزينى فى نكبتى وما يفرج عنى بليتى سوى اعتقادى الراسخ فى لطف الله وفضـــله وثقتى فى قرب تمتعى بحرية دائمة صحيحة هى تلك التى خلق الناس ليتمتعوا بها فى الحياة ·

قبل انتهاء كمية الماء التى فى قربتنا ذهب حامد الى الشقوق القائمة بين الصخور المجاورة ليملأ القربة وفى الوقت نفسه فكر فى احضار الماء للجملين اللذين انهكهما التعب من قبل والأكل الردىء الآن لأنهما لم يجدا من الطعام سوى أوراق الأشجار والاجمات · قال لى حامد قبل ذهابه للشقوق « سأرجع بعد أربع ساعات تقريبا فالتزم السكون والهدوء فى مكانك واذا ظهر فى مدة غيابى القصيرة أى مخلوق آدمى ـ وأسأل الله الا يظهر فى تلك الفترة أحد ـ فأخبره أن حامد واد شيخ حسين قادم بعـــد قليل من الزمن لأن الشخص الذى يظهر سيكون من أبناء وطنى بلا جدال فان الشخص الغريب يخشى المجىء الى ناحيتنا ومهما يكن الأمر فلا تخض مع الشخص ـ الذى يظهر لك ـ فى الحديث وأول ما أحذرك منه هو سفك الدماء فلا ترق دم أحد مهما ارتبت فيه وانتظر حتى أعود اليك » ·

أجبته على الفور « سأنفذ نصيحتك مهما تكن الحال وعلى أى حال فانا واثق انك ستجدنى فى هدوء وأمن عندما ترجع الى » ·

بعد ان غاب حامد عنى بضع ساعات عاد وقربته مملوءة بالماء ثم قال لى « لقد سرنى وجود الجمال فى حالة أحسن بكثير من الحالة التى كانت عليها وقت وصولنا الى ناحيتنا وعلى الاقل هى فى راحة كافية » وبعد ذلك أظهر لى انه فى جوع شديد ولم يكتم حاله حيث قال لى « أعطنى كمية من البلح لأنى جوعان وسأضطر الى العودة لقمة التل لمراقبة الناس » .

مر ما تبقى من يومنا فى هدوء وأمن ولكنه كان بطيئا علينا كيومنا السابق وعندما جن الليل سحب كل منا شخصه الى مكان النوم وبعد إن تحدثنا بصوت خافت جدا بعد أن دعونا الله أن يبقى لنا نعمة الصبر نام كل منا ملء جفنيه حتى صباح اليوم التالى .

ذهب حامد صباح الخميس الى مكان المراقبة المعروف وقبيل الظهر شاهدته نازلا بسرعة من قمة التل فأسرعت الى تجهيز بندقيتى .

قبل وصوله الى سألته عن الخبر فأجابنى « انى أشاهد رجلا متجها بسرعة الى مكاننا الأول الذى كنا فيه قبل مجيء على واد فيض فلا بد أن يكون هناك شيء مهم فانتظر فى مكانك لأنى سأذهب لملاقاة ذلك الرجل على أن أرجع اليك بعد ذلك » .

جلست فى مكانى وانتظرت مدة خيل الى ـ رغم قصرها ـ أنها الابد الطويل ثم رفعت بصرى بحذر فاذا بى أشاهد رجلين من مسافة بعيدة قاصدين مكانى . وقد تمكنت عيناى من تقرير أن القادمين هما حامد بن حسين وزكى ابن بلال . فخرجت من مغارتى وحينذاك أسرع زكى قائلا بأعلى صوته « السلام عليكم يا سيدى فابتهج بالا لأنك ستسمع ما يرضيك ويسرك » وبعد أن سلم على يدا بيد

قال « حضرت ومعي جملان جديدان كاملا القوة وقد خبأتهما في مكان أمين مجاور لبقعتنا هذه وسأرجع الآن لاحضارهما » .

لم تمض ساعة حتى أحضر زكي الجملين . فقلت له بسرور كلي « انك سريع جـــدا في عملك العظيم فأخبرني قصـــتك منذ غادرتنا » .

أجابني زكي « غادرتك مساء السبت الفائت فركبت جملي طول الليل وسحابة اليوم التالي - الأحد - وقد كان جملي بشارن موفقا في سيره السريع رغم وعورة الأرض وفي صباح الاثنين وصلت الى أصدقائي وفي الحال عني أولئك الأصحاب باحضار الجملين اللذين تراهما الآن ولبعد المسافة لم نتمكن من الحصول على الجملين قبل صباح الثلاثاء فغادرت المكان وقت الظهر وسرت سيرا بطيئا في عودتي حتى لا أتعب الجملين وتأكد انـــا نستطيع الآن مبـــاشرة رحلتنا . وقد سهوت أن أخبرك بأن أصدقائي بعد أن تكلموا معي ذهبوا الى الخيمة القائمة على رأس الصـــحراء لاعطاء التعليمات لرجال مخصـــوصين للاستعداد وقت الطلب وقد أخبرتهم بأنا قد نصل اليهم مساء الجمعة أو بعد غروب الشمس يوم السبت على أقصى تقدير » .

سألت زكي بن بلال بعد ذلك « هل أحضرت معك خبزا ؟ فأنا لا نملك من الطعام سوى كمية من البلح » فأجابني « اني شديد الأسف لنســـيان ذلك الأمر الحيوي وقد يرجع ذلك الى عجلتي الشديدة » فهونت عليه الأمر عندما شاهدته مطأطىء الرأس وقلت « لا أهمية للخبز لانا نستطيع اتمام رحلتنا القصيرة هذه حتى دون الاستعانة بشيء من البلح » .

قال حامد لزكي « أسرج الجمل الخفيف اللون ثم اذهب مع صديقنا وأخينا الى الصخرة العميقة واسق الجمال ماء ثم انتظرني

هناك وأما أنا فسأحمل السرج على ظهرى وأسير وراء جملى الذى يستطيع بعد راحته أن يقطع المسافة القصيرة الباقيـــة لغاية تلك الصخرة ، ولكن أرى من الخير ألا تذهب مباشرة الى عين الماء بل عليك أن تختفى فى بقعة مجاورة حتى تصل اليها فمن المخاطرة أن تسير مباشرة الى مكان الماء لأنا لسنا موقنين بأن المكان غير مطروق باقدام الرعاة ، ففى الأرض جمال كثيرة تحتاج الى الماء » ٠

سرت مع زكى وفى يدى قيادة أحـــد الجملين قاصـــدا معه (زكى » الصخرة التى تنبثق منها الميـاه ثم اختبــأت فى مكان أرشدنى أليه رفيقى ٠

قبل غروب الشمس بساعتين حضر حامد وزكى بثلاثة جمال ارتوت قبل حضورها وحمـل كل من الصديقين قربة مملوءة بالماء وحال وصولهما ركب ثلاثتنا الجمال الثلاثة وسرنا فى طريق شرقية شمالية معرجين الى الناحية الشرقية مخترقين التـــلال التى كانت فيما مضى وعرة جدا وعسيرا تسلقها ولم يكد يرخى الليل سدوله حتى وصلنا الى المستوى الفسيح بعيدين عن أنظار الناس ٠ واصلنا رحلتنا طول الليل بدون وقوف وكان سيرنا على الجمال بطيئا شبيها بالسير العادى وعندما بدأ نور الفجر بشرنا حامد بأنا قطعنا ما يقرب من نصف المسافة فى طريقنا الوعرة وفى رحلتنا الخطيرة ٠

وأضاف حامد الى ذلك « انا اليوم فى أخطر وأدق أيام رحلتنا لأنا أصبحنا مجاورين لشاطىء النيل وسنضطر الى اجتياز مراع تابعة لقبائل النهر فنسأل الله اللطيف بعباده أن يصل بنا الى غرضنا دون وقوع عيون المراقبين علينا » ٠

فى طول رحلتنا هذه لم يتغير منظر البلاد الخلوية الصحراوية الا فى القليل النادر الذى نجد فيه بقاعا من الأعشاب يتخللها بعض

أكمات الميموسا • اما الأرض فى غالبيتها فرملية تنتشر الأحجار فى بعض نواحيها •

سرنا فى رحلتنـــا الأخيرة دون وقوف فى الطريق ولم يكن لدينا من الطعام سوى التمر الذى أكلناه على ظهور جمالنا وعندما بلغت الشمس سمت الرأس شاهدنا قطيعا من الغنم يقوده بعض الرعاة فاضطررنا الى تحويل خط سيرنا حتى لا يرونا وعندما شعرنا أنهم شاهدونا أسرع زكى بن بلال بجمله اليهم ليلتقط الأنباء وبعد أن قابلهم رجع الينا نطمأننا بأنهم لا يعرفون شيئا عنا وعن هروبنا من أم درمان • تابعنا السير فشاهدنا آثار خطوات جمال وماشـــية وحمير فخسينا وقوعنا فى قبضة المتعقبين ولكنا حمدنا الله لأن الناس لم يظهروا فى ذلك الوقت وبعد قليل من رحلتنـــا وصلنا الى جزء منبسط فسيح من الأرض مرة أخرى •

قال لى حامد « هل تشاهد البقعة الرمادية اللون القائمة على مئات من الياردات أمام خط سيرنا ؟ تلك طريق القوافل من بربر الى وادى حمير ودار شيفية فاذا ما اجتزنا تلك البقعة بعيدين عن الأنظار فليس بعد ذلك ما يخيفنا لأن كل ما بين تلك البقعة والنهر عبارة عن أرض حجرية لا أثر للاقدام فيهـــا ولا شىء من النبـــاتات أو الأعشاب من جهاتها واذن هى بعيدة عن أقدام الآدميين وعلى أية حال من الواجب عليك أن تنصت لكل تعليماتى من الآن وأولها سير الجمال ببطء حتى اذا ما قطعت جمالنا خمسمائة خطوة أو يزيد وصلنا الى مكان الأثر وبعدئذ نتحول فى الطريق المؤدية الى بربر سـائرين بضـع دقائق • ثم نغير سـيرنا مرة أخرى الى الجهـة الشرقية » •

بعد أن انتهى حامد من ذلك القول سكت سكوت الموافقة ثم قال لى « هل ترى تلك الرابية الصخرية الواقعة على بعد ثلاثة أميال

تعريبا ؟ هناك سنجد مكانا أمينا هو الوحيد الذى نستطيع عنده تضليل متعقبينا بحيث لا يقفون على أى أثر لأقدامنا » ٠

أصغينا الى تعاليم وأوامر حامد فاجتزنا طريق القوافل التى لا يجتـــازها الناس الا فى القليل وأكبر امتيـــاز لها اختفاء آثار العابرين ٠ وعلى أية حال نقابلنا فى المكان المعين ٠

ابتسم حامد فى النهاية وقال لى « حث الجمال على الســير ولا تستغن عن أقصى مساعدة ممكنة من تلك الجمال الأمينة لانا الآن فى شديد الحاجة الى خدمتها ومهما يكن الأمر فقد انتهى كل شىء على خير ووفقنا الله توفيقا عظيما » ٠

منذ غادرنا أم درمان لم أشاهد ابتسامة واحدة فى وجه حامد قبل هذه الأخيرة فأدركت فى الحال أنا نجونا من الخطر بمحاذاتنا شاطىء النهر ٠

واصلنا السير وكل منا يضرب جمله الشديد التعب بدون رحمة حتى تركنا صفا من التلال الى يميننا ووصلنا الى قرابة ٠

أما قرابة هذه فعبارة عن نجـــد رملى التربة مغطـاة أرضه بحجارة سوداء تختلف فى حجومها من القطعة المماثلة لقبضة الرجل الى القطعة المماثلة لرأسه ومما تمتاز به تلك الحجارة فى الأرض المذكورة أنها قائمة فى صفوف منتظمة يخيل لمن يشاهدها أن أفرادا عنوا برصفها على ذلك النسق البديع والى جانب الحجارة توجد صخور فردية يبتعد كل منها عن الآخر مسافة تكاد تكون واحدة فى جميع الصخور ٠ ولا شك فى أن الجمال تعجز عن السير بسرعة فى

متل ذلك الخط الحجرى الصخرى وذلك مما يساعدنا فى خطتنا ومما نعده توفيقا جديدا لنا بعثه الله لتسهيل نجاتنا ٠

قبل أن تغرب الشمس ظهر لنا من بعيد ذلك النيل السعيد بمياهه العذبة فكان موقعه بين الأراضى المجاورة شـــبيها بالخط الغض اللامع وسط البقعة المدنية بما فيها من ألوان قاتمة وخضراء ورمليـــة ٠

تدرجنا من أعلى النجد فى طريق ملتوية يزيدها وعورة ظلام الليل وما زلنا فى سيرنا البطىء على الجمال حتى وصلنا الى واد قائم بين تلال حجرية ٠ وبعد وصولنا وقفنا لاراحة جمالنا التى أنزلنا السرج عنها وكنا راغبين فى السير على الاقدام ما يقرب من ساعتين حتى نصل الى شاطىء النهر ٠

جلس حامد وزكى على الأرض بعد انزال السروج عن الجمال الثلاثة وأخذا فى عملية أكل البلح بذمة وأمانة وبينما هما يأكلان قالا لى معا « قربنا الى الغاية التى سعينا اليها منذ فكرنا فى الهروب فانتظر هنا مع الجمال الثلاثة لأننا (حامد وزكى) سنذهب الى بقعة ورة للنهر نعرفها جيدا وفى تلك البقعة سنلتقى بأصدقائك الذين يسهلون لك بقية رحلة النجاة ٠ تركنى الصديقان وبقيت وحدى تأملا فى المستقبل وقد مرت أمام مخيلتى فى تلك الأثناء صور فراد أسرتى وصورة مجســـمة لوطنى العزيز وبعد أن تعبت من -تفكير انطرحت بجسمى المنهـــوك القوى على الأرض فنمت .أستيقظ الا قبل نصف الليـــل فلم أجد أحـدا من الصديقين حامد وزكى) فداخلتنى الوساوس وتأكدت أن عدم حضورهما سيحول دون عبورى النهر فى الفرصة الملائمة ليلا ٠ وعلى أى حال صبرت حتى سمعت قبل الفجر بساعتين وقع أقدام فتبينت القادم فعرفت أنه حامد ٠

سألت حامدا عن الأخبار فى حالة فزع وقلق فأجابنى بما جلب لى اليأس قائلا « لا شىء مطلقا فانا لم نتمكن من العثور على أصدقائك فى المكان المعين فرجعت اليك لأنك لا تستطيع البقاء هنا بمفردك بعد بزوغ الفجر لأنك قريب جدا من مساكن الآدميين فليس يدعا أن نسع عليك أنظار الرقباء • ولذلك عدت بعد ان تركت صديقى زكى للبحث عن أصـــدقائك الجدد الذين سيسهلون لك مهمتك الجديدة النيلية فاحمل القربة المائية وجراب البلح على كتفك لانى من التعب بمكان لا أستطيع معه حمل شىء أكثر من جسمى الذى تحمله قدماى واعلم أنه يتحتم علينا الرجوع الى قرابة حيث تظل هناك الى انتصاف النهار مختفيا بين الأحجار والصخور •

اصغيت الى أوامر حامد ونفذتها فوصلت الى النجد بعد مسير ساعة مع حامد وبعد أن سرنا مسافة أخرى فى الظلام وقف حامد فجأة وقال لى « قف هنا واصنع حلقة من الأحجار كتلك التى يصنعها رعاة الجمال فى الشتاء لوقاية أنفسهم من البرد الشـــديد وبعد الانتهاء من صنع تلك الحلقة نم فى جوانبها الداخلية وانى مسرور لأنك متين فى صنعها الآن حتى أنك تكاد تكون عربيا كأنك واحد منا نحن عرب السودان وتأكد انى ساحضر اليك فى المساء لارى الحال التى أنت عليها وأما الآن فسأرجع الى الجمال • فلا تخف ولا ترتب فى أى شخص قد يراك لأن رجال الناحية التى أنت فيها يعرفوننى جيدا فاذا سالنى أحدهم اى سؤال أجبته بأنى حضرت من شيفيه لمشاهدة بعض المقيمين هنا • ومن حسن حظى وجود بعض اقارب لى فى هذه الناحية » •

رجع حامد الى الجمال وبقيت أنـا وحدى فى بقعـة منعزلة مخيفة النظر •

أقمت الدائرة الحجرية وكان ارتفاعها نصف متر ولم أجعل في الداخل مكانا لغير جسمي وقربتي وبندقيتي فلم يكد يشتد وضح النهار حتى انسحبت الى مغارتي الصغيرة وحفرت في أرضها الرملية بقعة عميقة تمكنت فيها من القاء ظهري ومد جسمي بحيث لم يرني أحـــد وفي ذلك الوقت تدفقت الى رأسي ذكريـات الماضي وآمال المستقبل وفكرت بصفة خاصة في الماضي القريب حيث غضب الحديفه عبد الله ونقمته الشديدة على بعد هروبي ولم يخفف عني العزع في ذلك التصور سوى مرور صور أحبائي وأقربائي بمخيلتي في الوقت نفسه · ومازلت أعلل النفس بالآمال والأماني رغم اشتداد العقبات وخطورة الموقف ولكني بعد ذلك وجمت فساءلت نفسي عن التغيير الذي حدا بي الى مظهر الخوف الجديد وعن الداعي الى عدم تمسكي بمبدأ الصبر ومهما يكن الأمر فاني كنت في أشد أوقات الخطر بعيدا عن الاستسلام الكلي للقنوط كمـــا كنت منذ غادرت أم درمان واثقا في حظي الحسن وتوفيق الله اياي الا أن ذلك لم يمنع شعوري اليوم شعورا خاصا بالخوف وقد يرجع ذلك الى التشـــبه القائم بين مغارتي الصغيرة هذه وبين القبر الذي قد يضمني في القريب العاجل · أعود فأقول ان القبر مصير كل حي وان الناس بالغين من أعمارهم ما بلغوا سيصلون الى القبور التي ضمت آباءهم وأجدادهم من قبل · فسواء أطال عمر الانسان أم قصر فانه لن يصل في النهاية الى غير تلك الحفرة الضيقة وإذن سأموت كما مات الناس ويموتون ولكن الصعوبة في شيء واحد اذا مت هنا وذلك موتي منبوذا مهجورا غير مودع أعزائي واقربائي ، فيا ساكن السماء ومسير الفلك الدوار لاتتخل عني وكن رحيما بعبدك في ذلك القفر لوحش · فارحم اللهم عبدك الاثيم ولا تعاقبني على ذنوبي فقد طلبت الغفران من جلالك وأنت الواسع الغفران · اللهم ارحمني ؟ والطف بي واسمح لي بمشاهدة أصدقائي وأعزائي والرجـــوع الى وطني العزيز مرة أخرى قبل موتي ! » ·

بعد أن ناجيت الماضي وذكرت آمال المستقبل الزمت الصمت مرة اخرى وفي نهاية الأمر فكرت في الأمر ـ على الرغم من تأخير صاحبي ـ فانتهيت الى أن الذي أنقذني في بداية رحلة النجاة قادر على انقاذي في الختام ٠

مرت بمخيلتي الآمال فذكرت اني ساعبر النهر هذه الليلة ثم اجتاز الطريق وأصل الى الصحراء غدا وفي مدى يومين أو ثلاثة ساجتاز كل خطر وأصبح في أمن كلي بحيث استطيع الاسراع بملاقاة من تمنيت السنين الطوال ان احظى بهم في خير ٠

بعد أن انتهيت من ذلك التفكير ابتسمت مرة أخرى ابتسامة مملوءة بالثقة والأمل من عطف الله وعونه. تم مسكت معطفي الصغير ولففت به وجهي حتى احمي نفسي من حرارة الشمس ومن انظـــار المراقبين ٠ ثم بقيت منتظرا ما يقدره لي ربي وأنا على ثقة تامة في الخير ٠ بعد مرور الظهر بقليل سمعت صــــوتا خفيفا فرفعت رأسي ونظرت من خلال الأحجار المتراميةٔ فصدق ظني حيث عرفت أن القادم هو حامد الذي أقبل الي بابتسامة الصديق المخلص قائلا لي « أسعد حالا وأبشر فقد وجدنا الأصدقاء المعينين لمرافقتك » فطرت فرحا عندما سمعت هذا القول وتيقنت أن نجم سعدي قد تجلى في الأفق مرة أخرى ٠

عندما أقبل حامد جلس خــــارج الكومة الحجــرية ثم قال تستطيع « أن تفرج عن نفسك الآن وتخرج من مغارتك الضيقة هذه لأني عينت لك مراقبين في الجهات المجاورة ينقلون الينا كل ما يحدث حولنا ٠ فلا تخش شيئا لأن صاحبنا زكي وجد الرفاق الجدد الثلاثة وقد حضر الآن واحد منهم الينا ليعرف مكان اقامتنا وهم جميعا على استعداد وسيحضرون الينا ماء ولكني أحذرك أشد الحذر وأنصح

لك بالابتعاد عن كل ما يريب لأن هروبك من أم درمان أصبح معروفا في المنطقة التي نحن فيها • فتعال معي الان او انتظر حتى يحين الليل وعلى أي حال فأنا ذاهب الآن فهل تستطيع معرفة الطريق بمفردك ؟ وهل ترغب في عودتي اليك لآخذك معي ؟ » :

فأجبته « لا داعي لعودتك مرة أخرى لأني أعرف الطريق وسألتقي بك في المساء » •

عندما غربت الشمس حملت بندقيتي وقربة الماء على ظهري وتركت البقعة التي مرت بمخيلتي فيها تذكارات مؤلمة وآمال كبار • وعندما وصلت الى الرفاق الجدد وجدت اثنين منهم فرأيتهما غريبين عني رغم بقائي السنين الطوال في السودان بين أبنائها •

حياني ذانك الرجلان وقالا لي « قد أرسلنا اليك صديقك أحمد واد عبد الله ونحن من قبيلة جهماب وسنسير بك الى النهر حيث يصل الينا أحمد واد عبد الله نفسه لمساعدتك في اجتيــــاز النهر وستكون الجمال على انتظارنا في الشاطىء الثاني من النهر لتعبر بنا النهر والآن فلتودع صديقيك القديمين لأن مهمتهما قد انتهت » سلمت بعد ذلك على صديقي المخلصين الحميمين حامد وزكي وشكرت لهما اخلاصهما بكلمات خارجة من أعمــاق القلب ، ثم قلت لهما « أودعكما وكلي ثقة في الالتقاء بكما في وقت سعيد هو وقت السلم والأمن » •

أخذنا (أنا والرفيقان الجديدان) جملين وتركنـــا الثالث لصديقيّ القديمين فارتقيت الى ظهر الجمـــل وركب خلفي أحد الصديقين الجديدين •

سألت هذا الجديد « ما اسمك ؟ » فأجابني قائلا « يدعوني الناس باسم محمد وأما اسم صديقي فاسحاق » سألتـــه بعدئذ « هل تجتاز معي الصحراء يا محمد ؟ » فأجابني بقوله « لا يا سيدي فهناك من كلفوا بتلك المهمة وعلى أية حال فالخير في أن يسير الجمل سيرا بطيئا ويحسن بك أن تغطي وجهك على الرغـــم من اظـلام الشديد . فقد وردت الأوامر من بربر من ثلاثة أيام بمراقبة الطرق مراقبة دقيقة ووضعت الطرقات المائية تحت مراقبة شديدة أخرى ومهما يكن الأمر فلا خوف عليك من بلدنا » .

بعد أن سرنا بجملينا ما يقرب من ساعتين في طريق شرقية شمالية بانحدار شرقي وصلنا الى النهر . وتمكنا قبل نزول النهر من سماع أصوات الآلات المائية وكلام وضحك العبيد وزوجاتهم .

عندما وصلنا الى كومة صغيرة من أوراق الأشجار همس محمد في أذني « ادع الجمل للبروك ببطء ورفق حتى لا يصدر منه صوت يلفت الأنظار » .

برك الجملان على الأرض ولم يصدر منهما صوت على الاطلاق وقد تركني الاثنان على أن يعودا مع أحمد فبقيت منفردا في الظلام الحالك واستمررت على ذلك نحوا من ساعة وأخيرا رأيت أربعة رجال قادمين . فأسرع أطولهم نحوي وضمني الى صدره وعانقني طويلا قائلا لي في صوت خافت « أنا أخوك أحمد عبد الله من قبيلة جهيماب وأول ما أطلبه منك هو أن تصدق قولي وهو أنك بحمد الله ناج من كل خطر وأما أنتما يا محمد ويا اسحاق فاخليا السرجين عن ظهري الجملين في رفق وتؤدة ولا تسمعا أحدا من الناس صوتا ثم انفخا القربتين الفارغتين واربطاهما حول رقبتي الجملين ثم اعبرا النهر من شاطئه في نقط ومواضع مختلفة ثم انتظرا أوامري غدا على مقربة من دار « مقاتلة الثيران » .

التفت الى أحمد واد عبد الله بعد ذلك قائلا « اتبعني » وحمل أحمد سرجا وحمل الرجل الرابع سرجا آخر ثم سارا فتبعتهما وبعد بضع دقائق وصلنا الى شاطىء نهر النيل المقدس حيث وجدنا في ركن صغير قاربا صغيرا يكفي بالجهد لحملنا وقد صنع اصدقائي الجدد هذا القارب بأيديهم .

نزلنا الى حافة النهر وركبنا القارب الصغير الذي أقلع بنا الى حيث يريد بنا الله وقد استغرقت عملية عبور المجرى اكثر من ساعة وعندما وصل الى الشاطىء الثاني صعدنا الى الأرض ورجع أحد الرفاق بالقارب الصغير ثم صنع في قاع (القارب) ثقبا واسعا فغرق القارب والغرض من ذلك اخفاء كل أثر لعبورنا النهر .

أما نحن فسرنا على الناحية البرية ما يقرب من نصف ساعة وعندما وصلنا الى بقعة خاصة طلب مني أحمد عبد الله انتظاره لأنه ذهب لاحضار طبق مملوء باللبن ومقدار من الخبز .

قال لي أحمد بعد عودته بالطعام « كل واشرب ولا تفكر في شيء فقد اجتزنا الخطر وأقسم لك بالله وبنبينا أنك نـاج وأن الله سيمتعك بملاقاة أحبائك جميعا » كنت عازما ومفكرا أن تتم رحلتك الليلة ولكن أرى الوقت متأخرا جدا فالخير في بقائك هنا الى مساء الغد، وعلاوة على ذلك فانا مضطرون الى أن نسقي الجمال غدا وبما أنا قريبان هنا من مساكن الناس فسيسير بك ابن أختي (ابراهيم علي) الى مكان بعيد نوعا لا تصل اليك فيه عيون الرقباء . فانتظرني هناك وساحضر لك دابة تركبها أما اذا كنت شاعرا بالقوة على قطع المسافة على قدميك فاني أستغني عن احضار الدابة » فأجبته على الفور « اني قوي ولا ريب في أني قادر على المشي فاين ابراهيم علي ؟» .

أجابني أحمد « هو الى جوارنا وسيكون مرشدك في الصحراء المقفرة » ٠

كنا حقا في ليلة مظلمة يزيدها ظـــلاما ما في مخيلتي من وساوس أصرح بأنها ليست مرعبة كما كانت الحال قبل اجتياز النهر ٠ والآن فلنترك الوساوس لنرجع الى ما حدث في الرحلة فأقول ان ابراهيم ذهب أولا بقربة فارغة في يده سائرا في طريق القوافل الموازية للنهر الى أبي حمد ، وقد تبعت صاحبي الجديد هذا وبعد أن سرنا ما يقرب من ثلاثة أميال انجليزية نزل ابراهيم الى النهر وملأ القربة ثم غير خط السير بعد ذلك متجها الى الطريق البرية ٠ أما السير فكان شـــاقا جدا لأن الحجـارة الضخمة التي غطت التلال وقامت حواليها عاقت سيرنا السريع أما عن شخصي فكنت كاليائس في سيره أتخبط مرة نحو اليمين في ذلك الحجر وأتسكع أخرى نحو اليسار في ذلك التل ، كأنما أنا في أقبح حالات السكر ومازلنا في حالتـنا هذه حتى وصلنـــا الى حفرة في الأرض فأمرني ابراهيم بالوقوف عندها حيث قال لي بعد صـمته الطويل « هذه هي البقعة التي عينها لي خالي فانتظر هنا هادئا وفي مساء الغد سأحضر الجملين لمواصلة الرحلة وسأترك لك الخبز والماء فأودعك الآن لأني مضطر الى القيام بجمع معداتنا وأرجو أن ألقاك في خير غدا » اذن بقيت وحدي مرة أخرى لا يرافقني سوى ضوء الشمس واختلاف الأفكار ، ولكنني على أية حال كنت محتملا ولم يكن الليل بساعاته القليلة الباقية وصباح اليوم التـــالي بالشيء الكثير غير المحتمل، لأني نجوت من الخطر بعد عبور النهر واقتربت من الوصول الى أحبائي ووطني ٠ غربت شمس يومنا الجديد وبعد غروبهـــا بساعة سمعت صوت سير حيوانات مسرعة نحوي فنظرت بدقة واذا بي أجد أحمد عبد الله وفي صحبته رجلان على حمارين ٠ أقبل أحمد مسرعا نحوي وضمني الى صدره مبتسما ثم قال « الشكر لله

الذى نجاك وينجيك ، وأما الرجلان اللذان معى فهما شقيقاى وقد حضرا معى ليسألا لك السلامة » .

حييت الرجلين الجديدين تحية اخلاص ثم ادرت وجهى الى أحمد وقلت له « ولكنى لا أفهم حقيقة ما جرى وادرك من شكركم المتكرر لله أنى نجوت من خطر عظيم » فأجابنى أحمد بالطبع لم تعرف ما تم ولم تسمع عن الخطر العظيم الذى نجوت منه بأعجوبة فاصغ الى أحدثك مليا ! منذ ثلاثة أيام علم زكى عثمان امير بربر ـ ولا نعرف المصدر الذى علم منه ـ ان الحامية المصرية فى مورات حصلت على امدادات جديدة كبيرة الأهمية وعظيمة الأثر رغبة فى مهاجمة القوة المهدية فى أبى حمد . فاضطر زكى عثمان الى ارسال مدد يدفع غارات المصريين ، وبالفعل قام اليوم من بربر ستون فارسا وثلاثمائة بيادة ومروا بمساكننا ولا شك أنك تعرف المحاربين أنهم يسمون الأنصار وهم فى مجموعهم ضخام الأجسام مفترسيون أقرب الى الوحوش ـ فى الفتك بالناس ـ منهم الى الآدميين .

أثناء مرور اولئك كنا نجهز لك قسما من خروف ذبحناه ليكون زادا لك فى الطريق فدهش الجنود عندما رأوا ما نقوم بتجهيزه وبعد أن ارتابوا فى عملنا تفرقوا ونهبوا منا ما نهبوه وقد كنت حقا شديد الحذر من ناحيتهم وشديد الخوف على ما قد ينتابك من عسفهم اذا صادفوك فى طريقهم ، ولكنى أحمد الله الآن لأنهم اجتازوا الطريق الى أبى حمد ولتصحبهم لعنة الله وليصحبنا نصره وعونه فلجلاله الشكر الدائم ازاء حمايته لنا » .

صحت بعد ذلك فترة هى فترة الذهول بعد نجاتى من ذلك الهول المروع ثم سجدت فى خشوع كامل للخالق الصمد الذى نجانى من ذلك الخطر العظيم بعد اذ لم تكن نتوقعه .

علمت بعد ذلك أن الجنرال كتشنر باشا رئيس اركان حرب الجيش المصري وصل الى وادى حلفا للقيام بالمناورات المعتادة وان الضابط ماتشل بك قاد الأورطة السودانية الثانية عشرة ومائتين من الهجانة الى حلفا من كورسكو عن طريق مورات وهذا سبب الاشاعة عن تقوية حامية مورات وعن الهجوم المزعوم على أبى حمد ٠

قال أحمد « بعد ذلك ستتأخر الجمال قليلا لأنى امرت باسراجها فى داخل الحدود أثناء مجيء الدراويش خوفا من أن يستعملها الآخرون ـ اذا رأوها ـ فى نقل الذخيرة وبعض الحقائب العسكرية فاذا كنت شاعرا بالرغبة فى البقاء هنا الى صباح الغد فانى موافقك على عملك لأننا نستطيع بذلك الحصول على جمال مملوءة بالقوة) ٠ فأجبته على الفور (انى لا أرغب فى أى تأخير وأفضل فى جميع الأحوال القيام بالرحلة حالا فان تأخير المدد والحاجة الى جمال كاملة القوة لا يحولان دون الاسراع فى الرحيل وعلى أية حال فانى مملوء ثقة بان الجمال ستصل الينا سريعا ٠

قبل منتصف الليل وصلت الينا ثلاثة جمال صحبة اثنين قدمهما لى أحمد عبد الله قائلاً لى (هذان مرشداك الجديدان ابراهيم على « ابن أخى » ويعقوب حسن أحد أقربائى الاخصاء وسيسير بك هذان الى الشيخ حامد فضاى زعيم عرب الاعراب الخاضعين للحكومة المصرية ، وهذا الأخير سيعينك فى الوصول الى أسوان) ٠

بعد ذلك ملأنا قرب الماء وواصلنا رحلتنا ٠ وعند البدء فى الرحيل قال لى أحمد بن عبد الله (أرجوك أن تتجاوز عن التقصير فى اتمام معدات الرحلة فان الخطأ ليس من ناحيتى ولئن حرمت من الأكل الطيب فلديك من البلح والخبز ما يكفى لمقاومة غائلة الجوع) ٠

ركبنا الجمال ثلاث ساعات ونصف ساعة في طريق شرقية شمالية نحو الجانب الشرقي وكان ذلك قبل اشراق الشمس وعندما بزغ نور الفجر وجدنا أنفسنا في الجهة الشرقية من وادي الحمير (سمي باسم الحمير البرية التي تسكنه ويكاد هذا الوادي يخلو من النبات) •

تقدمنا في سيرنا فدلت الطلائع على أنا في صـــحراء حيث شاهدنا الرمال الممتدة في كل ناحية وبقايا التلال في بعض الجوانب ولم نجد على الاطلاق شجرة أو شيئا من الزرع الأخضر • وبعد أن سرنا على تلك الحال يومين كاملين ـ دون استراحة على وجه عام ـ وصلنا الى تلال نوراني التي كانت محتلة فيما مضى بقبائل عرب بشارين • يمتد هذا الوادي في اتجاه شمالي شرقي في معظم جهاته وتتخلله منحدرات وعرة تقوم على جوانبها أشجار الميموسا . وفي كل جانبي من تلك التلال توجد أشجار مسماة باسم التل العام « نورانية » •

حدق ابراهيم على ناظريه من أعلى الجمل فتفقد الوادي فرآه خلوا من الناس فنصح لنا بدخوله فدخلنـاه ثم أسرعنا في ارواء جمالنا بالماء العذب وملء قربنا الثلاث أما البئر فنـازلة في قاع الوادي ما يقرب من عشرين قدما ومتجهة الى ناحية مركزية على بعد خمس وعشرين ياردة والنزول الى عمق البئر بواسطة مدرجات حجرية صلبة ، وبما أن الآبار في السودان أماكن اجتماع الناس فضلنا ترك البئر والذهاب الى مكان في داخـــل الوادي فتركناها (البئر) وواصلنا سيرنا الى الداخل مدة لا تقل عن ثلاث ساعات مجتازين تلال نوراني •

كان الفرق عظيما بين المرشدين القدماء والجدد ، فالسابقون كانوا ممتلئين شجاعة واخلاصا وعلى استعداد لتضحية حياتهم في

سبيل انقاذ حياتى أما اللاحقون فعلى النقيض من ذلك لأنهم كانوا دائما يتذمرون من عملهم الذى يخيل لى أن أحمد عبد الله أجبرهم عليه اجبارا ولم يتأخروا عن اظهار تذمرهم لأنهم لا ينامون النوم الكافى ولا يأكلون الأكل الجيد . وانى أذكر جيدا أن اهمال ابراهيم على ويعقوب حسن أدى الى اضاعة حذائى وصندوق خاص لى فى الطريق وقد سبب لى ضياع حذائى تعبا كثيرا فى المستقبل .

وصلنا فى الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالى ـ الخميس ـ الى أحراج أبى حمد وقد فضلت البقاء مختبئا عن الأنظار هناك على الرغم من عداء سكانه عداء شديدا لأتباع المهدى .

ذكرت قبلا أن أحمد عبد الله أمر ابراهيم على ويعقوب حسن بالوصول بى الى الشيخ حامد فشماى ولكنى أضيف الى ذلك أن هذا الرأى لم يرق فى أعينهما .

جاءنى هذان الرجلان عصرا وذكرا لى المخاطر التى تتهددهما بغيابهم أياما كثيرة عن قبيلتهما ، وبما أنه أصبح من المؤكد جدا وقوف الخليفة على خبر فرارى وعلى قسم من الطريق التى اجتزتها لم يكن لدى شك فى أنه سيستجوب الكثيرين ممن يرتاب فى مساعدتهم لى فى الفرار خصوصا من قبيلة أولئك الجدد لانتمائها فى الصداقة الى الحكومة المصرية واذن ليس الخطر واقعا على هذين الرجلين فحسب بل على صديقى المخلص أحمد عبد الله أيضا . وأخيرا اتفق رأيهما على الذهاب الى شخص يعرفه كلاهما وبواسطة هذا الشخص أتابع رحلتى بأمان .

تأكدت بعد ذلك أن الخير فى رجوع هذين الرجلين لأن بقاءهما معى مضطرين خائفين ـ فضلا عن عدم اخلاصهما الشديد فى مهمتهما ـ قد يعرضنى لخطر جسيم واذن قبلت بسرور طلب الرجلين

واني لا أخفي على القراء حقيقة كراهتي الشديدة لهما لأنهما كانا مجردين عن الاخلاص • غير مبالين بما قد يصيبني من شر ما داما واثقين من نجاتهما وحدهما • ازاء ذلك طلبت منهما الاسراع في الذهاب الى المكان الجديد حتى يرجعا الى قبيلتهما ولا غرابة بعد ذلك أن يكون ابتعادهما عني فوزا جديدا لي ومصدر راحة تامة وهدوء فكري •

عند غروب الشمس حضر الرجل الجديد وهو من قبيلة عرب امرات واسمه حامد جرهوش البالغ من العمر حوالى خمسين عاما • وعندما حياني حامد هذا قال لي « بسعي كل رجـــل الى مصلحته الخاصة فمرشداك ـ ابراهيم ويعقوب اللذان أعرفهما معرفة تامة ـ يرغبان في أن أدلك على الطريق من مكاننا هذا الى أسوان ، وتأكد أني مستعد للقيام بذلك ولكني أريد الوقوف على ما سأحصل عليه ازاء هذا العمل الشاق » فاجبته على الفور « ساعطيك يوم وصولنا الى أسوان مائة وعشرين ريالا من عملة ماريه تريزة علاوة على هدية خاصة أقدمها تبعا لما تقوم لي به في هذه الرحلة الجديدة » •

قدم لي حامد بعد ذلك يده وقال لي « اني مرتاح الى ذلك وأتقبل المهمة فان الله ونبينا شاهدان على صدق ما أقول • وأما عن وعدك فاني أعرف عنصرك واثق أن الرجل الأبيض لا يكذب واذن ساسير بك الى عشيرتك في طريق جبليـة غير مطروقـة بأقدام الآدميين ولا يعرفها من مخلوقات الله سوى الطير الذي يحلق في المعمور دون ان ينقل أسرار الناس الى الناس فاستعد للرحيل لأنا سنواصـــل عملنا باذن الله بعد غروب الشمس » •

اخترت أقوى الجمال الثلاثة لمواصلة الرحلة وأخذت قربتين مملوءتين بالماء والقسم الأكبر من البلح وكمية من الذرة وعندما خيم

الليل وصل حامد الى المكان المعد لابتداء السفر • أما ابن حامد فسار راكبا الجمل الوحيد الذى يملكه للبحث عن غلال فى روياطاب القريبة من النهر وتبعا لذلك اضطر حامد لمرافقة ابنه سائرا على قدميه ، ولم يساعده على عمله الشاق هذا سوى ارادته الصادقة وقدميه القويتين ، أما ابراهيم ويعقوب فعادا الى قبيلتهما وبطبيعة الحال لم أودعهما وداع الحزن ولم أذكر لهما فى معرض الشكر سوى كلمات قلائل لأنى أكرر ما قلته قبلا عن سرورى العظيم لابتعادهما عنى •

بعد أن واصلنا سيرنا يومين اجتزنا فى أثنائهما تلالا صخرية ، وصلنا فى صباح الأحد الى بئر صغيرة تكاد تكون خالية من الماء واسمها « شوف العين » وعلى الرغم من ظهور ابتعاد القادمين اليها بقيت تبعا لرغبة مرشدى فى مكان يبعد ساعة عن هذه النقطة •

كان طعامنا عبارة عن التمر وكمية من الخبز صنعناها بأيدينا وأقصد بذلك ان هذا الخبز كان لوقايتنا من الهلاك جوعا فان أى مخبز أوربى يعرض للخطر العام اذا وجد بين جدرانه رغيف من الأرغفة التى نعملها لأنها فى مجموعها كريهة فى منظرها وطعمها ؛ فطريقة صنع الخبز التى قام بها مرشدى هى جمع كمية من الحجارة حجم كل واحدة منها لا يزيد على حجم بيضة الفرخة وبعد تكوينها يضع عليها أفرادا صغيرة من الخشب ثم يعجن الذرة فى الماء ويوضع فى آنية خشبية ثم يشعل النار فى الحطب والحجارة الصغيرة بواسطة حك الصوفان على حجر الصوان •

بعد اشتعال النار فى الحطب ينزع حامد الجمر من الحجارة الملتهبة ليضع عليه العجين وبعد ذلك يرد الجمر الى الحجارة • وبعد أن ينتهى من ذلك التقلب النارى يضرب العجين بالعصا الصغيرة حتى يزيل ما نبه من الرماد وآثار الحجارة الصغيرة •

هذا هو الخبز الذى نأكله فان لم نكن مدفوعين الى أكله بلذة النظر اليه فليس أقل من أن يدفعنا الى تناوله جوعنا الشديد ٠

بعد أن ارتحنا قليلا على مقربة من البئر واصلنا السير بضع ساعات حتى انتهينا الى المنحدرات الأولى لجبال عتابى الممتدة بين البحر الأحمر ونهر النيل والتى يسكنها فى ناحيتها الجنوبية عرب بشارن وأمران ، وفى ناحيتها الشمالية قبيلة العبابدة ٠

تتفرع من بعض تلك النواحى الخالية من النبات أودية مملوءة بالغابات يسكنها رعاة الجمال التابعون للقبائل السالفة الذكر ٠

اجتزنا بعد ذلك واديا قريبا غير مطروق وواصلنا رحلتنا دون راحة لأنى كنت شديد الرغبة فى مشاهدة أعزائى فى أقرب وقت ممكن أضمن فى نهايته السلامة من أخطار رحلتنا المتعبة المفزعة ورغم كوننا ناجين من كل خطر لأنا تركنا الحدود المهدية وصرنا على الأراضى المصرية ، رغم ذلك أصر مرشدى على البقاء بعيدين عن عيون الرقباء والناظرين كائنين من كانوا لأنه خاف من أن تقع علينا عيون بعض التجار الذين يتعاملون مع السودان ٠

وبما أن منزله قائم على الحدود وانه كان مضطرا ــ لأسباب مختلفة ــ الى الذهاب لبربر فمن الواجب على أن أقدر خدمته لى ــ فى موقفه الخطير هذا ــ حق قدرها ٠

وفى الحق لم أجد بين من شاهدت فى السودان رجلا أقوى عزيمة وأسمى روحا من صديقى الأخير هذا على الرغم من ضعف جسمه ٠ ولا ريب فى أن الطعام غير النظامى والسير المتواصل فى كثير من الأحايين أثر أثرا سيئا فى صحة هذا المتقدم فى السن ٠ وعلاوة على ذلك شعر صــاحبى حامد بالبرد الشديد الذى أوقعه

أخيرا فى حبائل المرض . فاضطررت اشفاقا عليه ان اعطيه عباءتى لتدفئته وابقيت لنفسى المعطف الصغير والحزام الصوفى الكبير وقد وصلت بى الرغبة فى سرعة الوصول الى أسوان حدا دفعنى الى أن أعطيه جملى وأسير على قدمى العارية فوق الأحجار أربعة أيام (سبب سيرى عارى القدم هو اضاعة حذائى كما قلت قبلا بواسطة ابراهيم ويعقوب) ولا ريب أن هذه الفترة أشق مراحلى من الوجهة الصحية .

خيل الينا قبل الوصول الى أسوان بأيام قلائل أن الجمل يتآمر علينا فى اللحظة الأخيرة وليس ذلك غريبا فقد اتعبه المسير المتواصل دون راحة الا فى النادر وعلاوة على ذلك أصيب فى مقدم القدم بجرح زاد واتسع عندما اصطدم الجمل بحجر مدبب فاضطررت الى ان اقطع جزءا من حزامى لألف به بطن القدم والجزء المجروح من الجمل على أن اغير هذه اللفافة كل أربع وعشرين ساعة وقد تعلمت ذلك من رعاة الجمال من دارفور وكل ما بينى وبينهم من خلاف أنهم يستعملون الجلد بدل الصوف .

آخر الأمر قدر الله اللطيف بعباده أن ننزل فى صباح السبت ١٦ مارس من أعلى منحدرات طريقنا فنشاهد نهر النيل السعيد ومدينة أسوان الممتدة على شاطئه وبطبيعة الحال اقر بالعجز الكلى عن وصف السرور الذى ملأ قلبى بعد الشكر لله ازاء النجاة والشعور بتحريرى من العبودية فقد انتهت آلامى وقضى الله على مصائبى ونجوت حقا من أيدى البرابرة الشديدى التعصب ووقعت عيناى أول مرة على مساكن شعب متمدين يخضع للقانون والنظام ويأتمر حكامه بأوامر العدالة فحسب .

واتجه ــ ساعة وصولى الى أسوان ــ قلبى الطروب الى عرش الله الاسمى شاكرا لجلاله حمايته ويمينه المرشدة . قوبلت بأعظم

مظاهر الترحيب من معسكرات الضباط الانجليز الخاضعين لصاحب السمو الخديو وفى مسـاكن الضباط المصريين الذين لم يعلموا الا عندما التقوا بى أنباء رحلتى المدهشة وقد تسابق كل من أولئك الضباط المصريين الكرام فى التفريج عن كربى القديم وفى جلب السرور الذى ينسينى آلامى ونكباتى السـابقة • كان المحافظ العسكرى في ذلك الحين فى أسوان الكولونل هنتر باشا وكبار ضباطه الذين أذكرهم فى هذه اللحظة هم البكباشيون جاكسون وسدنى وماتشل بك ووطسون، وقد قدم كل منهم أقصى ما يستطيع من مجاملة صادقة فشكرت لكل من أعماق قلبى ودعوت لهم بالخير وقبل تغيير ملابسى بملابس جديدة من التى قدمها لى أولئك الضباط طلب منى صديقى البكباشى وطسـون السـماح له بأخذ صورتى ـ وطسون هذا من أدق الرسامين ـ فقبلت طلبه مع الشكر •

أما عن صديقى حامد جرهوش فقد دفعت له ـ بواسطة بطرس بك سركيس صديقى القديم ووكيل قنصلية انجلترا فى أسوان ـ مائة وعشرين ريالا من عملة ماريه تريزه وقدمت لحامد علاوة على ذلك هدية مالية وبعض الملابس والأسلحة وفوق هذا وذاك قدم له هنتر باشا عشرة جنيهات انجليزية تذكارا لوصولى سالما الى أسوان ، وبعد ذلك ودعنى وداع الاخلاص وعاد الى قبيلته مسرورا مبتهجا •

بعد قليل من وصولى الى أسوان وردت لى تلغرافات التهانى أولها من الماجور لويس بك بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن معسكر وادى حلفا • وثانيها من رئيس الوكالة السياسية النمساوية فى مصر وهو البارون هولر فون أجيرج الذى تعب كثيرا فى سبيل انقاذى • ثم من صديقى المخلص الماجور ونجت بك •

اول من حيانى من ابنـاء وطنى تحية شخصية هو البارون فكنور هيرنج ثم أولاده وقد كانوا جميعا فى ذهبينهم فى النيل ٠

صادف وصولى يوم قيام احدى بواخر البريد فاغتنمت الفرصة وتمكنت بمساعدة ذوى الشأن فى أسوان من مواصلة رحلتى بعد ظهر اليوم المذكور (١٦ مارس) ٠

رافقنى جميع الضباط الانجليز والمصريين الى الباخرة ووقعت الفرقة العسكرية السودانية النشيد النمساوى الوطنى على موسيقاها فذرفت عيناى الدموع حنينا الى الوطن العزيز ثم دخلت السفينة فارتفع الهتاف من جميع الركاب على اختلاف جنسياتهم فشكرت لهم جزيلا ثم شكرت للضباط المقيمين فى أسوان عنايتهم بى واخلاصهم لى ٠ وفى الحق لم آكن مستحقا كل ذلك التكريم وهذه الحفاوة ولم أجد ـ مع شعورى بالخجل الشديد ـ سوى تقديم الشكر والدعاء للجميع بالخير ٠

كان معى فى سفرى مانشل بك قائد الفرقة السودانية الثانية عشرة والذى كانت مناوراته من وادى حلفا الى كورسكو عن طريق مورات سببا فى آكل الطعــــام المعد لى عندما وقع عليه الجنود السودانيون وسببا فى تغيير خط سيرى ٠

عندما وصلت مساء الأحد الى الأقصر تجلى عطف الأوروبين المســافرين معى مرة أخرى وهنا تلقيت عن طريق البارون هولد تلغرافا من شقيقاتى العزيزات صادرا من عاصمة وطنى العزيز (فينا) فما أبهج تلك الساعة التى قرأت فيها تلغرافا عليه امضاء بأسماء شقيقاتى العزيزات وعنوان فينا العزيزة ٠

فى الساعة الخامسة من مساء الاثنين وصلنا الى جرجا أقصى محطه جنوبية للسكك الحديدية المصرية ومنها ركبت القطار الى مصر حيث وصلت الساعة السادسة من صباح الثلاثاء ١٩ مارس ٠

على الرغم من تلك الساعة المبكرة جدا فى الصباح وجدت على المحطه البارون هولر فون ايجرج وجمع موظفى السفارة النمساوية الدكتور كارل وترفون جورا كوشى وهناك أيضا وجدته صديقى العزيز ونجت بك الذى لا أستطيع فى كلماتى القليلة هذه أن أعبر عن شكرى له ٠ والى جانب أولئك شاهدت مراسل « التيمس » والأب روز نيولى وآخرين غيره ومع أولئك فوتوغرافى يأخذ الصور المختلفة ٠

بعد أن صرفنا بضع دقائق فى تبادل التحيات سرنا الى السفارة النمساوية حيث بقيت مدة طويلة ضيفا عند الرجل الطيب الشديد الاخلاص البارون هولر الذى قام بمجهود عظيم فى سبيل حريتى والذى لم يكن عمله ناجما عن واجبه بصفته ممثل النمسا فى الحكومة المصرية ولكن كان صادرا عن عاطفة حية مشفقة على شخص أصيب بالأسر المفزع ٠

عندما وصلت الى السفارة وجدت الغرف الخاصة مزينة بأعلام وطنى العزيز ومملوءة بالأزهار والورد وقد كتب على باب السفارة « تحية صادقة للضيف الكريم » ٠

فى ذات اليوم الذى وصلت فيه الى مصر تسلمت تلغرافات التهنئة ـ بنجاتى ـ من أفراد أسرتى وأصدقائى ورفقائى فى المدرسة قديما ومن صحف عديدة فى أوربا بصفة عامة والنمسا بصفة خاصة؛ وانى لا أنسى العطف العظيم الذى تفضل به على صاحب السمو

الماكى الدوق ولهلم اوف ورتمبرج وصاحب السمو البرنس لويس استر هازى وقد كان كلاهما فى حملة بوسنه عندما كنت أحارب مع فرقتى العسكرية، ولا ريب فى أنى سأذكر دائما كلمات التشجيع التى نادى بها ذانك الرجلان العظيمان ازاء مصائبى الاول وكلمات التهنئة بعد الفرار من اسر الخليفة عبد الله المشهور بطغيانه ٠

بعد عودتى الى مصر بقليل تشرفت بمقابلة حضرة صاحب السمو خديو مصر الذى أنعم على برتبة الباشوية ٠ دخلت السودان منذ ستة عشر عاما كملازم أول فى الجيش النمساوى ، وعندما عينت حاكما لدارفور منحت من الحربية المصرية لقب أميرال ، أما الآن فرقيت الى درجة اللواء حسب نظام الجيش المصرى ٠

بعد أيام قلائل من تلك المقابلة السامية كنت واقفا فى شرفة السفارة متطلعا الى جمال حديقتها فى فصل الربيع فشاهدت طيرا مائيا أليفا الى جانب الأعشاب فتذكرت فى الحال طير فالزرفين التابع لاسكانيانوفا توريدا الكائنة فى روسيا الجنوبية ، ففى الحال دخلت غرفتى وكتبت له بيانا كاملا عن طير الكركى الذى أطلقه فى عام ١٨٩٢ والذى قتل فى دار شيفيه ٠ وفى الحق كنت مسرورا جدا بكتابة خطاب تفصيلى الى الصاحب الأصلى لذلك الطير ، وما هى الا فترة صغيرة حتى ورد لى من فالزرفين رد على خطابى يشكرنى فيه جزيلا ما ذكرته عنه ، ويدعونى لزيارته ولكنى لسوء الحظ لم أتمكن من القيام بتلك الزيارة النفيسة لأنى ارتبطت بمواعيد كثيرة جدا حالت دون قبول الدعوة الجديدة ٠

كثرت الدعوات الرسمية والخصوصية وتعددت الزيارات بحيث لم أستطع القيام بعمل رسمى جدى قبل مرور بضعة أسابيع ٠

كان أول عمل لى بطبيعة الحال كتابة تقرير رسمي مفصل ارفعه لرؤسائى الحربيين وبعد ذلك بفترة بدأت في كتابة قصة حياتى فى الأعوام الستة عشر الأخيرة ٠

أما صديقي القديم وزميلى فى الأسر الاب أوهر والدر الخطيب الديني فى سواكن فقد انتهز أول فرصة وحضر خصيصا الى مصر لتحيتي، وفى الحق كان اجتماعنا سبب سرور جديد لا استطيع وصفه وقد شعرت براحة كلية لأنى تمكنت شخصيا من تقديم شكرى الجزيل لهذا الصديق المخلص ازاء ما أبداه نحوى من مساعدة وتأييد ٠ انى أشعر بثقل فى رأسي ودوران قد يعقبه الاغماء كلما أتذكر الحالة الماضية وأقارنها بالحالية ، وكلما أسرد حوادث مدة اثنتي عشرة سنة قضيتها أسيرا فى أقصى حالات الأسر ٠ وازاء ذلك كله لم أستجمع قوى تفكيرى قبل مرور فترة غير قصيرة ٠

الآن اشعر بأنى رجل من شعب متمدن ورجال مسالمين فترجع افكارى الى البرابرة المتعصبين الذين عشت معهم زمنا طويلا قاسيت فيه الآلام ، وواجهت المخاطر ثم أعود فأذكر رفاقى الذين لا يزالون تحت الأسر الممض والقى نظرة أسى على الأمم الواقعة فى حبائل الأسر ٠ فلله أجزل الشكر على فضله العظيم حيث نجانى من الخطر الفادح وأوصلنى بالسلامة الى شعب هادىء امين ٠

الفصل التاسع عشر

الختـــــام

بعد أن قضيت أكثر من ستة عشر عاما - من بينها اثنا عشر عاما في الأسر الشنيع - في افريقيا منقطع الصلة عن العالم المتمدين قدر لى حظى السعيد أن أعود الى أوربا الا أنه من الواجب على أن أقول بأن تغيرا عظيما في سبيل العمران حدث في أفريقيا في هذه المدة ، فكثير من المناطق التى خاطر فيها أمثالى المحترمون لفنجستون واسيك وجرانت وبيكر وستانلى وكمرون وبراز وجنكر وشو نيفورت وهولب ولبنز ومئات غيرهم بأرواحهم العزيزة في سبيل البحث عنها أصبحت (المناطق) قابلة الآن للنهوض المتمشى من المدنية • في كثير من المناطق التى قاسى فيها المكتشفون قبلا كثيرا من المخاطر توجد الآن قوى ومحطات عسكرية تساعد على نشر الأمن وتسهيل التجارة التى تعد أهم عناصر التقدم في الجهات المذكورة •

لئن تطلعنا الى الدول صواحب الشأن في تلك المناطق فانا نجد في الشرق ايطاليا وانجلترا وألمانيا وفي الغرب الكنغو (بلجيكا) وفرنسا وانجلترا وتسعى كل من تلك الدول سعيا حثيثا في زيادة النفوذ في جهات مختلفة ، وترمى جميعا الى وضع الأيدى على أفريقيا الوسطى وقد بدأ رجال القبائل المتوحشة - الذين يعتبرون أقرب

الى الحيوان منهم الى الانسان ـ يدركون حاجياتهم الضرورية وأن هناك أناسا ذوى مراتب سامية فى أنفسهم ويرجع ذلك الى المقدار الذى حصلوا عليه من المدنية والتقدم ولا شك عندى فى أن الممالك الاسلامية الصغيرة الشمالية كوادى بورنو وفلاتا سيدرك زعماؤها حاجتهم للتعاون مع الدول العظمى فى ســـبيل الاحتفاظ بحكمهم الوراثى •

ذكرت المناطق السابقة ولم أشر الى الآن بشىء للبقعة التى قضـــيت فيها أكثر من عشر سنين ورغبتى فى ذلك منحصرة فى تخصيص الذكر والكلام عند ورود اسم السودان بين المنـــاطق الأفريقية •

والآن أقول بأنا نجد فى الناحية المتوسـطة من افريقية بين الأراضى المذكور أخيرا وحيال القوى الأوروبية الباسطة نفوذها فى الشمال والجنوب والغرب نجده فى تلك الناحية السودان المصرى الذى يخضع اليوم لحكم الخليفة عبد الله وأشياع المهدى وهم أشد الحكام قساوة وأكثرهم ظلما للرعايا •

ان الأوربى كائنا من كان لن يستطيع اجتياز ذلك السودان كزائر أو عامل ، وأقصى ما يحدث لذلك الأوربى لا يختلف عن أدنى ما يصيبه سوى اختلاف جزئى لا يؤثر شيئا فى النفس التى اعتادت الحرية والتى خلقها الله فى جسم الانسان لتشعر بسعادة الحياة الهادئة البعيدة عن العسف والمظالم من ناحية الحاكم صاحب الأمر • وللايجاز أقول بأن أقصى ما يصيب الأوربى فى السودان هو الموت وأدنى ما ينتابه هو البقاء طول حياته أو أغلبها أسيرا مغلوبا على أمره • قد لا يجد فى الحقيقة فرقا بين الموت وبين تلك الحالة المؤلمة ولكنى عن شخصى أجد اختلافا ظاهرا هو تمتعى بالنجاة والحياة الحرة قبل موتى الطبيعى الهادىء •

اذن يتعرض الأوربى السائر لتلك البلاد البعيدة عن المدنية والممتدة جنوبا على طول النيل الى الزنجاف وشرقا الى غربى كسلا على مقربة من واداى ـ للموت الشريع أو لعيش مرير تحيط به مظالم المستبدين ٠

لم يكن السودان تحت حكم مصر على مثل ما أصف من شدة على الاوربيين ، ولم نكن نحن الغربيين نتضجر من أمثال تلك المظالم فما هى الا عشر سنوات منذ وقع السودان فى قبضة المهديين حتى شاهدنا المظالم تترى والعسف يتوالى وانه لمن الحق أن أصرح بأن السودان ظل أكثر من سبعين سنة ـ منذ دخله محمد على ـ تحت حكم مصر والمصريين ، فكان من ذلك العهد الطويل مفتوحا للجميع ومستعدا لقبول كل جديد تأتى به المدنية ويدعو اليه العمران ٠

تحت حكم المصريين انتشر التجار المصريون والأجانب على السواء فى مدن السودان الرئيسية ، وفى الخرطوم ذاتها كان للدول الأوربية العظمى ممثلون محترمون من الجميع ، وقد كان الأجانب من جميع الدول الأوربية متمتعين بحق الدخول الى السودان والخروج منه ، وهم فى كل من تينك الحالتين على أتم ما يتمنون من أمن وهدوء وسلم ٠ والى جانب ذلك سهلت المواصلات بين السودان وأبعد الممالك الأوربية بواسطة الرسائل التلغرافية والبريدية المنظمة ٠

ان أعظم ما تمتع به السودان أثناء الحكم المصرى الطويل هو قيام كل فرد بشعائره الدينية وبنشر العلوم حسبما يوحى اليه ضميره ، فكنت ترى مساجد المسلمين وكنائس المسيحيين فى أماكن قريبة يقصدها أبناؤها بمطلق الحرية وفى هدوء واطمئنان، كما كنت ترى مدارس المسيحيين الأوربيين منتشرة لتعليم العلوم الحديثة لا فرق فى ذلك بين الفلسفية منها والدينية والعلمية المحضة ٠

كانت المناطق السودانية مقطونة بقبائل مختلفة وكان العداء فى كثير من الأحيان شديدا بين رجال القبائل ، ولكن حزم الحكومة المصرية أدى الى نشر السلم بين السودانيين على وجه عام سواء أكانوا فى ذلك راضين أم مرغمين .

جاء دور المهديين فانقلب الحسن الى سوء واصبحت الحال المهدية الجديدة غير الحال المصرية الأولى ، فانتشر الجزع والاضطراب فى البلاد السودانية وقد أبنت فى الفصول السابقة مقدار طمع وسوء ادارة الموظفين الجدد مما وصل بالبلاد الى حد أصبح ميسورا معه نشوب الثورة .

سعيت جهدى فى الفصول السابقة الى شرح ما قام به محمد أحمد لاستغلال الموقف والظهور بين القبائل المتقاتلة فقد أيقن ذلك الرجل أن السبيل الوحيدة التي توفق بين أولئك المتخاصمين هى سبيل الدين ، فادعى أنه المهدى المرسل من الله تعالى لتحرير البلاد من النير الأجنبى ولاحياء الدين فكان ذلك العمل من جانب المهدى سببا رئيسيا فى ايجاد خلة التعصب الدينى الذميم الذى زاد سوء الحالة فى الاثنتى عشرة سنة الأخيرة ، ودعا الى تذمر لا من الأجانب فحسب بل من السودانيين أيضا الذين وقعوا فى حبائل الفوضى والظلم .

كان من المستحيل نجاح الثورة بدون التعصب هذا الى أننا وقفنا به (التعصب) أمام حالة حرجة هى حالة الحرب والجهاد بين المختلفين فى الدين ، ومن الغريب فى أمر ذلك السودان أننا لم نجد حالة توازن بين التعصب الممقوت والتسامح الحميد فكنا قريبين فى حالتنا من القرون الوسطى أو ما هو أبعد أمدا .

سعيت ـ عندما ذكرت حياتى وأعمالى فى الفصـــول الأولى وعندما وقفت أمام نذير التعصب الدينى ـ الى السير بخطى متئدة فى سبيل تعقب الأسباب الرئيسية التى دعت الى الحالة الحاضرة ولئن قررنا حقا أن الحالة تغيرت عما كانت عليه فى زمن المهدى وأوائل حكم الخليفة عبد الله فانا نذكر الى جانب ذلك أن الموقف لا يزال خطيرا وهو فى حاجة الى الأيدى العاملة بنشاط بعد معرفة السـبل التى يتحتم عليهم عبورها للاحتفاظ بالمدنية ونشر الوية العدل فى ذلك الفضاء الواسع من الأمة التى هوت الى حالة مكربة مؤلمة لا نستطيع وصفها بعد أن ضعف فيها المستويان الرئيسيان لبقاء الأمم وهما الخلقى والدينى • والى جانب ذلك نذكر ما يطمع اليه الجميع سواء فى ذلك الوطنيون والأجانب • من عدل شامل وطمأنينة محققة •

ان أول ما يتبادر الى ذهن المفكر فى شئون السودان بعد قيام حكم المهديين هو مصير المدنيه الناشئة الجديدة التى وجدت فى سنى حكم المصريين منذ عهد محمد على ، فليس من شك فى أن تغيير الحال وحلول الفوضى محل النظام يولدان فى العقل شعورا صادقا بانقضاء كل أثر ظهر للمدنية فى السودان قبل المهديين، وهذا ما حدث بالفعل فقد اندثرت معالم المدنية رغم طراوتها وجدتها ، والسبب الرئيسى فى اندثارها هو انتقال الحكم الى أولئك المستبدين الجهلة بل أذهب الى اكثر من ذلك فأقول ان سبب ضياع المدنية راجع الى ظهور نفوذ أولئك الهمجيين الذين اسسوا على أنقاض الحكومة السودانية المصرية السياسية نظاما جديدا كان الى حد ما متتبعا خطوات النظام الماضى فى العرض ، ولكنه خالفه فى الجوهر ، فبدلا من الحق والعدالة والأخلاق فى حكومة العهد المصرى نجد الظلم والباطل البربرى والتجرد من تظم الأخلاق فى حكومة المهديين وأتباعهم • وانه لمن الواجب على أن أقرر للقراء ـ غير مدفوع فى ذلك بنزعة الثأر لنفسى

مما قاست من ويلات ولكنى مدفوع بوازع الضمير رغبة فى تقرير الحقيقة كلها ـ بانى لن أستطيع ذكر أمة ظلت فى حياة المدنية أكثر من نصف قرن ثم هبطت الى الدرك الأســـفل من الهمجية غير السودان ٠

لنفكر لحظة واحدة فى تلك القوة الجديدة التى برزت بروز الشر ودعت الى الفوضى فى ربوع السودان مما اعتبرها الأوربيون بحق عقبة كأداء فى سبيل المدنية الناهضة ٠ وتذيرا بفشل المساعى الكبرى التى بذلوها فى السنوات الأخيرة في الكثير من جهات تلك القارة الأفريقية الفسيحة ٠

سعيت فى الفصول الأولى الى تبيان أثر المهدى عندما صاح فى الناس أول صيحة وعندما ظهر نفوذه الواسع فى السودان فقد كان هذا الرجل سيد السودان الحقيقى فلم يكن يصدر أمرا حتى يسرع الاتباع لتلبيته وجم على استعداد لتفديته بالقلوب والأرواح ٠ كما انى ذكرت التعصب الذميم اللعين الذى أوجده المهدى فى حياته ثم أردفت ذلك بشرح تضاؤل ذلك التعصب بعد موته (المهدى) حيث حل محل القوة الدينية نفوذ جديد للخليفة عبد الله كان يتذرع فيه بالدين تذرعا اسميا ، ولكنه فى الحقيقة كان مدفوعا بنزعة الظلم التى وجدت بين جنبيه منذ عرف الفارق بين الخير والشر ٠ ولم تكن القسوة مقصورة على الخليفة عبد الله ولكنها تعدته الى عرب القبائل الغربية فقد حل أولئك محل الجنود المصريين فأهلكوا الزرع والنسل وحكموا السكان المنكودى الحظ بقضيب من حديد ، فذاق أولئك السودانيون كل مرارة وابتلاهم الله بشر أولئك الجدد المستبدين مما جعلهم يذكرون ليل نهار فضائل الحكم المصرى ، ثم دفعهم أكثر من ذلك الى التذمر المنذر بالثورة والتطلع الى حكومة تمنحهم الهدوء والسلم ٠

.. انه لمن التطويل غير المحمود بل من التكرار الممل الموجـــع للنفس أن أعود لذكر الفظائع التي ارتكبها الخليفة عبد الله وأتباعه في سبيل احتفاظهم بمراكزهم الدينية والحكومية ، ولكن من واجبي هنا أن أذكر لقرائي أن خمسة وسبعين في المائة ـ على أقل تقدير ـ من مجموع السكان في السودان ماتوا اما بالحرب واما بالجوع واما بالأمراض الوبائية الفتاكة فيبقى لنا بعد ذلك أقل من خمسة وعشرين في المائة ليسوا في حقيقتهم أحسن حالا وأفضل عيشا من الرقيق .

تذكرني كلمة الرقيق الأخيرة بذلك الطغيان البادي في تجارته في السودان ولئن كان الرقيق في بادىء أمره مقصورا على العبيد فإنه ـ بعد امتداد نفوذ عبد الله ـ يضم الى دائرته العدد الكبير من منتجبي الأحباش والسوريين والأقباط والمصريين المسلمين .

ان القسم الواسع من السودان الذي يحكمه الخليفة عبد الله اليوم قد تغير في نظامه عن الحكم المصري ولكنه تغير لا يشرف صاحبه ، فقد أصبحت المناطق الخصبة المثرية الآهلة بالسكان صحراء مقفرة يخاف الناس ولوجها . فانك اليوم تجد السهول الكبرى التي وطئتها أقدام قبائل العرب الغربية شبيهة بالصحارى لا يظهر فيها من المخلوقات غير الوحوش الضارية، أما مواطن الآدميين على شاطىء النيل فأصبحت مقطونة ببدو القبائل المرتحلة بعد أن طرد أولئك أصحاب البلاد الأولين أو استبقوهم لا لشيء سوى فلح الأرض واستثمارها لخير الأسياد الجدد .

.. حرم السكان الأصليون من جميع وسائل الدفاع عن النفس وأصبحوا ـ بعد ما نزل بهم من جور وعسف ـ في حالة فقدوا معها كل أمل في الحصول على العطف من ناحية أولئك الأسياد الجدد .

فضعفت او تلاشت فيهم قوة المقاومة واذن فالباقون من السكان الحاصلين على المساحات الضيقة المشرفة على النهر ليسوا أفضل من العبيد في غير حالة واحـدة هي حين تعريضهم للبيع في سـوق الرقيق ٠

ما الذي يستطيع أولئك البائسـون المنكوبون عمله لمهاجمة أسيادهم الجدد الأقوياء ؟ انهم أمام أحد أمرين فاما التسليم والبقاء في عيش الذل ٠ واما الاعتراض وفي تلك الحالة يلاقون آجالهم بحد السيف ٠

انه لمن المغالاة والجنون المطلق أن يفكر أحد في أن المغلوبين على أمرهم في عهد الخليفة عبد الله يستطيعون انهاء حالتهم المزرية بثورة داخلية لأنهم لا يملكون شيئا من معدات الدفاع أمام قوة الحكومة الظالمة٠، واذن لابد من وصول العون والمدد من الخارج الى أولئك المنكودين ٠ وعلى السكان المحليين أن يتحققوا أن الخير في الثبات وعدم التقهقر بعد ظهور حكومة عادلة جديدة ، لأن ظهور أي دليل من دلائل الضعف والمقاومة لروح المدنية الجديدة سيضر التقدم المقصود ضررا بليغا ٠

انه لمن الواجب على السودانيين ـ في سبيل الاحتفاظ بتقدمهم المنشود والابتعاد عن مصائب العسف والمظالم ـ أن يعتقدوا أن قوة الخليفة في ضعف مستمر ، لأن ذلك الضعف أعظم مساعد لارتفاع كلمة الحق ورجوع عصر المدنية ٠

عندئذ يسـتطيع السـودانيون الوثوق في القوى الجديدة الخارجية التي ستسـاعدهم في تحطيم قيود العسف والتطويح بالامبراطورية المهدية الجائرة ٠

انى أطلب من القارىء أن يتمهل في الحكم على ضياع نفوذ المهدى وعبد الله ومن والاهما، فقد يتصور البعض مما سبق أن ذلك النفوذ الشديد سيزول قريبا ولكنى أعود فأؤكد انه غير قابل للاندراس في حد ذاته ، ولكنه عرضة لذلك التدهور بمؤثر خارجي فحسب على أن ذلك يستغرق زمنا غير قليل .

أحيل قراء الكتاب الى الفصول الأخيرة السالفة ليعرفوا مقدار ما اتخذه عبد الله في سبيل الاحتفاظ بقوته الداخلية طول حياته حيال أعدائه الداخليين ، فليس غريبا أن يظل ذلك الاعتقاد راسخا في فكر الخليفة وقابلا للتصديق عند الجميع ما دام عبد الله في أمن من أى اعتداء خارجي وتدخل أجنبي . واذن فمن المؤكد أن هذا الرجل سيظل صاحب السلطان طول حياته . أما بعد موته فمن المحتمل بل من المؤكد أيضا أن انقلابا عظيما سيحدث في ربوع السودان وأن انفجارا هائلا سيتولد بعد الضغط الطويل .

وأقرب ما يتبادر الى الذهن هو أن ذلك الانقلاب ينتهى الى خلع الأسرة التى عنى عبد الله منذ تولى خلافة المهديين بتأسيس حكمها الثابت، ولكننى لا أستطيع التأكيد بأن ذلك التغيير سيقرب السودان الى مصادر المدنية أكثر مما هى الآن .

اذا عرفنا ذلك وجب علينا أن نقرر أن الخير لا يتم للسودان الا بواسطة مساعدة خارجية . ومهما يكن من شيء فان الفرض السابق قد لا يتفق اتفاقا رقيقا مع مقتضيات الحال فى السودان اليوم .

ان الذين يرغبون في دراسة حالة السودان الحاضرة ملزمون قبل أى اعتبار آخر أن يدركوا بأن السودان اليوم ليس هو ذلك

السودان فى أيام اسماعيل باشا عندما تجلت المدنية بواسطة نفوذ الحكومة المصرية فى الوقت الذى كانت فيه البقاع والأمم المختلفة المجاورة للنفوذ المصرى اما فى درك الهمجية واما عابدة للأوثان حيث لم يستطع الأوربى ضمان النجاة لنفسه اذا اجتاز أحداهـا علاوة على أن جميع الأوربيين لم يكونوا معروفين ولم تكن حتى دولة واحدة من القارة الأوربية معروفة لدى الأمم المذكورة كما أن العرب لم يظهروا فى غير القليل النادر .

كان السـودان اذن زهرة تلك البقـاع والمتميز عن جميع ما جاوره بما له من مدنية ونهوض ، وكان ذلك كله فى العهد المصرى ولكنى اقول ـ كما قلت قبلا ـ ان الهمجية تطرقت الى جوانبه عندما جاء عهد المهديين .

كان السودان على مقدار مذكور من المدنية والنهوض فاصبح منكودا متخبطا فى طرقات الجهالة والظلم بعد أن ألقيت مقاليد الحكم فيه الى قوة همجية وحشية تكره النفوذين : الأوربى والعثمانى على حد سواء .

تلك هى الأمة التى تعترض الطريق من النشـوز المركزية القـائمة على وادى النيـل الى البحر الأبيض المتوسط كما أنها الأمة التى تضع طابعها على المناطق التى كانت فى وقت من الأوقات متمتعة بالهدوء والسلم وقابلة لكل مصدر من مصـادر التجارة والمدنية والنهوض، وانه عن المحزن أن نذكر تدهور السودان وظهور ذلك الاضمحلال جليـا لأن المناطق التى كانت منحطة قبلا أخذت تنهض وتقوى فى حين نرى السودان متدهورا .

أصبح من السهل وجود التبادل بين المناطق السالفة الذكر والعالم الخارجى وتدفق سـبل التجارة بحيث لا يعترضه معترض

كما كانت الحال قبلا • فأصبح كل أجنبى آمنا على حياته من الخطر فى حالة اجتياز أية منطقة وذلك بفضل حماية الحكومة الأوربية ويكاد يكون أحسن ما أذكره عن تلك المناطق أن العناصر الهمجية القائمة فيها أصبح أفرادها يدركون أن الخطأ والجهل كل الجهل فى مقاومة تيـــار المدنية وان الخير كله فى التمتع بظل النهوض الحديث •

لننتقل فترة من التعميم الى التخصيص ونتساءل عن حقيقة الموقف الحالى فى السودان فنقول : ان النفوذ المصرى فى الشرق السودانى يسير سيرا بطيئا جدا لاسترداد ما كان له من أراض فى الجهات المجاورة لسواكن وطوكر ، أما فى الجنوب الشرقى فقـد استولى الايطاليون على كسلا وأجبروا المهديين على اقامة خط دفاع قوى فى الشاطىء الغربى من نهر عطبرة •

نسير مسافة الى الجنوب فلا نجد فى الوقت الحالى رغبة بين الأحباش فى تغيير ما بينهم وبين الدراويش من علاقات قديمة. أما فى المناطق الجبلية التابعة لفازغلو والنيل الأزرق فقد جاهر السكان بعدائهم للخليفة ورغبتهم فى الابتعاد عن طاعته •

نتجه جنوبا مسافة طويلة أخرى الى منابع النيل فنجد حركة جديدة للنفوذ الانجليزى وليس ذلك غريبا ففى تلك الجهات استطاع اسـتنيك وجرنت وبيكى تخليد أسـمائهم واسم أمتهم الانجليزية بما قاموا به من اكتشافات مجيدة ، كما أنهم اكتسبوا حب الأهالى بما بذلوه من مجهود ضد الرقيق وتجارته • ولا شك أن هذه الجهات ستتصل قبل مرور وقت طويل بشاطىء النيل بواسطة سكة حديد لا تساعد على فتح الجهات التى تجتازها فحسب بل ستساعد على ايجاد مخرج لتجارة الخط الاستوائى الجنوبى وما جاوره من الجهات

واذن للنفوذ الانجليزى أثر ظاهر هنا ، بعد ذلك نذكر ولاية الكنغو الحرة التي تمكنت في السنوات القلائل الأخيرة ـ بفضل ما بذلته من مجهود عظيم ـ من ضم مقدار كبير من الأراضى الى نفوذها •

كان النفوذ الجديد لولاية الكنغو الحرة عظيما فلم يقتصر على مسيو مواو بانجى بل تعداه الى مناطق كثيرة من مديرية بحر الغزال وفي خط الاستواء حتى أن تلك الآية تمكنت من التقدم الى المكان المجـاور لنفوذ الدراويش في الرجاف الكائنة على وادي النيـــل •

فيما وراء ذلك النفوذ نجد على مقربة من أوبانجى العليـــا مساعى الفرنسيين وأحلامهم حيث يسعون السعى المتواصل فى سبيل تحقيق آمالهم فى تلك الناحية كما حققوها في جهات مختلفة من القارة الافريقية • اذا ذهبنا بعيدا الى الشمال الغربى وجدنا نفوذ الخليفة فى المناطر القائمة هناك مهددا بمدد القبائل المختلفة التى سيصبح أفرادها قريبا أو بعد زمن طويل خاضعين بمحض ارادتهم للنفوذ الأوربى الممتد الى داخل أفريقيـا من النـاحيتين الغربيـة والشمالية •

أما فى النهاية الشمالية فستقيم القوة المصرية التي بدأ الخليفة عبد الله يدرك خطرها ويثق أنها، (القوة المصرية)، ستكون أول من يتقـــدم للتدخل في شـــئون امبراطوريته المضـــطربة المزعزعة الأركـــان •

من ذلك البيان الموجز نطلع على الموقف الحالى ـ من الناحية الدفاعية الهجومية ـ للمهدى فى السودان فانه كامل العدة ومتين الشهرة فى داخـل أملاكه ومناطق نفوذه ، ولكنه مهدد من جميع الجوانب الخارجية وهو ازاء ذلك التهديد لا يملك ما يدفع به غارة

المجتاحين لأن الشعب الذى يحكمه لا يخلص له بطبيعة الحال وقت الخطر والسبب فى ذلك معروف لدى القارىء وهو الرغبة فى التخلص من جور عبد الله بأية وسيلة ، وعندى قليل من الشك فى أن أمبراطورية الخليفة ستتحطم ويتقلص ظلها قبل هجوم قوى أية دولة متمدينة .

اذن ما الذى يجب عمله ؟

هل تصبح مصر مرة أخرى الحاكمة الفعلية الحقيقية للبلاد التى كانت مصر سيدتها الشرعية ومالكتها قبل حكم المهديين ؟

هل تدرك وتفهم جيدا كل مملكة من الممالك المتمـــدينة ــ السائرة مجردة عن الهوى الى شواطىء النيل الصالحة للملاحة ــ ان الواجب يقضى عليها بعدم محاولة قطع أو مقاومة مصدر حياة مصر النائية بتحويل منافع الماء الراوية الى الأراضى التى تحصل عليها كل منهن ؟

هل تسعى الممالك المتمدينة سعيا شريفا فى كل ما يعملنه وتفكر كل على حدة فى أن الفضيلة تقتضى التجرد عن الهوى وعدم تعريض مصالح مصر للخطر ؟ هل ترضى كل مملكة رضاء المخلص الشريف بعدم التقدم لسفك الدماء وانفاق الأموال فى سبيل غير مشروعة كل ما فيها مكسب لا يجىء الا من اعتداء غير مشروع ؟

هل تدرك كل دولة أنه من غير اللائق أن تتدخل فى شئون مصر وحقوقها المشروعة ؟

تلك أسئلة تدخل فى دائرة السياستين العملية والتدريبية وقد لا يكون من عمالى البحث فيها ومناقشتها والافصـــاح عن غوامضـــها .

ان كل ما أرمى اليه هو الافضاء بآرائى المجردة عن الهوى والتى يدفعنى الى تقريرها وازع من ضميرى يذكرنى دائما بأهمية وفائدة وقيمة السودان لمصر ، وانى أصرح بمناصرتى لذلك الرأى ودفاعى عنه بكل ما لى من قوة .

ان الأسباب التى دفعت محمد على الى امتلاك السودان منذ ثلاثة أرباع قرن (نذكر القارىء المصرى بأن سلاطين باشا كتب مؤلفه الذى نترجمه فى عام ١٨٩٥) كانت ولاتزال وستبقى وجيهة جدا ، ويكفى تلخيص ذلك فى أن النيل حياة مصر .

فالواجب اذن قائم فى حفظ وادى النيل من أى اعتداء واذن يجب على المسئولين أن ينظروا بعين اليقظة والحذر الى أى تقدم من جانب دولة أو دول أجنبية الى طريق النيل العظيم لأن الأمر الذى لا ريبة فيه ولا جدال هو أن انشاء مستعمرات على شواطىء النيل أمر عظيم الخطورة لأن الدولة المستعمرة فى تلك الناحية قد تغلب مصالحها الشخصية ومطامعها الجديدة على مصالح مصر وسعادة المصريين وتقدمهم ورخائهم .

اذكر من الصفحات الأخيرة من كتابى فى الفصل الأخير أنى أشرت فى مواضع متفرقة من مؤلفى الى الأهمية العظمى التى لبحر الغزال وقد لا يكون من التكرار ذكر ما لذلك الاقليم السودانى العظيم من أهمية وما له من شأن بالنسبة للسودان على وجه عــــام .

ان ذلك الاقليم (بحر الغزال) أخصب أقاليم الســـودان ومساحته فى مجموعها من أكبر المساحات المنتجة وأعظم ما يمتاز به بحر الغزال أنه يستمد ماء ريه من مجموعة جداول ومجار مائية

على أنه فى كثير من نواحيه مغطى بالجبال والغابات التى تأوى اليها الأفيال . أما الوديان الواطئة فخاضعة لحكم الفيضان .

ان خصوبة تربة بحر الغزال تعد من الخيرات النادرة فى السودان فمن السهل الحصول منها على كميات كبرى من القطن والمطاط . هذا الى كثرة ما فى البلاد من أغنام وماشية .

أما عدد السكان فأستطيع تقديره بما يتراوح بين خمسة وستة ملايين عدا . والكثيرون من أولئك يصلحون لحمل السلاح الا أن العداوات المستمرة بين رجال القبائل المختلفة تحول دون اى اتفاق عام بين السكان ، وذلك أكبر مساعد للدولة الأجنبية على التقدم للاقليم الكبير المذكور والحصول على نفوذ ظاهر فيه وانشاء قوة حربية داخلية فيه منحازة الى جانب تلك الدولة فمن السهل بطبيعة الحال اتحاد قوة موالية فى منطقة عرفت باشتداد الشحناء بين أفرادها وتنافر رجال قبائلها المختلفين .

كل ذلك مما يغرى القوة الأجنبية الى التقدم ، ولكنى أعود فأذكر التقدم المجرد عن الهوى وعسانى أكون مغاليا فى توقع مثل ذلك العمل من أية دولة لا ترمى لغير شىء واحد هو مد نفوذهـــا وتوسيع سلطانها .

كانت مشراع الرق ميناء بحر الغزال منذ ظهر حكم المصريين فى السودان وقد اعتادت البواخر الصاعدة من الخرطوم اجتياز تلك الميناء فى فترات دورية كل عام، ولكنها فى بعض الأحيان كانت تتعطل فى طريقها لما يعترضها من الأعشاب العائمة التى كانت بين آن وآخر تسد طريق النيل الأعلى . عند الناحية الجنوبية من فاشودة مباشرة يخرج النيل من بقعة يظن أنها كانت مقر بحيرة قديمة .

تعترض ذلك السير الفسيح البطىء مجار مختلفة الجداول وأنهار وفى كثير من الأحايين تقف السدود فى طريق السير السريع فكان المسافرون فى كثير من الاحيان مضطرين الى قطع هذه السدود المشبية بالسيوف والفؤوس • ومما يذكر فى هذا الصدد أن بعثة السر صموئيل بيكر تأخرت عاما كاملا عن انهاء مهمتها بسبب اعتراض تلك السدود (البعثة المذكورة استغرقت ما يقرب من أربعة أعوام من ١٨٧٠ الى ١٨٧٤) •

بالاطلاع على ما يقدم نجد مركز بحر الغزال من الوجهتين : الجغرافية والحربية ـ مع مقارنته بمراكز باقى أقاليم السودان ـ عظيم الأهمية ، واذن فوجود أية قوة أجنبية فى السودان لا تنظر لغير مصالحها الشخصية ونزعاتها الاستعمارية أو بمعنى آخر لا يهمها بقاء المصالح المصرية فى السودان سيجعل بقاءها (القوة الأجنبية) فى مركز ممتاز يعرض مصر للخطر، بل أذهب الى أكثر من ذلك فأقول ان ذلك البقاء سيحول دون تحقيق رغبة المصريين فى استرداد أقاليمهم الأولى التى فقدوها فى السودان ، وفى حالة رجوع مصر الى السودان مع بقاء تلك القوة الأجنبية سيكون نفوذ مصر فى خطر دائم . والسبب الرئيسى فى كل ذلك هو أن القوة الخارجية التى ستدخل بحر الغزال أو تسيطر عليه ستكون صاحبة النفوذ المطلق هناك ، وسيظل تحت يدها كل مورد من موارد الخير فى ذلك الاقليم الذى يعد من وجهة الرجال والمواد أكبر وأعظم أقسام وادى النيل .

تكلمت كثيرا فى الصفحات السابقة عن كل ما أعرفه عن حركات ومطامع الاوربيين فى هذا الصدد ، وانى لا أستبعد أن أية محاوله حربيه من جانب دولة أوربية فى سبيل الوصول الى النيل عن طريق مشراع الرق أو بحر الحمر أو بحر العرب ستلقى اعتراضا

كبيرا من جانب المهديين ، ولكن في الوقت نفسه أقرر انه اذا حدث مثل ذلك الاعتراض وقابله نشاط من جانب القوة الاوربية الجديدة فالنتيجة المحتملة جدا هي ضياع مناطق المهديين من أيديهم .

لو أن الخليفة عبد الله على علم بأن الأوربيين « البيض » الموجودين في بحر الغزال أقوى كثيرا مما يتصور وأكثر عددا وأعظم تدريبا مما يعرف عنهم بواسطة التقارير غير المضبوطة التي تقدم اليه بين آن وآخر - لو أنه على علم بذلك لما تردد في مهاجمتهم قبل استفحال الخطر ، وفي تلك الحال يكون مضطرا الى ارسال مدد من جيوشه من أم درمان . وهذا العمل صعب وغير ميسور التنفيذ لأن احتياطي جنوده يكاد يكون محدودا ومنحصرا في تقوية مواضع الخطر من عطبرة مقابل كسلا وفي مديرية دنقلة . هذا البيان الموجز يوضح لنا ضعف قوة الخليفة ويثبت ما أشرت اليه سابقا عن عدم تمكن عبد الله من أي وقوف في وجه اعتداء خارجي ، ولا ريب أن مثل ذلك النفوذ معرض للضياع ومهدد بالتلاشي خصوصا اذا ذكرنا الى جانبه العداء الشديد الموجه من سكان البلاد الداخلية لحاكمهم عبد الله .

نعود الآن عودة سطحية الى الموقف الدرويشي في دارفور وكردوفان فنذكر قبل كل شيء أن القوة الحالية للأمير محمود لا تتعدى بضعة آلاف من حاملي البنادق والضاربين بالرماح ، وأولئك على قلتهم ليسوا في بقعة واحدة ولكنهم موزعون في مخافر الفاشر . أما محمود نفسه فيقيم في الفاشر مع القسم الأكبر من تلك القوة على أنه في مناوشات دائمة مع قبائل دار حجر ومسالت وتاما وبني حسين وحوتر وقبائل أخرى في منطقتي كبكبيه وكلكوك .

•

لم يوفق الأمير محمود توفيقا متواصلا في عمله وقد يرجع ذلك - الى حد ما - لقلة عدد المقاتلين معه أمام أعدائه الكثيرين ومهما

يكن من شيء فاني أذكر لتقرير الوقائع أن أحد كبار مساعدى محمود الحربيين واسمه فضل الله قد قتل أخيرا في معركة هجومية وهزم جنوده المحاربون معه (وعددهم ستمائة) في معركة حامية مع القبائل المعادية الثائرة . واني أذكر جيدا أن الأوامر صدرت - في الوقت الذى غادرت فيه أم درمان - الى الأمير محمود بارسال قوة لتأديب الثوار من الفاشر، والظاهر أن هذه القوة نجحت نجاحا جزئيا عوض شيئا من الخسارة السالفة الذكر التى منى بها الدراويش .

قد يحسن بى ان أذكر كلمة سطحية عن القبائل المذكورة المعادية لنفوذ المهدى فأقول : انها من الوجهة الظاهرية الصورية مستقلة أى أن استقلالها اسمى ولكنها في الواقع تدين بشيء من الطاعة الى سلطنة واداى . وأفراد القبائل المذكورة يبدون في الوقت نفسه على شيء كثير من الولاء لأصحاب النفوذ فى سلطنة واداى ، واذن من الخطأ الواضح أن يعتقد معتقد - كما شاع بين الكثيرين من الأوربيين وغيرهم في السودان وخارجه - أن أولئك الثائرين كانوا عاملين تحت قيادة رابح الزبير . لأن هذا الزعيم السودانى (رابح) شديد العداء لواداى ولن يسمح بان يكون المؤتمرون بأمره على شيء - ولو قليلا جدا - من الولاء لواداى . وعلاوة على ذلك فان نفوذ رابح هذا لا يمتد فى مسافته الى الناحية الشرقية والمعروف والمحقق أنه (نفوذه) قائم فى الأقسام الواقعة الى جنوبى وغربى بحيرة تشاد .

على تلك الحال كانت الشئون جارية فى تلك المناطق الجنوبية والغربية عندما غادرت السودان . ولم أكد أصل الى البيئة المتمدينة حتى قرأت فى الصحف تقارير وأنباء غريبة ومتناقضة فى بعض المواضع عن الحال فى الاقليم المذكورة .

تكلمت كثيرا عن احتمـــال تقلص ظل الامبراطورية المهدية وتلاشى نفوذها فى الوقت الذى تتقدم فيه دولة متمدينة الى قلب السودان ولكنى بخبرتى الواسعة فى السنين التى قضيتها فى قلب النفوذ الدرويشى أتقدم بمحض الاخلاص بكلمة تحذير الى الأمة التى قضيت الســـنين الطوال فى الاشادة بذكرها وطلب التقدم المستمر لها ، وبمعنى آخر أريد التقدم بالنصيحة الى الأمة التى دعوت لها بحياة ناهضة سعيدة ازاء تجديد عهد السودان المصرى .

انى أذكر لها فى ايجاز كلى أن المد والجزر لن ينتظرا انسانا كما انهما فى بعض الأحيان لن يتركا فرصة البقاء لانسان .

أريد فى ختام مؤلفى أن أكون أكثر صراحة فاقول ان مصر التى تطلعت وتتطلع الى استرداد ما فقدته فى السودان من يدى الخليفة قد تقف فى سبيلها أمة أخرى لا تكتفى باستخلاص المناطق من يدى الخليفة بل تعمد الى عرقلة المساعى المصرية والى ادخال وسائل الرى الهندسية فى الجهات التى تستمد منها مصر حياتها المائية وفى ذلك خطر جسيم على مصر لأن الدولة الجديدة صاحبة الوســـائل الهندسية ستنظر الى خيرها أولا فتهدد مصر تهديدا ظاهرا . واذن ــ وهذا أخف الضررين وأهون الشرين ــ ستحرم الدولة الجديدة صاحبة الحق القديم من خيرات التجارة الواسعة التى كانت ــ تحت ادارة طيبة فى السودان ــ مصدر ثراء ونهوض للقطر المصرى صاحب الحق الشرعى ولكل أقاليم النيل المنضوية تحت لواء مصر .

بهذه الكلمات القليلة الصادرة عن اخلاص شديد نحو الأمة التى عدت اليها بعد اثنى عشر عاما من سنى الأسر الشديدة على النفس ــ أتقدم فى ختام مؤلفى الى مصر ولكنى قبل الختام أشير

الى حادثة واحدة قد تساعد على رد ما فقدته مصر من حيث الأمل في الاسترداد . عندما أجبرت في شهر ديسمبر عام ١٨٨٣ على الخضوع والتسليم لرجال المهدي كنت معتزا بسيف نفيس من سيوف الوطن النمساوي وقد حفرت عليه بحروف عربية اسمي كاملا غير منقوص في تفاصيله ولكني حرمت مع الأسف حق حمل ذلك السيف وبالتالي وقع بين ايدي رجال المهدي وبطبيعة الحال لم افكر لحظة واحدة في استرداد ذلك السيف العزيز ولكني عندما ذهبت الى لندن في شهر أغسطس عام ١٨٩٥ لحضـــور المؤتمر الجغرافي تسلمت هذا السيف بواسطة المستر جون كوك أحد رؤساء شركة كوك وكان ذلك في مكتبه في لدجيست سركس . وقد ظهر لي أن المستر جون كوك اشترى ذلك السيف من وطني في الأقصر عام ١٨٩٠ عنـدما كان مارا بباخـرته في شاطيء النيل عند أسوان . فقد شغف المستر جون باقتناء الســيف لوجود الاسم العربي المحفور عليه وبعد أن تم شراؤه تمكن بواسطة صـديقي الماجور ونجت من الوقوف على صاحب الاسم المحفور وهو بطبيعة الحال اسمي .

ويخيل لي أن المهدي قدم سيفي هدية لأحد أتباعه الذين اشتركوا في الحرب على مصر تحت قيادة النجومي في عام ١٨٨٩ وأنه عندما تغلب الجنرال سر فرنسيس جرنفيل على النجومي في توسكي وقع حامل سلاحي بين المقتولين أو الأسرى وبعد ذلك أخذ أحد أفراد توسكي ذلك السلاح ثم سار به الى مصر ووجد بحكم المصادفة في الأقصر أثناء مرور المستر جون كوك الذي تمكن من ابتياعه كأثر عربي .

ان فقد السلاح في مجاهل دارفور ثم الحصول عليه في قلب لندن أمر مدهش جدا وهو فوق المصادفات العادية . واذن لا قنوط

ولا يأس فقد ترجع الأقاليم التى فقدت الى يدى صاحبها القديم رجوعا لم يكن يخطر على بال .

عشت فى خلال الأعوام الستة عشر الأخيرة عيشة مدهشة لا يكاد يتصورها العقل وقد سعيت جهدى فى أثنائها الى الحصول على اختيارات واسعة من أبسط عيشة فى أيامى العادية البعيدة عن مظاهر لها كافة .

شرحت لقرائى فى الفصول السابقة كل ما حدث لى على أبسط صورة ، ولست أرمى من وراء ذلك الى توليد الاهتمام والشعور بالخطر فى قلوب المهتمين بالاسارى الأوربيين فى السودان فحسب ، ولكنى قصدت أكثر من ذلك أن تكون لتفاصيل اهمية كبرى عندما يجد وقت العمل وعندما يبحث العاملون بحثا جديا فى خلاص المغلوبين على أمرهم ، وعندما يسمح الله باستخدام معلوماتى ومجهوداتى فى سبيل ابادة الظلم الدرويشى وازالة حكم سيدى الجائر وعدوى عبد الله الذى سيظل ألد أعدائى طول الحياة التى أحياها فى الدنيا .

بعد أن يزول ذلك العهد الجائر أدعو الى تأسيس الحكومة العادلة التى تمنيت كثيرا ظهورها فى السودان ، فبذلك يزول الظلم ويحل العدل والهدوء فى اقليم كبير محتاج الى المدنية الهادئة .

تم الكتاب

فهـــــــرس

الموضـــوع الصـــفحة

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادى عشر

الفصل الثانى عشر

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

الفصل الخامس عشر

الفصل السادس عشر

الفصل السابع عشر

الفصل الثامن عشر

الفصل التاسع عشر

صــدر فى هــذه السلسله :

١ ــ مصطفى كامل فى محكمة التاريخ •
د• عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٢ ــ على ماهــــر •
رشوان محمود جاب الله ، ١٩٨٧

٣ ــ ثورة يوليو والطبقة العاملة :
عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٨٧

٤ ــ التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة •
د• محمد نعمان جلال ، ١٩٨٧

٥ ــ غارات أوروبا على الشواطىء المصرية فى العصور الوسطى •
علية عبد السميع الجنزورى ، ١٩٨٧

٦ ــ هؤلاء الرجال من مصر ، ج ١ •
لمعى المطيعى ، ١٩٨٧

٧ ــ صــلاح الدين الأيوبى •
د• عبد المنعم ماجد ، ١٩٨٧

٨ ــ رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية •
د• على بركات ، ١٩٨٧

٩ ــ صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل •
د• محمد أنيس ، ١٩٨٧

١٠ ــ توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية •
محمود فوزى ، ١٩٨٧

١١ ـ مائة شخصية مصرية وشخصية .
شكرى القاضى ، ١٩٨٧

١٢ ـ هدى شعراوى وعصر التنوير .
د. نبيل راغب ، ١٩٨٨

١٣ ـ أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان : رؤية تاريخية .
د. عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٨ ، ط ٢ ، ١٩٩٤

١٤ ـ مصر فى عصر الولاة ، من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونيــة .
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٨

١٥ ـ المستشرقون والتاريخ الاسلامى .
د . على حسنى الخربوطلى ، ١٩٨٨

١٦ ـ فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر : دراسة عن دور الجمعية الخيرية (١٨٩٢ ـ ١٩٥٢) .
د. حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٨

١٧ ـ القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى .
د. محمد نور فرحات ، ١٩٨٨

١٨ ـ الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية .
د. على السيد محمود ، ١٩٨٨

١٩ ـ مصر القديمة وقصة توحيد القطرين .
د. أحمد محمود صابون ، ١٩٨٨

٢٠ ـ دراسـات فى وثائق ثورة ١٩١٩ : المراسـلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى .
د. محمد أنيس ، ط ٢ ، ١٩٨٨

٢١ ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ، ج ١ .
د. توفيق الطويل ، ١٩٨٨

٢٢ ـ نظرات فى تاريخ مصر ٠
جمال بدوى ، ١٩٨٨

٢٣ ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ج ٢ ، امام التصوف فى مصر : الشعرانى ٠
د٠ توفيق الطويل ، ١٩٨٨

٢٤ ـ الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ ـ ١٩٣٦) ٠
د٠ نجوى كامل ٠ ١٩٨٩

٢٥ ـ المجتمع الاســـلامى والغرب ،
تأليف : هاملتون جب وهارولد بووين ، ترجمة : د٠ أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٨٩

٢٦ ـ تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة ،
د٠ سعيد أسماعيل على ، ١٩٨٩

٢٧ ـ فتح العرب لمصر ، ج ١ ،
تأليف : ألفريد ج ٠ بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد ١٩٨٩

٢٨ ـ فتح العرب لمصر ، ج ٢ ٠
تأليف : ألفريد ج ٠ بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد ١٩٨٩

٢٩ ـ مصر فى عصر الاخشيديين ،
د٠ سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٩

٣٠ ـ الموظفون فى مصر فى عصر محمد على ،
د٠ حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٩

٣١ ـ خمسون شخصية مصرية وشخصية ،
شـــكرى القاضى ، ١٩٨٩

٣٢ ـ هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٢ ،
لمعى المطيعى ، ١٩٨٩

٣٣ ـ مصر وقضايا الجنوب الافريقى : نظرة على الاوضاع الراهنة ورؤية مستقبلية ،
د. خالد محمود الكومى ، ١٩٨٩ .

٣٤ ـ تاريخ العلاقات المصرية المغربية ، منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢ ،
د. يونان لبيب رزق ، محمد مزين ، ١٩٩٠

٣٥ ـ اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة ،
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٠

٣٦ ـ المجتمع الاسلامى والغرب ، ج ٢ ،
تاليف : هاملتون بوربن : ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٩٠

٣٧ ـ الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن ،
د. سليمان صالح ، ١٩٩٠

٣٨ ـ فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى ،
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، ١٩٩٠ .

٣٩ ـ قصة احتلال محمد على لليونان (١٨٢٤ ـ ١٨٢٧) ،
د. جميل عبيد ، ١٩٩٠

٤٠ ـ الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب فلسطين ١٩٤٨ ،
د. عبد المنعم الدسوقى الجميعى ، ١٩٩٠

٤١ ـ محمد فريد : الموقف والمأساة ، رؤية عصرية ،
د. رفعت السعيد ، ١٩٩١

٤٢ ـ تكوين مصر عبر العصور ،
محمد شفيق غربال ، ط ٢ ، ١٩٩٠

٤٣ ـ رحلة فى عقول مصريه ،
ابراهيم عبد العزيز ، ١٩٩٠

٤٤ ـ الأوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر العثمانى ،
د٠ محمد عفيفى ، ١٩٩١

٤٥ ـ الحروب الصليبيه ، ج ١ ،
تاليف : وليم الصــــورى ، ترجمــة وتقديم : د٠ حسن حبشى ، ١٩٩١

٤٦ ـ تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٣٩ ـ ١٩٥٧) ،
ترجمة : د٠ عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩١

٤٧ ـ تاريخ القضاء المصرى الحديث ،
د٠ لطيفة محمد سالم ، ١٩٩١

٤٨ ـ الفـلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الاســلامى .
د٠ زبيدة عطا ، ١٩٩١

٤٩ ـ العلاقات المصرية الاسرائيلية (١٩٤٨ ـ ١٩٧٩) ،
د٠ عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢

٥٠ ـ الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ ـ ١٩٥٤) ،
د٠ سهير اسكندر ، ١٩٩٣

٥١ ـ تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية ،
(ابحاث الندوة التى اقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقــافة ، فى ابريـل ١٩٩١) أعدهــا للنشر : د٠ عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢

٥٢ ـ مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين ، فى القرن الثامن عشر ،
د· الهام محمد على ذهنى ، ١٩٩٢

٥٣ ـ أربعة مؤرخين واربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة ،
د· محمد كمال الدين عز الدين على ، ١٩٩٢

٥٤ ـ الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى ،
د· محمد عفيفى ، ١٩٩٢

٥٥ ـ الحروب الصليبية جـ ٢ ،
تاليف : وليم الصـــورى ، ترجمة وتعليـق : د· حسن حبشى ، ١٩٩٢

٥٦ ـ المجتمع الريفى فى عصر محمد على : دراســـة عن اقليم المنوفيـة ،
د· حلمى أحمد شلبى : ١٩٩٢

٥٧ ـ مصر الاسلامية واهل الذمة ،
د· سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٩٢

٥٨ ـ احمد حلمى سجين الحرية والصحافة ،
د· ابراهيم عبد الله المسلمى ، ١٩٩٣

٥٩ ـ الراســمالية الصناعية فى مصر ، من التمصير الى التاميم (١٩٥٧ ـ ١٩٦١) ،
د· عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٩٣

٦٠ ـ المعاصرون من رواد الموسيقى العربية ،
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٣

٦١ ـ تاريخ الاسكندرية فى العصر الحديث ،
د· عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٢ ـ هؤلاء الرجال من مصر جـ ٣ ،
لمعى المطيعى ، ١٩٩٣

٦٣ - **موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر الاسلامية ،**
تاليف : د. سيدة اسماعيل كاشف ، جمال الدين سرور ، وسعيد عبد الفتاح عاشور ، أعدها للنشر : د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣ .

٦٤ - **مصر وحقوق الانسان ، بين الحقيقة والافتراء دراسة وثائقية ،**
د. محمد نعمان جلال ، ١٩٩٣

٦٥ - **موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (١٨٩٧ - ١٩١٧)**
سهام نصار ، ١٩٩٣

٦٦ - **المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى**
د. نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٣

٦٧ - **مساعى السلام العربية الاسرائيلية : الأصول التاريخية ،**
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة ، بالاشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات جامعة عين شمس ، فى ابريل ١٩٩٣) أعدها للنشر : د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٨ - **الحروب الصليبية ، ج ٣ ،**
تاليف : وليم الصورى ، ترجمة وتعليق : د. حسن حبشى ، ١٩٩٣

٦٩ - **نبوية موسى ودورها فى الحياة المصرية (١٨٨٦ - ١٩٥١)،**
د. محمد أبو الاسعاد ، ١٩٩٤

٧٠ - **اهل الذمة فى الاسلام ،**
تاليف : أ. س. ترتون ، ترجمة وتعليق : د. حسن حبشى، ط ٢ ، ١٩٩٤

٨١ ـ تاريخ السياسة والصحافة المصرية ، من هزيمة يونيو الى نصر أكتوبر ،
د. رمزى ميخائيل ، ١٩٩٥

٨٢ ـ مصر في فجر الاسلام ، من الفتح العربي الى قيام الدولة الطولونيـة ،
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٨٣ ـ مذكراتى فى نصف قرن ، ج ١ ،
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٨٤ ـ مذكراتي في نصف قرن ، ج ٢ ، القسم الأول ،
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٥

٨٥ ـ تاريخ الاذاعة المصرية : دراسة تاريخية (١٩٣٤ ـ ١٩٥٢) ،
د. حلمى أحمد شلبى ، ١٩٩٥

٨٦ ـ تاريخ التجـارة المصرية فى عصر الحرية الاقتصـــادية (١٨٤٠ ـ ١٩١٤) ،
د. أحمد الشربينى ، ١٩٩٥

٨٧ ـ مذكـرات اللورد كلين ، ج ٢ ، (١٩٣٤ ـ ١٩٤٦) ،
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة وتحقيق : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩٥

٨٨ ـ التذوق الموسيقى وتاريخ الموسيقى المصرية ،
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٥

٨٩ ـ تاريخ الموانىء المصرية فى العصر العثمانى ،
د. عبد الحميد حامد سليمان ، ١٩٩٥

٩٠ ـ معاملة غير المسلمين فى الدولة الاسلامية ،
د. نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٦

٩١ - **تاريخ مصر الحديثة والشرق الاوسط ،**
تاليف : بيتر مانســفيلد ، ترجمة : عبد الحميد فهمى الجمال ، ١٩٩٦

٩٢ - **الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ - ١٩٣٦) ج ٢ ،**
نجوى كامل ، ١٩٩٦

٩٣ - **قضايا عربية فى البرلمان المصرى (١٩٢٤ - ١٩٥٨) ،**
د. نبيه بيومى عبد الله ، ١٩٩٦

٩٤ - **الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ - ١٩٥٤) ، ج ٢ ،**
د. سهير اسكندر ، ١٩٩٦

٩٥ - **مصر وأفريقيا .. الجذور التاريخية الافريقية المعاصرة ،**
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراســات الأفريقية بجامعة القاهرة)
أعدها للنشر د. عبد العظيم رمضان

٩٦ - **عبد الناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ - ١٩٧٠) ،**
تاليف : مالكولوم كير ، ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو

٩٧ - **العربان ودورهم فى المجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ،**
د. ايمان محمد عبد المنعم عامر

٩٨ - **هيكل والسياسة الاسبوعية ،**
د. محمد سيد محمد

٩٩ - **تاريـخ الطب والصــيدلة المصرية (العصر اليونانى - الرومانى) ج ٢ ،**
د. سمير يحيى الجمال

١٠٠ ـ **موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر القديمة ،**
أ. د. عبد العزيز صـــالح ، أ. د. جمال مختـــار ،
أ. د. محمد ابراهيم بكر ، أ. د. ابراهيـــم نصـــحى ،
أ. د. فاروق القاضى ، أعدها للنشر : أ. د. عبد العظيم
رمضـــان
.
١٠١ ـ **ثورة يوليو والحقيقة الغائبة ،**
اللواء / مصطفى عبد المجيد نصـــير ، اللواء / عبد الحميد
كفافى ، اللواء/ سعد عبد الحفيظ ، السفير/ جمال منصور
١٠٢ ـ **المقطم جريدة الاحتلال البريطانى فى مصر ١٨٨٩ ـ ١٩٥٢ ،**
د. تيسير أبو عرجة
١٠٣ ـ **رؤية الجبرتى لبعض قضايا عصره ،**
د. على بركات
١٠٤ ـ **تاريخ العمال الزراعيين فى مصر (١٩١٤ ـ ١٩٥٢) ،**
د. فاطمة علم الدين عبد الواحد
١٠٥ ـ **السلطة السياسية فى مصر وقضية الديمقراطية (١٨٠٥ ـ ١٩٨٧) .**
د. أحمد فارس عبد المنعم
١٠٦ ـ **الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن ، ج ٢ ،**
د. سليمان صـــالح
١٠٧ ـ **الاصولية الاسلامية فى العصر الحديث ،**
تاليف : دليب هيرو ، ترجمـة : عبد الحميد فهمى الجمال
١٠٨ ـ **مصر للمصريين ، ج ٤ ،**
سليم خليل النقاش
١٠٩ ـ **مصر للمصريين ، ج ٥ ،**
سليم خليل النقاش

١١٠ — مصادرة الأملاك فى الدولة الاسـلامية (عصر سلاطين المماليك) ، جـ ١ ،
د. البيومى اسماعيل الشربينى

١١١ — مصادرة الأملاك فى الدولة الاسـلامية (عصر سلاطين المماليك ، جـ ٢ ،
د. البيومى اسماعيل الشربينى

١١٢ — اسماعيل باشا صدقى ،
د. محمد محمد الجوادى

١١٣ — الزبير باشا ودوره فى السودان (فى عصر الحكم المصرى) ،
د. اسماعيل عز الدين

١١٤ — دراسات اجتماعية فى تاريخ مصر ،
أحمد رشـدى صالح

١١٥ — مذكراتى فى نصف قرن ، جـ ٣ ،
أحمد شفيق باشا

١١٦ — اديب اسحق (عاشق الحرية) ،
عـلاء الدين وحيـد

١١٧ — تاريخ القضـاء فى مصر العثمانية (١٥١٧ — ١٧٩٨) ،
عبد الرازق ابراهيم عيسى

١١٨ — النظم المالية فى مصر والشـام زمن سلاطين المماليك ،
د. البيومى اسماعيل

١١٩ — النقابات فى مصر الرومانية ،
حسين محمد أحمد يوسف

١٢٠ — يوميات من التاريخ المصرى الحديث
لويس جرجس

١٢١ — معركة الجلاء ووحدة وادى النيل (١٩٤٥ ـ ١٩٥٤)
د. محمد عبد الحميد الحناوى

١٢٢ ـ مصر للمصريين جـ ٦
سليم خليل النقاش
١٢٣ ـ السيد احمد البـدوى
د. سعيد عبد الفتاح عاشور
١٢٤ ـ العلاقات المصرية الباكستانية فى نصف قرن
د. محمد نعمان جلال
١٢٥ ـ مصر للمصريين جـ ٧
سليم خليل النقاش
١٢٦ ـ مصر للمصريين جـ ٨
سليم خليل النقاش
١٢٧ ـ مقدمات الوحدة المصرية السورية (١٩٤٣ ـ ١٩٥٨)
ابراهيم محمد محمد ابراهيم
١٢٨ ـ معـــارك صـــحفية
جمـــال بــدوى
١٢٩ ـ الدين العـــام (واثـــره فى تطـــور الديـن المصرى)
(١٨٧٦ ـ ١٩٤٣)
د. يحيى محمد محمود
١٣٠ ـ تاريخ نقابات الفنانين فى مصر (١٩٨٧ ـ ١٩٩٧)
سمير فريد
١٣١ ـ الولايات المتحدة وثورة يوليو ١٩٥٢ (١٩٥٢ ـ ١٩٥٨)
تاليف جايل ماير ، ترجمة عبد الرءوف أحمد عمر
١٣٢ ـ دار المندوب السامى فى مصر ج ١ ،
د. ماجدة محمد حمود
١٣٣ ـ دار المندوب السامى فى مصر ج ٢ (١٩١٤ ـ ١٩٢٤)
د. ماجدة محمد حمود

١٣٤ ـ الحملة الفرنسية على مصر فى ضوء مخطوط عثمانى
مخطوطة « ضيا نامة » للدار ندلى
بقلم/ عزت حسن افندى الدار ندلى
ترجمة/ جمال سعيد عبد الغنى
١٣٥ ـ اليهود فى مصر المملوكية فى ضوء وثائق الجنيزة (٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ /١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م)
د. محاسن محمد الوقاد
١٣٦ ـ اوراق يوسف صديق
تقديم أ . د . عبد العظيم رمضان
١٣٧ ـ تجار التوابل فى مصر فى العصر المملوكى
د . محمد عبد الغنى الأشقر
١٣٨ ـ الاخوان المسلمون
وجذور التطرف الدينى والارهاب فى مصر ـ السيد يوسف
١٣٩ ـ موسوعة الغناء المصرى فى القرن العشرين
محمد قابيل
١٤٠ ـ سياسة مصر فى البحر الأحمر .
فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ـ طارق عبد العاطى غنيم .
١٤١ ـ وسائل الترفيه فى عصر سلاطين المماليك
لطفى احمد نصار .
١٤٢ ـ مذكراتى فى نصف قرن جـ ٤
احمد شفيق باشا .
١٤٣ ـ دبلوماسية البطالمة فى القرنين الثانى والأول ق.م.
د . منيرة محمد الهمشرى .
١٤٤ ـ كشوف مصر الافريقية
فى عهد الخديوى اسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) ـ
د. عبد العليم خلاف .

١٤٥ ـ النظام الادارى والاقتصادى فى مصر
فى عهد دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥ م) ـ
د • منيرة محمد الهمشرى •

١٤٦ ـ المرأة فى العصر المملوكى
د. أحمد عبد الرازق

١٤٧ ـ حسن البنا (متى •• كيف •• ولماذا ؟)
د. رفعت السعيد

١٤٨ ـ القديس مرقس وتاسيس كنيسة الاسكندرية
تأليف / د. سمير فوزى
ترجمة / نسيم مجلى

١٤٩ ـ العلاقات المصرية الحجازية فى القرن الثامن عشر
حسام محمد عبد المعطى

١٥٠ ـ تاريخ الموسيقى المصرية أصولها وتطورها
د • سمير يحيى الجمال

١٥١ ـ جمال الدين الأفغانى والثورة الشاملة
السيد يوسف

١٥٢ ـ الطبقات الشعبية فى القاهرة المملوكية
(٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م)
د • محاسن محمد الوقاد

١٥٣ ـ الحروب الصليبية (المقدمات السياسية)
د • علية عبد السميع الجنزورى

١٥٤ ـ هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الاسلامية فى العصور الوسطى
د· علية عبد السميع الجنزورى

١٥٥ ـ عصر محمد على ونهضة مصر فى القرن التاسع عشر ١٨٠٥ ـ ١٨٨٣
د· عبد الحميد البطريق

١٥٦ ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، الجزء الثالث فى العصر الاسلامى
د· سمير يحيى الجمال

١٥٧ ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، الجزء الرابع فى العصر الاسلامى والحديث
د· سمير يحيى الجمال

١٥٨ ـ نائب السلطنة المملوكية فى مصر (٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م)
د · محمد عبد الغنى الأشقر

١٥٩ ـ حزب الوفد (١٩٣٦ ـ ١٩٥٢ م) الجزء الأول
د· محمد فريد حشيش

١٦٠ ـ حزب الوفد (١٩٣٦ ـ ١٩٥٢ م) ج ٢
د· محمد فريد حشيش

١٦١ ـ السيف والنار فى السودان تاليف سلاطين باشا

رقم الايداع بدار الكتب ١٥٥٤٦/١٩٩٩
ISBN — 977 04 — 6516 — 6

هذا الكتاب تنبع أهميته من أنه وثيقة نادرة، وهى من أهم الوثائق التى نشرت عن الحوادث التاريخية التى جرت فى مصر والسودان فى فترة السيطرة المهدية على السودان، وقد كتبه ضابط نمساوى، هو سلاطين باشا الذى كان حاكماً لدار فور عام ١٨٨٤ واعتقلته جيوش المهدى، فادعى الإسلام، وفر إلى الجيش المصرى واشترك فى استرداد دنقلة وأم درمان، وعمل موظفاً فى خدمة حكومة السودان حتى عام ١٩١٤ حين نشبت الحرب العالمية الأولى، فترك الخدمة وعاد إلى النمسا، وعندما عقدت الهدنة سنة ١٩٤٨ أنتدب عضواً فى بعثة مؤتمر الصلح فى باريس.

٤٩٠ قرشاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب